

محمد أمين فكرى بك

إرشاد الألبَّا إلى محاسن أوروبا

(١)

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهوارى

إرشـــاد الألبّـا
إلى محاسن أورُوبّا

القسم الأول

تأليف
محمد أمين فكرى بك
قاضى محكمة استئناف مصر الأهليّة

تحرير وتقديم
دكتور أحمد إبراهيم الهوارى
أستاذ النقد الأدبى الحديث
جامعة الكويت

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة

فكرى ، محمد أمين

إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا / تأليف محمد أمين فكرى ؛ تحرير وتقديم د. أحمد إبراهيم الهوارى . - الجيزة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨

٩٠٤ صفحة ؛ ١٧ × ٢٥سم

تدمك ٨ ٢٢٦ ٣٢٢ ٩٧٧

١- أوربا - وصف ورحلات.

أ- الهوارى ، أحمد ابراهيم (مقدم)

ب- العنوان

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar -Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

الإهــداء

الى قرت القلوب حبيبة

أحمد

إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا

محمد أمين فكري «باشا»

تقديم : أحمد إبراهيم الهواري

اللافت في عنوان هذا الكتاب «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» ما يحمله العنوان في تضاعيفه من دلالة كاشفة «عن مضمون خطاب النهضة» الذي كان المؤلف حريصاً على طرح رؤيته، من خلال عرضه لـ «تجارب الأمم» التي حققت أشواطاً في طريق النهضة والتقدم. إذ تتقدم الكلمة «إرشاد» على استحياء لتوحي بتوجيه orientation من المؤلف للقارئ نحو «الخطاب المعرفي» الذي يتوجه به إلى المتلقي، بقدر ما تكشف عن رؤيته للعالم[1].

وكلمة «الإرشاد» حين تُقيّد بالألِبّاء فهي تحدد من يسعى إليهم المؤلف بخطابه. وهي من جانب آخر، تكشف عن حس ثقافي رهيف. فالرحّالة «محمد أمين فكري» حريص على أن يضفي الطابع الاجتماعي التربوي من خلال سرده لخبرته العيانية أو المباشرة. وهو هنا يؤكد أن كتابة الرحلة هي «نصف المشاهدة».

والناظر في كتاب «إرشاد الألِبّاء» يدرك «القصدية»[2] التي يهدف إليها المؤلف من خلال سرد رحلته تحقيقاً للمعنى الثاوي وراء النص. حيث مضى يَجْدل سرده على نَوْل «اليوميات» ليقدم حيثيات دفاعه عن «محاسن أوروبا» بمرجعية فقيه القانون وثقافته، حيث يمتح من مخزون الذاكرة البعيدة[3] المدى وهو يعيد تشكيل صوره البصرية. وأقف في هذا التقديم أمام بعض القضايا التي يثيرها هذا النص.

(1) أمين فكري وفكرة التمدن والتحديث

يأتي كتاب «**إرشاد الألبّاء إلى محاسن أوروبا**» بعد ظهور كتاب «رفاعة الطهطاوي (1801 - 1873م) «**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**»، ليطرح هموم عصره، وهو عصر شهد انكسار الحلم الرومانسي بالقضاء على مشروع النهضة الذي أرسى دعائمه وأقام بنيانه «محمد علي» - مؤسس مصر الحديثة - وهذا الاهتمام بـ «حاضر» مصر يعكس انشغال المثقفين بهموم بلدهم ولنتذكر أن هموم المثقف من هموم بلده، وأن كل مثقف يأتي ومعه أسئلة عصره.

وأمين فكري ممن يرون أن إقامة الجسور بين ثقافتنا والثقافة الأخرى يقتضي ولاً أن نتعمق ثقافتنا نفسها، ولن نستطيع أن نفهم ثقافتنا في أعماقها إلا إذا أمكننا أن ننظر إليها من الشاطئ الآخر، أي من منظور الثقافة الأخرى، أي ثقافة أوروبا. على حد تعبير (شكري عياد)، (الهلال، يناير 1992م).

وعلى الرغم من إشادته بمحاسن أوروبا «فهو لم يُعرض عن ذكر «محاسن الشرق» وتجارب أممه في التحديث. فقد احتفل بالتجربة اليابانية في تحديث مجتمعاتها، بدا ذلك حين وصف «معرض اليابان» حيث أشاد بانفتاح اليابان على الغرب: «. . . وهي بلد شرقية أسرعت السير في سبيل التقدم الأوروبي، فحصلت من محسناته وفوائده على ما انتفعت منه كل النفع، وأتى عليها بكل فائدة وربح». (إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا، ص 397).

إن القارئ حين يستدعي رأي «أمين فكري» حول التجربة اليابانية، فهو - بداهة - قارئ في زمن لاحق. وهو بوصفه قارئاً لا يستطيع أن ينظر إلى الماضي بما هو شيء مستقل قائم بذاته، ولا يسعه إلا أن يتأمل أيضاً موقع

هذا الماضي من الحاضر، ففكر القارئ وأدواته مستمدة من الحاضر ومن تطلعاته إلى المستقبل.. والقارئ في الزمن اللاحق للنص التراثي، إنما يدرسه بما هو نص معاصر يستحضره ويستوعبه في تلك اللحظة الراهنة. ومعنى هذا أن فعل القراءة «يجعل المقروء معاصراً لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، بالنسبة لمحيطه الخاص. وبالنسبة لنا أن نجعل المقروء معاصراً لنا، ولكن فقط على مستوى الفهم والمعقولية. وعلى هذا، فجعل «المقروء» معاصراً لنفسه معناه فصله عنا، وجعله معاصراً لنا معناه وصله بنا». (الجابري، نحن والتراث، 16).

وهكذا ينبغي أن تكون قراءتنا لنص «أمين فكري»؛ أن نجعله معاصراً لنا، موصولاً بنا.

وإذا كانت التجربة اليابانية مثالاً يحتذى في الحفاظ على «**الهوية الحضارية**» فلا بد أن نعي الدروس المستفادة من هذه التجربة، فاليابان قد انفتحت على الغرب والشرق، فأخذت الكثير من الصين في العصور القديمة، كما أخذت الكثير من أوروبا وأمريكا في العصر الحديث، وأبدعت من تلك العناصر المختلفة مركباً يابانياً أصيلاً امتازت به عن سائر شعوب الأرض.

إننا – ونحن بصدد دراسة التجربة اليابانية – لنتذكر أن أصالة اليابانيين مستمدة من تاريخهم الثقافي. ومن ثم، فلا يمكننا أن نأخذها عنهم «**حذو الحافر على الحافر**»، وإنما يجب أن نبحث عن أصالتنا نحن. وأصالتنا مختلفة لأن تاريخنا الثقافي مختلف. وإذا كنا نشعر بالضياع لأننا نوشك أن ننجرف في ثقافة الغرب دون أن نصبح جزءاً أصيلاً منه، فإن عرض

النموذج الياباني المناقض يمكن أن يوضح سلبيتنا، دون أن يشير إلى مسلك إيجابي يصلح لنا كي نبني ثقافتنا المعاصرة التي تتفق مع تراثنا... فلو أننا نجحنا في ذلك لكان نجاحنا هو الفشل بعينه، لأننا نكون قد فقدنا أنفسنا» (شكري عياد، الهلال، مارس 1995م).

وقد ظل الغرب الأوروبي لعقود طويلة ترجع إلى القرن التاسع عشر، يمثل بالنسبة لمصر وللعالم، قبلة يتوجه إليها بحثاً عن العلم والتقدم ونقل تجارب الحضارة وأسباب الرقي الفكري والاجتماعي والسياسي، إلا أن مصر حرصت على أن تدعم علاقتها مع اليابان، وتنامت هذه العلاقات خلال السنوات الأخيرة بصورة ملحوظة، زادت من اقتناع المصريين بأن الاتجاه شرقاً بات أكثر فائدة وأقل خطراً من الاعتماد الكامل على الغرب ومن الالتصاق الشديد بأمريكا وأوروبا التصاقاً يضعف من قدرة مصر على الحركة اقتصادياً وسياسياً.

إن التجربة اليابانية بكل إشعاعاتها الآسيوية، تفتح الباب للإفادة من الدروس والخبرات التي تفوق فيها النموذج الياباني، ونجح، في الوقت نفسه، في الحفاظ على الهوية القومية اليابانية والتقدم العلمي والتكنولوجي الغربي. (الأهرام، 15 مارس 1995م).

والتجربة اليابانية التي استحوذت على اهتمام المثقفين من مجايلي «أمين فكري» ومن لحق به، ممن دعا إلى الاتجاه شرقاً للإفادة من تجربة اليابان، تقاطعت مع تجربة أخرى لدى بعض المفكرين المصريين ممن رأى تقديم «تجارب الأمم» في خطوات على الأعراف، حيث يتمسك المثقف بالثابت من قيمه، وفي الوقت نفسه، يأخذ بالصالح من إنجازات الآخر. وهذا التقليد الذي غرس فِكَره الرئيسة، «رفاعة الطهطاوي» (1801 - 1873) في

«**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**» والدلالة لافتة فيما نحن بصدده - في فضاء تاريخ الفكر المصري - فقد ترجم «أحمد فتحي زغلول» «**سر تقدم الإنجليز السكسون**» لـ «ديمولان» (1889م) وقدم له بمقدمة ضافية وضع يده على علة انحطاط الأمم وسر تأخرها، وعوامل نهوضها، وعينه في كل ذلك، على واقع مجتمعه، كما كتب «محمد عمر»[4] وقد كان زميلاً لـ «أمين فكري باشا»، في المؤتمر الثامن للمستشرقين سبتمبر 1889م، (إرشاد الألبا، 765) وعضواً في الوفد الذي ترأسه «عبدالله فكري باشا» - «**حاضر المصريين أو سر تأخرهم**» وقَدَّم له أحمد فتحي زغلول بمقدمة مهمة.

وفي إطار السياق الثقافي للعصرت تأتي آراء «أمين فكري» لتتقاطع مع آراء «محمد المويلحي» (1958 - 1930م) في مقارباتها بين عادات الغرب وأخلاقه بالعادات والأخلاق الشرقية (إرشاد الألبّا، ص 450، 482، 483، 627، 781، 787)، و(المدنية في أعلى مراتبها، مصباح الشرق، 12 يوليو 1902م. كما أنهما يلتقيان عند حقيقة أن العامية لو خلصت من بعض التحريف لارتدت كلها إلى الأصل العربي «سهم خائب» (مصباح الشرق، أغسطس 1902) وقد أسهب «أمين فكري» في دفاعه عن اللغة الفصحى ضد دعاة العامية، على نحو ما يلوح للقارئ في الورقة البحثية التي تقدم بها لمؤتمر المستشرقين. (إرشاد الألبا، 725).

(2) فكرة التحديث والنظام الاقتصادي

أشاد «أمين فكري» بطبيعة النظام الاقتصادي الحر «الليبرالي» للمجتمعات الأوروبية ودوره فيما أحرزت أوروبا من تقدم، فأبدى إعجابه بالنظام المصرفي والبورصة والشركات والمنافسة الحرة. ورأى أن هذا النظام الحر وراء تقدم

المجتمعات الغربية في الزراعة والصناعة والتجارة، وسبل المواصلات والاكتشافات والاختراعات. وهو يقارن دائماً بين ما في مصر وما رآه في أوروبا، على نحو ما طالعنا المندهش العظيم «الطهطاوي» من قبل. بدا ذلك في مقارنة «أمين فكري» «. . . بين همّة هؤلاء ونشاطهم فيما يوجب ثروتهم، وبين خمول أهل بلادنا وعدم اتخاذهم الطرق التي تروج حال متاجرهم، وتعرّف الناس بها، فترغّبهم فيها، وتجذبهم إليها» (إرشاد الألبا، م. ن، 813، 814). كما بدا في دعوته للارتقاء بالصناعة الوطنية من خلال جلب تقنيتها المتقدمة من أوروبا إلى مصر (م. ن 417).

(3) أمين فكري وخطاب الاستشراق

في عرضه لمحاضرة الكونت دُه لاندبرج عن الاستشراق التي عرضها في المؤتمر الثامن للمستشرقين باستكهلم في 7 سبتمبر 1889[5]، أشار «أمين فكري» إلى ركائز المحاضرة أو أفكارها من حيث وظيفة الاستشراق التي تتمثل في البحث في تاريخ الشرق القديم، وفي دراسة تاريخ اللغات السامية، وفي تأكيد المستشرقين على أنهم لا يتكلمون في شأن الأديان وإن أشاد هؤلاء بمكانة العلم والعلماء في الإسلام، لا سيما في تعامله مع أهل الذمة (إرشاد م. ن. 667). وقوانين الحضارة تعزز ذلك. فعندما تكون الحضارة في عافيتها فهي، في أعماقها، تكون واثقة من ذاتها، لا تخشى من الانفتاح على الآخر، ومن ثم فهي تستوعب المذاهب كافة والتيارات جميعاً، لأنها روافد تغتذي منها فتزداد حيوية وثراء. ما يعني قبول الإسلام - للآخر - المختلف في الدين والعرق، واللون. فليس ثمة تفرقة عنصرية.

على أن القارئ لا يلمح مراجعة ونقداً للاستشراق لدى «أمين فكري».

ولعل ثمة «علة تاريخية» وراء هذا الموقف على نحو ما يلمس المتأمل في تاريخ الاستشراق. إذ إن التراجع والتدهور الذي شهده العالم العربي لم يكن قد وصل إلى الدرك الأسفل. وكان مشروع محمد علي في النهضة آخذاً في الأفول، ما يفسر، بالمقابل، دوافع اليقظة القوية في الشعور القومي بالتراجع وبصعوبة اللحاق بركب الغرب وردم الفجوة بين مسيرتنا ومسيرته الحضارية.

وعلى نحو ما لمسنا جاء التركيز على نقد الاستشراق المعاصر - فيما بعد بوصفه واحداً من أوجه الوعي العربي بالآخر الأكثر قوة والمتوثب نحو الشرق العربي الإسلامي من أجل فرض الهيمنة عليه ضمن منظومة اقتصادية - سياسية كونية (محمد الدعمي، الاستشراق، 26) في ظل هيمنة دول المركز على دول المحيط Centre - periphery (أحمد الهواري، شكري عياد، ص 17، ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية).

إن الحضارة الإسلامية كانت دوماً في علاقة مستمرة مع الحضارات المجاورة (اليونان والرومان، وفارس والهند) قبل الإسلام وبعده، وبدت تجلياتها الإبداعية ثمرة تفاعل بين الداخل والخارج، بين الموروث والوافد. واستمر ذلك في العصر الوسيط إبان العصور الصليبية حين كانت الحضارة الإسلامية في أوجها: يقرأ الصليبيون أنفسهم في مرآتها: التخلف في مرآة التقدم، والتعصب في مرآة التسامح، والتوحش في مرآة التحضر والتمدن. (حسن حنفي، صورة الآخر، ص ص 283، 284).

وحين ينظر «أمين فكري» إلى الغرب وما حقق من تقدم، وإلى الوطن «مصر» وما آلت إليه من تخلف، يدعو إلى الاقتداء بما فعلت الحكومات والأغنياء في أوروبا بما يعود بالخير على الوطن والمواطن. وهو في دعوته

يحرص على دعم خطابه بسند من النقل والعقل. وكأنه يريد أن يقول: إن النظام الاقتصادي الغربي ليس غريباً عن الإسلام: «. . . ويا ليت أهل بلادنا يهتمون عشر معشار هؤلاء القوم في ما يعود عليهم بالمنافع الجمّة من اشتغالهم في إصلاح أرضهم مع خصوبتها وعذوبة مياهها وكثرتها، حتى كانوا يحوذون بذلك الخير الكثير، والنفع الغزير، وليس ذلك عليهم بمستصعب، إذا حصل التعاون عليه بشركات كما تصنع أهل هذه البلاد، وهو التعاون على البر والتقوى الذي أمر به الشرع، واستحسنه العقل، وظهرت ثمراته للحس والعيان، وقام عليه واضح البرهان» (م. ن، ص 556)، كما أنه دعا إلى تنمية الاقتصاد القومي من خلال العناية بالموارد السياحية، على نحو ما شاهد في أوروبا (م. ن، ص 557).

و«أمين فكري» هنا يستدعي في ذاكرة المتلقي، الفكر الاقتصادي والاجتماعي لسلفه «الطهطاوي» حيث عقد فصلاً كاملاً، حيث تكلم عن الصناعة والتجارة وطرق المواصلات، ورأى أنها السبب الرئيس في غنى الفرنسيين. وهذا ما أكده «خير الدين التونسي» (1822 - 1890م) في أقوم المسالك، و«أحمد فارس الشدياق» (1804 - 1887م) في «كشف المخبا عن فنون أوروبا» حيث اجتمعت قلوبهم جميعاً على أن المدنية الغربية تستند في تقدمها إلى أساس اقتصادي قوامه: الصناعة والزراعة والتجارة.

من هنا نفهم مغزى الشعار الذي رفعه «الطهطاوي». «ليكن الوطن محلاً لسعادتنا المشتركة، نبنيه جميعاً بالحرية، والفكر، والمصنع».

على أنه ينبغي ألا نغفل أن ما بدا من فروق بين الرجلين، يتجاوز الفروق الفردية ليلامس طبيعة عصرين: عصر الطهطاوي، وقد كان العقل المفكر

لمشروع محمد علي في النهضة» (1805 - 1849م).

أما عصر «أمين فكري» فقد شهد إجهاض مشروع النهضة المصرية وانكسار الحلم الرومانسي لدى الأجيال اللاحقة من المثقفين المصريين. ولعل هذا يفسر كيف شكَّل الفكر السياسي والاقتصادي نقطة مركزية في عقل الرائد العظيم «رفاعة الطهطاوي». وما هكذا كان موقف «أمين فكري» إذ تراجع هذا الفكر في منظومة أفكاره اتساقاً مع ما طرأ على مجتمعه من أفكار محافظة لابست البنى الاقتصادية والسياسية للمجتمع. (حول المقارنة بين فكر الرجلين، انظر، عزت قرني، في الفكر المصري الحديث، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ص 33 وما يلي).

والناظر في أدبيات الرحلة يلمس أن كتابات أصحابها بمقدار ما كانت تكتشف تقدم (الآخر) كانت تكتشف تأخر (الأنا): (الطاهر لبيب، صورة الآخر ص 311).

وإذا كانت صورة الغربي في الحروب الصليبية آية على ما انتهى إليه من انحطاط في مقابل تقدم العربي أو المسلم وارتقائه، كذلك فإن اكتشاف أمريكا 1492 وانهيار الحكم العربي للأندلس بوصفها معلماً أساسياً من معالم سيرورة متواصلة نحو حداثة متجددة تمتد على مدى خمسة قرون. وهذه السنة المنعطف وما تلاها من القرون حملت معها للأوروبيين النهضة والتقدم والازدهار والتوسع في العالم، في حين أنها لم تشكل في الزمن العربي الإسلامي إلا بداية لانتكاسات لم تفلح الفتوحات العثمانية بعدئذ في عمق أوروبا ذاتها في لجمها والتقليل من فداحتها. (م. ن، ص 311).

وأمين فكري يضمر في الخطاب المعرفي للرحلة علة هذا التخلف الذي يعاني منه الشرق العربي والإسلامي. إننا كنا فاعلين في الحضارة الإنسانية

عندما أخذنا «العلم» عن أسلاف الغرب (اليونان)، وأن الغرب تقدم علينا عندما أخذ «العلم» عن أجدادنا العرب، وأننا لكي نستأنف مسيرتنا الحضارية، لا بد أن نتأسى سيرة الأجداد، وأن نأخذ العلم الغربي والتكنولوجيا عن الغرب. (شكري عياد، م. س، 24).

(4) إرشاد الألبا وتصوير عادات الشعوب وفنونها

في تحليله للخطاب المعرفي للرحلة أشار البروفسور A. chejne إلى ما تميز به أدبيات الرحلة من حيوية في المعلومات أو الأخبار، فضلاً عن عرضها للعلاقات الثقافية والاجتماعية بين الشعوب. ومن ثم فهي تمثل ثروة اثنوجرافية وأنثروبولوجية بما تتضمن من مادة تاريخية وتسجيل لملاحظات أصحابها وخبراتهم وانطباعاتهم، ووجهة نظرهم في عادات الشعوب وطبائعها[6].

وقد أفاض «أمين فكري» في تقديم صور من عادات الشعوب (م. ن، 450، 482، 483، 781، 787)، كما احتفل بالعمارة وطرزها «الكورنتي» (م. ن 534)، والقوطي (526)، والإنجليزي (547)، والطلياني (547)، وبتاريخ فن الرسم والتصوير (م. ن 569).

وتشغل المتاحف والكنائس وزخرفتها، والميادين وما زيّنها من صور وتماثيل، والقصور وما فيها من تحف، وأقواس النصر، والجسور والأعمدة، تشغل حيّزاً عريضاً في سرد أمين فكري لرحلته. وقد أبدى اندهاشاً سرى في نسج تصويره لحفلات الرقص والموسيقى والغناء، والباليه المائي (م. ن 777) حيث استثمر السجع في تشكيله للوحاته القلمية استثماراً بديعاً.

(5) التنوع الأسلوبي في إرشاد الألبا

أستخدم كلمة «أسلوب» هنا بالمعنى الواسع للكلمة، الذي يشير إلى طريقة الكاتب في السرد والكتابة. وهنا يلمس القارئ لكتاب «إرشاد الألبا» ما تمتع به «أمين فكري» من ملكة عالية في الوصف، والاحتفال بالتفاصيل، وإدراك المفارقات، وتنوع لغة الخطاب في سرد الرحلة؛ ما بين حضور المؤلف، والمراوحة بين الذاتية والموضوعية في حديثه بحيث يستحيل السرد إلى لوحات بصرية، وتلك ثمرة ثقافة البصر (م. ن 410، 418)، وبين إقامة حوار مباشر بينه وبين القارئ حيث ينقل إليه خبرته العيانية، كاشفاً عن قدرة رهيفة على التشخيص لما أبصر ووعى من مشاهد داعياً إياه إلى مشاركته في المتعة وكأنه يؤكد لقارئه: ما كذب الفؤاد ما رأى. (418، 422، 423).

والناظر في «متن إرشاد الألبا» يلمس تطوراً لافتاً في أسلوب الكتابة عند «أمين فكري»، لاسيما حين نقارن بين أسلوبه وأسلوب أبيه، وفي كتابه «إرشاد الألبا» صفحات صريحة النسب للأب.

ويتراوح أسلوب «أمين فكري» بين مستويين من مستويات التعبير – وهو يعكف على نسج بردة النص، في جديلة من (الخاص) و(العام) – إذ إنه حين ينزع نحو استمالة القارئ لما انفعل به هو، يلجأ إلى استهوائه بتقديمه لوحات قلمية تنضح بالمحسنات البديعية. وفي هذا المستوى من الخطاب تبدو في أمامية المشهد مهارة الكاتب الصَناع الذي يجيد حرفته. وهذه اللوحات القلمية بذخيرتها البديعية اللغوية، وفي مرجعيتها الجمالية تأتي صدى لقيم الشعرية البصرية التي هي قوام الفنون الإسلامية الزخرفية (ثروت عكاشة، معجم المصطلحات الثقافية) ممثلة في المنمنمة «miniature» (291) والفسيفساء mosaic (306)، والرقش arapesque (22).

والمستوى الثاني حين يخاطب عقل المتلقي يأتي الأسلوب حافلاً بالخطاب الإقناعي عارياً من المحسنات البديعية. هنا يلتقي زخرف القول وزخرف البصر في توازن لا يبغيان.

والمتأمل في بناء النص يلمس المرجعية الثقافية العريضة التي يتكئ عليها «أمين فكري» في هذا الصرح الممرد، بما يوحي أن في أعماقه يسكن ناقد تشكيلي.

ولا يبخل «أمين فكري» في توظيفه للمحسنات البديعية بِقَدر، لا سيما في المستوى الأسلوبي الأول من التعبير. وآتي هنا بأمثلة دالة فقط. فهو أحياناً يستخدم «التضمين» حيث يَجْدل الأسلوب بمفردات قرآنية: «بعد أن بلغت الروح الحلقوم»، (م. ن 827) هنا كانت عينه على الآية القرآنية: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: 83] من نحو «. . . فشغفته حباً بلاد الشرق» (م. ن 664) حيث يَجْدل المشهد بمرجعية من القرآن الكريم ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30]، ومن نحو المشهد الآتي: «فانبس وصار هباء منبثاً» (م. ن، 114) من الآية القرآنية: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: 5 – 6]، وكما في المشهد الآتي: «حتى بلغت هذا المبلغ من انتظام الطرق واتساع الشوارع، وإتقان العمارات مع ارتفاعها وزخرفها وزينتها» (م. ن 832) من الآية القرآنية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: 24]. وفي المشهد الآتي: «فتراهم بجانبي هذا الطريق مصطفين كأنهم بنيان مرصوص» (م. ن 693) من الآية القرآنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

وقوله: «. . . بخلاف ما لو تركنا الطريقة العربية في النطق، والمكاتبة والتأليف كلياً وهجرناها ملياً» (م. ن 735) تضمين قرآني: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: 46].

وهو يعتمد في تصويره لمشهد الباليه المائي على السجع على نحو يتراءى أمامنا حافلاً بالحركة والحياة: «وتالله إنّ آخر منظر لا يخرج لي عن بال، ولا يعزب عني بحال، أن عاينت نحو الخمسين من ربّات الجمال شكّلن ثلاث دوائر وسط الماءِ في غاية الانتظام، كل واحدة منها بداخل الأخرى بحيث إنّ كل شابّةٍ ممسكة بيديها رجلي الأخرى، والجميع وجوههن إلى السماء، وظهورهن إلى الماءِ، ساكنات لا يُبدين حراكاً من أنفسهنّ، وإنما يتحركن بحركة الماء من غير أن يتغير لهنّ وضع، وترى شعورهنّ الذهبية تتقلب من خفض إلى رفع.

فوا أسفاه على قلة الاتساع في صناعة الشعر وقصر الباع في الإنشاء والنثر، فإنّ هذا أمر لو استوفاه من رآه، ووفاه حقهُ من يهواهُ، لأبدع وأجاد، وأتى بما يعرب عن المراد، فهذه الوجوه النضرة، والماء والخضرة، والجموع المتحابة، والهواء المعتدل وصفاء الوقت ممّا يشرح الصدور، ويستوجب مزيد الحبور.

وكان الجميع محدقين بالأبصار إلى هذه المرائي الحسنة، والأشكال المستحسنة، تبدو عليهم علامات الاستغراب والاستحسان، منذهلين مما يرَوْنَه، حتى إنهم لم يشعروا بالليل وغشيانه، والظلام وإتيانه، إلا بعد انتهاء السباحة، فكان ما استولى على كاتب هذه الأحرف من الانبهات قد استولى على جميع المتفرجين والمتفرجات. وتلك نماذج من توظيف

«أمين فكري» للمحسنات البديعية مصوراً بها رؤيته الجمالية للواقع. وهذا التعامل الراقي مع المحسنات البديعية، بما هي وعاء للتجربة الجمالية للفنان أو الكاتب تطرح النظرة النقدية التي تدين استخدام المحسنات البديعية، دون أن تضع طبيعة العصر ومزاجه وأسلوبه، ووضع الكاتب داخل إطار تلك الصورة[7]، وكما يرى «العقاد» - بحق - «لا نريد ظلم السجع أو نغلو في إنكاره كأنه مكروه لذاته، أو كأنما لا موضع له من الكتابة يحلو فيه ويستساغ مذاقه، فحكم السجع في المنثور كحكم القافية والوزن في المنظوم، وجماله هنا كجماله هنا، بلا خلاف، وإنما يقبح السجع حيث يلتزم التزاماً يُذهب بصدق المعنى، ويثقل الكلام بقيود التكلف وزخارف التلفيق، فإذا سلم من هذا فهو حلية مستحبة قد تتفق للكاتب اتفاقاً، وقد يقصد إليها قصداً، وهي على الحالين ليست مما يُعاب، إن لم تكن من الزينة المرضية للذوق المقبول» (البلاغ الأسبوعي، العدد 66، 24/12/1928، ص 12 وانظر: أحمد إبراهيم الهواري، نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام، القاهرة، دار عين 2002م، ص 205). (م. ن؛ 712) وهو يعتمد في مرجعيته على التضمين من الاستعارة قول القائل:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطحُ

في تصويره لشخصية مندوب جلالة السلطان المعظم «عبدالحميد الثاني». «... وقد تفرس فينا إننا مندوبو مصر، وتفرّسنا فيه لهيئته أنه مندوب جلالة سلطاننا المعظم، وعرف كل منا صاحبه، وإذا هو العالم الفاضل المحرر الشهير صاحب السعادة أحمد مدحت أفندي، رئيس تحرير جريدة «ترجمان حقيقت»، وصاحب التآليف المشهورة، فأعدنا

المصاحفة، وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا» (م. ن: 633). ويأتي بألوان من الجناس من نحو: «العصمة من الوصمة (م. ت: 103)، (البهجة، المهجة (م. ن: 841)، وتجديد (دارس الدروس والمدارس وإنشاء المعامل والمصانع) (م. ن 806).

«يموجون في هذه القاعات» ومن الاستعارة (م. ن 651) من الآية القرآنية: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99].

والصورة الاستعارية تتجلى في «. . . وينتقلون من قاعة إلى أخرى، ومن محل إلى آخر وكأس حديثهم دائر بينهم مع كونهم وافدين من أطراف الدنيا مشرقها ومغربها جنوبها وشمالها» (م. ت 651).

وهو في المشاهد السردية جميعاً يستثير مخيلة القارئ ووجدانه فينشط في تخييل المشاهد/ اللوحات القلمية المسرودة - وهي تمثل بالنسبة للمتلقي نصف المشاهدة - فينطلق من الخيال المقيد بما رأى المؤلف/ وما قرأ هو المتلقي - إلى الخيال المطلق مستعيناً بالمرجعية الثقافية التي أشرت إليها.

(6) أمين فكري بين اللغة العربية الفصحى والعامية. .

وفي خطوة نحو إرساء تقاليد لغة الفنون السردية جاءت تجربة الكتابة عند «أمين فكري» وقد تميزت بمحاولته تطويع لغة الخطاب العام حين يتوجه بكتاب «إرشاد الألبا» إلى المثقف العام أو القارئ العام، على نحو ما بدا في الورقة البحثية التي تقدم بها لمؤتمر المستشرقين.

ويلوح للناظر في لغة سرديات الرحلة في القرن التاسع عشر أصداء النظرية التي تعالج اللغة بما هي نتاج مُميِّز لروح الأمة (نظرية همبولت في اللغة). وقد عكس هذا رؤيتهم للعالم من خلال نظرتهم للغة وتجلياتها في

التعبير. (مليكا ايفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد عبدالعزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، 1966، ص 66)، وروبنز، ر. هـ، موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، 1997، ص 84). بما يميط اللثام عن رؤية خاصة للعالم، فالقارئ في أدبيات الرحلة في ذلك القرن، على نحو ما في «تخليص الإبريز» للطهطاوي، أو «كشف المخبأ عن فنون أوروبا»، و«الواسطة في معرفة أحوال مالطة» للشدياق، أو «أمين فكري» في «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» يلمس الدور المركزي التي تلعبه اللغة تجسيداً لروح الأمة حفاظاً على الوطن والهوية القومية.

في الورقة البحثية التي طرحها في مؤتمر المستشرقين اعتمد «أمين فكري» لغة الخطاب الإقناعي. ومن ثم توارت لغة المحسنات البديعية التي تخاطب المشاعر والأحاسيس وتستثير الخيال؛ لتبدو في أمامية المشهد لغة العقل والخطاب الإقناعي، والاعتماد على الحجاج أداة إجرائية لدحض آراء المستشرقين من دعاة العامية. وهو يستهل بحثه بعرض رأي من يرى «... أن اللغة العربية المستعملة للتخاطب اليوم في البلاد التي يُتكلم فيها باللسان العربي، قد صارت في غاية البعد عن اللغة العربية الفصيحة الأصلية، حتى صح أن تعد كل منها لغة مستقلة عن الأخرى، بحيث لو فرض أنه أتى إلى جهة يتكلم أهلها باللغة المستعملة الآن كمصر وسورية من لا يعرف إلا الفصحى لم يكن أن يفهموا منه أو يفهم منهم إلا بعد طول المعاشرة والمخالطة» (م. ن: 723). وجملة ما قاله هؤلاء المستشرقون: «إن الأمة العربية إذا بقيت علومها وآدابها مختزنة في العبارات الفصيحة، كانت كأنها في لغة أخرى غير العربية». ولا يصل آحاد الأمة إلى حاجته من ذلك، إلا بعد أن يعرف الجزء الأهم من عمره

في تحصيل اللغة، فلو أن العلوم نُقلت إلى اللغة العامية، وهي لغة الأب والأم وجميع الخلطاء يتعلمها الصبي كما يتعلم المشي والأكل والشرب، لكان عنده من فضل الزمن ما يصرفه في تحصيل تلك العلوم، وهو في أوائل الصبا، وكان الزمن الذي يستغرقه في تعلم اللغة الفصيحة محفوظاً للتوسع في العلوم والآداب، وبذلك يسهل تعميم الفنون اللازمة لحاجات الأمة، وبثها في أنفس جميع آحادها بدون استثناء، فإن أغفلت هذه الوسيلة لم يوجد سبيل لتصميم الفنون، ولا لتحسين التربية العامة» (م. ن: 725).

ويختلف «أمين فكري» مع رأي هؤلاء المستشرقين من وجوه:

الأول: إن ما يجدونه من الصعوبة في اختصاص اللغة الفصيحة بالعلوم والفنون، واستئثارها بالكتابة، سيجدونه في نقل العلوم إلى اللغة العامية، التي تختلف باختلاف الأقطار والبلاد.

ويقدم مقترحاً للتقريب بين العامية والفصحى يقوم على الاقتصار - في الكتب الصناعية والفنية التي يحتاج إليها عامة الناس - «على الموافق للاستعمال الحالي والقريب إليه من العربي الصحيح، وتركنا الغريب والبعيد عن المستعمل السهل الأمر، كأن نستعمل في تلك الكلمات بدل لفظ «اللُّجَين» مثلاً لفظة «الفِضّة» بمعناه، فإن الثاني مع كونه لفظاً صحيحاً فصيحاً في هذا المعنى هو كما تراه قريب من اللفظ العامي المستعمل، لا فرق بينهما إلا كسر الفاء في الصحيح، وفتحها في العامي، فلهذا يفهمه العامي وغيره، بخلاف الأول. ولذا ندعه، ونستعمل الثاني. . .» (م. ن: 736).

الوجه الثاني: أن اللغة العامية لم تبلغ مبلغ لغة ثابتة في موادها، ولا في

هيئات تراكيبها حتى يعوّل عليها، وتوضع فيها العلوم والآداب، وإنما هي تحريف لغة أخرى.

الوجه الثالث: أن اللغة العامية جملة مواد اختزلت من اللغة الفصيحة، وأضيف إليها بعض ألفاظ أجنبية. فهي لغة قاصرة، ولا سعة فيها للعلوم ولا للشرائع ولا للآداب ولا للسياسة، فكيف يمكن الاستغناء بها عن اللغة الفصيحة.

ويبسط حبل الجدال فيرى «أن اللغة العامية خصوصاً في مصر وسورية وجزيرة العرب والعراق وتونس وطرابلس الغرب، لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغة مستقلة، فإن المواد هي المواد الأصلية بعينها إلا ما زاد عليها، وهو قليل لا يلتفت إليه في تكوين لغة وهيئات التراكيب، ترجع إلى الهيئات المعروفة في تركيب الكلام العربي غير أنه قد عرض على المفردات تحريف وتغيير بنقص، أو زيادة لم يخف بها أصل اللفظ، بحيث لو جُرِّد اللفظ من الزيادة، أو كمل من النقص، أو صحح من التحريف لم يستبهم معناه على العامي، فإن العامي الذي يضع «اللي» مكان «الذي والتي» فيقول: «اللي يفعل الخير بينول ثوابه» لو قيل له بدل هذه العبارة: «الذي يفعل الخير ينال ثوابه» لفهمه كما يفهم لفظه العامي...

ويضرب مثلاً آخر: «... لفظ هِنا بكسر الهاءِ لا تختلف عن هُنا بضمها إلّا بالحركة، ولا ينقلب معناها عند العامي لو نطقت فصيحة، وهذا هو الشأن في جميع الألفاظ المفردة وعلى نحوه يكون الخطأ في التراكيب، فإن الذي يفهمه «الراجل جه»، يفهم «جاء الرجل»، والذي يفهم «ما عليهش» يفهم «ما عليه شيء»، والذي يفهم «إيه ده» أو «شوهاد» من مصري أو سوري، يفهم «ما

هذا» و«أي شيء هذا»، وما شابه ذلك من الاستعمال الفصيح... فالتحريف وفساد التركيب لم يذهب بالعامة عن فهم صحيح بالمرة، بل هم يفهمون منه ما اتفق مع ألفاظهم في المادة، وإنما يُعَمَّى عليهم فهم الغريب» (م. ن: 745).

وهو يرى أن انتشار التعليم يسهم في انحسار مسافة المعرفة بالعربية الفصيحة (م. ن: 747) ويخلص في آخر حديثه عن الفصحى والعامية إلى أن «... اللغة العربية الفصيحة، هي سبيل تقدم العرب في جميع أحوالهم، فإن انبعث الناصر لها إلى العمل من وجهه، أشرقت على العرب أنوار العرفان من مطالع لغتهم الشريفة، وأضاء عليهم من سناها ما أضاء على أمم العالم أجمعين عدة قرون» (750 - 751).

* * *

خطا «أمين فكري» خطوة مهمة في تقريب المسافة بين العامية والفصحى، إذا التقط الكلمات الفصيحة، والمأنوسة التي تقرب من ضفاف العامية، فأعاد إليها الروح والنضارة من خلال الاستعمال، مثل «طنطنت»(8) (م. ن 79)، و«ولّيه» (م. ن: 99)، و«فرطحة» (م. ن: 197)، و«الورطة» (م. ن: 200)، و«تسلطن» (م. ن: 121). وهي جميعاً فصيحة لكنها بقيت في رحاب الحس الشعبي المضياف. وهي كلمات لا غنى عن استعمالها لإضفاء الواقعية ولإشباع المشهد بدسم الواقع.

خطوة أخرى مهمة يلحظها الناظر في «إرشاد الألبا» حين قام «أمين فكري» بترجمة مصطلحات الحضارة بأن يضع المقابل العربي للكلمة الإفرنجية المكتوبة بحروف عربية، من نحو: «السراي الملوكية» (باليه رويال) «م. ن: 275»، «بساج» (مجاز) «م. ن: 162»، «المدرسة

المركزية» (إيكول سانترال)، «م. ن: 126»، «دوم سانترال» (القبة المركزية) «م. ن: 136»، «الأشكال المتعلقة بالعمارات» (أرشتيكتور) «م.ن: 329»، «هال سانترال» السوق المركزية «م. ن: 276»، الصُّدره (كورسيه) «م. ن: 391»، التدبير الاجتماعي (إيكونومي سوسيال) «م. ن: 383»، (استامب) «المرسومات» «م. ن: 462».

وتلك خطوة مهدت الطريق لمن جاء بعده من المبدعين، على نحو ما طالعنا «المويلحي» في حديث عيسى بن هشام» (انظر: نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام» دار عين، 2002م، (ص 135، 187 وما يلي).

* * *

وما سبق إضاءة حول بعض القضايا التي عالجها كتاب «**إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا**». وما أود أن أختم به هذا التقديم أن أشير إلى مقولة شكري عياد حين أكد أهمية أن نضع النص المحقق في سياق عصره، وثقافة هذا العصر. فـ «إحياء التراث يعني فهمه، وليس التحقيق والنشر إلا مقدمة للفهم، بل إن الفهم نفسه غير كاف للإحياء. ففهم النصوص القديمة في ضوء علاقتها القديمة يمكن أن يبعث فيها الحياة للحظات، ولكنها لا تلبث أن تموت إذا لم تستطع أن تتنفس هذا الحاضر. أو بتعبير بعيد عن المجاز، لا قيمة للتراث إلا إذا فهمناه في ضوء ثقافة العصر بحيث يصبح جزءاً من ثقافة، هذا العصر (على هامش النقد). وبهذا الجهد يلتحم حاضرنا بماضينا، ويعيش ماضينا في حاضرنا، ككل أمة حية، في سيرورة معرفية تنعش الذاكرة، فإذا بالآداب القديمة تحيا في الآداب الحديثة.

من أجل هذا حرصت على أن أُقَدِّم للقارئ هذا النص الذي يقع في عين العاصفة، حيث تناوحت الريح، وهي تشتجر، بين دعاة حوار الحضارات،

ودعاة صراع الحضارات، ليؤكد أن التراث هو مَعين ذاكرة المستقبل. ومن ثم يأتي هذا النص وثيقة نادرة لمن ينشد البحث في ماضي هذا الحوار أو الصراع ومدى حضور الماضي.

هوامش وتعليقات

* محمد أمين فكري باشا بن عبدالله فكري باشا، ولد في القاهرة (1856م)، درس القانون في فرنسا، وعُيِّن قاضياً بمحكمة الاستئناف الأهلية، فمحافظاً للإسكندرية، فناظراً للدائرة السنية.

من مؤلفاته: «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» و«جغرافية مصر»، و«الآثار الفكرية» جمع فيه ما لأبيه من نظم ونثر» توفي عام (1899م) «الزركلي: الأعلام».

1 – ورؤية العالم تعني – فيما تعني – رؤية الذات لما عداها. فالرحالة يتعرف إلى موقف أو نظرة الإنسان، كما يتمثل ذلك لدى عدد كبير ممن يلتقي بهم أو يخالطهم، أولئك الذين ينتمون إلى شرائح اجتماعية واقتصادية وثقافية وعُمريّة مختلفة، يتعرف إلى العالم الذي يعيشون فيه بكل ما يدخل في تكوينه من ظواهر طبيعية أو فيزيقية، ومن كائنات ومخلوقات وقوى ملموسة مرئية وغير مرئية، ومن نظم اجتماعية وأنشطة وإبداعات ثقافية. كذلك، النظرة إلى الآخرين، سواء أكان هؤلاء «الآخرون» هم أفراد المجتمع المحلي الذي يعيش فيه الفرد وينتمي إليه، أو الذين ينتمون إلى مجتمعات أخرى مختلفة. وكذلك موقفه من الثقافات الأخرى سواء أكانت هي ثقافات معاصرة ولكنها توجد في مجتمعات أخرى غريبة، أو ثقافات قديمة قامت في عصور سابقة ومراحل تايخية مختلفة في المجتمع، ولكنها لا تزال تؤلف جزءاً من التراث الثقافي لهذا المجتمع.

وإذا كانت رؤية العالم تمثل مبحثاً من المباحث الرئيسة لدى علماء الأنثروبولوجيا، فإن أدب الرحلة يمثل ذاكرة الكتابة الكاشفة عن رؤية صاحبها للعالم. (المجلة الاجتماعية القومية، المجلد السابع والعشرون، يناير 1990م، ص 5 – 7).

2 – إن الرحلة، بما هي تجربة أدبية، تعتمد مفهوم القصدية intentionality ملمحاً مركزياً في خطابها للمتلقي. ومن ثم، فأدبيات الرحلة ترتكز في مرجعيتها الفلسفية على بُعد ظاهراتي يتراءى في أنها تبدأ من الخبرة المباشرة بالعالم وبالأشياء.. من معنى أو

ماهية الأشياء كما تبدو في خبرتي «أنا» الرحّالة، وليس باعتبارها وقائع مستقلة عني. . .

فجوهر القصدية، لدى الرحّالة، هو الذي يُفرِّق بين الرحلة وأدبياتها وبين الرحلة بقصد السياحة. فالرحّالة هنا، حين يصدر عن فكرة القصدية، وحين يوجه خطابه المعرفي لقارئ حاضر حضوراً ذهنياً في مخيلته، يلتقي - في التحليل الفلسفي - مع الفينومولوجيا، في محاولتها تحقيق اتصالنا بالعالم الخارجي، وإقامة جسر يربط بيننا وبين العالم. فالذات ليست منفصلة عن العالم.

انظر «مان، ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة سعد مصلوح، عادل الهواري، الكويت، مكتبة الفلاح.

3 - الإدراك عملية معرفية تُمكّن الأفراد من فهم العالم الخارجي المحيط بهم. . . وهو بمثابة عملية تجميع الانطباعات الحسية المختلفة عن العالم الخارجي وتفسيرها وتنظيمها في تمثيلات عقلية معينة ليتم تشكيل خبرات منها تخزن في الذاكرة، بحيث تشكل نقطة مرجعية للسلوك أو النشاط يتم اللجوء إليها خلال عمليات التفاعل مع العالم الخارجي. (الزغلول، علم النفس المعرفي، 111).

وإن الانتباه أو التركيز attention على المعلومات المسجلة حسياً هو الذي يقرر انتقالها إلى خزان الذاكرة قصيرة المدى (الأولية). كما أن الإعادة أو التكرار rehearsal هو الذي يحدد انتقالها إلى خزان الذاكرة طويلة المدى (الثانوية). (محمد قاسم عبدالله، سيكولوجية الذاكرة، ص 34).

4 - ذكر د. أحمد زكريا الشلق: «. . . وينسب البعض إلى أحمد فتحي زغلول ذاته تأليف هذا الكتاب [حاضر المصريين أو سر تأخرهم]، ويعتبر أن محمد عمر هذا شخصية وهمية لا وجود لها، على اعتبار أنه لم يُعرف ضِمْنَ كُتّاب العصر ولم يترك أثراً آخر يدل عليه أو يُعرف به» أحمد فتحي زغلول والآثار الفتحية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إصدارات خاصة، ص 52. وقد أشار د. أحمد زكريا إلى أن «صاحب نسبة الكتاب إلى فتحي زغلول هو المرحوم الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف الكاتب بصحيفة الأخبار، يوميات الأخبار في 8 من سبتمبر 1982م». م. ن: ص 82.

والواقع أن «محمد عمر» شخصية حقيقية، وكان عضوراً في مؤتمر المستشرقين الذي ترأسه «عبدالله فكري باشا» وقدم بحثاً في المؤتمر، حظي بإعجاب الحاضرين. «أمين

فكري»، «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» م. س، ص.

5 – ذكر محمد أمين فكري تواريخ مؤتمرات الاستشراق ومحلات اجتماعها:
- المؤتمر الأول بباريس سنة 1873م.
- المؤتمر الثاني بلندن سنة 1874م.
- المؤتمر الثالث بسان بطرسبورغ سنة 1876م.
- المؤتمر الرابع بفلورانسه سنة 1878م.
- المؤتمر الخامس ببرلين سنة 1881م.
- المؤتمر السادس بلندن سنة 1883م.
- المؤتمر السابع بويانه سنة 1886م.
- المؤتمر الثامن بأستكهلم سنة 1889م.
«إرشاد الألبا، 10، 692، 765».

6 – See: Zolondek, L'Altahtawi & political freedom, the muslem world, 54 (1964) P. 91 - 97.

7 – يرى د. محمد عابد الجابري أن المحسنات البديعية بمختلف أنواعها، «تقوم بمهمة إيبستمولوجية، هي تعويض الفراغ وإخفاء التناقض على صعيد المعنى».
إن النغمة الموسيقية المرافقة للخطاب المسجوع توجه السامع إلى نظام الكلمات وتصرفه بالتالي عن نظام الأفكار مما يجعله في حالة إغفاء عقلي تسمح لـ «المعنى» – إذا كان ثمة معنى – بالانسياب إلى لا وعيه بدون رقابة عقلية، فيقبله بدون نقاش... أما إذا ترك المتكلم الحرية للألفاظ تنساب على لسانه وقيمه وكان متدرباً على إقامة روابط موسيقية جرسية بينها، أي قادراً على توظيف «المحسنات اللفظية» بمهارة وإتقان، فإن كلامه حينئذ يحمل فائضاً من الألفاظ، ولكن بصورة توهم بأن وراء كل لفظ معنى، مما يغطي... على فقر المعنى وتناقض الأفكار».
أما إذا هو استطاع تحقيق نوع من التوازن بين «فائض اللفظ» و«فائض المعنى» فإنه سيكون قد بلغ المرتبة العليا من الكلام... واضح أن تحقيق هذا التوازن لا يعني تجنب التناقض على صعيد الفكر بل بالعكس فهو لا يتم إلا على حساب الرقابة العقلية» بيروت، ط. السابعة، تشرين الثاني/ نوفمبر 2004م، ص 108.

* إشارة: ميزت بين تعليقات المؤلف وتعليقاتي بكلمة «المحرر».

المراجـع

1 - أحمد إبراهيم الهواري: شكري عياد، جسور ومقاربات ثقافية، القاهرة، دار عين، 1995م.

2 - ثروت عكاشة: المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، القاهرة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان سنة 1990م.

3 - روبنز، ر. هـ. موجز تاريخ العلم، ترجمة أحمد عوض، الكويت، عالم المعرفة، نوفمبر 1997م، ص 284، 285.

4 - شكري عياد: نحن والغرب، القاهرة، كتاب الهلال، سبتمبر 1990م.

5 - الطاهر لبيب (تحرير): صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية - الجمعية العربية لعلم الاجتماع - بيروت، أغسطس 1999م.

6 - عزت قرني: في الفكر المصري الحديث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م.

7 - محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الثانية، بيروت حزيران/ يونيو 2000م.

8 - محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ط. السابعة، بيروت، تشرين/ نوفمبر 2004م.

9 - محمد عابد الجابري: نحن والتراث، ط. الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، أيار/ مايو 2006م.

10 - محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الثانية، بيروت، كانون الثاني/ يناير 2003م.

11 - ميلكا افيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح، وفاء كامل، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 1996م، ص 66.

12 - نازك سابايارد: الرحالة العرب، بيروت، مؤسسة نوفل، 1979م.

13 - Robin ostle edde moor & stefan wild (eds: writing the self, saqi Books, 1998).

إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا

تأليف

محمد امين فكري بك
قاضي محكمة استئناف مصر الاهلية

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٩٢

صورة غلاف الطبعة الأولى عام ١٨٩٢م

لسدَّة صاحب المقام الأسْمى والجناب الفخيم الأسْنى
أفندينا خديو مصر عباس الثاني المعظم
أيَّدهُ الله

مولاي،

أعلى الله قدرك، وخلَّد بين العظماءِ ذكرك، وأعزَّ مصر بأحكامك، وأقرَّ عينها بطول أيامك. إني كنت من أعضاءِ الوفد المصري المنتدب من قبل الحكومة الخديويَّة للحضور في مؤتمر المستشرقين الثامن الذي تقرَّر انعقادهُ باستكهلم وكرستيانيا عاصِمتي السويد والنِروِيج في سنة 1889.

وبمناسبة السفر إلى هذا المؤتمر، والعودة منهُ، وفي أثنائهِ مررتُ بعواصم أوروبا الشهيرة، وكان مروري بپاريس أوان المعرض الذي أُقيم بها في تلك السنة.

فكتبت بعض ما رأيتُ بالبلاد الَّتي شاهدتها، قاصداً بذلك وقوف أبناء وطني على ما يستوقف النظر من محاسنها، وعلى ما صرفهُ أهلها من الهمة والاعتناءِ بشؤُونها، حتى وصلت من الثروة والرفاهية إلى ما وصلت إليه، فإن معرفة أحوال الأُمم وما هُم عليهِ من الحضارة والتقدم والعمران والتمدّن أدعى إلى اقتداءِ آثارهم، طلباً للإصلاح، ورغبةً في النجاح.

وها هو يا مولاي كتاب رحلتي مفتتحاً باسمك، محلًى بجلى وصفك،

فامنحهُ نظرة يعلو بها قدرهُ، ويعظم بها فخرهُ، وأَنلهُ من لدنك قبولاً يكسوهُ هو ومؤلّفهُ حلل البهاءِ والمجد، ويجعل التأليف لخدمة الوطن والمعارف وسيلة إلى كسب رضائك، وطريقاً يتسابق فيهِ أولو الهمم والغيرة تحت ظل لوائك.

عبدكم

أمين فكري

تحريراً بمحروسة مصر في 16 مارث سنة 1892م.

تحرير هذه الرحلة

كان العزم أن يكتب سيدي الوالد هذه الرحلة بعد العودة من سفرهِ كما عقد النيَّة على ذلك في أثنائهِ، وألمع إليهِ في كتابٍ حرَّرهُ من لُوسِرْنْ إلى عزيزهِ صاحب السعادة علي مبارك باشا، وكنت أخذت أثناءَ السفر معهُ لإعانتهِ على هذا الغرض في تحرير بعض مذكّرات مختصرة فيما رأَيناهُ يستحق الذكر أثناء هذه المأموريَّة؛ لتكون شبيهة بفهرست كتاب تُبوّب بواسطتهِ الأبواب، وتوسّع مطالبهُ للطلّاب، ويسهل عليهِ فيما بعد بواسطتها مراجعة الكتب الّتي يرومها في المواضيع المراد ذكرها والتنقير عنها في مظّناتها.

وبمجرّد العودة إلى هنا أخذ سيدي العزيز مع جمع المواد في ترتيب كتبهِ في المكتبة الّتي هي فيها الآن ليسهل عليهِ مراجعتها، ثم أراد أن يكمل نظام أرضنا بتل حوين وأن يتم أمر إدارتها لزيادة التفرُّغ لهذا العمل ولغيرهِ من الأعمال التأليفيَّة، فتوجه إليها، وبقي بها مدة اعتراهُ في أثنائها أول نوبة من نوبات المرض، إلّا أنها لم يطل أمرها، بل انصرفت عنه في يوم واحد أو أقل منهُ بدون استعمال معالجة تذكر.

وحضر لمصر بعد هذه المرة، واستشار طبيبهُ فنصحهُ بعدم إتعاب الفكر، وترك الإكثار من المطالعة، فامتثل أمرهُ، ووقف سير الاشتغال بالرحلة وبغيرها لهذا السبب.

وأخذت صحتهُ تتحسن وتتقوى مستمرًّا على تقليل المطالعة، آخذاً في

أسباب العود إلى تمام العافية إلى أن طرأ طارئ لبعض أخصّائهِ استوجب زيادة اشتغال فكرهِ، واستلزم شدة تأثرهِ فعاودهُ المرض بشدة أكثر من الأوّل، ولكن الله سَلَّم في هذه النوبة أيضاً باستعمال الوسائط القويَّة، والاستمرار على العلاجات اللازمة، وكان ذلك في شهر رجب سنة 1307هـ.

فبقي مستريح الجسم من ذلك الشهر إلى أواسط شهر القعدة، وقد أشارت عليهِ الأطباءُ بتبديل الهواءِ لتتم راحتهُ، وتكمل صحتهُ، فتوجه إلى تل حوين، وأخذ يتسلى فيها بملاحظة أشغالها الزراعيَّة، وكانت تتوارد مكاتباتهُ إليَّ كل تلك المدة، منبئة عن حسن صحتهِ، مشعرة بمزيد سلامتهِ، حتى قرب العيد الأكبر، وأراد الحضور لمصر، وكتب لي بذلك طالباً مني أن أنتظرهُ بمحطتها مؤكداً عليَّ بذلك كل التأكيد في آخر مكاتبة منهُ إليَّ بتاريخ 3 [من ذي الحجة] سنة 1307هـ، كأن الله أطلعهُ على أن ذلك ضروري كما ستراهُ.

فلما كان يوم الخميس 7 [من] ذي الحجّة سنة 1307هـ (24 يوليو سنة 1890) ذهبت لا نتظرهُ بالمحطة في ميعاد الوابور المعتاد (الساعة 5 و20 دقيقة بعد الظهر) وإذا بهِ لم يعرفني، بل كان يسأل عني مني، اللَّهُمَّ إلَّا أنهُ بعد كثرة الإلحاح عليهِ تعريفي نفسي عرفني آخر مرة قال فيها: «الحمد لله الذي جمع شملنا».

فلما وصلنا البيت أخذنا في المعالجة، وفي الوسائط الَّتي بها يكون صرف المرض، واستعملنا كل ما وصلت إليهِ اليد، واستحضرنا من لزم من الأطباءِ، إلَّا أن المرض كان أقوى، والأجل كان أدنى، فاحتُضِر وناداهُ مولاهُ فلبَّاهُ، وفارق دنياهُ بعد ساعة عربيَّة ونصف من يوم الأحد (يوم

الأضحية) عاشر ذي الحجة سنة 1307هـ (27 يوليو سنة 1890م).

كان الذي خفت أن يكونا إنّا إلى الله راجعونا

وقامت نوادب الأدب، وانثلم حد القلم، وفقدت عين الفضل قرّتها وجبهة الدهر غرتها، ورثتهُ الأفاضل بالفضائل والفواضل، وبكتْه الأكارم بالمكارم، وإني وإن فقدتُ بفقدهِ أباً مجيداً وسنداً وحيداً سلّيتُ نفسي بأنهُ ما مات من لم يمت ذكرهُ، وخلّدَ من بقي على جبهة الأيام نظمهُ ونثرهُ.

ورأَيت أن أستعين على الصبر بجمع بعض أقواله مما يخلد ذكرهُ، ويقدُرُهُ قدرهُ، ولم يَثنِ عزيمتي عن هذا أنهُ لم يجمعها هو نفسهُ، بل أخذت في الجد والسعي، فعثرت على بعض مكاتبات بهُ استنسخها لأجلي مذ كنت صغيراً من بعض أصحابهِ الّذين كاتبهم بها، وبعض مكاتبات كان أسعدني الحظ بأن أطلعني عليها قبل إرسالها للمرسلة إليه فأخذت صوَرها.

وصرت أجمع تلك المكاتبات، وأضفت إليها ما وجدتهُ من بعض المسودات، وكاتبت أصحابه الّذين كان يكاتبهم فأعطاني بعضهم ما وصلت إليه ذلك عند طبعهِ ما يتيسر لي من منظومهِ ومنثورهِ.

وكثيراً ما كنتُ في تحرير هذه الرحلة بين إقدام وإحجام، وتفكر وتحير، وتأَمل وتدبر، وكلما هممت بتحريرها وترصيفها وتحبيرها يشتد بي الضجر والتأَسف على عدم تمكن سيدي الوالد العزيز من تأليفها؛ فإنها كانت تكون غرة في جبهة الدهر، وحسنة من حسنات العصر؛ لطول باعِه – وكثرة اطلاعه.

ولكن قوّى عزمي على الشروع في العمل، وهداني إلى السير فيهِ، وشدّ

ساعدي في استقرائهِ مع مشقاتهِ وأتعابهِ ما كنت أعهدهُ في سيدي العزيز من شديد الرغبة إلى القيام بهِ، وعظيم الميل إلى إتمامهِ معتبراً أن قيامي بهذا العمل تنفيذ رغبتهِ وتأييد أُمنيتهِ.

فاستخرت الله في تعليق بعض ما رأيناهُ، وحصّلنا عليهِ من العجائب وشاهدناهُ، وأعدت النظر على معلّقاتي الّتي سبق لك ذكرها، وبسطتها حسب ما يلزم، مستعيناً بكتب الدلائل الّتي استدللنا بها في سياحتنا، وبما استحضرتهُ من التآليف الخصوصيَّة، وبما جلبتهُ من الرسومات والأوراق والمطبوعات وصحف الأخبار المنتشرة في الأقطار، وبما بقي منطبعاً في الخاطر من أحاسن المناظر وغرائب المفاخر الّتي لا يكاد يمحوها الزمان.

وتركتُ في الوصف الاختصار المخل، والتطويل الممل؛ لأني لو أردت الاستيعاب وقصدت الاستيفاءِ بالإسهاب، وتوسعت في وصف كل ما مررت بهِ أو مرَّ بي للزمني أن أُوفّي كل شيءٍ حقهُ، وأقدُرُهُ قدرهُ، واصف كل ما اشتملت عليهِ هاتيك البلاد من العجائب والغرائب، ودون ذلك خرط القتاد.

فيا دارها بالخَيف إنَّ مزارها قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

فيكفيك الآن أن تطلع على ما كتبتُ، فتجعلهُ وسيلةً، وتتخذهُ ذريعةً لأن تُعمِل جُهدك، وتعاني وَكدك وَكَدَّك، وتصرف عنان عزمِك إلى السياحة، فتجعل لها نصيباً من زمنِك، وحظاً من مالك، وأنت إن سلكتَ هذا المسلك، ونحوتَ هذا النحو أفدتَ نفسك، وبني جنسك، واكتسبتَ معرفة أشياء تخفى على أمثالك، وعرفتَ عادات معاصيرك مؤتلفة ومختلفة، وطبائعهم متشابهة ومتباينة، وربما إن رأيتَ طرق تقدمهم أخذتَ

لنفسك ولبلدك ولأبناءِ وطنك ما رأيتَ أخذهُ، ونقلتَ من ذلك ما قدرتَ عليهِ، وأفدتَ غيرك ولو بكتابة ما استحسنتَ مما رأيت.

وإني لآملٌ أنك توفي هذا المرام حقهُ إن أخذتَ في العمل مع التفرُّغ لهُ، واخترتَ الوقت الذي يناسبهُ، وأطلتَ البحث فيهِ مدة يستلزمها إتمامهُ، وكتبت ما رأيتَ أن تكتبهُ في شأن ما تستحسنهُ من البلاد وما فيها، وأنت حينئذٍ منشرح الخاطر قرير العين خالٍ من الشواغل والمتاعب، فإذا رأيتَ ثمرة إرشادي من إعجاب الناس بما كتبتَ وإقبالهم على ما صنعتَ فإني أظنك لا تنسى كاتب هذه العاجلة؛ إذ هو الذي حثك على هذا العزم، واستنهضك لهذا الحزم، فتطلب من الله أن يصلح شأنهُ ويذهب أشجانهُ.

* * *

(الأصـــل)

في تعيين الوفد المصري للتوجه إلى بلاد السويد والنرويج وحضور المؤتمر الدولي العلمي الذي تقرَّر انعقادهُ بها في سنة 1889

في سنة 1889م حضر جناب الكونت كارلوده لاندبرج إلى محروسة مصر بصفة قنصل عام من طرف سمو الملك أسكار الثاني ملك السويد والنرويج المُعَظَّم لدى سمو الخديوي الأكرم أفنديا (المغفور لهُ)، مُحمَّد توفيق الأول خديو مصر الأفخم، وبعد إبلاغهِ المأموريَّة واستقرارهِ في وظيفتهِ بلَّغ الحكومة الخديويَّة بصفة رسميَّة عن حكومتهِ ما قد تقرَّر من أن المؤتمر الدولي العلمي للمستشرقين في هذه المرَّة، وهي المرة الثامنة سيكون انعقاده في استكهلم وكريستيانيا عاصمتي بلاد السويد والنرويج المذكورة تحت حماية مليكها المشار إليه، وأن حكومتهُ تريد إرسال وفد من علماءِ مصر وفضلائها للحضور في المؤتمر المذكور.

فجاءَ ذلك على وفق مراد الجناب العالي الخديوي محبةً في العلم وتأييداً لأَمرهِ، وقياماً بنصرهِ، وشد أَزرهِ، وتنويهاً بقدرهِ، فحصلَت الموافقة على هذا الأَرب، ولم تتأَخر الإجابة عن الطلب.

وفي أثناء ذلك زار سيدي الوالد جناب القنصل الموما إليهِ حسب الأمر، ثم زارهُ هو أيضاً، وتقايضا الزيارة مراراً كرَّر جناب القنصل فيها القول على سيدي الوالد يدعوهُ لقبول رياسة هذا الوفد، والتوجه بهِ لحضور المؤتمر، ولم يكن ذلك ممَّا مرَّ لسيدي بخاطر، ولا تعلَّقت لهُ بهِ رغبة، فكان يتنصل من

ذلك ويعتذر لا سيمًا بما كان يخشاهُ من برد تلك البلاد مع تقدم السن وضعف البدن، وكان حضرة الكونت يُسهّل لهُ الوعر، ويحسّن لهُ السفر، ويهوّن الأمر عليهِ، ويزيّنهُ لديهِ ويفهمهُ أن القبول لهذه المأموريّة ممّا يسر الحضرة الخديويّة، وما زال بهِ وأنا أساعدهُ على ذلك وأُحسّن رأيهُ رغبة مني في اطّلاع سيدي الوالد على تلك البلاد وما فيها من المحاسن والمنافع وتقدم العلوم والصنائع لتحقيق الخبر بمرأى العين، حتى أجاب وتوكل على الله، وأظهر القبول، وعوّل على المسير.

وحينئذٍ أظهر الجناب الخديوي الأفخم لسيدي الوالد استحسانهُ ولم يكن من قبل أشار إليهِ بشيءٍ من ذلك فأخبرهُ مشافهةً أنهُ لم يخاطبهُ بشيءٍ من هذا الأمر خشية المبادرة إلى الموافقة، ولو يكون كارهاً لذلك في نفسهِ، فيتضرَّر، وهو لا يودُّ أنهُ يتضرر. قال الجناب العالي مخاطباً لهُ: «فجعلت الكلام إليك من غيري، وقلت في نفسي إنْ قبِلَ حصل المراد، وقلنا: ذلك ما كنّا نبغي، وإن امتنع لم نَحْمِلْهُ على ما يكره».

هكذا أخبرهُ بعد ذلك بحضوري في أول مرّة مثُلْنا فيها بين يديهِ بعد قبول سيدي رياسة ذلك الوفد، فللّه ما ألطف هذه الشمائل، وأشرف هذه الفضائل، وأكرم هذه الأخلاق!

وبعد ذلك جرى الكلام في تعيين باقي الوفد والمذاكرة في لجنة الماليّة بخصوص المصاريف اللازمة للسفر والمداولة في مجلس النظر وكتب من رياسة المجلس المشار إليهِ في 27 [من] شعبان سنة 1306هـ الموافق 28 أبريل سنة 1889م بنمرة 32 إلى نظارة المعارف ما نسختهُ:

«بالجلسة المنعقدة يوم الخميس 24 شعبان سنة 1306هـ (25 أبريل سنة 1889) تحت رياسة الحضرة الخديويَّة صار تلاوة المذكرة المقدمة من اللجنة الماليَّة بتاريخ 18 أبريل المذكور نمرة 32، التي رأت فيها قبول احتساب المصاريف اللازمة للوفد العلمي المنتخب للحضور في الجمعية العلمية الشرقية المزمع انعقادها في استكهلم عاصمة دولة السويد والنرويج في شهر سبتمبر سنة 1889، المركب من سعادة عبد الله باشا فكري، وحضرات أمين بك فكري، والشيخ حمزة فتح الله، ومحمود أفندي عمر، البالغ قدرها...... جنيهاً تقريباً من المصاريف غير المنظورة، وبالمداولة في ذلك تقرر الموافقة على ما رأتهُ اللجنة المالية بالصفة البادية الذكر، وأن يُعلى على المبلغ المذكور ...... جنيهاً تعطى خاصة لسعادة عبد الله باشا فكري، رئيس الوفد المذكور، وبناءً عليه قد كُتب في تاريخه لنظارة المالية بما لزم، واقتضى تحريرهُ لسعادتكم لإجراء مقتضى ما تقرر».

وقد أرسلت نظارة المعارف هذه الإفادة لسيدي الوالد بمكاتبة أخبرتهُ فيها باستعدادها لصرف المبلغ إليهِ متى شاءَ.

وأخذنا في استعدادات السفر، والتفكر في طريقهِ الذي نتبعه بعد أن استلمنا المبالغ التي تعينت.

* * *

(استعدادات السفر)

إن الوقت المعين لانعقاد المؤتمر قد صادف فصل الصيف، إلا أن صيف أوروبا ليس كصيف بلادنا في أمر الحرّ، بل هو بارد لاسيما في العاصمتين اللتين هما مقرا المأموريّة، إذ هما واقعتان على نحو درجة ستين من العرض الشمالي، ومصر واقعة على نحو درجة ثلاثين منهُ، فمهما كان الصيف في تلك الجهات فإنه لا أقل من أنه يشابه الشتاء عندنا، فناسب الاستعداد على ملابس توافق هذا الغرض، فأخذنا معنا ما نستعمله هنا في الشتاء لاستعماله هناك متى مسَّت الحاجة إليه.

وأخذنا ملابس التشريف مع ما يتبعها من السيوف المتممة للهيئة؛ لما علمناه من ترتيب المؤتمر، فإنّ فيه لزوم التزيي بها في كثير من احتفالاته الرسمية، إلا أن وضع السيوف مع الملابس ألزمنا أن نجعل لها صندوقاً طويلاً لعدم التقيّد بحمل السيوف في تنقلاتنا على كثرتها، ولخفة أمر الحمل علينا؛ إذ صارت بهذه الواسطة تنتقل مع المتاع حيث ما انتقل بدون أن نتكبد أدنى مشقة بخصوصها.

ولم نأخذ فرشاً ولا غطاءً، ولا أدوات وضوءٍ، ولا مأكل، لعلمنا أن الفنادق بها من ذلك ما يلزم وزيادة، خلافاً لما رآه البعض فإنه أخذ منها ومن غيرها مما لا لزوم لهُ من غطاءٍ وطسوت وعلب كعك وغيره حمّلته مصاريف كثيرة، خصوصاً الكعك، فإنهُ صرف عليه في كمارك البلاد التي مررنا عليها أضعاف ثمنه في كل كمرك، حتى اضطر أخيراً لإرجاع تلك

الأشياء من پاريس بمصاريف كما سيرد عليك إيضاحه عند ذكر مقامنا بپاريس.

أما كيفية المأكل والمشرب والمبيت فلم نجد حاجة لزيادة الفكر فيها، فإن الفنادق متكفّلة بذلك.

أما البيت فالأمر فيه ظاهر؛ فإنك ترى في الفنادق الكبيرة المستحدثة عندنا (اللوكاندات) من النظافة وحسن الإتقان وشدة الاعتناء ما يغنيك عن أن أطيل شرح نظافة الفنادق هنالك، وإتقانها، ومزيد الاعتناء بأمرها.

وأما الأكل فالأمر فيه أسهل مما يرى بادئ بدءٍ، وذلك لأن المشكوك فيه منهُ اللحوم سواءً كانت من طير أو حيوان غيره، وهذه يجوز لنا أكلها، فإن الذين قصدنا بلادهم هم من أهل الكتاب، فيجوز لنا أكل ذبائحهم، وليس للشك تأثير في طهارة ما يؤكل في تلك الفنادق، غاية ما يُقال: إنهم يستعملون لحم الخنزير فيها، ولكن ذلك مدفوع بأن قوائم الأكل مبيَّن فيها الأصناف، كلها فنستدل بواسطتها على الأطعمة المعمولة من هذا النوع، وعلى التي دخل شيءٌ منه في تركيبها، فنبتعد عنهُ.

وأما أواني الأكل والشرب فلا وجه لاعتقاد عدم طهارتها؛ لأنهم لا شك يغسلونها بالماء الطهور القراح، ولأن الأصل في أمثال ذلك الطهارة، ولا نُنَجِّس بالشك، ولا ينبغي التعمُّق في ذلك، ولا البحث فيه؛ إذ ليس فيه فائدة دينية، وليس هذا بورع، بل هو وسوسة، ربما كبرت بالإنسان فَأَدَّت به إلى ما لا يُحْمَد، وقد أجاز لنا الشرع الشريف أن نأكل من مآكلهم، ونستعمل ملابسهم، ونصلي في ثيابهم بدون تطهير لها، فقد أكل النبي ﷺ من الجبن المجلوب من بلاد الروم، ولا شك أنه كان في آنية من أوانيهم

ولم يثبت غسلهُ قبل أكلهِ، وتوضأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جرّة نصرانيّة، وأعطى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب كرّم الله وجههُ ثياباً أُهديت إليهِ ﷺ من بعض ملوك المسحيين، فلبسها عليّ، وصلّى فيها، وما ثبت أنهُ غسلها قبل ذلك. ومعلوم أن المقوقس عزيز مصر أهدى النبي ﷺ ثياباً وأواني زجاج وعسلاً، وثبت أكلهُ منهُ ﷺ، واستعمالهُ للثياب. ولو أمرنا بغير ذلك لضاق المتسع، وقد قال ﷺ، (بُعثت بالحنيفيّة السمحاءِ).

أي الشريعة السهلة والتعمّق في ذلك حرج في الدين منافٍ للسُهُولة.

وأما الطهارة للصلاة فإنها أسهل شيءٍ لأن كل غرفة من غرف الفندق بها طستٌ وإبريق من الصيني، فلنا أن نصب الماءِ في الطست، ونغترف منهُ لأي عضوٍ مع تلقي الماءِ المتساقط من العضو فيهِ، مقلدين مذهب الإمام مالك؛ فالتقليد جائز، ودين الله يسر، واستعمال الإنسان ذلك بنفسهِ بدون استعانة بأحد فضلاً عن كونهِ الشرع سَهْلٌ جداً، والاستعانة في الصّبّ خلاف الأولى.

وأما استقبال القبلة فقد أخذنا معنا بوصلة وجدولاً نتعرّف بواسطتها القبلة أينما كنّا.

وأما حول أوقات الصلاة فنعلمهُ بواسطة الساعة، وجدول أوقات الليل والنهار.

هذا ما رأيناهُ ولم نلتفت إلى ما رآهُ بعض السادة أصحابنا، وأشار بهِ على بعض الرفقاءِ من استصحاب فرّاش وطبّاخ، فإن ذلك ربما جرّ إلى فسطاط وأواني للأكل والشرب، فكيف تكون الحال مع طول المسافة، وكثرة التنقلات والإقامة في البلاد الكثيرة الّتي عزمنا على الإقامة فيها أياماً

معلومة، والَّتي يضطرنا حال السفر للإقامة فيها ساعات، ولم أذكر هذا الرأي إلاَّ على سبيل الفكاهة؛ إذ يكفي لتزييفه مجرَّد ذكره.

ولم نلتفت لمن أشار بالاقتصار في الأكل من الفنادق على البيض والجبن والمخللات؛ فإن هذه فضلاً عما فيها من إضعاف الصحة، وإزهاق النفس، وعدم التعوُّد عليها وقلة كفاية تغذيتها في تحمل مشقَّات السفر الطويل مع شدَّة برد البلاد واحتياجها إلى الأغذية المقوية من اللحوم، لا يمكن الجزم بطهارتها دون غيرها لو فتحنا باب الشك.

أما من أشار علينا بتهيئة أطعمتنا بأنفسنا فهذا يجهل أننا لا يمكننا القيام بهذا العمل لعدم معرفتنا به، ويجهل حال الفنادق الَّتي عزمنا على النزول بها، ويجهل أنها يجب أن تكون من الدرجة الأولى رعاية لراحتنا ولصفتنا الرسميَّة، ويجهل أنها على طراز غير طراز الخانات والوكائل المعروفة في القديم بمصر، ويجهل أنهُ يجهل الحقيقة في هذا المعنى؛ فهذا لا نذكر رأيهُ بأكثر ممَّا قلناهُ.

هذا وقد أجمعنا على أن النزول يكون في الفنادق، وعلى انتقاءِ أحسنها وأعلاها، لكن من ذا الذي يدلنا عليها في كل البلاد الَّتي ننزل فيها؟، ومن ذا الذي يضمن لنا أننا لا يُطلب منا فيها إلاَّ الواجب دفعةً فقط مع الزي الشرقي الذي يُطمِعُ في المتزيي بهِ؟ فإن كان بالسؤال عنها من كل بلدة فهذا أمر يطول شرحهُ، وربما تعذَّر أحياناً وتعسر غالباً، فأخذنا في إمعان النظر وإجهاد الفكر، فلم نجد أوفق لغرضنا من السفر بواسطة شركة «كوك وأولاده»؛ فإن طريقتها هي التي توافقنا، وقد اتبعناها كما سترى.

وذلك أن هذه الشركة لها اتفاق مع كثير من الشركات التي بأطراف الدنيا

برّيّة أو بحريّة، فما على المسافر إلاّ أن ينتخب الطريق التي تناسبهُ، ويبيّنها، ويعيّن الدرجة التي يرغب النزول فيها، ويدفع المبالغ اللازمة إلى بيت كوك في البلدة التي يريد السفر منها، فيأخذ منهُ كراسة أوراقها بقدر عدد البلاد التي يرغب السفر إليها، أو المرور عليها، تكون كل ورقة منها تذكرة توصلهُ من بلدةٍ إلى أُخرى من البلاد التي يقصدها في البر وفي البحر، بدون استصحاب دراهم لانتقالاته براً وبحراً، فيستغني عن مشاق أخذ التذاكر من كل بلدةٍ إلى غيرها، وهذه التذاكر تُعطَى إليهِ من طرف بيت كوك بغير زيادة على أثمانها التي تُصرف بها من محلاتها، لو أَخذها من هذه الحال بغير واسطة كوك.

وربحُ كوك يعود إليهِ من نفس الشركات البريَّة أو البحريَّة فيما تتركهُ لهُ عند المحاسبة، ممَّا نقدهُ المسافر إياهُ في مقابلة ما يجلبهُ لها من المسافرين، فكما أن الشركات تنتفع منهُ بذلك فهو أيضاً ينتفع منها، ولا ضرر على المسافر مالياً، بل ربما انتفع هذا المسافر في سفرهِ بواسطة كوك أحياناً، فإنهُ قد توجد اتفاقات خصوصيَّة بين كوك وبعض الشركات، من مقتضاها تنزيل شيءٍ عن المعتاد في كل مائة للمسافرين بواسطتهِ، فهم يدفعون إليهِ في هذه الحالة أقل ممَّا كانوا يدفعونهُ لو أخذوا تذاكرهم بدون واسطتهِ.

ولهذا البيت اتفاق مع كثير من الفنادق المعدودة من الدرجة الأولى بجميع المدن الَّتي يسافر إليها في أنحاءِ الدنيا وأقسام المعمورة، شرقيها وغربيها، وتعرف بالاطلاع على قائمة مطبوعة تعطى منهُ إلى المسافر بحيث يجد فيها تحت اسم كل بلد فنادق متعددة، فينزل في أي واحدٍ أراد منها، ولا يدفع فيها نقداً، بل يُعطي إليهِ بيت كوك من مبدأِ سفرهِ كراسة – غير كراسة

التذاكر السابق ذكرها - تشتمل على أوراق متعددة، كل واحدة منها تُغطي لهُ الحق في النوم، وأكل الصبح، والظهر، والعشاءِ، فهي مقسمةٌ إلى أربعة أقسام مفصولة عن بعضها بمثل الفواصل الَّتي تفصل الطوابع البوستة، فإذا نام أعطى ورقة النوم، وإذا أفطر أعطى ورقة الإفطار، وإذا أكل وقت الظهر أعطى ورقة الظهر، وإذا أكل في وقت الغروب أعطى ورقة العشاءِ، وكل ورقة مُبيَّنٌ فيها أنواع المآكل الَّتي لهُ الحق في طلبها في مرَّة من هذه المرَّات، ثم يحاسب صاحب الفندق بهذه الأوراق بيت كوك.

فإذا أتى المسافر أي بلد فما عليه إلاَّ أن يخبر قائد العربة عن اسم الفندق الذي يقصدهُ، وكثيراً ما يجد رجالاً من تلك الفنادق في انتظار الوابورات، وأحياناً في المدن الكثيرة الزحام يجد مخصوصين من بيت كوك نفسهِ فيعرفهم باسم المحل المكتوب على برنيطة كلٍّ منهم، فيعطيهم تذكرة أمتعتهِ، وهم يوصلونها إليهِ، وهو يركب في عربة الفندق، أو في أي عربة شاءَ فيصل بغاية الراحة إليهِ، وهؤلاءِ الرجال يجدهم أيضاً في وقت الارتحال، فيساعدونهُ في توصيل أمتعتهِ إلى المحطة، وفي التأشير على التذاكر الَّتي بيده.

وإذا أتى الفندق أَعلن أن معهُ أوراق كوك، فيعطى غرفة تناسبهُ، ويدفع أجرة الفندق في كل المدة الَّتي يقيمها بهِ أوراقاً من الأوراق الَّتي ذكرناها فيما مرَّ.

فإذا أكل الإنسان جميع أكل النهار (ثلاث مرات على ما مرَّ)، ونام بهاتهِ الفنادق الَّتي هي من الدرجة الأولى كما سبق لا يُعطى أكثر من ورقة يوم بأربعة أقسامها، وهي قد دفع قيمتها لبيت كوك في مبدإِ سفرهِ نصف ليرة إنجليزيَّة عن

قارة أوربا، و13 فرنكاً ونصفاً وربعاً إلى 15 فرنكاً عن بلاد إنكلترا، و15 فرنكاً وستين سنتيماً عن مدن أميركا والصين واليابان، و9 فرنكات وخمسين سنتيماً عن مدن الهند، ونحو نصف ليرة عن باقي بلاد العالم في الغالب.

مع أنهُ قد يدفع المسافر أكثر من هاتهِ المبالغ في مبيت ليلة واحدة بفندق أقل درجة لو لم تكن معهُ هذه الأوراق خصوصاً للمتزيي بملابسنا الشرقيّة.

فإذا رأى المسافر أن الفندق الذي نزل بهِ بعيد عن المركز الذي يقصِدهُ أمكنهُ في اليوم التالي انتخاب فندق غيرهُ من الفنادق المرتبطة بشركة كوك في البلدة نفسها يوافق غرضهُ أكثر من الأوَّل، والحصول على هذا أهون شيء، بسؤال أحد المسافرين معهُ أو غيرهم.

فإذا صادف في أثناءِ الإقامة من هذه الفنادق غير الذي هو فيهِ وأراد الطعام أمكنهُ أن يدخلهُ ويتعاطى الطعام بهِ، ويدفع في هذا الفندق ورقة ذلك الطعام من الأوراق الَّتي معهُ، ولا يعطيها في الفندق الذي هو نازل بهِ عن هذه الأكلة، فإن كل أكلة أكلها خارجهُ لا تحسب عليهِ فيهِ.

وسنذكر لك أننا تغدينا بورقة من تلك الأوراق في فندق على جبل بقرب لُوسِرْن من أعمال سويسره، يبلغ ارتفاعهُ عن سطح البحر 1800 متر، مع أننا كنا نازلين بأحد فنادق لوسرن.

وإذا اتفق أن المسافر لم يستعمل بعض تلك الأوراق فلهُ أن يعيدها لبيت كوك، وهو ينقدهُ قيمتها الَّتي دفعها لهُ فيها بنقص عُشْر ما دفعهُ إليهِ فقط، ويمكنهُ التفادي من هذا النقص بأن يأخذ من هاتهِ الأوراق بقدر ما يلزمهُ، فإذا احتاج لشيءٍ منها بعد ذلك أخذ ما يحتاج إليهِ من نوعها من أي بيت

من بيوت كوك الموجودة بكل بلدةٍ من البلدان المشهورة المعلومة لهُ في الجدول المبين فيهِ أسماء الفنادق السابق ذكرهُ.

وإذا احتاج إلى استفهامات أو مكاتبات أو أشخاص يدلونهُ على جهات يريد زيارتها فبيت كوك في كل بلد مستعد لأن يعطيه كل ذلك بمجرد طلبهِ بدون نقد وليس عليه إلاَّ أجر أحد الدللاءِ فقط، وبيت كوك مع ذلك يُبيّنها لهُ.

ويجد في هذه البيوت كثيراً من كتب الدلائل والخرائط وتذاكر الوبورات لجميع الجهات، وكثيراً ما يوجد في الفنادق الَّتي بالبلاد الكبيرة مثل پاريس وغيرها مكاتب مخصوصة أقامها كوك لهذا الغرض، فيكون المسافر ودليلهُ في محل واحد، وما كأَنهُ إلاَّ أرسلهُ من قبل بالخصوص لخدمتهِ ولتلقي أَوامرهِ فإذا أراد أن يستعلم عن قيام وابور أو عن أي جهة، أو أن يكتب تلغرافاً لناحية، أو حجز مكان برسمهِ في فندق، أو في وابور بحر، تكفل البيت بذلك، وليس على المسافر غير دفع أجرة التلغراف ليس إلاَّ.

فإذاً ينبغي للمسافر أن يوسط هذا البيت في أمر سفرهِ نظراً لراحتهِ، وعدم تشويش ذهنهِ بأمور السفن، وخُلُوِ بالهِ من التفكر في متاعبهِ، فأَخذنا منهُ ما رأينا لزومهُ لنا من تذاكر الفنادق، وما يلزمنا من تذاكر السفر في البر والبحر للطريق الذي انتخبناهُ.

وقد فاتنا أن نسلم فرع بيت كوك بمصر ما معنا من النقود الَّتي لا نريد حملها، ونرغب الأخذ منها تدريجاً في أثناءِ السفر حسب اللزوم، فإننا سلمناها إلى بنك الكريدي ليونيه، وأخذنا بها تحويلاً محرراً منهُ لسائر عملائهِ في الجهات الَّتي قصدناها بأن يدفعوا لنا المبلغ المبين بهِ كله أو بعضه تحت رغبتنا، أما لو كنا أخذنا هاتهِ المكاتبة من بيت كوك بمصر

لعملائهِ في الجهات لكنا أرحنا أنفسنا من مؤنة الذهاب إلى عملاءِ البنك المذكور كلما احتجنا إلى نقود، واكتفينا لبيت كوك فقط في كل بلد نزلنا بها، وأخذنا منهُ ما نحتاج إليهِ من النقود مع ما يلزم من الاستفهامات، وعلى كل حال فقد أصبنا في إيداع مبالغنا بالبنك إذا أرحنا أنفسنا من ثِقَل حَملها، والمحافظة عليها طول السفر، واشتغال البال بها، وتعريضها لخطر الضياع والسرقة.

فإذا عرفتَ بيت كوك وكيفيَّة أعمالهِ وانتشارهُ في انحاءِ العالم ومساعداتهِ للمسافرين، وأدركتَ ما في ذلك من الترغيب في السفر، وتعميم استعمالهِ، وما في هذا التعميم من النفع العظيم لما يترتب عليهِ من اختلاط الشعوب المختلفة الجنس والمذهب، وائتلافهم بواسطة التعارف بعد اختلافهم، وتصوَرت ما يلزم لمثل هذا العمل المهم من الأشخاص، وما يستلزمهُ من المصرف، وما يستوجبهُ من حسن الإدارة وكمال الانتظام، وأضفتَ إلى هذا أن الترتيب والإحكام بلغا بهِ إلى حد أنهُ عيَّن دللاءَ مخصوصين لمن يريد أن يدور حول الأرض مرة في كل سنة في أشهر معلومة، فيمرون بأميركا وولايتها المتحدة، ثم باليابان والصين ومدنها العامرة، والهند وبلادها الفاخرة، ومصر وآثارها الظاهرة، والشام وأمكنتها الزاهرة، ثم أثينا والقسطنطينيَّة وإيطاليا حتى يعودوا بهم إلى حيث خرجوا أولاً.

ويتعهد هؤلاءِ الدللاءِ من طرفهِ للمسافرين بمصاريف السفر في البر والبحر، ومصاريف الفنادق، والركائب، ورسوم المتنزهات، ومواضع التفرج حتى ما يُعطى للخدم من الإحسانات، بحيث إن السائح من هؤلاءِ

متى دفع المبلغ المحدود وهو 11362 فرنكاً ونصفاً، وحضر في الوقت المعهود، استلم دفتر أسفارهِ، وسار بهداية دليلهِ مع باقي الرفقاءِ متفرجاً على الآثار بواسطة هذا الدليل، عالماً حقائقها بترجمتهِ، واقفاً على أسرار البلاد الَّتي يجول لها بدلالتهِ، مطلعاً على أخلاقها وطبائع أهلها وعاداتها، مستعيناً في ذلك بمعلوماتهِ، مستعيناً بمعرفة هذا الدليل عن ألسنَ هاتهِ الأمم المختلفة في درجات المدنية والحضارة المتباينة في العوائد والأخلاق، حتى إذا أقام المدة المعينة في كل بلد، وفرغ من الوقوف على آثارها ومعرفة نظامها انتقل إلى غيرها في البر أو البحر، لا تلويهِ عن قصده الجبال والبحار، ولا تثنيهِ عن عزمه الفيافي والقفار، فيصل إلى حيث ابتدأَ من غير أن يلويَ عِنان السير عن الأمام في الوقت المعين بالضبط والتمام، وعلمت أن هذا البيت المنتشرة فروعهُ، وهذا الأصل الممتدة أفنانهُ وغصونهُ في أنحاءِ المعمورة قام بتأسيسهِ رجل واحد وهو توماس كوك، اجتهد فوصل، وجَدَّ فوجد، رغبت من غير شك في معرفة هذا الرجل، وبعضٍ من تاريخهِ، فإن كان هذا فإليك البيان:

وُلِدَ توماس كوك المذكور مؤسس هذا البيت في سنة 1808 من أبوين فقيرين، ويتم من أبيهِ وهو ابن أربع سنوات، فخرج من المكتب بعد تعلم القراءَة والكتابة، وخدم في أول أمرهِ عند أحد البستانيين بأجرة صولديين في اليوم، ثم تعلَّم صناعة خراطة الخشب من خالٍ لهُ، وعمل فيها بضع سنين، ولما بلغ الرابعة والعشرين من العمر نهض بعض أبناءِ مذهبهِ ينادون ضد شرب المسكرات، فانضمَّ إليهم، وانتخب كاتباً لمجمعهم، وكان أعضاءُ هذا المجمع يذهبون من مكان إلى آخر لعقد اجتماعاتهم فخطر لهُ

أن يسهل لهم الانتقال بسكة الحديد، وكانت سكة الحديد في بدءِ نشأتها، فأجاب مديرها طلبهُ وهو لا يعرفهُ.

وفي 5 يوليو سنة 1841م أخذ 570 راكباً، وذهب بهم إلى بلد بينها وبين البلد الذي قام منها اثنا عشر ميلاً، بأجرة قدرها خمسة قروش عن كل نفس، ذهاباً وإياباً، وكانت الأجرة قبل ذلك كثيرة جداً، فتلقاهُ أهل المدينة الّتي قصدها هو وركابهُ بآلات الطرب ومزيد الاحتفال.

ولما ذاق ثمرة الظفر تنبهت عواطفهُ كلها نحو هذا العمل، فاستمرُ فيهِ حتى ذاع صيتهُ، وصارت كل جماعة تألفت وأرادت الذهاب من مكان إلى آخر للتنزُّه تقصده، ويتولى تسفيرها، وينجح في ذلك نجاحاً عظيماً.

فساعدهُ هذا النجاح على استمرار العمل، واتباع هذه الخُطة، فاتفق مع مديري السكك الحديديَّة على تخفيض الأجر بالنسبة لركابهِ، حتى كان يأخذ الرجل مسافة مائة ميل بخمسة قروش، والصبي بنصف هذا القدر، ولم يقتصر على مجرد تنزيههم بل زاد عليهِ أن يطلعهم على الأمكنة الشهيرة والقصور المشيدة والآثار القديمة.

وصار يمد دائرة أعمالهِ من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى أخرى، حتى تعدت بلاد إنجلتره، وعمت سكتلندا وايرلاندا، وتخطَّت إلى باريس، ومنها إلى باقي أوروبا فمدن آسيا وأفريقيا وأميركا والأوقيانوسيَّة.

وقد احتفل ابنهُ وأولاد ابنهِ في لوندره في شهر يوليو الماضي سنة 1891 بعيد الخمسين (أي خمسين سنة مرت عليهِ منذ شرع في عملهِ، وقد تقدم أن ذلك كان في يوليو سنة 1841)، فحضر هذا الاحتفال أمراءُ المملكة، وعظماءُ الحكومة وأعيان الجند، وأكابر الكتّاب، تشييداً لمجد هذا الرجل الذي كان

السبب في تعارف الأمم، والواسطة في تحاببهم، ومعرفتهم قدر بعض.

وقد وصل بِجدهِ وكدهِ إلى هذا النجاح العظيم، وبعد أن كان بيتهُ في أول أمرهِ يدير أعمالهُ ثلاثة أشخاص فقط صار الآن يتبعهُ 2700 مستخدم من جميع الأجناس والملل، منتشرين سطح الكرة الأرضيَّة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وبعد أن كان بيتهُ واحداً في البلد الذي ابتدأ أعمالهُ فيهِ ليس لهُ خلافهُ في غيرهِ صار الآن بيت أعمالهِ العمومي بلندره، ولهُ فيها غيرهُ 12 فراعاً، وفي بلاد الإنجليز 16 فرعا، وفي باريس 3 فروع، وفي باقي أنحاء العالم أكثر من 100 فرع وبعد أن كانت علائقهُ في أول الأمر مع بعض شركات قليلة وفنادق يسيرة صار الآن لهُ حساب جار مع 500 شركة سكك حديديَّة، ووابورات بحريَّة و800 فندق من الفنادق الشهيرة.

وبعد أن كانت أعمالهُ قاصرة على نقل الركاب من مكان إلى آخر شملت توصيل نقودهم إليهم في أي محل يريدون، والقيام بأمور أكلهم وشربهم وركوبهم، ثم بعد أن كان واسطة بين ركابهِ والشركات الحديديَّة أو البحريَّة صار هو أيضاً زيادة على ذلك مالكاً لبعض الخطوط الحديديَّة، كالخط الصاعد بالمتفرج إلى جبل (بركان) ڤيزوف، ولبعض الخطوط النهريَّة كخط النيل من مصر القاهرة إلى الشلال الأقصى للسائحين، ومن أسيوط إلى الشلال للبوستة وسائر المسافرين، فلهُ فيهِ عدة وابورات، فضلاً عن الذهبيات العديدة.

وبعد أن كانت أعمالهُ قاصرةً على الآحاد شملت العساكر واللوازم الحربيَّة، فقد تعهد للجيش الإنجليزي بنقل عساكرهِ ومهماتها وما يلزمها من الآلات والأدوات في أَجل محدود أيام حملة إغاثة غوردون باشا سنة 1884م، فنقل 11000 عسكري إنجليزي، و7000 عسكري مصري،

و130000 طونولاطه من لوازم الحرب، و 65000 طونولاطه فحم حجري من الأقيانوس الاطلانتيقي ومصر إلى الشلالات، فالسودان حيث كانت الثورة منتشرة سائدة فأوصلهم كما تعهد في الأجل المعهود للمكان الموعود.

وبعد أن كانت أسفارهُ قاصراً على السياحة واستطلاع أحوال البلاد عمّت زيارة المحلات المقدسة؛ تأدية للواجبات الدينيّة، فكأنهُ وقد سهّل جميع الطرق لمريدي السفر بواسطتهِ في الدنيا حيث ساعدهم على الوصول إلى جميع جهاته بغاية ما يتصور من السهولة والراحة، وما يمكن من المهاودة في الأجرة، أراد أن يساعدهم في تسهيل طريق الآخرة لهم على حسب اعتقاد كل فما يذهب إليه بعين التسهيلات الّتي عودهم عليها فهو ينقل الألوف المؤلفة من مسلمي الهند (40000 في السنة) إلى الأقطار الحجازيّة لأداءِ فريضة الحج، ويعيدهم إلى حيث أتى بهم، كما ينقل طوائف المسيحيين من أنحاءِ العالم إلى الأماكن المقدسة لأداءِ واجباتهم الدينيّة.

وبعد أن كان المسافرون الّذين ينقلون بواسطتهم في أول الأمر يحسبون في السنة بالمئات صاروا الآن يحسبون بالملايين، ينتقلون آكلين بائتين آمنين في أماكن تحت اسمهِ، بكل جهات المعمورة، وبعد أن كان إيرادهُ السنوي في أول عملهِ شيئاً لا يذكر صار إيراد يومه الآن أضعافَ إيراد سنة في أول نشأتهِ.

فهذا الرجل الذي كان في أول أمرهِ خادم بستاني كما قلناهُ، وترقى إلى خرّاط، قد بلغ إلى هذه الدرجة العليا من الثروة والسيادة بكده وجدهِ، وقد استمرّ سنين طويلة يشتغل مع أولادهِ في أعمالهِ هذه 18 ساعة في كل 24 ساعة.

وهذا الذي حضر الاحتفال بعيده الخمسيني الأمراءُ والكبراءُ والشعراءُ

والوزراءُ، واعتذر لهُ بالتلغراف من منعتهُ منهم أعذار ضرورية عن الحضور مثل المستر غلادستون والجنرال ولسلي.

وهذا الذي أرسلت الحكومات الأجنبية مندوبين من قبلها لحضور احتفالهِ، منهم مندوب مولانا الخديوي الفخيم تهنئةً لهُ وتشجيعاً لأعمالهِ الَّتي قام بها في نفع النوع البشري، طالما قاسى شدائد المعيشة، وعانى صعائب الأهوال في طريقهِ، فاحتمل مزح المازحين، وسُخط الساخطين، وذم الشعراءِ والقائلين فيهِ، وفي مسافريهِ المتعددين، حتى أشاع بعض معاكسيهِ عنهُ أنهُ أجير من طرف الحكومة الإنجليزيَّة لتخليص بلادها من أشرار المفسدين، وكبار المجرمين، وتشتيتهم عنها في أربع جهات المسكونة.

ولم يلوِ عنان عزمهِ شيءٌ من هذا، بل استمرَّ في طريقهِ غير مبالٍ بشقشقة الحاسدين، مستعيناً بما ينفقهُ من الأموال الطائلة في سبيل إشهار عملهِ وإذاعتهِ، واستجلاب الناس إليهِ بواسطة جرائد خصوصيَّة تصدر باسمهِ في لوندرة وپاريس ونيويورك وبومباي وملبورن، فضلاً عن غيرها من الإعانات والمطبوعات، ككتب الدلائل عن سائر الجهات، حتى بلغ ما خصصهُ بهذا الشان في السنة الواحدة نصف مليون من الفرنكات، فتعودت الناس معهُ على الأسفار، ورغبت بواسطتهِ في السياحة، وارتاحت لطريقتهِ في استطلاع أحوال الأمم وآثارها قريبة وبعيدة، وكان في مقدمتهم أبناء جنسه ومواطنيه بعد أن كان الكل في غاية التخوف من الأسفار، حتى كان يوُصي بعضهم في أول الأمر على أهلهِ وعيالهِ ومالهِ قبل أن يركب الوابور، ولو بعض ساعات، فصارت الأسفار بهمة هذا الرجل وتسهيلاتهِ من الأشياءِ المعتادة، يرغب فيها الفقراءُ والأغنياءُ، ومن الأمور السهلة مهما بعدت

البلاد المقصودة، واتسعت بواسطتهِ السكك الحديديَّة، وامتدت وأنشئت الخطوط البحريَّة وتعددت، وعرف الناس أخلاق معاصريهم وعاداتهم وتجولاتهم في بلادهم، واختلطوا بهم، فارتبطوا بروابط الألفة، واتحدوا بجواذب التعارف، واتفقت قلوبهم بواسطة التوادد، حتى صار الناس إخواناً أو كادوا، وعلم كل منهم ما كان يفتريه لهُ المفترون، وينمُّ لهُ بهِ النامُّون، رغبةً في استمرار تفرقهم، وطلباً لعدم اتحادهم وتآلفهم، وصار اسم هذا الرجل المهمل في أول عمرهِ من الأسماء المشهورة في كل أقطار المسكونة من شرقها إلى غربها وجنوبها وشمالها، وعُرِفَ حيث لا تُعرف أسماء كثير من الملوك وكبار الساسة، وانتفع الناس منه بزيادة اطلاعهم على أقاصي الجهات، واكتسبت البلاد منه ما يصرفهُ السائحون من المبالغ الوافرة. واكتسب هو أيضاً حسن الذكر وشهرة الاسم، والمال الكثير، وانقلب سخريَّة معانديهِ وقدح معاصريه ثناءً وحمداً، حتى كان من الاحتفال بعيدهِ ما نحن بصددهِ الآن.

وتوماس كوك عمرهُ 83 سنة الآن، وأعمالهُ يديرها ابنهُ جون كوك وأولاد ابنهِ هذا مشتركين جميعاً في اجتناءِ الثمرات بدل ما لاقوهُ في السابق من الأتعاب والصُّعوبات.

وحيث انتهى بنا الكلام عن بيت كوك واستعدادهِ، وقد اتممنا معدات السفر كما مرَّ فهلُّم بنا نتحدث عن طريقهِ في الفصل التالي.

وإنما نذكر لك هنا بمناسبة معدات السفر ما كان أشار بهِ البعض من استصحاب خادم معنا مع أنهُ لا حاجة لنا بهِ، فإنا لو أخذنا هذا الخادم من خدامنا الموجودين للزمنا مساعدتهُ، والترجمة في كل أعماله، فيكون في ذلك من عكس المقصود، وقلب الموضوع ما لا يخفى، وإن أخذناهُ ممن

يعرف اللغات فهذا لا لزوم لهُ، فإن فينا من يعرف الفرنساويَّة، ويتكلم بها، وهي تمكن العارف بها من السياحة في كل أنحاء الدنيا، فاهماً مطلوبهُ، مفهماً مقصودهُ، كما جربنا ذلك في هذه الرحلة، هذا فضلاً عن ما نتحملهُ من مصاريف هذا الخادم مع عدم الحاجة إلى خدمتهِ، فإن الفنادق ومحلات السفر ملأَى بالخدم وبمن يساعد في نقل الأَمتعة، ويسهل أمرها، وقد سبق القول بالتخفيف منها، والاقتصار فيها على الضروري اللازم، وإذا دعت الضرورة إلى شيءٍ منها أمكن تداركهُ في المكان الذي ينزل فيهِ بأحسن وأوفر وأسهل من تداركهِ قبل السفر.

* * *

(طريق السفر)

قد صادف وقت المؤتمر زمن المعرض العمومي بباريس، وهذا ممّا تتعلق بهِ الآمال، وتصرف فيهِ الأموال، ويُهْرَع إليه من جميع الأقطار، وتتساءَل عنهُ السفار والحضار، وتعتني الناس على اختلاف أصنافها وأغراضها بزيارتهِ فرأَينا أن لا بد أن نزورهُ، وأخذنا نتداول في وقت هذه الزيارة هل تكون بعد إتمام المأموريّة والعودة من السويد، أو قبلها، واستحسنا الثاني، فانحط الرأي عليهِ؛ لأنهُ كلما تأَخر الوقت قرب الشتاء، واشتَّد البرد، فإذا نحن عجّلنا بزيارة المعرض لم يكن علينا بعد المؤتمر إلاَّ العودة إلى مصر، بخلاف ما لو اخّرناها فإننا نصادف فيها وقت حلول البرد، ولا نتمكن من الاطلاع على المعرض كما نحب.

وحيث تقرر ذلك بقى علينا انتخاب الطريق الذي نسلكهُ من الإسكندريّة إلى پاريس، ومنها إلى استكهلم هل نتخذ الطريق الأقرب، أو نتخذ الطريق الذي نمرُّ فيهِ على مدن شهيرة، وعواصم كبيرة، أكثر من غيرهِ، فتكون السياحة أوفى، وأفضل وأكمل وأوسع وأشمل، فيتميز على الأول بهذه الصفة، فرأينا أن نتخذ الطريق الثاني دون الأول؛ فإننا لو قصدنا پاريس من الطريق القريب لكان السير بطريق مرسيليا بحراً، ومنها إلى پاريس برًّا، ولم نتمتع برؤْية بلاد كثيرة، بخلاف الطريق الذي اخترناهُ، فإننا عزمنا فيه على زيارة ثغر تِرْيستَه، والانعطاف منها على ۏِينِيسْيَا بلد البنادِقَةِ، ومنها على ميلانو من أعمال إيطاليا، ثم نمرُّ بممرسان جُوتَار، ونجتاز منهُ إلى

السويسرة للتمتع بمناظرها الزاهية الزاهرة، ومواقعها الناضرة الباهرة وبحيراتها العجيبة، وأوديتها الغريبة، ورؤية أحسن مدنها وهي لُوسِرْنْ، ثم نذهب من السويسرة إلى فرانسا بطريق بَالْ ثم باريس.

وأخذنا نفتكر بعد ذلك: هل نسير من باريس إلى استكهلم بأقرب الطرق، أو نُعَرِّج على إنجلتره، ومنها نقصد هولنده، فنزور مدينة لَيْدِنْ الشهيرة بمؤتمر العلُوم المشرقيّة السادس، ونرى مكتبتها المشهورة بالكتب المشرقيّة، ونخص بالزيارة مطبعتها المختصة بالمطبوعات العربيّة، ثم نقصد الدانيمارك بعد المرور على لاَهي، وزيارة أَمسْتِرْدَامْ، فنبيت ليلة بكولونْيَا من ألمانيا، ونزور كوبِنْهاجْ عاصمة الدانيمارك، فبعد تبادل الآراءِ واختلاف الأهواءِ والتأمُّل الكَثير والتعسير والتيسير، واعتبار أن هذه الفرصة لا يتمكّن منها الإنسان في كُلِّ زمان، انحط الرأي على هذه الطريق الأخيرة، وانعقدت النيّة على التوجه بعد ذلك من كوبنهاج إلى مَالمو ثغر السويد من جهة الجنوب، ومنها إلى استكهلم عاصمة البلاد السويديّة، ومقر المأموريّة، وعزمنا على تغيير الطريق في العودة للتمكُّن من مشاهدة عاصمة ألمانيا، ثم التمتع بعاصمة النمسا، فنصل بعدهما ثغر تريسته حيث ابتدأنا، ومنهُ إلى الإسكندريّة.

ولو أردت أيها القارئ العزيز معرفة هذه المسافة متأمِّلاً في خريطة من خرائط أوروبا موجّهاً نظرك نحو مصر في أفريقية جائزاً بالبحر الأبيض المتوسط، مارًّا بكريد فبرندزي فتريسته سائراً منها على الطريق الذي سبق إيضاحهُ حتى تصل استكهلم، صاعداً فوقها إلى أُبْسَالاَ معرجاً نحو اليسار إلى كرستيانيا، ثم منها جنوباً إلى جوتْنْبورج فهلسنْبورج فهلْسنْجور

فكوبنهاج، ثم منها إلى شْتِتّين، ومنها إلى برلين فويانه فتريسته فإسكندريّة لَتَصورت المسافة الّتي قطعناها، ولم تستكثر تسعة وستين يوماً، قضينا نحو عشرين منها في باريس، وخمسة عشر في السويد والنرويج من يوم بارحنا مصر حتى عدنا إلى الإسكندريّة، بل ربما استغربت وتعجبت من قطع تلك المسافات في قليل من الأوقات.

* * *

(في السفر إلى الإسكندرية)[1]

في يوم الجمعة 21 من ذي القَعدة سنة 1306من الهجرة النبويَّة الموافق 19 من يوليو الإفرنكي سنة 1889 من الميلاد توجهت إلى موقف سكة[2] الحديد خارج القاهرة عند محل باب الحديد[3]؛ لأجل المسير إلى الإسكندريَّة بقصد السفر إلى أوروبا لحضور المؤتمر، ومعي من الوفد ولدي أمين بك فكري، وكان هناك في انتظارنا رفيقنا محمود أفندي عمر،

---

(1) هذا الفصل والذي بعدهُ إلى محل مخصوص منهُ هما اللذان علّقهما سيدي الوالد العزيز في هذه الرحلة لا غير، وقد كتبهما في صحف من الورق بصفة مسودة، فنقلتهما كما هما.

(2) في لسان العرب السكة الطريق المستوي، وبه "سميت سكك البريد، قال الشماخ:

حنَّت على سكة الساري فجاوبها حمامة من حمام ذات أطواقِ

أي على طريق الساري. وقال العجّاج: نضربهم إذا أخذوا السكائكا.

والسكة الزقاق، وقيل: إنما سميت الأزقة سككاً لاصطفاف الدور فيها كطرائق النخل، والسكة السطر المصطف من الشجر والنخيل، وفي الحديث المأثور: "خير المال سكة مأبورة ومُهرةٌ مأمورة" المأبورة: المُصْلَحَةُ المُلْقَحَةُ من النخل، والمأمورة الكثيرة النّتاج والنسل.

وقال أبو حنيفة: كان الأصمعيُ يذهب في السكة المأبورة إلى الزرع، ويجعل السكة هنا سكة الحَرَّاث، كأنَّهُ كنّى بالسكة عن الأرض المحروثة، ومعنى هذا الكلام: خير المال نِتاج أو زرع وإضافة سكة إلى الحديد من إضافة المكان للمكين، كقولك: دار الكتب، وبيت المال.

(3) كان يقرب الموقف المذكور عند زاوية أولاد عنان باب من أبواب مدينة القاهرة يعرف بباب الحديد وبوابة الحديد؛ خرب واندثر وأزيل فلم يبق له عين ولا أثر.

وأما رفيقنا الآخر حضرة الشيخ حمزة فتح الله فكان قد سبقنا إلى الإسكندرية قبل أيام قلائل، ليوطن بها أهلهُ عند أنسبائهِ إلى حين العودة من السفر، وحضر لوداعنا جماعة من أصدق أصدقائنا وأجلاء أخلائنا، جزاهم الله فضلاً، ولا شتت لهم شملاً، وجماعة كرام أفاضل من المعارف والمحاكم ومن المتشرعين وغيرهم جزى الله الجميع أحسن جزائه، وزادهم من عطائهِ

ثم سار بنا وابور الإكسبريس في أوائل الساعة الخامسة بعد الظهر، وأخذنا بأهداب المذاكرة في أمر ما نحن بصددهِ من المأموريَّة وغير ذلك من شجون الحديث في مختلف من الشؤون، حتى وصلنا إلى الإسكندريَّة في نحو أربع ساعات مضت، ولم نشعر [بها] كأنها لمح بالبصر، فتذكرت ما كنا نعانيهِ من الشدة ونقاسيهِ من طول المدة أثناءَ السفر إلى إسكندريَّة، وبالعكس، وكذا إلى طنطا وغيرها على الركائب في البر أو المراكب في النهر قبل حدوث الوابورات وسكك الحديد، إذ في مثل هذه المسافة الَّتي قطعناها في ساعات قلائل كنا نسير مراحل نجهد فيها الرواحل ونضطر في قطعها إلى أيام وليال وآجال طوال وأهوال وأوجال، وربما حصل عائق في المسير أدَّى إلى التأخير، وأقبل الليل فأظلنا الخوف والويل، وكم مرة أدَّت الضرورة إلى وقوف السفينة في جهة غير مأمونة، وغير متيسر فيها وجود المعونة، وتدارك المؤونة[1]، فنقاسي من البلاءِ وجُهد الشقاءِ وحر الصيف أو برد الشتاءِ وصعوبة الحال، وجهل المآل والخوف على النفس والمال - ما يضيق عنهُ نطاق المقال، ويكاد يشيب من هولهِ الأطفال.

قلما نشأَت سكك الحديد هانت الأسفار، وزالت الأخطار، وتدانت الأوطان والأوطار، وصارت الدنيا كلها دار.

---

(1) في الأصل: «المؤنة» المحرر.

وأول نشأة سكة الحديد بمصر والسفر فيها بالآلات البخاريّة كان في زمن عباس باشا المرحوم سنة 1269 من الهجرة.

وكان الإنجليز قبل ذلك تكلموا في هذا الأمر مع نزيل دار الرحمة والرضوان الحاج مُحمَّد علي باشا جد العائلة الخديويَّة الحالية- تغمدهُ اللّٰه بغفرانهِ، فطلبوا منهُ في سنة 1837 للميلاد وهي سنة 1253 هجريَّة بعد إتمام سكة حديد ليفربول[1] من بلادهم أن يعمل خط سكة حديد في مصر، يمتد من القاهرة إلى السويس لتسهيل نقل البضائع بين الهند وبلادهم، فأجابهم إلى ذلك، واتفق مع بعض بيوت التجارة بإنجلتره على جلب ما يلزم لذلك من القضب والآلات والادوات، وحضر بعضها بالفعل، ولكن طرأت فى أثناءِ ذلك موانع حالت دون إتمام هذا الأمر، كان منها تعرض دولة فرانسا للمعارضة في ذلك، وبقيت القضبان الَّتي جلبت لهذا الغرض إلى أن استعملت في سكة حديد أنشئت عند ناحية طره بين النيل والجبل لنقل الحجارة والدبش إلى ناحية القناطر الخيريَّة، بغير آلات بخاريَّة، ثم تخلى عن حكومة مصر بعد ذلك صاحبها الحاج مُحمَّد علي باشا المشار إليهِ سنة 1264، وخلفهُ في تلك السنة نجلهُ الأكبر إبراهيم باشا المشهور بسر عسكر، وتوفي بتلك السنة، وتولاها بعدهُ الحاج عباس باشا ابن أخيه، تولى اللّٰه الجميع بإحسانهِ، وذلك سنة 1265، وتوفي بتلك السنة

(1) ليفربول مدينة شهيرة من بلاد الإنجليز في الشمال والغرب من لوندرة على نحو 280 كيلومتر منها، وهي في الجانب الأيمن من نهر مرسى بقرب مصبهِ في بحر أرلنده. أهلها نحو أربعمائة ألف نفس، وبها دار آثار عتيقة خاصة بمصر، ولها تجارة متّسعة، وبها صنائع كثيرة، وفيها معامل للسكر والصابون والفخار، ومصانع زجاج شهيرة.

جده مُحمَّد علي، أعلى اللّه في دار المقامة محلهُ، ولم يكن قُضي في سكة الحديد أمر، ولا خرجت من القوة إلى الفعل.

ولبثت رجال الإنجليز تنتهز الفرص، وتكرر السعي في طلب إنشاء سكة حديد إلى أن أجيب طلبها في مدة عباس باشا المرحوم قبيل وفاتهِ، واستصدرت الأمر من الباب العالي بالترخيص في هذا العمل، وشرع فيهِ بالفعل في تاريخ (1269)، كما تقدم وكان أصل طلبها قاصراً على مد السكة المذكورة من القاهرة إلى السويس، فتكون على ذلك قاصرة على المرور في الصحراءِ الشرقيَّة فلم يوافق ذلك رأي عباس باشا المرحوم، بل رغب في أن تمد في وسط البلاد أولاً من الإسكندريَّة إلى القاهرة، ثم من القاهرة إلى السويس، ليكون نفع البلاد بها أكبر، والفائدة فيها أكثر فحصل التراضي على ذلك وعقدت شروط مع استفانسون المهندس المشهور على تعيين مهندسين إنجليز من طرفهِ لعمل الجسر، وتركيب القضبان في نظير خمسين ألف جنيه تدفع من الحكومة المصريَّة، فحضروا وانضم إليهم جملة من المهندسين المصريين، وجرى العمل إلى أن توفي عباس باشا المرحوم سنة 1270، وكان الذي تم منها 70 ميلاً، واهتم من تداولوا الحكومة بعدهُ بأَمر السكك الحديديَّة لما رأَوا من عظيم فائدتها ومنفعتها، فنمت وازدادت وتفرَّعت، وامتدت في البلاد المصريَّة قبليها وبحريها، حتى وصلت إلى ما هي عليهِ الآن، وتزيد إن شاءَ الله بعد الآن حتى تنتشر في كل مكان.

* * *

(مدة الإقامة بالإسكندرية)(1)

فلما وصلنا إلى الإسكندريَّة وجدنا بها في انتظارنا على موقف سكة الحديد رفيقنا الشيخ حمزة فتح الله، ومعهُ من لباب الأحباب الكرام، وعظماءِ الأعلام، صديقنا المولى الهمام الشيخ علي الليثي، أدام الله عَلاءِهُ، والفقيه النبيه السري الشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي الثغر الإسكندري، حرس الله رفعتهُ، وسواهما ممن تفضلوا علينا بنقل الأقدام إلى ذلك المَقام(2) وتَلَقَّوْنا بالإكرام، وطلبوا أن ننزل بهم مدة المُقام(3)، وكان اتفاقنا مع رفاقنا من السابق أن ننزل مقَامِنا بالإسكندريَّة في أحد الفنادق(4).

---

(1) هذا الفصل إلى المحل الذي سيبيّن منهُ علّقهُ سيدي الوالد العزيز كما علّق الفصل الذي قبله في صحف من الورق فكتبته كما هو.

(٢) – (٣) المَقام بفتح الميم من قام والمُقام بضمها من أقام.

(4) الفنادق جمع فُندق (قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل) بضم الفاء وسكون النون وضم الدال وبعدها قاف، معناهُ بلغة الشام الخان، قالهُ ياقوت في معجم البلدان. وبعضهم يغلط فيهِ، فيقول: فنتق بالتاء انتهى. وقال صاحبنا الشيخ نصر الهوريني تغمدهُ الله برحمتهِ: لعلهُ من الإبدال الجائز لقرب المخارج انتهى. ويرد على الشهاب في تغليظ من يقول الفُنْتُق بالتاء صنيع المجد في القاموس، فإنهُ ذكرهُ بالتاء والدال، قال: الفنتق كقنفذ خان السبيل، ثم قال: الفندق كقنفذ حمل شجرة وهو البندق، وتقدّم الخان السبيل انتهى. وفي الأقيانوس ترجمة القاموس للسيد عاصم قال الشارح يعني السيد المرتضى الزبيدي: إنه الخان الذي يُبنى على الطريق ينزلهُ الغرباءُ وأبناء السبيل بلا أجرة. وفي لسان العرب، قال الفرّاء: سمعتُ أعرابيًا من قضاعة يقول: فنتق للفندق، وهو الخان، وهذا كما تراهُ يعارض تغليط الشهاب لمن يقول بالتاء، وفيهِ أيضاً عن التهذيب الفندق بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات الذي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن انتهت عبارة اللسان. ونقلها السيد مرتضى في تاج العروس. وعنهُ نقل السيد عاصم إلاّ أن قولهُ (بلا أجرة) يحتاج إلى نظر؛ فإنهُ ليس =

والفندق عبارة عن دار ذات حجرات وغرف منتظمة، فيها ما يحتاج إليهِ

= في عبارة الشارح الذي ينقل عنهُ، ولا في عبارة اللسان الذي هو مأخذ الشارح، ولا في عبارة الصاغاني في التكملة والذيل والصلة المتقدم عليهما، وهو من مآخذ صاحب القاموس، ولَعلَّهُ استنبطها (في نقلهِ كلام الشارح) من قول المجد في تفسير الفندق (الخان السبيل)، فإن الشارح مزجها بعبارتهِ فربما يكون المترجم فهم أن المراد من الخان السبيل الخان الذي جعل في سبيل الله أي للثواب، يعني مجاناً، والذي يُفهم من عبارات المؤلفين قديماً وحديثاً في استعمال لفظ الفندق عدم اختصاصهِ بما كان من غير أجرة. انظر خطط المقريزي في ذكر الخانات والفنادق قال فيها أثناء الكلام على خان مسرور: (وكان يعني مسروراً صاحب الخان قد أوصى أن تعمل دارهُ مدرسة ويوقف الفندق الصغير عليها) انتهى. وأنت خبير بأنهُ لا معنى لوقف الفندق على المدرسة إلّا استغلاله وصرف غلتهِ في مصالح المدرسة، فلا يكون مجاناً. .

وقد أورد المقريزي في الخانات التي ذكرها خاناً عُرِف بخان السبيل، وهو خان معيّن كان خارج باب الفتوح بمحروسة مصر القاهرة، نقل عن ابن عبدالظاهر أنهُ بناهُ الأمير بهاء الدين قراقوش لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة، وتكرر في الخطط وغيرها ذكر الخان، ومفاد كلامهم أنهُ مثل الفندق في أنهُ من المواضع التي ينزلها المسافرون. وفي فقهِ اللغة للثعالبي الخان مكان مبيت المسافرين، والحانوت مكان الشراء والبيع، وفي القاموس: الخان الحانوت أو صاحبهُ وخان التجار معروف، ونحو منهُ في اللسان، وفيهِ أنهُ معرّب من الفارسيّة. وقد أوردهُ السيد عاصم في تبيان نافع ترجمة برهان قاطع لجملة معانٍ منها ما هنا، وهو محل نزول المسافر، قال: ويقال لهُ بالتركية أيضاً خان، ومما يستعمَل في معنى الخانات والفنادق حديثاً وقديماً الوكائل. انظر الكلام على وكالة قوصون في خطط المقريزي قال: وقد ذكرها في الخانات والفنادق (هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات، ينزلها التجار ببضائع الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق) إلى آخر ما قال، ولم يزل الاستعمال على ذلك إلى يومنا هذا. ولم أعثر بالوكالة بهذا المعنى في لسان العرب، ولا في شيء من كتب اللغة، والظاهر أنهُ مُوَلّد طارئ، وقد اعتِيدَ الآن في مدن بلادنا لإقامة المسافرين وأبناء السبيل ما تُعورف في التخاطب بيننا باسم (أوتيل) أو (لوكندة)، وكلاهما لفظ أعجمي، أخذناهُ عن أهل أوروبا معنًى ومبنًى وقد يعبّر عنهُ الأدباءُ في زماننا بالخان والفندق كما كان عمّا هو من قبيلهِ من جهة أنهُ معد للمسافرين وإن لم يكن مثلهُ. انتهى منهُ.

نازلها من الفرش والأدوات، ينزلها المسافر في مقابلة مقدار معين من المال يدفعهُ لأجل السكنى مع الطعام أو بدونِه في اليوم أو الشهر، وتختلف هذه المحلات في التنظيم والزخرفة وحسن الآلات والأدوات اختلافاً كثيراً يترتب عليهِ اختلاف الأجرة قلةً وكثرةً، وبالجملة يجد الإنسان في هذه المحلات راحتهُ في المُقام والطعام والمنام على نحو الكيفيات والأوضاع المعروفة في أوروبا، ولم يكن ذلك معروفاً ولا مألوفاً لدينا من قبل. وكان من يحتاج إلى لُبْثٍ يوم أو أيام في بلد غير مستوطِنٍ لهُ إذا لم يجد بهِ من أحبابه ومعارفهِ من يؤويهِ نزل في بعض المواضع المعدة للمسافرين والأغراب، ممَّا يعبر عنهُ بالوكائل والخانات والفنادق، فلا يجد فيها من الفرش والأثاث والأدوات ما يحتاج إليهِ، إلاَّ أن يستجدهُ بقدر ضرورة الحاجة.

وكثيراً ما تكون هذه المواضع لا سيما في غير القاهرة، وما يقرب من مضاهاتها غير جيدة البناءِ، ولا حسنة النظام، ولا مناسبة للسكني، ولا موافقة للصحة، ولا متوفرة فيها وسائل الاستراحة، ويراها قذرة وخمة كثيرة القمل والبرغوث والبق وغيرها من الحشرات المؤذية والضارة، فتمنعهُ النوم والراحة والقرار، فما يمرُّ بجفنهِ غُمْض ولا تستقر بهِ أرض، وزد على ما ذكر أن هذه المواضع قد يزدحم في داخلها وخارجها ركائب من ينزلها من المسافرين وغيرهم، ودوابهم فتشوّش الخاطر بأصواتها وحركاتها وتمازج الهواءَ بأقذارها وهلّم جرًّا.

ومن رأى عرف أن الواصف مهما أطال قصر، وما ترك أكثر، وهاك حكاية إنسان من القاهرة سافر إلى بعض بلاد الريف، فاضطرهُ الليل إلى النزول في بلدة كبيرة على طريقهِ، فلجأ إلى موضع من هذا القبيل، بات بهِ ليلة أسوق حديثها إليك، وإن لم يخلُ عن طول لتعرف بعض حال هذه

المحال إن لم تكن عرَفت، وتتذكر إن كنت نسيت، على شريطة الأ تسألني عنهُ من هو إذ ليس ذاك ممَّا يُهمك.

وذلك أنهُ نزل حجرة بوكالة في البلد، اختارها لهُ بوابها وجاءَهُ بعد أن أنس منهُ الكرم، وعرف من هيئتهِ أنهُ من ذوي النعم، بِسَحْق حصير طالما أكل الزمان منهُ وشرب، وسراج زيت ليس لهُ على دفع الظلام سلطة، ولا بينهما مانعة جمع، وإبريق ماءٍ ما زال يغني وإن لم يطرب، وعرَّفهُ أنهُ يدَّخر أمثال هذه لأمثالهِ من خيار الناس ممن يدهمهُ في وقت مثل وقتهِ لا لكل أحد فإنهُ ممن يعرف مقادير الرجال، إلى أمثال هذا المقال، وتركهُ يستوفي ما كتب لهُ، ومضى لسبيلهِ.

فلم يكد يستقر في الغرفة إلا وقد أقبلت عليهِ حشراتها، وأخذت تدب إليهِ من جميع جهاتها، وتناوشتهُ من كل نواحيهِ، وانتشرت في بدنهِ تفعل أفاعيلها، وتفتك فتكاتها، وهو يتقلب على مثل حرّ الجمر، ويتجرَّع من الصبر ما هو أشد مرارة من الصبر، ونظر إلى ما حوله من أرض الغرفة فإذا هي تموج بما فيها من الحشرات، ولم يكن اعتاد أمثال هذه الأحوال، فكاد يُجَنُّ جزعاً وهلعاً، ورأى في الغرفة طاقة كبيرة عليها شباك من الخشب المخروط، ذو فتحات مربعة، كالذي نراهُ في بعض الدور العتيقة من القاهرة، فأدَّاهُ فرط الضجر من أذى هذه الحشرات أن صعِد على الشباك، فوضع قدميهِ في مربعين من فتحاتهِ قريبين من أسفلهِ، واستمسك بيديهِ في آخرين من نحو أعلاهُ بعد أن نزع ما عليهِ من الثياب وأخرج لهُ كسوة غيرها من الصندوق لبسها.

ووقف متشبثاً بالشباك كالمصلوب فوجد في نفسه راحة من أَلم البق وغيرهِ سوى الناموس، فلف ما بدا من بدنهِ بما اتقى بهِ أذاهُ، فوجد في نفسهِ لذَّة عظيمة من الراحة صار بها النوم يخالسهُ ببعض غفوات خفيفة،

إلاَّ أنهُ لما تمادى بهِ الوقوف، وطال عليهِ الليل كلَّ ساعداهُ، وتألمت راحتاهُ وقدماهُ، فلما أعياهُ التجلد صار ينزل عن الشباك إلى الأرض فيستقر عليها مستريحاً إلى أن يجهدهُ البق وإخوانه، فيعود إلى التعلق بالشباك حتى تكل قواهُ، وبعد أن كرر ذلك مراراً حتى سئم، بدا لهُ أن ينزل إلى أسفل الدار، لعلهُ يرى فرجاً ومخرجاً، فخرج واستصحب المصباح وأغلق الباب وأخذ المفتاح، ومشى يريد سلم الدار لينزل، وبعد مسافة طفئ سراجهُ بإصابة الهواءِ فمضى يخبط الظلماء، وتخبطهُ الجدران حتى أصاب السلم بعد اللتيا والَّتي، فنزل درجات، وخانتهُ قدمهُ، فسقط إلى أسفل، ولم تكن درجات السلم ولا الأرض محجرة ولا مبلطة فلم يصبهُ عظيم أثر، ولا كبير ضرر، وأصاب زيت السراج بدنه وثيابهُ، فلم يبال بذلك.

وخرج إلى صحن الدار فوجدهُ مزدحماً بالدواب، ليس فيهِ موضع خالٍ فنادى البوَّاب حتى أيقظهُ بعد جهد، وطلب منهُ أن يفتح لهُ باب الوكالة ليخرج، وأخبرهُ بما جرى، لهُ فقال: وأين تريد أن تذهب، قال: أمشي في الأزقة حتى أصبح، فقال: لا يحسن لأن الخفير إذا رآك ولم تخبرهُ بمحلٍ معين تريدهُ لم يشك في أنك تريد سرقة أو موبقة، فتقع في مشكل، ثم سكت عنهُ، ونام، ولم يستطع صاحبنا أن يصعد ثانيةً إلى حيث كان على ما فيهِ لأن مصباحهُ لم يبقَ بهِ دهن ولا صلاحيَّة للاستصباح، ولم يجد موضعاً يجلس فيهِ فعنَّ لهُ بعد أن أجهدهُ الوقوف مع الدواب أن يركب إحداها، ريثما يستريح، فعلاً ظهر واحدة، واستقرَّ عليها برهة حتى أرادت أن ترقد فتعجل النزول، وزلقت رجلهُ فوقع فيما هناك من الأقذار، وقام يلعن الأسفار ومفارقة الديار.

وإذا بصوت الخفير مارًّا على الباب فتوسل إليهِ أن يستصحبهُ معهُ في

مسيرِهِ، ووعدهُ أن يراسيه وأعطى لبواب الوكالة أيضاً ما أرضى خاطرهُ، فقام وفتح لهُ فخرج ومشى مع الخفير شوطاً أو شوطين، وأثقلهُ النوم والتعب ورأى مصطبة عند دار، فقال لهُ: دعني أجلس هنا برهة لأستريح، وامضِ أنت لشانك، حتى إذا عدت قمتُ أنا معك، أو قعدتَ أنتَ معي، قال: شأنك، وتركهُ فجلس إلى الحائط يهنيءُ نفسهُ بالخلاص ممّا كان فيهِ، ويراوغهُ النوم إلى أن مرَّ بهِ كلب من كلاب الناحية رأى عليهِ هيئة الغريب، فوقف ينبحهُ، ويستنبح الكلاب معهُ، حتى أتاهُ جماعة منها، فوقفت تساعد الأول وتنبح الرجل، وتحاول الهجوم عليهِ مرة، وتتأخر تارةً، والحاصل أنهُ لم يذق غُمضاً ولم يلامس جنْبه أرضاً حتى طلع النهار فكانت ليلةً نكداء سوداء بَغّضت إليهِ السفر مهما دعت إليهِ حاجة، وتعلقت بهِ منفعة.

وهكذا حال من ينزل هذه المواضع، وإنما يختلف أمرهم بالتعوُّد والتجلد، ولهذا كان أواسط الناس والمستورون منهم فضلاً عن الأغنياءِ والنبلاءِ يستنكفون النزول في هذه المواضع، ويرفعون أنفسهم عنها، فإذا كانوا في بلد غير بلدهم نَزَلوا عند من يتأتى لهم النزول عندهُ من أهلها، ولا يُعَرِّجون على النزول في الفنادق إلاَّ لضرورة قاسرة قاهرة، واستمَّر ذلك باقياً في نفوس الناس مستشعرين كراهة لتلك المحلات والتضرُّر منها حتى بعد أن تجددت الفنادق على الأوضاع الجديدة (اللوكندات)، واستكملت فيها أسباب النعيم والراحة والرفاهية، ثم لما اشتهر أمرها في كل جهة، وعرف نزول عظماءِ الناس واكابرهم وأمرائهم بل ملوكهم بها اعتادها الناس، وصاروا يرجحون النزول بها على النزول ببيوت المعارف والأَصدقاء، بل بعض الأقارب فإن النازل بهذه الفنادق يجد بها من راحته وإطلاق خاطرهِ ما لا يجده في غيرها؛ إذ لا يتحاشى من طلب أي شيءٍ

تريدهُ نفسهُ ممّا قد يتحاشى من طلبهِ عند صديقهِ، خيفة أنهُ ربما يثقل عليه، أولا يوجد عندهُ لدى الطلب فيخجل من ذلك، وربما يكون عند صديقهِ فيطرُقُ صاحب الدار ضيوف آخرون قد لا يتسع لاستراحة جميعهم محلهُ وأثاثهُ، فيضيق بهم ذرعاً، ثم نازل الفندق يجد من حريته في النوم والسفر كغيرهما ما لا يجدهُ إذا كان ضيفاً عند أحد؛ فإنك إذا كنت ضيفاً ربما أردت أن تسهر وصاحب البيت يريد أن ينام إلاَّ أنهُ يضطرُ إلى السهر معك لمؤانستك وتضطر أن تنام أنت لئلاَ تشق عليه، وهكذا في الصباح ربما كان يريد أن يذهب إلى دكانهِ أو ديوانهِ مبكراً وأنت تحب أن تتأخر حيث لا يكون عندك داعٍ للتبكير فيضطر إلى أن يتأَخر لينظر في أمر طعامك وسائر ما يلزم لك في الصباح فيتعطل، أو تبكر أنت لئلاَ تعطله، وفي كلا الحالين يكون أحدكما في غير ما يحب.

وليس الشأن في الفندق كذلك، فإن صاحبهُ سواءٌ عليهِ أَنِمت في أول الليل أو آخره، وقمت في أول النهار أو آخرهِ، فهو بمن معهُ على كمال الاستعداد كل وقت لإكرام مسافرهِ، ليس لهُ شغل غير ذلك، ولهذه الوجوه وما شاكلها ترى كثيراً من الناس إذا كانوا في غير بلادهم يرجحون النزول في هذه الفنادق (اللوكندات) على غيرها متى وجدت، ولم يبقَ من الناس إلاَّ عدد قليل لم يزالوا على الحالة الأولى ذهاباً مع ما بقي في أنفاسهم ممّا سمعوهُ أو عاينوهُ ممّا كان من حال الفنادق في السابق، وأكثر الناس تحاشياً من هذه الفنادق الجديدة زمرة العلماءِ، لا لظنهم فيها ما كان في القديمة من التعب والمشقة ولكن لظنهم أنهُ لا يتأَتى فيها إقامة شعائر الدين من صلاة ونحوها، أو مخافتهم أن يظن بهم أنهم ممن يتهاون بالأمور الدينيّة بناءً على توهم عدم التمكن منها في هذه الأماكن.

والحال أن من يريد المحافظة على عبادتهِ وأمور ديانتهِ لا يمتنع عليهِ ذلك في شيءٍ من هذه الأمكنة، خلافاً لما يزعمهُ كثير ممن يلتزم أن يقول عن تحقيق ودراية، وإنما يرمي بالقول على عواهنهِ لا يبالي أصاب أم أخطأ المرمى[1]، فإنّا لم نجد قط في شيءٍ من الفنادق ممّا نزلناهُ في بلاد المشرق مصرها وشامها وعربها وأعاجمها، ولا في بلاد أوروبا فرنسيسها وإنكليزها وطليانها وألمانها وغيرهم، ما تعذر فيهِ علينا إقامة صلواتنا وعبادتنا، وقد كنا في هذه الرحلة جماعة جُلْنا في كثير من ممالك أوربا غير تاركين لصلاتنا، ولا نابذين لأُمور ديننا والحمد لله على توفيقهِ والهداية لطريقهِ، نعم رُبَّ طامع في أن يثبّطكَ عن أمر دينك ويلفتك عنهُ لتصير مثلهُ أو في الأقل تلتمس العذر لهُ ممن ينتسب إلى دينك، وهو في الحقيقة نابذ لهُ بعيد منهُ، أضرُّ عليهِ من الأجنبي عنهُ، يقول لك: إنك إذا نزلت في فندق من الفنادق ذات الأثاث النفيس والفرش الفاخرة والأدوات الثمينة وأردت أن تتوضأ في غرفتك وهي مفروشة بالبساط الفاخر تناثر رشاش الماءِ من أثر وضوئك على وجه البساط، فأصابهُ البلل، فإذا جاء الخادم أو الخادمة لتعهد الغرفة بالنظافة أو لغير ذلك، ورأى هذه الحال تَسَخَّطَ، وربما شكا[2] إلى صاحب المحل، فسمعت منهُ ما تكره أو رأيت ما لا تحب.

وهذا كلام من ليس لهُ بصيرة وحسن تصرف في الأمور ولا يقع الإتلاف إلاَّ من مثلهِ، أما من كان على بصيرة تَهديهِ إلى الصواب، وحسن تصرف

---

(1) قولهُ: لا يبالي أصاب... إلخ. بيان لما قبلهُ قال في القاموس: رمى الكلام على عواهنهِ أي: لم يبال أصاب أم أخطأ اهـ. منهُ.

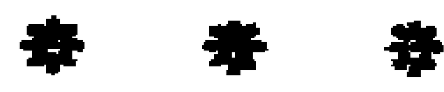
(2) في الأصل: «شكى» المحرر.

يدخل بهِ الأمر من بابهِ، فهيهات منهُ ذلك فإنهُ إذا نزل في محل من مثل ما ذكر، وأراد ان يتوضأ ويصلي وجد عندهُ في الغرفة طستاً من الفخار الصيني، وإبريقاً من هذا النوع، وآخر من التوتيا وإناءً لماءِ الشرب صغيراً، ووجد مناشف متعددة، فينزل الطست إلى الأرض بعد أن يضع تحتهُ إحدى هذه المناشف، ويقعد على طرفها، ويتوضأ إلاَّ أنهُ إذا أراد أن يتوضأ من الإبريق الصيني أو الآخر ربما وجدهُ ثقيلاً على يدهِ، أو غير مساعد على تدبير الماءِ من غير إسراف، ولهذا يحسن بهِ ويسهل عليهِ عملهُ أن يتوضأ من إناءِ الشرب، أو زجاجة من زجاجات الشراب، يتخذها لهذا الغرض بعد أن يطهرها بالغسل، فيملأُها ويتوضأُ منها، فإن كان حازماً مُحكم الأمر متجافياً عن تبذير الماءِ المنهي عنهُ في الشرع لم يقع بلل خارج الطست، وإن أسرف في الماءِ بالفرض والتقدير وَبذّر وتهاون في الاحتراس مهما تهاون، وَقَصَّر مهما قَصَّر فإنما يقع الرشاش والبلل على المنشفة، فيرفعها بعد أن يتوضأ، وينشرها على ما أعد لذلك فلا يظهر في البساط أدنى أثر، ولا يعرف موضع وضوئهِ بل لو عرفهُ أو عاينهُ جميع أصحاب الشان في الفندق، وهو يتوضأ على تلك الحالة، لما عارضهُ، ولا اعترضهُ أحد.

ويمكنهُ أن يصحب معهُ في صندوق ثيابهِ منشفة ذات وبرٍ أو منشفتين أو أكثر، فيتخذها لهذا الغرض، ويضع منها تحت الطست ما يشاءُ. على أنَّا لم نرَ أدنى حاجة لذلك، بل وجدنا المناشف المعتادة الَّتي كنا نراها في الفنادق كافية وافية بهذا الغرض، وإنما أردنا لقطع عرق الشبهة من أصلهِ أن نذكر ما لا يتأَتى معهُ ظن انتشار البلل، ولا توهمهُ، ولم يبقَ للمعارض مع هذا من سبب يتمسك بهِ، وعلة يعتل بها، والأمر ظاهر، والتجربة شاهدة، بل قد نزلنا

مرات بفندق في الإسكندريّة لبعض المسيحيين فوجدناهم قد اعدوا لمن ينزل بهم من المسلمين سجاجيد للصلاة، وطسوتاً وأَباريق من النحاس، ومناشف للوضوءِ مثل المستعمل لدى المسلمين، وكنا صائمين في رمضان، وكان توجهنا لانتظار العيد للتعييد على الجناب الخديوي السعيد، فعرفونا أن السحور عندهم مرتب، وأنهم مستعدون لإيقاظنا في الوقت الذي نريدهُ، وأن ما يلزم للإفطار نجدهُ حاضراً قبيل المغرب، ثم وجدناهم اتبعوا ذلك القول بالفعل، ورأَينا في بعض الفنادق المشرقيّة مما يتولى أمرها أوربيون كثيراً من لوازم المسلمين، وبودي لو عمم ذلك بالمحلات العموميّة في بلادنا الشرقيَّة، ولو كان بعض الفنادق يتولى إدارتهُ أهل البلاد لكانوا أدرى من غيرهم بعادتهم وأحوالها ووسائل الراحة بها، ولكننا لا نجد أهل بلادنا يرغبون كل ذلك، وقد رأَينا في سوريّة كل ما رأَيناهُ من هذا القبيل في إدارة البلديين، وتصرفهم، وغالب الحرف والصنائع كذلك.

وقد طال بنا الكلام في هذا المقام، وجرّنا إليهِ النظر في المقارنة بين الفنادق الموجودة على الطريقة الأوروبيّة، والّتي على الطريقة الّتي كانت مستعملة، والفرق ظاهر بل النسبة منقطعة».



إلى هنا انتهي أيها القارئ الصاحب ما علقهُ سيدي العزيز في هذا الموضوع، ولا شك في أنهُ لو أتمّ هذه التعليقات بذكر المقارنة بين الفنادق الموجودة عندنا على الطراز الأوربي والفنادق العظيمة المعدودة من الطبقة الأولى الّتي نزلنا بها في البلاد الّتي سافرنا إليها لجاءَ بأَحسن وأرقى وأَرقّ وأنقي، لكن حال دون ذلك ريب المنون؛ لأَن الفنادق عندنا وإن تحسنت

الآن تحسناً بيّناً نظراً لكثرة وجود السياحين، وزيادة تواردهم في كل سنة زيادة عما قبلها، فإنها لا يتسنى لها أن تعادل الفنادق الّتي بأوروبا، لأنّها يُنفَقُ عليها من المال ما يتعسر إيجادُه لهذا الغرض عندنا، فهذا فندق استكهلم الذي نزلنا بِه، وسيأتي عليك وصفُه في محلهِ صرف صاحبهُ في سبيل إنشائِه واستعدادِه خمسة ملايين من الفرنكات، مع أن عدد سكان العاصمة المبني بها لا يضاهي عدد سكان عاصمة بلادنا.

ولذلك ترى أن مثل هذه الأَبنية بأوروبا غاية في الاتساع والاستعداد، فقد يسع بعضها نحو الألف مسافر فأكثر، ولا يُرَى فيها مع ذلك ازدحام يُعطّلكَ عن قضاء مصالحكَ أو يؤَخر من فيها عن القيام بالواجب لكَ فترى الخدم في غاية الاستعداد، مسرعين لتلبية طلبكَ بمجرد لمس الجرس الذي تجد أولهُ في غرفتك، وإذا أردتَ أن تنزلَ من غرفتكَ أو ترقى إليها لا تلتزم أن تتعب نفسكَ وتضيعَ وقتك في الصعود إلى الطبقة الرابعة والخامسة حيث مُقامكَ، بل تجد مُرْقياً يصعد بك بقوة البخار أو بضغط الماءِ إلى حيث تريد، وذلك المَرْقِي كغرفة من خشب مفروشة الجوانب بأَحسن الفرش، تسع نحو عشرة أشخاص، وترتفع بك بغير اهتزاز وأنت لا تشعر حتى تصلَ إلى الطبقة الّتي فيها غرفتكَ، فيوقفها الخادم الذي معك فيها، ويفتح لك بابها، فتجد نفسك في الطبقة الّتي تريد أن تصل إليها بدون تعب، فإذا أنت قضيت مصلحتك من غرفتك، وأَردت النزول ذهبت إلى حيث وقف بك المُرْقِي ونبهت خادمهُ إلى الصعود بمجرد لمس الجرس فتجدهُ ينهض إليك مسرعاً مع المُرْقِي فتدخلهُ، وتنزل، أو يصعد بك إلى حيث تريد.

وتَجِدُ في الفنادق سائر معدات الراحة، ففيها مكان معد لاجتماع

المسافرين وحديثهم، مفروش بأحسن الفرش، منور بأجلى الأنوار وأزمارها وأضواها وأبهاها، تجد فيهِ من الجرائد كل ما[1] تريدهُ من أي البلاد رغبتَ، فإن احتجتَ إلى مخابرة بالتلغراف أو بطريق البوستة وجدتَ بنفس الفندق مكتباً للتلغراف ومكتباً للبوستة، وإن أردت الحلق أو الاستحمام وجدت الحلاّق والحمّام بالفندق، وإن أردت شراء أي شيءٍ تريد أمكنك ذلك بواسطة بواب الفندق؛ فإنهُ يدلك على كل ما تريد، أو يحضرهُ لك بواسطة الخدم، بل يوجد في بعض هذه الفنادق مكتب للسكة الحديديَّة يمكنك أن تستحصل منهُ على تذكرة السفر، وتأخذ قسيمة الأمتعة الَّتي معك، بحيث لا يبقى عليك بعد ذلك إلاَّ أن تذهب إلى المحطة في الميعاد المحدد للسفر، وتركب الوابور فتسير إلى حيث تريد.

هذا ولنعد إلى إتمام تفاصيل مُقامنا بالإسكندريَّة. كان من نيّتنا النزول في الفندق كما مرَّ، إلاَّ أن الشيخ المفتي حفظهُ اللّه صَمَّم على أن يكون نزولنا عندهُ، ووافقهُ من حضر من الأحبة، فوافقناهُ وقابلنا بما اقتضاهُ كرم شيمهِ من الترحيب، وحسن الاستقبال، والاحتفاءِ والاحتفال، وبعد تناول العشاءِ عندهُ سرنا إلى سراي رأس التين مع بقيَّة الوفد للحصول على المثول لدى الجناب العالي الخديوي، إذ كان من المهم لدينا والواجب علينا أن نحظى بالمثول بين يديهِ قبل السفر، فحظينا بذلك، واستقبلنا بما اقتضاهُ كرم طبعهِ الفخيم من الرعاية والتكريم، وأحسن على سيدي الوالد العزيز بالنيشان المجيدي العلي الشأن، فناولهُ إياهُ مع براءَتهِ السلطانيَّة بيدهِ الكريمة إتماماً للمنة، ومضاعفة للنعمة، وخصَّ سيدي الوالد بعد إنصرافنا بمكالمة خصوصيَّة لبث فيها برهة يشنّف السمع من لفظهِ النظيم، ويتلقى الأوامر السنيَّة من جنابهِ الفخيم.

---

(1) في الأصل: «كلما» المحرر.

ثم لحِقًا وانصرفنا على أن يعود السيد الوالد في اليوم التالي لاستلام المحرر السامي الصادر من لدن الجناب الكريم إلى سموّ ملك السويد والنرويج.

وقد أنشدنا السيد الوالد أثناء انصرافنا من عند الجناب الخديوي متوجهين إلى مستقرنا بالبلد ما خطر ببالهِ في معنى الشكر على ما تعطف بهِ عليهِ الجناب العالي من الإحسان، وهو:

مولايَ قد أوْلَيتَني مِنَّةً — ولم يكن لي أمرها في حساب
شكرتُ مولايَ على فضلها — شكر نبات الروض فعل السحاب
منطقةُ أعجم في شكرهِ — ومنطق الحال فصيح الخطاب
مَتَّعك اللّه بما تَبْتَغي — وسَرَّ بالأَنجال ذاك الجناب

وما لبثنا أن وصلنا إلى مكان مبيتنا، واستأذنَّا من لقيناهُ هنالك في انتظارنا، وأخذنا في أسباب النوم لتوفر دواعيهِ، ونمنا حتى الصباح.

فلما كان صباح اليوم التالي (يوم السبت) توجه سيدي الوالد إلى المعيَّة السنيَّة لاستلام المحرر الخديوي فتسلم إليهِ في مظروف برسم سموّ الملك أسكار الثاني المُعَظَّم، مختوم عليهِ بالشمع الأحمر، وتسلمت إليهِ حسب العادة صورة حرفيَّة منهُ القصد منها أن يعرف الرسول نص المكاتبة المرسلة معهُ، وأن يطلع المرسل إليهِ عليها لو اقتضى الحال قبل توصيلها إليهِ بالطريقة الرسميَّة ليستعد للمحاولة عليها، وهذه ترجمتها بعد الديباجة:

«بمناسبة المؤتمر الدولي الثامن الذي سينعقد في هذه السنة من المشتغلين بالمعلومات المشرقيَّة تحت عالي حماية سموّكم أبدي لسموكم أن عنايتكم

بالعلوم والآداب الخاصة بالمشرق واعتناءكم[1] بها قد قَدَرَهما علماؤنا حق قدرهما،

«وإني - رغبة في وقوف بعضهم بالذات على أهمية أعمال المشتغلين بالعلوم المشرقيّة من علماءِ أوروبا، واطّلاعهم على النتائج المهمة الّتي أنتجتها المساعي الحميدة الّتي ألزم هؤلاءِ الأفاضلَ أنفسهم بها في هذا الشأن - قد عينت سعادة عبدالله باشا فكري العالم الشهير بسعة معارفِهِ، وأرفقت معهُ وفداً من العلماءِ المصريين للاشتراك في هذا المؤتمر الذي سينعقد تحت رعاية سموكم، وقد كلفتهُ بأن يفصح لسموكم عن حاسياتي بالنسبة لعظمتكم وعن أفكاري بالنسبة للنتائج الحسنة التي أراها تُنتجُ من هذا الفعل العظيم الذي سيتم تحت ظل عنايتكم بالنسبة لبلادُ المشرق، وبالنسبة لبلاد المغرب من جهة إحقاق الحقائق التاريخيَّة، وانتشار المعلومات النافعة للجنس البشري.

وإني أرجو سموّكم إلخ. . . الإمضا

تحريراً بسراي عابدين في 10 أبريل سنة 1889 مُحمَّد توفيق».

وقضينا اليوم بعد ذلك في أداءِ زيارة بعض الإخوان وقضاءِ بعض ما يلزم الإنسان، والاستعراف بواسطة بيت كوك بالإسكندريَّة على الغرفة الّتي ستخصص بنا في وابور البحر، بحيث لا نكون مع أجانب، لأن وجود الإنسان مع من لا يعرفهُ في محلات سفر البحر قد يكون من موجبات الضيق، فحصل الاطمئنان على أن سيكون كل اثنين منا في غرفة خاصة بهما، وحصل الاتفاق بيننا على أن أكون وسيدي الوالد في غرفة، وعلى أن يكون الرفيقان الآخران في غرفة أخرى.

(1) في الأصل: «واعتنائكم» المحرر.

هذا وقد ظهر لنا من تفقد أحوال الإسكندريّة أنها أخذت في العود إلى حالتها الأولى قبل الحوادث الأخيرة؛ فإنهُ شُرع في بناءِ كثير من الجهات الّتي تخربت فيها، إلاّ أنها لم تستكمل؛ فإن ساحةالمنشيّة، وإن تمّ بجوانبها بعض عمارات بغاية البهجة والزخرفة والإتقان كعماره مُونْفِرَاتو وعمارة المحاكم المختلطة والعمارتين المجاورتين لهذه من اليمين واليسار، لكنها مع ذلك لاتزال بعض الجهات فيها على حالتها من الدمار والخراب، مما يستلزم الحث على الاهتمام في إصلاحهِ، وعودهِ إلى ما كان.

أما جهات الرملة فهي في غاية الارتقاء والبهجة، وطيب الهواءِ، وهي من أحسن أَماكن الإسكندريّة لا يشاركها في الرونق والبهاءِ والجمال والازدهاءِ إلاّ جهة محرم بِك، فإن الرملة، وإن تَميّزت بحسن منظر البحر، فهذه تتميز عن تلك بانتظام شوارعها، واتساع طرقاتها، وتتساويان في قلة الرطوبة فيهما عن غيرهما من باقي الجهات سوى سراي رأس التين، لارتفاعها ونقاءِ هوائها.

وأرسلنا ما معنا من المتاع إلى الوابور إلاّ القليل منهُ، وبتنا على عزم القيام في أول النهار للذهاب إليهِ، حيث تقرر أنْ يكون قيامه من المينا والساعة 8 قبل الظهر من صباح اليوم التالي، فما وصلناهُ مع الفجر إلاّ وقد لحقنا إليهِ كثير من الأصحاب والأحباب، أتوا لوداعنا، حفظهم اللّه.

* * *

(من إسكندرية إلى برنديزي)

سار بنا الوابور في ميعاده المعتاد كل مرة، أعني في غاية الساعة الثامنة قبل الظهر من يوم الأحد 21 يوليو سنة 1889، وأخذنا نبتعد تدريجاً عن الأرض المصريَّة، وكنا نرى في أنفسنا التأثر من مفارقة الديار، وإن كانت لنا شدَّة رغبة فيما نقصِدهُ من البلاد.

وحين كنا في الميناءِ إذا الهواءُ خفيف، والموج غير عنيف، وسير الوابور هيّن، والبحر ليّن، فلما خرجنا من الميناءِ ومخرت السفينة في الماءِ كبر انتفاخ الموج، واشتد نفخ الهواءِ، وإن لم يكن مفرطاً، وتوالي اضطراب الباخرة، وإن كان متوسطاً، لكن لوقوع ذلك فجأةً بدهت الركاب بادئ بدءٍ من غير تراخٍ برهة ريثما يتعودون على البحر، ويتدرجون في الأمر بل كانت حالة الانتقال بسرعة اقتضاب وارتجال من سكينة الأرض، وسكون البر إلى حركة السفينة وارتجاج البحر، اشتد ذلك على الركاب، ووقعوا فيما لم يكن في الحساب.

وسمع مرة بعض المجّان صائحاً يصيح يا للندامة، قد قامت القيامة، فقال: ما هذه القيامة على الريق، وما هذا التخريف والتلفيق، وما هذه الحال أين العلامات والأهوال، وأين المهدي والدّجال، فهكذا كانت هذه الحالة جاءت على الريق من أول وهلة، فهالهم أمرها واشتد عليهم أثرها وأخذت السفينة تتكفأُ في سيرها، فتميل إلى الأمام مرة، وإلى الخلف كرّة، وترتج طوراً، وتتمايل يمنة ويسرة، ويختلف عليهم في غضون ذلك حركات ارتجاف وارتفاع وانخفاض واعتساف فكانت ترجف الراجفة تتبعها

الرادفة فضجت النفوس، ودارت الرؤوس، كأنما دارت عليها الكُؤوس، وصرت ترى النائم أكثر من القاعد، والقائم، وانقضى اليوم ومعظم الليل على ذلك، وهدأت الحركة وَهْناً من الليل، ثم عاد الحال إلى ما كان عليهِ من الويل.

واستمرّ الهول في اليوم التالي (يوم الاثنين)، بل زاد على ما كان عليهِ بعد أن مررنا على جزيرة كريد في الساعة 6 بعد الظهر منهُ فاستكَنّ أكثر الركاب في مخادعهم لما اعتراهم من الدوار، فما كنت تجد على سطح السفينة إلاّ أشخاصاً قلائل، وما كان يحضر في هذه المدة وقت الأكل على المائدة في المحل المعد لهُ إلاّ ثمانية أشخاص، من نحو 32 مسافراً على أنهم لا يحضرون جميعاً في كل مرة.

أما حال كاتب هذه الأحرف في البحر فإنهُ لم يكن من أشد المسافرين في التأثر، ولا من أقلهم فيهِ، وذلك لأن من المسافرين من يعتريهِ المرض بمجرد نزولهِ البحر، ووجودهِ فيهِ، واستنشاق روائحهِ هادئاً كان أو مضطرباً، ساكناً أو متحركاً، ويلازمهُ المرض إلى مرسى السفينة، وهؤلاءِ هم العدد الأكبر، ومنهم من لا يعتريهِ المرض إلاّ إذا هاج البحر، وارتجت السفينة، واهتزت، وكنت من هُؤلاءِ، ومنهم من لا يعتريهِ المرض أصلاً مهما اشتد حال البحر، وقويت وطأتهُ، ولم يكن من هذا النوع الأخير معنا إلاّ واحد منهم، استمر طول السفر مستديماً على الأكل في أوقاتهِ، آخذاً في مطالعة كتبهِ وجرائدهِ الّتي معهُ، متمشياً على سطح السفينة كلما أمكنهُ ذلك، متحدثاً مع باقي المسافرين، مسلياً خاطرهم، آخذاً في اطمئنانهم كلما مكّنهم حال الجوّ من الاجتماع بهِ، وكنت مع باقي رفاقي المشاكلين لي نداوم على الأكل والتفسح كلما كان البحر يمكن تحمل حركاتِه غير متوسع

في اضطراباتهِ. على أننا لم نَسْتَوِ في الحال بل كان البعض منا مع هذا أشدّ تأثراً من الباقي، وسواءٌ في هذا التأثر القوي والضعيف والصحيح والعليل؛ لأن ذلك التأثر تابع لدرجة تأثر الأعصاب، فكلما كانت أشدّ تأثراً كان تأثر باقي الجسم أكثر، ولا علاج لهذا المرض إلاّ زوال سببهِ، كما أجمع على ذلك الأطباء.

ثم في صبح يوم الثلاثاء صار البحر ساكناً والريح ليّناً، فظهر من الركاب من كان استكَنَّ في خبايا الزوايا، وغَصَّ بالناس سطح الوابور، كأنهم في يوم النشور، فتراهم فرحين مستبشرين، يهنئُ بعضهم بعضاً، ودارت بينهم كؤوس الحديث في القديم والحديث، وسرى التعارف، وأخذ الكل في التآلف، وما أحوج كل إنسان إلى ذلك في البحر، وما أميلَ النفسَ فيهِ إلى هذا الأمر؛ ليتسلى بهِ على ما هو فيهِ من ضجر النفس، وشدة اليأس.

وجاءَ وقت الغداءِ فحضر من كان استتر، ولم يبقَ أحد إلاّ ظهر، وبرزت النساءُ من خدورهنَّ متبرجات، وأقبلنَ متبخترات لابسات من الحلل أبهاها، ومن أنواع الحلى أزهاها، وجلسنَ على الموائد كالغصون الموائد، وتعاطى كلٌ من الرجال والنساءِ الطعام مجتمعين بأسنى احتشام واحترام، وكان الفرح كاملاً، والسرور شاملاً إلاّ لمتعهد الطعام، فإنهُ يفرح بحال الشدة إذ يتوفر لهُ ما كان يأكلهُ المسافرون، فكان يحب لهذا الغرض أن تبقى هذه الشدة مع أنهُ قد توفر لهُ مآكل اليومين السابقين، إذ إن حسابهُ على كل مسافر باليوم أَكَلَ أو لم يأكل، فهو مع المسافرين على طرفي نقيض يُحب الشدة، وهم يُحبون عدمها.

واستمرَّ البحر على ذلك الصفاءِ والناس على هذا الهناءِ، ملازمين سطح الوابور مشمولين بالسرور، يتمتعون بإطلاق النظر وتسريح الطرف في لجج

هذه البحار، حتى أقبل الليل، وهم على ذلك الحال لا يكون القيام إلاّ لتناول الطعام مع كثرة كَرّاتِهِ، وتعدد مراتِهِ، فإن طيب الهواءِ فوق سطح الماءِ يشهي إلى الطعام، ولهذا كانت مرات الأكل أربعةً: أولاها مرة الإفطار في بكرة النهار، وهذه يعطى فيها الحليب والشاي والزبد، والثانية: قبل الظهر بساعتين، وهذه تعطى فيها المآكل المستوفاة، والثالثة: بعد الظهر بأربع أو خمس ساعات، وهي كالتي قبلها في الاستيفاءِ إن لم تكن أوفى منها، والرابعة: قبل النوم، ويعطى فيها ما يعطى في الصباح، وترى مع ذلك الإنسان يتطلب الأكل في خلال هذه الأوقات فيجد عند خدمة الوابور ما يطلب مقابل ما ينقد من المال، وثمنهُ محدود بقوائم مطبوعة معلقة في الصالة وغيرها من المحلات، حتى لا يكون محل لاستبداد متعهد الأكل، وليكون المسافر على بيّنة من ثمن ما يطلبهُ.

ثم مررنا بجزيرة زنط يوم الثلاثاءِ، وبجزيرة كورفو ليلة الأربعاءِ، وفي صباح اليوم التالي (يوم الأربعاءِ 24 يوليو سنة 1889) وصلنا برنديزي قبل الظهر بست ساعات، فكانت مسافة السير من إسكندريّة إلى فرضة برنديزي وهي أول فرضة من أوروبا يصلها المسافر من إسكندرية ثلاثة أيام بلياليها إلاّ ساعتين، فتلخّصَ من ذلك أن المسافة بين أوروبا وبين الديار المصريّة بحراً لا تزيد عن ثلاثة أيام، فمن برنديزي يمكنك أن تصل بالسكك الحديديّة إلى أي جهة أردت من أوروبا، وتتخلص من شدائد البحر وأهوالِهِ.



(من برنديزي إلى تريسته)

وإذ وصلنا برنديزي فالحمد لله الذي نجّانا من البحر وأحوالِهِ، وسَلّمنا من شروره وأهوالهِ، وأخذنا نسرّح النظر في نواحيها. ونتمتع بمشيداتها ومبانيها، مطمئنين بسكون قارتها، مُنَعَّمي البال بهدوها وسكينتها، وقد كاد ما رأيناهُ في البحر من التعب أن يَثني عزمنا من المسير بحراً إلى تريسته، ومنها إلى فينيسيا كما كنّا عقدنا النيّة عليهِ، لولا أن بعض من كان معنا من الركاب الّذين سبق لهم السفر بهذه الجهات أخذ يسهل علينا الأمر، ويحسّن لنا ركوب البحر، مبرهناً على ذلك بأن ما بقي من الطّريق ليس فيه تعب، لأنهُ غير متسع كالطريق الأول، وهو محصور بين بلاد النمسا وبلاد إيطاليا.

فانتهزنا الفرصة بوقوف الوابور بمينا برنديزي، وصرنا نجول في نواحيها، ونتعرف أقاصيها وأدانيها، وهي مدينة آخذة في الازدياد من يوم اتخذتها السفن الآتية من الشرق الأقصى مرسى لها؛ لأنّها أقرب طريق بين أوروبا الغربيّة وجهات المشرق، فانتهت إليها الطرق الحديديّة الممتدة على الساحل الشرقي من إيطاليا الشماليّة واتحدت بذلك مع جميع سكك القارّة، وصار الوصول من الإسكندريّة إلى پاريس ممكناً في خمسة أيام، منها يومان في البر، وثلاثة في البحر، كما تقدم، وعدد سكانها 14000 نسمة.

وليس بها أمور تستحق الذكر أكثر من ميناها، فإن رصيفهُ سَهَّلَ الوصول لكل السفن مهما كان حجمها، فتجد أكبر السفن ترسو عليهِ بدون واسطة، هذا ظاهرها.

وأما داخلها فهي بلدة قديمة ضيقة الشوارع إلاَّ قليلاً منها، ويظهر أنهُ حديث الإِيجاد من زمن صيرورتها ممرّاً بين الشرق وباقي أوروبا، وأهلوها يظهر على رعاعهم الفقر الشديد، إذ كنَّا نراهم يترامَوْن متشاجرين على فضلات السجائر الَّتي كنا نرميها في الطريق، وكنَّا نراهم حفاة تنحصر تجارة كثير منهم في بيع بعض الجبن الناتج من تلك البلاد على أشكال غريبة، يشبه بعضها شكل القلل حتى ظنناهُ كذلك أول ما نظرناهُ.

وبالمدينة كنيسة خربة، بدءُ بنائها القرن الحادي عشر للميلاد، قد تساقط بعض جدرانها بالزلازل، وبالقرب منها عمود رخام قديم ارتفاعهُ نحو 50 قدماً، وربما كان في الأَصل جزءاً من هيكل، وهو على مرتفع يُرى من المينا.

وتوجهنا نحو البوستة لرغبة بعض من معنا من المسافرين في السؤَال على مكاتيب لهُ، فوجدناها بمحل متسع جدّاً، ولا غرابة في ذلك لأَنَّها جعلت لاستلام بوستة الشرق، وتوزيعها على أوروبا وإيصال بوستة أوروبا إليهِ.

ونظرنا المحطة الحديديّة وهي في أواخر البلد بمحل مرتفع قليلاً فاستودعنا من سافر فيها من رفقائنا.

ثم عدنا إلى الوابور مستوحشين لمن ودَّعناهم، فسار بنا بعد مكثهِ أربع ساعات ببرنديزي، وكان الوقت معتدلاً والهواءُ ممتثلاً والجو صافياً، والانشراح ضافياً، كأَننا نسير في عربة البر أوتجري بنا الفلك في نهر، فتارةً كنَّا نُنَزّه أبصارنا وَنُنْعِش أرواحنا بما نراهُ من أرض بلاد المجر وظلالها، وأَوديتها وجبالها، وتارةً نتسلى بلعب الشطرنج، وطَوْراً نتجاذب مع المسافرين أطراف الحديث، والحديث ذو شجون، وكنا نتلذذ بمحاسن البحر، ونتذاكر لطف السفر فيهِ والتمتع بهوائه، وكأَن تلك الحادثات الَّتي

مرت علينا بهِ لم تكن، وطوراً نأخذ في المقارنة بين المراكب الشراعيّة الّتي كانت تسافر في البحر وبين البخاريّة الآن، فيقول كلٌ منا ما يخطر ببالهِ من أوجه التفضيل، وما يمرُ عليهِ من التفصيل، وكلُ منا صار يحمدُ مسعى الشركات الّتي تألفت لإنشاءِ هذه المدن الجارية، وتسفيرها في مواعيدها المعلومة، لا تنتظر تكامل الركاب، ولا تتأخر دقيقة عن ميعادها المحدود لها، وفيها جميع ما يلزم من آلات الراحة ومعدات الانتظام، فضلاً عما اشتملت عليهِ من التحسينات، فإنك تجد فيها كل ما يستلزمهُ سفرك من المأكل والمشرب المستحضر في أوقات تجهيزهِ لك، ففيها الضأن، والبقر، وأنواع الدجاج، والطيور حيّة، يؤخذ منها كلما لزم، وفيها الأبقار يؤخذ منها اللبن كل يوم، وفيها الخبز يعمل كل يوم، بل لكل أكلة من النهار، وفيها المشروبات بأسرها، وفواكه الفصل بجميع أنواعها، وبها من الآلات والأدوات ما يتمكن بهِ مهندسوها من تعويض ما يتلف فيها من الآلات، أو ما يُمكّن من استعمالهِ لغاية الوصول إلى أقرب ميناء.

وأخذنا نذكر أنهُ بواسطة هذه السفن يتسنى للفقير مع فقرهِ أن يسافر فيها راحلاً عن بلاد لم تكفهِ الحاجة طالباً لبلاد يؤمل فيها الخير والسعادة بأجرة[1] لا تذكر بالنسبة للمسافات الّتي يقطعها في الدرجة الثالثة، وأخذ بعضنا يقول: إن ركاب الدرجة الثالثة يتيسر لهم مأكلهم في هذه السفن بكل سهولة، إما بأخذهم ما يلزم لقوتهم معهم من محل سفرهم، وإما بأخذهم المآكل الّتي تلزمهم من مطبخ س ركاب الدرجة الأولى والثانية بنفقات معتدلة مبينة بقوائم مطبوعة كما سبق ذكرهُ، هذا فضلاً عن تقسيم سطح الوابور إلى ثلاثة أقسام: أحدها: لركابِ السطح (الدرجة الثالثة)، وهؤلاءِ ليس لهم مجاوزة ما أُعِدَّ لهم، وثانيها: لرياضة ركاب الدرجة الثانية، وهؤلاءِ

(1) في الأصل: «بأجر» المحرر.

ليس لهم أن يذهبوا إلى المخصص بأرباب الدرجة الأولى، إنما لهم الحق في التخطّي إلى الدرجة الثالثة، وثالثها: لرياضة ركاب الدرجة الأولى، ولهم الحق في التخطّي لما خصص بالثانية والثالثة، أي: لجميع سطح الوابور.

وأخذ واحد منا يتضرر من ضيق محلات النوم؛ لأن كل سرير فوقهُ آخر بمسافة لا تزيد عن ثلاثة أرباع متر، بل تقل فأجابهُ مجيب بأن السبب في ذلك ضرورة عدم إمكان الاتساع في أماكن سفن البحر، على أن المحل على ضيقهِ مستوفٍ جميع المطلوبات، ففيهِ مقعد للجلوس، وفيهِ النور، وفيهِ محل لغسل الوجه واليدين، إلى غير ذلك من اللوازم.

واستدمنا على هذا الحال حتى آن وقت النوم، وانصرف كلٌّ لمحلهِ، فاجتمعنا في صباح اليوم التالي (الخميس)، ورجعنا إلى ما كنا عليهِ من المنادمة والمحادثة بين تلك المناظر الباهية، والنضرة الزاهية، حتى وصلنا تريسته في الساعة 2 بعد ظهر يوم الخميس 52 يوليو سنة 1889، أي: بعد مسيرنا من برنديزي بمسافة ست عشرة ساعة، وكنت استدللت من كتاب الدليل الذي معي على أن الوابور الذي يقوم من تريسته إلى فينيسيا يبارحها قبل نصف الليل بساعة، فيصل البندقيّة في الصباح، فعزمنا على المسير فيهِ لما رأيناهُ من أنهُ يكفينا التفرُّج على البلد من ساعة وصولنا إلى الميعاد المذكور، سيما أنهُ ليس علينا بتلك البلدة إلاّ التفسح في شوارعها، والتفرج عليها، وزيارة قصر ميرامار وزيارة ترسانة وابورات اللويد الشهيرة الّتي حضرنا بوابور من وابوراتها، وقد رأينا تأخير هذه الزيارة الأخيرة إلى ما بعد العودة إلى هنا ثانيةً من السياحة.

فأَول شيءٍ عملناهُ أن أخذنا تذاكر من تريسته إلى البندقيّة كنا مُحوَّلين من بيت كوك بأخذها هنا، ثم اجتهدنا في نقل ما معنا من الأمتعة إلى الوابور الذي

سيسافر بنا إلى تلك الجهة لعدم الاشتغال بهِ مدة مُقامنا بهذه البلد من جهة، ولعدم تفتيشهِ بمعرفة الكمرك من جهة ثانية، فإنهُ لا يدخل البلد حتى يكون خاضعاً لتفاتيشها الكمركيّة.

وإن أول محل رسا عليهِ الوابور بتريسته، ونزلنا بهِ، هو الميدان الكبير (بِيَاتْسَاجْرانْدِه)، وعلى يمينهِ عمارة شركة اللويد وهي من أكبر عمارات تلك المدينة بها محل إدارة هذه الشركة، ومساكن مديريها صرف في بنائها ثلاثة ملايين فلورينو[1]، على ما سمعناهُ، وفي جهة ثانية من الميدان محل البلديّة أي: محل إدارة المدينة، وفي وسط ذلك الميدان فسقيّة معروفة بفسقية مَارِيّه تِرِيزَهْ وتمثال للإمبراطور كارْلُوس السادس.

وفي الجهة البحريّة من هذا الميدان رحبة أُخرى تعرف بميدان البورصة، ويوجد بها دار مجلس التجارة الّتي كانت قبل محلاً للبورصة، أما البورصة الحاليّة فلها محل آخر في الميدان المذكور يعرف بـ (ترجسْتِيُوم)، وهو عبارة عن بناءٍ عالٍ كبير تحتاط بهِ دكاكين، وفي وسطهِ ممْشيان مغطيان بالزجاج، هما محل اجتماع التجار كل يوم للبيع والشراءِ في أعمال التجارة.

ويمر بهذين الميدانين شارع كورْسُو الشهير، وهو الفاصل بين البلد الجديد والبلد القديم، أما القديم فضيق الطرقات على مرتفع عالٍ لا تسلك فيهِ العرباتِ بخلاف الجديد، فهو في غاية التنظيم والإتقان متسع الشوارع، تتخللها الميادين الكبار.

وتريسته هذه أعظم مواني أوستريا هنكاريا، تبلغ سكانها مع سكان ضواحيها 165000 نسمة، فهي للنمسا أشبه بمدينة هامبورغ لألمانيا، وبها قناصل لجميع الدول الأوروبيّة. وحركة تجارتها في غاية الأهمية؛ إذ يتردد

(1) الفلورينو عملة النمسا ويساوي ثلاث بارات و8 غروش بالعملة الصاغ.

على ميناها في السنة 14000 سفينة منها 5000 بخاريّة تبلغ حمولتها مليونين وربع مليون طونولاته، وتجارتها قدرت بمبلغ 262 مليون فلورينو، منها الصادرات بمبلغ 117 مليون، والواردات بالباقي.

والمينا هي أهم البلدة حركة، وقد صُرفت مصاريف جسيمة في إصلاحها وتحسينها، فصرف فيها في مدة العشر سنين الأخيرة نحو 16 مليون فلورينو، وبالقسم الجديد من البلدة ترعة مستمدة من البحر تدخل المدينة على مسافة 400 متر، فهي تساعد كل المساعدة في نقل البضائع والأرزاق من البلد وإليهِ.

فمتعنا نظرنا بجهات هذه المدينة، ورأينا بعض الآثار بها راكبين إحدى عربات الكراءِ متأمّلين في محاسن تلك الأنحاءِ، ومنها اتجهنا نحو الشمال سالكين طريقاً غاية في الجمال هو أحد متنزهات[1] البلد، يُسار في كثير من جهاتها بمحاذاة البحر قدر ساعة، بل أكثر، ثم انتهى بنا المسير إلى متنزه نضير فيهِ قصر مِيرَاماز، وهو قصر بناهُ مُكْسِيمِلْيان أخو امبراطور النمسا الحالي قبل قبولهِ امبراطوريّة المكسيك، أبدع فيهِ كل الإِبداع، حتى شاع ذكرهُ وذاع، وأودعهُ من الإِحكام والإتقان ما يمكن إيجادهُ للإنسان، فجاء عديم المثال لم يُنسج لهُ على منوال، وهو على البحر ذو منظر عجيب، ومرأى غريب تحدق بهِ حدائق مونقة ذات أنهار وأشجار مورقة بديعة الترتيب، مزينة بالأعاجيب، وهو على الحالة الّتي كان عليها أيام كان يسكنهُ بانيهِ بما كان لهُ فيهِ من الفرش والأثاث معتنىً بخدمتهِ ونظافتهِ كل الاعتناءِ، فتفقدنا غرفهُ ودخلنا محل النوم، ومحل الأكل، ومحلات الجلوس والاستقبال، وبالأخص محل مكتبة مكسيلميان فإنها معمولة على شبه محلات المراكب البحرية، إذ كان صاحبهُ رئيس الدوننمة النمسوية،

(1) في الأصل: «متنزهات» المحرر.

وأشرفنا من أحد مطلاتهِ (بالكون) على البحر فكان المنظر الذي رأيناهُ من اتساع البحر واعتدال الهواءِ وصفو الماءِ أحسن ما يراهُ الإنسان.

وعدنا من هذا التنزه فتعاطينا طعام العشاءِ في أحد الفنادق، ثم رجعنا إلى الميدان الكبير لسماع الموسيقا؛ لأنهُ علم لنا من مطالعة الدليل أنها تعزف في هذا الميدان ثلاث مرات في الأسبوع منها يوم الخميس.

ونِعمَ ما فعلنا في هذه الرياضة، فقد رأينا في ذلك المحل من اجتماع الناس واحتشادهم لسماع الموسيقا[1] مع منظر الأنوار البديع، وهواءِ البحر، واتساع المكان ما يدهش الألباب، ولكن أدركنا التعب لكثرة المشي، وإن كان فيهِ رجالٌ ونساءٌ بالغةٌ حدّ الجمال، والرشاقة والاعتدال، فجلسنا على إحدى قهاوي الميدان، ننزّه الطرف في ما نراهُ، ونُشَنِّفُ الآذانِ بسماع النغمات الحسان، وننعش الأرواح بمرائي تلك الملاح، مع ما يمتدّ أمامَنا من نضرة الخضرة، ولطافة البحر، وطيب هوائِه واتساعِهِ، وصفاءِ مائِه، ومشاهدة الأزهار، واجتلاءِ الأنوار، وبينما كنّا نجتني ثمرات هذه اللذات، ونجتلي مناظر هاتيك المتبرّجات؛ إذ وقعَ نظري على بناءِ شركة ليولد الذي عَرَّفتك بهِ في أوائل الوصول إلى هذا البلد فجال في خاطري في الحال ما قرأتهُ بخصوص هذه الشركة في الدليل هذا النهار[2]، وأخذت أحدّثُ

---

(1) في الأصل: الموسيقى. المحرر.

(2) وهي أنشئت سنة 1822م، ومركزها تريسته، ووابوراتها زادت عن الستين من مدة سنين، وبواسطتها تتصل تريسته مواصلة منتظمة بمواني بحر الأدرياتيك التابعة للنمسا وبالمواني اليونانية وبالمواني العثمانية، مثل سلانيك والقسطنطينية وكريد وردوس وأزمير وبيروت وإسكندرية وبورسعيد وصمصون وغيرها، من مواني البحر الأسود، وتنقل سفن هذه الشركة في السنة الواحدة 300000 مسافر، ومليون خطابات، ومليون وربع مليون طرود وصرر.

بهِ رفاقي، ونتبادل الأسف على عدم الاعتناءِ في بلادنا بأَمر الشركات وإهمالها مع أنها السبب في الخير، والأصل في الثروة، والوسيلة الوحيدة في الغنى والتقدم والتمدن والعمران، ومع أنها هي الَّتي أوصلت أوروبا وأهلها إلى الدرجة السامية والمعارف النامية، مما نراهُ وقت حديثنا، وسيزداد الاختبار كلما تقدمنا إلى الأمام، فيا حبذا ثم يا حبذا لو اجتهد أهل بلادنا في اجتماعهم على شركات تورثهم الغني والتقدم، ويتمكَّنون بواسطتها من القيام بالأعمال المهمة الَّتي لا تقوم بها الآحاد ويقدر عليها الأفراد لاحتياجها إلى جمع كثير من المال، يسهل بمعونة الاجتماع إيجادهُ، ويتعذر أو يتعسر الحصول عليهِ بالانفراد فيقدِرُ أن يفعل أصغر الجمعيات ما يستحيل على ذي ثروة بانفرادهِ من كبار الأَغنياءِ.

ويترتب على ذلك من المصالح ما لا يُحصى، ومن المنافع ما لا يُستقصى، فإنهُ لاشتراك الناس في فوائدها يساعد بعضهم بعضاً على تسهيل أمرها، وحسن تسيير عملها مع المراقبة والمحافظة؛ ولأَن هاتهِ الشركات فضلاً عما تقوم بهِ من الأعمال الجسيمة تكون سبباً لتعيُّش كثير من الآحاد الَّذين يُستخدمون فيها، وباب خير عظيم لمن تُشَغِّلهم من العمال في أعمالها، وعلى فرض الخسارة فإنها لتفرُّقها في عدة أشخاص يبلغون المئات والألوف لا يكاد أن يوجد لذلك أثر، بخلاف ما إذا كان العمل كلهُ لواحد، ولو كان من الثروة والغنى بمكان عظيم، فربما أوجب ذلك فقرهُ واضمحلالهُ، وذهاب ما بيدهِ بالكليَّة.

هذا وقد أخذ سيدي الوالد يستأْنس لذلك بالآيات والأحاديث، حيث ذكر قولهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2] فإن الاجتماع على القيام بمصالح الناس ومنافعهم لا شك أنهُ من البرّ، وقد بيَّنا فيما تقدم ما في

اجتماع الناس على الشركات من المصالح والمنافع العامة، وقولهُ ﷺ: «يد الله مع الجماعة» وقولهُ أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُهُ بعضاً» فإن في ذلك حثّاً على تعاون الناس بعضهم بعضاً وتعاضدهم إلى غير ذلك مما ورد في السنّة، وجاءَ بهِ الشرع الشريف من الحث على الاجتماع والتعاضد، ودار الكلام في ذلك إلى أن قرب ميعاد السفر فتركنا المحل، ونزلنا الوابور، وسار بنا قبل نصف الليل بساعة على بركة الله.

* * *

(وِينِيسْيَة «البندقية»)

كما يتيسر السفر من تريسته إلى البندقيّة بطريق البحر، كذلك يتيسر بطريق السكك الحديديّة في مسافات تختلف بين عشر ساعات وأقل وأكثر باختلاف سرعة الوابورات، ويسير الوابور أربع مرات في كل يوم بين هذين البلدين، وإنما اخترنا طريق البحر، ورجحنا السفر فيهِ للتفرج على مدخل البندقيّة من جهة البحر، فإنهُ لا يتيسر لو قصدناها من جهة البر.

فركبنا ذلك الوابور الذي أشرنا إليه في آخر الفصل السابق، وهو من منشآت شركة ليولد النمساويّة السالف ذكرها أنشأَتهُ مع كثير من أمثالهِ للمواصلة بين البلدين بحراً و بين تريسته وكثير من الثغور المجاورة لها، فتسير على مقربة من البر، فاستغني لذلك عن أن تكون من الوابورات الكبيرة، واكتفى بأن تكون بقدر وابورات النيل، أو أكبر منها بقليل، إلاّ أنها تفوقها بما لا يوصف من الرونق والزينة، وهي يشابه بعضها بعضاً في الكبر والصغر والهيئة حتى في ألوانها، ويشتمل الواحد منها على صالة كبيرة تحت الكويرته (سطح الوابور) للأكل والاستراحة والقراءة، فيجد الإنسان فيها من المآكل ما يشتهيهِ بأثمان معلومة محدودة غاية في المناسبة، ويجد بها الجرائد المشهورة وبعض دلائل الشركات والسياحين، فيستفيد منها ما تُهِمهُ معرفتهُ، ويشتمل أيضاً على غرف عديدة معدة للنوم بجانب تلك الصالة وتحتها تضاهيها في الرونق والبهجة.

فإذا أصبح الصباح وجد المسافر في تلك الصالة من الحليب والزبد

والشاي ونظيف الخبز ما يكفيهِ مؤنة الاشتغال بأمر الأكل زمناً من النهار.

ولحرصنا على التمتع بمدخل وِينِيسْيَهْ بادرنا إلى القيام من النوم والاستعداد للصعود فوق سطح الوابور قبل وصولهِ إليها بنحو نصف ساعة، فوصلناها في الساعة السابعة صباحاً من يوم الجمعة 26 يوليو سنة 1889، بعد مسير ثمانِ ساعاتٍ من مبارحتنا تريسته.

ولا بد أنك تعلم من كتب الجغرافية أن هذه المدينة واقعة كالتي مرت عليك قبلها على بحر الأَدرياتيك، والخليج المنسوب إليها، وأنها قاعدة ولاية البندقيّة من ولايات إيطاليا المسماة باسمها، وأن عدد سكانها يزيد على 125 ألف نسمة.

ولا بد أنك تتذكر ما خكتهُ التواريخ عن مجد هذه المدينة وعِظَم شأْنها في القديم، وأن أهلها بعد أن التجأُوا إلى مكانها الذي لم يكن معموراً من قبل، وكانوا متفرقين أخذوا في الاتحاد والانضمام والتعاون والتعاضد حتى شيدوا ملكاً بعد أن شادوا المدينة، وكان من شأْنهم أن تغلبوا على كثير من البلاد، وقهروا كثيراً من العباد، وصارت بلدهم مدة قرون عديدة وأحقاب مديدة مركزاً للتجارة بين آسيا وأوروبا، حتى تحولت عنها باكتشاف أميركا ورأس الرجا الصالح في الأزمان الأخيرة، وأخذت البندقية في الانحطاط وتوالت على أهلها الحروب إلى أن دخلها الفرنسويون مدة نابوليون الأَول، وكان لم يدخلها قط قبل ذلك عسكر عدو، فألغيت حكومتها الجمهوريّة، وخسرت استقلالها من ذلك الحين، وبقيت تحت سلطتهم مدة إلى أن انتقلت إلى حكم النمساويين، وعادت بعدهُ لنابليون الثالث، فأُقيمت فيها حكومة محلية ولكنها ما لبثت أن انضمت برغبة شعبها إلى الإيطاليين، وهي لا تزال تحت حكمهم إلى الآن.

ومدينة البندقيّة هذه قائمة في وسط بحيرات منسوبة إلى اسمها (بحيرات البندقيّة)، منفصلة عن البحر بلسان من اليابسة يمنع عنها شرورهُ، ممتد على بعد نحو أربعة أميال عن الشاطىءِ، يتخللهُ فتحات خمسة تدخل منها السفن إلى البحيرات والمدينة، ولا يزيد عرض هذا اللسان عن مائة متر، وقد صارت تقويتهُ بمصاريف طائلة، وبأعمال استغرقت قروناً حتى صارت المدينة في مأمن من صدمات البحر وهجماتهِ، كما صار تقوية شاطىءِ البحيرات المتصل بالقارة بأَخشاب دُكّت بالأرض لمنع تسلط الأنهر، ممّا استغرق عملهُ نحو أربعة قرون.

والمدينة في وسَط البحيرات كما تقدم مبنية على ثلاث جزر كبيرة، يتخللها نحو 150 خليجاً، فتقسمها إلى 117 جزيرة متصل بعضها ببعض بنحو 400 قنطرة، ويتيسر المشي في أي جهة منها برّاً بواسطة أرصفة اتخذت بجانب المنازل بحذاءِ الخلجان، وبواسطة تلك القناطر كما يتيسر السير فيها بزوارق صغيرة تعرف بـ (الجندول).

وهيئتها العموميّة أشبه بمثلث يقسمهُ كنال يعرف بـ (كَنَالِي جْرَانْدِي) أي: (الكنال الكبير) إلى قسمين غير متساويين من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وتظهر للناظر من كل جهة كأَنها سابحة على الماءِ، وذلك يكسبها منظراً غاية في البهاءِ، وأَجملُ مسالكها وأزهاها وألطفها وأبهاها ذلك الكنال الكبير السالف ذكرهُ، حيث يبلغُ طولهُ 3700 متر، وعلى ضفّتيه السرايات البديعة الشكل، التامة النظام.

وقد ركبنا جندولاً من تلك الجناديل بمجرد وصولنا إلى المدينة فأَوصلنا إلى الفندق المسمى (جَرانْ أُوتيل ڤِكْتوريا)، وبعد أن تركنا أمتعتنا استبقينا ذلك الجندول معنا، وقصدنا بهِ (الكنال الكبير)، فإذا هو من أحسن المناظر

وأحلاها وأبهجها وأعلاها، تحف بهِ السرايات الفاخرة من الجانبين، سرايات الأشراف والأغنياءِ ومساكن الحكام القدماءِ.

وهذا الكنال يمكن عبورهُ للمار بواسطة خمس قناطر في مواضع متفرقة منهُ، أغلبها من الآثار المشهورة بحسن صنعها وإتقانها، وبزوارق جعلت في مواقف مخصوصة فيهِ عددها سبعة عشر موقفاً.

وعلى جانبي الكنال سوى السرايات السالف بيانها كثير من معامل الزجاج والفُسَيفْسَاءِ والمرايا وغيرها من المصنوعات الزجاجيَّة، فتفرجنا على كثير منها، وأدهشنا إتقان مصنوعاتها، ولا غرو في ذلك فلهذه المدينة اليد الطولى في عمل الزجاج من قديم الأزمان، ولا زالت إلى الآن محافظة على المنهج القديم، وقد وصلت مهارتها في اصطناعهِ إلى درجة إيجادهِ (الزجاج) على شكل خيوط رفيعة مَرِنة يعمل فيها الصانع ما أراد من الأواني على أشكال متنوعة بالطريقة المعروفة بالجدْل، ولا يكاد يصدِّق الإنسان أنها من الزجاج، نظراً لمرونتها ودقة خيوطها إلاَّ إذا عثر على طرف من أطراف تلك الخيوط، فإنهُ يعرفهُ بكونهِ محدَّداً ربما يجرح.

وعادة الصناع في تلك المعامل أن يُهْدُوا للمتفرج شيئاً من الزجاج يُعمل أَمامهُ ويُنقش عليهِ اسمهُ بحروف ذهبيَّة ليبقى تذكاراً عندهُ من آثار سياحتهِ، والقصد من ذلك الأهداء اجتذاب رغبة الزائر في الشراءِ ولا أقل من أن ينالوا منهُ بعض نقد مكافأَةً على إهدائهم، فأَخذنا من تلك المصنوعات أُكَراً صغيرة صُنعت أَمامنا من المادة الأصليَّة حتى صارت زجاجاً، وكتب عليها أول حرف من أسمائنا لتعلَّق في السلسلة الَّتي تعلق بها الساعة، وكان ذلك سبباً في شرائنا بعض أشياءَ دفعنا ثمنها مع مكافأَة العمال على ما أهدونا كالمعتاد هناك، وقد أَلحوا علينا في الشراءِ، وحاولنا التخلص من ذلك فلم يتيسر؛ فإنا كل ما

اعتذرنا عن ذلك بعذر ردُّوهُ بأَلطف رد، حتى لما اعتذرنا بأننا مسافرون لجهات بعيدة، ولا يسعنا أن ننقُل ما نشتريهِ في هذه الأسفار أجاب من كان يُسايِرنا في جهات المعمل إننا لا نشغل أفكارنا بهذا الشان فأَن لأَرباب هذه المعامل عملاءَ بالإسكندريَّة ومصر يرسلون إليهم ما نُحب من الأشياءِ بحيث نجدها حاضرة بمجرد وصولنا، فنستلمها، وندفع الثمن هناك.

ثم بعد ذلك أخذنا نجول في المدينة براً وبحراً، ورأَينا معظم أمكنتها وأَعظمها مبتدئين في ذلك بميدان (سَانْ مَاركو) وهو ألطف أنحاءِ المدينة وأكثرها حركة، ويتصل بالميدان الصغير (بِيَاتْسِيتَّيا) المشرف على البحر بقرب مدخل كنالِي جراندي من جهة الشرق، وتفرجنا في الميدان الكبير المذكور على كنيسة سَان مَاركو وهي أقدم كنائس تلك المدينة وأشهرها وأحسنها صنعةً وإتقاناً، وقد بهرنا حسن مبانيها العظيمة، وأعجبنا التمثال الموضوع على بابها، وهو عبارة عن حصان من النحاس، ورأَينا بالميدان الصغير في جهتهِ الشرقيَّة الكتبخانة القديمة من الخارج، وهي ذات أبنية مشيدة وأعمدة كبيرة موجودة من القرن الخامس عشر للمسيح، وفي جهتهِ الغربيَّة سراي (الدُّوج)[1] البديعة الصنع، فراقنا حسنها، وأعجبنا صنعها وإحكامها وإتقانها، وهي مركز حكام تلك الديار في السابق ومن آثار القرن الرابع عشر للمسيح، محدقة من جهتها الجنوبيَّة والغربيَّة بأَعمدة تعلوها شُقُفٌ، وهي ذات طبقتين مزينتين بأَحجار من المرمر الأحمر والأبيض، وكنا نرغب أن ندخلها، ولكن عاقنا عن ذلك مضي الوقت المحدد في يومنا هذا، وعدم إمكان التأَخُّر في اليوم التالي عن السفر، واكتفينا عن

(1) الدوج بمعنى الدوك وهو لقب حاكم هذه البلاد القديم.

الدخول في هذه السراي بمطالعة الدليل على ما بها، وإذا بهِ من أشهر آثار البندقيّة، وأن بها من الداخل رحبةً كبيرة يتهافت الزائرون على التمتع برؤية جهتها الشرقيّة، ومنها يدخل إلى سلم عديم المثال، فيهِ من التماثيل الهائلة ما يحير الألباب، فيتوصل بهِ إلى صالات السراي، حيث يجد الزائر من الآثار التاريخية وأعمال المصورين والنقاشين البندقيين القدماءِ ما خلّد مجد هذه البلد، وأبقى ذكر اسمها مقدماً في فن الرسم والتصوير على غيرها من البلاد، ويجد الزائر في (قاعة المجلس الأكبر) رسم (الجنّة) المعدود من أكبر الرسومات الموجودة إلى الآن في العالم، ويجد في قاعة (الاقتراع) رسم (يوم الحشر والحساب)، ويجد كذلك في قاعة الكتبخانة، وفي قاعة الأنتكخانة وفي غيرهما في هذه السراي أبدع الآثار المتعلقة بالتاريخ دالة على علو شأن النوع الإنساني من قديم الأزمان.

وأخذنا بعد ذلك أي: (بعد أن تعاطينا طعام الظهر في الفندق الذي نزلنا بهِ) نجول في البلدة مرحجين الكنال والخلجان على السكك لضيقها، وعدم تمام انتظامها، وعدم اتصال بعضها ببعض في كثير من الأحيان، فمررنا بميادين كثيرة، وإن كانت صغيرة (بها 127 ميدان) وبكنائس جمّة (بها 100 كنيسة).

والحاصل أن هذه المدينة لم يحرمها وجودها في وسط الماءِ متخللاً في سائر جهاتها من أن تجمع إلى حسن المنظر وطيب الهواءِ ما يحتوي عليهِ غيرها من المدن الأرضيّة من الزينة والبهاءِ؛ إذ بها جميع معدات الراحة حتى الجنائن العموميّة (انشأها نابليون الأول منذ استيلائهِ عليها) والتياترات.

وقد مررنا قبل المساءِ بالسوق المعد لبيع الأَسمال وحيوانات البحر، فوجدناهُ على ضفّة الماءِ مفتوح الجوانب، مغطّى جميعهُ بسقف من

الحديد، منقسمة أرضهُ إلى عدة أقسام مصطفة فيها الطاولات خص كل قسم منها بنوع من حيوانات الماءِ، ورأينا من اختلاف الأَصناف والأشكال والألوان والأثمان ما لم يكن داخلاً عندنا في حساب.

وقد صادف وجودَنا بالمدينة احتفالٌ أعدَّهُ الأهلون في تلك الليلة إجلالاً لحضور الملكة لذلك الثغر، فجمع من العالم على الكنال الكبير ما يفوق الحصر، وظهرت فيهِ المنازل المجاورة للماءِ ببديع الأنوار والأضواءِ وترنمت فيهِ الموسيقات بأَحاسن الأناشيد والنغمات، ولم يكدر ذلك الصفو غير المطر الذي كثر وقوعهُ تلك الليلة من السماءِ.

وبعد أن أخَذنا من التفرج حظنا عدنا لمحلنا فنمنا فيهِ بغاية الراحة على نيَّة السفر من هنا غداً إلى ميلانو.

* * *

(من البندقية إلى مِيلاَنُو)

قد اخترنا القيام من البندقية بوابور الصباح في السكة الحديديَّة تقديماً لهُ على غيره؛ إذ يقوم منها خمسة وابورات بالأقل في اليوم والليلة، لنصل إلى ميلانو في أثناءِ النهار، فتتمكن من رؤيتها، والاستراحة بها حتى اليوم التالي، فقمنا بوابور الساعة تسعة وربع من صباح يوم السبت 27 يوليو سنة 1889، وسرنا بين أودية لطيفة، ومناظر ظريفة، وأنهار وبحيرات وأشجار وغابات، ومررنا على محطات كثيرة يشابه بعضها بعضاً، وإن اختلفت وضعاً واتساعاً وانخفاضاً وارتفاعاً، حسب أهمية المدن والبلدان، ولا نخصُّ واحدة منها بالذكر غير أن محطة (بَسْكِيِيرَا) الواقعة على بحيرة (جْوَارْدْ) بقربها تمثال (سُولْفِيرِينُو) ينظرهُ من ورد تلك المحطة، وهو تمثال شهير موضوع بالقرية الَّتي تسمى بذلك الاسم بين بَسْكِيِيرَا السالف ذكرها (ومَانْتو)، وجُعل في ذلك الموقع تذكرة للواقعة الحربيَّة الشهيرة الَّتي حصلت هنالك في سنة 1859، وانتصر فيها الفرنساويون على النمساويين انتصاراً عظيماً، وهو أشبه شيءٍ بعمود السواري عندنا، وفوقهُ شبه تاج من الحجر.

وما زال الوابور ينتقل بنا، ونحن نتناقل الحديث مع من ساقتهُ لنا الصدفة من السايحين، فكان فيهم أحد محرري (غازيتة ميلانو) وآخرُ طالبُ علم في بُولونْيَا، فأَخذ الأول بعد تعرُّفهِ بنا، ومعرفة جهة قصدنا، واستيفائِه منا جميع الاستعلامات، واستفهامهِ عما يهُمهُ من الاستفهامات ينصحنا في أمر الفنادق في ميلانو، والتفرج على ما يجب التفرج عليهِ فيها بتقديم الأَهم على المهم، وأخذنا نستفهم منهُ ما يهُمنا الوقوف عليهِ من العوائد والأخلاق، كما أخذ هو

يناقشنا في عادات الشرق، وأخلاق ساكنيه، إلى أن انتهى بنا الحديث على تحجُّب النساءِ فيهِ، وصار كل فريق يورد مزايا الطريقة الّتي ينتصر لها، ويؤيدها بالأدلة والبراهين، فكنا نعتمد في دفاعنا على أنّ التحجب من موجبات العفاف، وكان يحتجُّ علينا بما في عدمهِ من إمكان التعاون وتيسر المساعدة بأن قال: إن من عوائدكم حجب النساءِ عن الرجال، وذلك أمرٌ فيهِ من الصعوبة ما لا يخفى؛ فإن المنع من مقتضاهُ عدم المعاونة، والاختلاط فيهِ التعاون على المعاش، وأظنكم لا تنكرون ذلك، فأجبناهُ أن الحجب عندنا ليس على إطلاقهِ بل الممنوع اختلاء الأجنبي بالأجنبيّة من غير أن يكون معهما ثالث مميز، أما الاختلاط الذي فيهِ التعاون في أمر المعاش لم يمنعهُ عندنا شرع ولا عادة، بل للمرأة أن تبيع وتشتري وترهن وتشارك إلى غير ذلك من أنواع المعاملات، نعم اختلاط النساءِ بالرجال الذي يكون كاختلاط أهل أوروبا في المجتمعات العموميّة والخصوصيّة ممنوع عندنا، وهو لا فائدة لهُ في أمر المعاش، مع أنهُ ربما يكون داعية لما هو ممنوع عندنا وعندكم.

ثم انتقلنا من ذلك بعد الكلام طويل فيهِ إلى أمر تعليم النساءِ، فكان يظهر أن صاحبنا يظن منع تعليمهنَّ عندنا، فأفدناهُ أن تعليمهنَّ عندنا ليس ممنوع، بل منهُ واجب كتعليمهنَّ أمر دينهنَّ، ومنهُ مباح كتعليمهنَّ الصنائع واللغات على اختلاف أنواعها من غير تقييد فيها، حتى الطب والهندسة، وقد ورد في الشرع الشريف إرشادات كثيرة في تعليمهِن، وأنشئت لهنَّ المدارس فيما مضى من الزمان فنبغ منها عالمات فاضلات تولينَ أمر تعليم غيرهنَّ حتى الرجال، ورويَن الحديث، ونبغنَ في جميع العلوم والفنون، واشتهرنَ بالتأليف والتصنيف والأشعار البديعة، وذكرنا لهُ منهنَّ السيدة كريمة راوية البخاري،

والسيدة عائشة الباعونيّة صاحبة البديعيّة المشهورة وشرحها، ولها ديوان شعر مشهور، وولاّدة الشهيرة وغيرهنّ، وعرفناهُ أن أمر تعليمهنّ لا يزال معتنى بهِ إلى الآن عندنا كل الاعتناءِ، وها هي مدارس البنات بمصر وغيرها مشهورة معلومة، فسُرَّ صاحبنا لذلك.

وانساق بنا الحديث من تعليم البنات إلى تعليم البنين، وعند ذلك أخذ الطالب البولوني في البحث والمناقشة معنا في أمر التعليم، فدل كلامهُ على أن أمر ذلك في بلادهم قائم على مبادئ صحيحة، وأصول منظمة، فأخذ سيدي الوالد يُبَيّنُ حال التعليم في بلادنا الآن، وانتشارهِ وإتقانهِ في هذه الأزمان.

وما انقطع هذا الكلام إلا عند تعاطي الطعام، وعدنا بعدهُ إليهِ حتى وصلنا ميلانو، وكانت المسافة من البندقيَّة إليها ست ساعات ونصف ساعة. فركبنا عربة ووصلنا إلى فندق (جراند أُوتيل دِي مِيلانُو)، وبهِ تركنا ما معنا من الأَمتعة، وغيّرنا من الثياب ما غيَّرتهُ للسكة الحديديَّة، وركبنا العربة نفسها، وأخذنا نجوب البلدة للتفرج عليها.

ورب معترض يعترض على التغيير فإنهُ على الظن لا يكون إلاَّ في البلاد الَّتي يكثر فيها الغبار والتراب كمصر وما يماثلها، أما تلك الجهات فلا يكوَن فيها ذلك لصلابة أرضها واكتسائها بالنبات من جميع الجهات، فيُجاب بأن التغيير الذي ذكرناهُ لم يكن منشأَهُ غبارُ الأرض، بل غبار دخان فحم الوابور، وهو أشد تأثيراً على الثياب ممَّا عندنا من الغبار، فإذا أصاب العين شيءٌ منهُ آلمها أشد الإيلام، وإن قال قائل: كيف بعد سفر ست ساعات ونصف نخرج للتفسح بدون استراحة؟ أجبناهُ بأن الأسفار في هذه الجهات والمعيشة فيها لا تشابه أسفار بلادنا، ولا معيشتنا فيها، فكأن

وجود الإنسان في هذه البلاد يكسبهُ النشاط، وسرعة الحركة، والحرص على الوقت، وحسن استعمالهِ، وعدم ضياعه بمجرد استنشاقهِ هواءها الذي جعل أهلها يجدون ويجتهدون ويهتمون في مصالحهم، فيتحصلون على ما يوجب لهم التقدم، ورغد العيش، فهم أعرف الناس بقيمة الوقت وعدم صرفهِ في البطالة والكسل، وما لا يغني، وأعلمهم بكيفيّة استعمالهِ، واجتناءِ ثمرات اشتغالهم فيهِ وإذا اعتبر هذا القائل حالنا في هذه الأسفار وتقدمنا وهمتنا ونشاطنا ومتابعتنا فيها الليل بالنهار مستديمين التفرج على المدن وغيرها، واستطلاع أحوالها اتضح لهُ ما ذكرناهُ، وعرفَ الفرق بين حال الإنسان في هذه البلاد وحالهُ في بلادنا فإن الإنسان في بلادنا إذا أَراد السفر من مصر إلى طنطا مثلاً فإنهُ يستعد لأخذ أهبة السفر، ويتردد في تجهيز ما يؤخذ وما لا يؤخذ من الثياب والمتاع، وذلك يستغرق زمناً طويلاً، وعند إرادتهِ ركوب الوابور يذهب إلى المحطة قبل الميعاد المحدد لقيامهِ بمسافة طويلة كان يمكنهُ أن يعمل فيها أعمالاً كثيرة، وإذا وصل إلى مقصدهِ فلا بدّ أن يستريح يومهِ هذا أو بعضهُ من غير أن يشتغل بشيءٍ ممَّا قصدهُ. فإذا أراد العود كان منهُ ما كان أولاً، فإذا وصل بالسلامة إلى مقرهِ استراح، وامتنع عن مقابلة الناس بعلَّة الاستراحة من السفر، بل قد تمتنع عنهُ أصحابهُ من أنفسهم طلباً لراحتهِ، وكنا نرجو أننا عند عودتنا إلى مصر لا نعود إلى هذه الحال من التكاسل والإهمال.

فإن قيل: إن السبب فيهِ عندنا حَرّ البلاد وهواؤها وإقليمها وماؤها، أجبنا بوجود ذلك في بعض الأقاليم الجنوبيَّة من أوروبا وأن من يقيم في بلادنا من أهل أوروبا مع وجود هذه الأسباب لا يكون حالهُ كحالنا، بل محافظ على الجد والاجتهاد والحرص على عدم ضياع الأوقات، فعلم أن الحر والماءَ

والهواءَ ليست أسباباً لهذا الداءِ، بل ذلك تطبُّع اعتدناهُ يمكن زوالهُ إن نحن حاولناهُ.

ولنرجع إلى ذكرِ ميلانو فنقول: إنها مدينة من مدن إيطاليا في وسطِ سهل، أرضهُ خِصبة ذات تقدم في الزراعة، ويبلغ سكانها نحو 262 ألف نفس.

وهي منقسمة إلى قسمين: أحدهما المدينة القديمة يكتنفها خليج نَافِيلْيوجْرَانْدِي، وثانيهما المدينة المستحدثة، وقد أقيمت مكان الضواحي القديمة بين الخليج المار ذكرهُ والسور المحيط بالبلدة.

فأخذنا نسير في طرقاتها فوجدنا أكثر طرقات القسم القديم غير منتظمة في الإعتدال والتبليط والقسم الجديد طرقاتهُ على ضد من ذلك، فإن الكثير منها غاية في التنظيم والسعة والإحكام خصوصاً الطريق المُسَمَّى (كُورْسُوفِكْتُورْ إِيمَانْوِيلْ) فإن بجانبهِ أحسن الدكاكين كبيرة وصغيرة، وطريق (كُورْسُودِي بُورْتَا وينيسيا) وهو قسم من الطريق الذي قبلهُ.

ثم رأينا الميدان (بِلاَتْسُودِلْ دُومُو) وهو في وسط المدينة وعلى أحد جوانبهِ الكنيسة الكاتدرائية الشهيرة، وهي أكبر كنائس أوروبا بعد كنيسة القديس بطرس بروما، وبعد كنيسة إشبيلية عاصمة الأندلس بأسبانيا.

فدخلنا هذه الكنيسة، وهي معدودة من عجائب العمارات بالنسبة لجودة المواد المستعملة في بنائها وحسنها وإتقانها، وما فيها من التصاوير والتماثيل المحكمة الصنع العجيبة الوضع، وهي إن ابتدئَ في بنائها سنة 1386 لكن لم تتم إلى الآن، ويفوق داخلها خارجها في كثرة التماثيل، وحسن النقوش، وكثرة الأعمدة وارتفاع السقف، وإتقان تبليط أرضها بأنواع المرمر المختلفة

الألوان والأشكال الّتي هي الغاية القصوى في الإبداع.

وفي الجهة الشماليّة من (بلاتْسُودِلْ دُومو) المار ذكرهُ العمارة الهائلة المعروفة بـ (جَالِيرْياً فكتور إيمَانويلْ)، وهي بناءٌ عظيم غاية في الإحكام والزينة والزخرفة، وفيهِ عدة طبقات يتخللها طرقات واسعة مغطاة جميعها من الأعلى بالزجاج، ولهُ أبواب من سائر جهاتهِ، أهمها ما يدخل بهِ من هذا الميدان وبهِ من البضائع والحرائر وغرائب المنسوجات وبدائع المصنوعات ما لا يدخل تحت الاستيعاب، مكتوب بأعلى مدخلهِ بالخط الجلي (من الميلانيين إلى فكتور إيمانويل).

ثم بعد ذلك تفرجنا ولكن من الخارج على سراي (بْرِيرا)، وهي أشهر أمكنة ميلانو بعد الكنيسة السابقة، وتحتوي على متحف رسومات من صنع أشهر الرسامين، وعلى متحف فيهِ مجموعة من النقود القديمة فريدة في بابها.

ولم يساعدنا الحظ بالنسبة لضيق الوقت وقرب الليل على زيارة الكتبخانة الّتي هي من أعظم ما يزار بميلانو؛ نظراً لما تحتوي عليهِ من الكتب؛ إذ يبلغ عددها 140 ألف مجلد، منها عشرون ألفاً بخط اليد كثير منها نادر الوجود لا تدخل قيمتهُ تحت حد التقدير.

وقد دلّتنا هيئة العمارات بميلانو وزخرفتها على غنى أهلها، ولا غرو في ذلك، فإن بها كثيراً من فاوريقات الحرير والقطن، ولها تجارة عظيمة ساعد عليها سهولة اتصال هذه المدينة بواسطة الخلجان الصناعيّة إلى أنهر لومبَارْدِياً وبحيراتها، بحيث صارت من أغنى مدن إيطاليا وأوسعها ثروة.

وبسبب سعة تجارتها تتردد عليها الأجانب من كل جانب، فاستلزم ذلك اعتناءَ أهلها بالفنادق، فهي فيها من الدرجة الأولى فهذا الفندق الذي نزلنا بهِ

من أحسن ما رأينا من الفنادق إتقاناً، فجميع غرفهِ يستصبح فيها بالكهرباءِ، وبهِ محل للتلغراف، وآخر للبوستة، وآخر للسكة الحديد، وبهِ الحمامات، وغير ذلك من المستلزمات، حتى إن القائمة الّتي تعمل فيهِ كل ليلة عن أصناف الأكل الذي أعد لطعام المساءِ تطبع ببيان اليوم وساعة ابتداءِ الأكل، فتجد هذه القائمة مطبوعة في صحيفة من أربع صحف مملوءَة الثلاثة الباقية منها بإعلانات عن الدكاكين الّتي يجد المسافر فيها ما يحتاجهُ عادة من الأشياءِ مع بيان مواضعها.

ومع تردد الأجانب على هذه البلد كما ذكرناهُ فإنها مع ذلك يظهر أن أهلها غير متعودين على تردد المشرقيين بملابسهم المشرقيّة فإننا رأينا منهم غاية الاستغراب لهيئة الطرابيش، وبالأكثر لهيئة الجبة والقفطان اللذين كانا يلبسهما أحد رفقائنا ولكننا مع ذلك لم نرَ ولم نسمع منهمن قط ما يؤخذ منهُ الاستهزاءُ، والصحيح أن سكان هذه البلد وسكان مدينة البندقيّة الّتي قبلها غاية في اللطف ورقة الطباع.

وبعد أن أكلنا طعام المساءِ، واسترحنا في الصالون حيث اطلعنا على الغازيتات والأخبار تمشينا بشوارع البلد لرؤية هيئتها في الليل، فإذا جميعها منوّرة بالنور الكهربائي، فجعلها في الليل كالنهار.

وحيث كان بلغ منا طلب النوم حَدّه لا سيما مع سفر اليوم، والمشي في الليل، وفي النهار، فقد نمنا نوماً طيباً إلى الصباح.

* * *

(من ميلانو إلى لُوسِرْنْ بطريق سَانْ جُوتَارْ)

الطريق الذي سلكناهُ من ميلانو إلى لوسرن من أعظم الطرق الّتي سلكناها في سياحتنا من أولها إلى آخرها، فجزى الله من دلّنا عليها أحسن الجزاءِ، فإننا رأينا فيها من بدائع الخلقة وعجائبنا ومدهشاتها وغرائبها، ومن لطائف عمل الإنسان ما لم يكن في الحُسبان.

أما عجائب الخلقة فلأَن أرض السويسرة من أخصب الأرض وأبهاها وأجملها رونقاً وأزهاها، من حيث الخضرة والنضرة، والمناظر الحسان في السهول والبحيرات والأَودية والغدران.

وأما عجائب عمل الإنسان فلاقتدار أقوام هذه الجهات على تسيير السكك الحديديّة بجبالها الجسيمة الشاهقة، وأَوديتها الغائرة والمتسعة، حتى يسهل الوصول من جهة إلى أخرى.

وطرق المواصلات في هذه البلاد ثلاثة: طريق السكك الحديديّة الّتي سلكناها، وطريق البحيرات بوابورات البحر، وطريق البر بالركائب، وأحياناً بالعربات.

وقد اخترنا الطريق الحديديّة لسهولتها عن غيرها، ولاستمرارها كل المسافة بدون انقطاع، لا كما يكون في حال السفر في البحيرات، فإنها غير متصلة ببعضها، ولا كما يكون في السفر بالركائب، فإن فيهِ من الطول والمشقة ما ليس في الأخريين.

واخترنا من بين الوابورات الّتي تقوم من ميلانو إلى لوسرن البالغ عددها

سبعة في كل أربعة وعشرين ساعة الوابور الذي يقوم صباحاً؛ لنتمكن من رؤية ما يستحسن في الطريق على ضوء النهار، ونمر بمنفذ سان جوتار.

فركبنا الوابور من مِيلاَنو الساعة 55,9 دقيقة من صباح يوم الأحد 28 يوليو سنة 1889م، وسار بنا حتى وصل إلى لُوسْرِنْ، والساعة 35,5 دقيقة بعد الظهر، أي قطع ما بين هاتين المدينتين في مسافة ثمان ساعات إلاَّ ثلث ساعة.

وكان طريقنا المذكور جميعهُ متجهاً من الجنوب إلى الشمال، مائلاً إلى الغرب قليلاً، فاجتزنا أولاً ما بقي من أرض إيطاليا مارّين على بحيرة كُومُو، حيث وقفنا بجوارها ثلاث دقائق، فوصلنا بعدها إلى كِيَاسُو، وهي أول حدود السويسره بعد مسافة ساعة وثلث من ميلانو، وقد مررنا في [هذه] الأثناءِ على أودية لطيفة، وسهول في غاية الخصوبة.

ثم سرنا من كِيَاسُو حتى وصلنا بحيرة لُوجاَنُو، فسرنا على جانبها الشرقي مسافة، ثم اجتزناها وسرنا على جانبها الغربي بمحاذاته حتى وصلنا مدينة لوجانو الواقعة عليهِ في منتهاهُ، فوقفنا ثلاث دقائق.

ومدينة لوجانو هذه أهم مدن إقليم تيسَّان من أعمال سويسرة، وهو الإقليم الي حصلت فيهِ اضطرابات سياسيَّة في سنة 1890م اضطَّرت حكومة السويسرة العمومية لأَن تتداخل فيها بالقوة العسكريَّة، وطنطنت بها الجرائد مدة من الزمن.

ومنظر هذه البلدة وبلدة كومو الَّتي قبلها غاية في اللطف؛ لانتشار مساكنهما ذات اللون الأَبيض المحيطة بها الحدائق على شطوط البحيرة، وتزيدها أشعة الشمس وانعكاساتها فيها رونقاً وبهاءً.

ثم استمرَّ بنا المسير نجتاز الأودية والغابات والأنهار، ونصعد المرتفعات كل ذلك بين مناظر متغيرة، وأبصار متحيرة، فكنا نمر من أَعلى الوادي على قناطر من خشب بحيث يهولنا النظر إلى قرارهِ لبعدهِ، وعدم التمكن من التحقق منهُ، ثم نصعد الجبل فتخف سرعة الوابور من نفسها، وإن كانت حركتهُ هي لم تتغير قوتها، وإنما ذلك لصعوبة الصعود، وكثيراً ما تحايل القوم المكلفون بأَعمال هذه السكك الحديديَّة على ارتقاءِ المرتفعات العالية بتقاويس يتخذونها في الطريق واعوجاجات يعملونها فيهِ، فلعسر صعود الوابور بما فيه إلى المرتفع العظيم على خط مستقيم من نقطة الذهاب إلى نقطة الوصول، أو من الجنوب إلى الشمال مثلاً يثني المرار العديدة لوصولهِ إلى ذلك المرتفع، فيذهب إلى جهة الشرق مسافة كبيرة يكون فيها مع ذلك متجهاً ما أمكن لجهة الشمال، حتى إذا بَعد عاد إلى جهة الغرب بحَسَب مرتقياتهِ وهو مع ذلك يَستمر في سَيرهِ من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب متجهاً ما أَمكن نحو الشمال فيصل أَخيراً إلى النقطة المرغوبة فيرى الإنسان في صعودهِ إلى هذه المرتفعات، إذا تأَمل للطرق الحديديَّة الَّتي تحتهُ أنهُ مرَّ بطرق كثيرة فوق بعضها، وأنهُ في وقت النظر في الطريق الثالث أو الخامس، وتلك تحتهُ وهو فوق القناطر المعمولة فوقها لا يزال يصعد، ولا تزال تلك الطرقات تختفي عَنهُ تارةً، وتبتعد أُخرى حتى يشغل نظرهُ منظر، أهم، وأَبهى أو يَصل بالسَّلامَة إلى المحل المقصود.

وما زال بنا السير على هذا الحال نصعد جَبلاً، ونعبر وادياً، ونجتَاز نهراً، ومنفذ سَانْ جوُتَاز يقرب منا، والشوق إلى مرآهُ بلغ منتهاه، مارِّين على مدينة بِياسْكاوفيدو حتى وصلنا إلى إيرُولُو، وهي المحطة الواقعة في أول المنفذ.

وما أدراك ما هو منفذ سَانْ جوُتَاز طريق صار حفرهُ في جبل شاهق يبلغ ارتفاعهُ في بعض مواضع أكثر من ألفي متر لمرور الوابورات منهُ بالبضائع والمسافرين لسهولة المواصلات بين جنوبهِ وشمالهِ، وتقريبها عما كانت عليهِ قبلهُ بمسافات عظيمة بين إيطاليا وألمانيا، وبينها وبين فرنسا وغيرهما من الممالك، وقد كان قبل ذلك طريق سان جوتار المعروف بهذا الاسم كلهُ على سطح الجبل لا يتيسر عبورهُ بالعربات حتى تعاونت الأقاليم السويسريَّة على إصلاحهِ وجعلهِ صالحاً لمسيرها، فابتدأت فيهِ سنة 1820م، وانتهى سنة 1832م، وعرضهُ في الغالب ثمانية أمتار.

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أن هزت الغيرة وحب التسهيل ورواج التجارة بعض الماليين لعمل الطريق الحديدي الحالي تحت الجبل المذكور، فتحصلوا بعد جهد جهيد على إقناع الحكومة السويسريَّة بالدخول فيهِ، وهذه رأت من الصواب أن تشترك في مصاريفهِ الدول اللاتي تنتفع من المرور بهِ، وتقدرت نفقاتهُ بمبلغ 165 مليوناً من الفرنكات، تعهدت الحكومة السويسريَّة بأن تعطى منها تبرعاً عشرين مليوناً وإيطاليا 45 مليوناً وألمانيا 20 مليوناً، وتألفت شركة ماليَّة في 6 ديسمبر سنة 1871م، سميت باسم (شركة سان جوتار) ذات اسهم تعهدت بالثمانين مليوناً الباقية.

وتعهد بالعمل الموسيو لويس فابرْ أحد أهالي السويسرة، واشترط عليهِ أن يتمهُ في 8 سنوات باعتبار 2800 فرنك عن كل متر في مقابل أعمال الحفر دون البنا.

وابتدئَ في 13 سبتمبر 1872م بالعمل في هذا المنفذ من جهة الجنوب، وفي 9 أكتوبر سنة 1872م من جهة الشمال.

وبقي العمل مستمراً بعض سنين، إلى أن ظهر من صعوبات طرأت في الطريق أن المبالغ الَّتي تقدرت للعمل بادئ بَدْءٍ غير كافية لإتمامهِ.

فاضطربت الأفكار، وخِيف من عدم إتمام العمل، وكثر الجدال، واشتدَّ القيل والقال، وكاد أن يفوز معارضو هذا العمل العظيم لولا أن تداركت الحكومة الأمر، فاتحدت مع من لهم صالح فيهِ، وعينت قومسيوناً دوليًّا بحث في المسألة، وفيما يلزمها من مصاريف، واقتصر في الخطوط الَّتي كان التصميم على إجرائها أولاً على اللازم الضروري منها دون سواهُ حتى أمكن حصر المبالغ الَّتي يلزم زيادتها على المبلغ الذي صار تقديرهُ أولاً في مبلغ أربعين مليوناً فقط، وصار توزيعها باتفاق أولي الشان جميعاً بينهم، فقبلت إيطاليا عشرة منها وألمانيا عشرة، وسويسرة ثمانية، والشركة قامت بالاثني عشر الباقية.

وعلى ذلك بقي العمل مستمرًا بلا انقطاع، بل ازداد الجد فيهِ إلى يوم 28 فبراير سنة 1880م الساعة 7 صباحاً، حيث تقابل عمال الحفر من جهة الجنوب بعمال الحفر من جهة الشمال؛ لأن الأعمال كانت جارية من الطرفين في آن واحد طول المسافة كما تقدم.

وابتدئ سير الوابورات فيهِ في أول يناير سنة 1882م وطول هذا المنفذ من محطة إيرُولُو الواقعة عند مدخلهِ الجنوبي إلى محطة جُوشْنْ الواقعة عند مدخلهِ الشمالي 14912 متراً.

وارتفاع مدخليهِ المذكورين عن سطح البحر من جهة الشمال 1106 أمتار، ومن جهة الجنوب 1179 متراً.

وقد صُنعت جميع أعمالهِ الحفريَّة بواسطة الهواءِ وضغط الماءِ، وتجتازهُ

الوابورات في مسافة تختلف باختلاف سيرها في السرعة بين 20 دقيقة وخمسة وعشرين دقيقة، فإن نظرت كم عمل فيهِ من العمال، وكم صُرف عليهِ من المال حكمت بغاية تقدُّم الصنائع في هذه البلاد، وبنهاية اعتناءِ أهلها بكل ما يوجب لها الخير والإسعاد.

فاجتزنا هذا المنفذ من أولهِ إلى آخرهِ في مسافة 20 دقيقة كانت العربات فيها مضاءَة بالأنوار، والذهن في غاية الدهشة والحيرة من هذا الصنع البديع.

ولم يكن السبب في الدهشة والحيرة غرابة الممر، فكثيراً ما مررنا من منافذ في الجبل استغرق بعضها بعض دقائق، وهذا مثلها في النوع والحالة، وإنما الاستغراب من طول مسافة المنفذ، ومثابرة العمال على العمل حتى أمكن المرور بقوة البخار هذه المسافة في هذا الجبل البالغ ارتفاعهُ في بعض مواضعهِ أكثر من ألفي متر كما مرَّ.

ولما وصلنا المحطة الأخيرة وهي محطة جُوشْنْ كما سبق وقف الوابور بها نحو ثلاث دقائق، تمكنا في خلالها من شراءِ بعض الأشياءِ الَّتي تبيعها هناك بعض الباعة من مصنوعات هذه الجهة، ومن أحجار هذا الجبل لتكون للسائحين تذكاراً لمرورهم واحتيازهم، ودليلاً لهم يُحاجُّون بهِ من أنكر عليهم ذلك، وإني أتذكر أنني اشتريت فيما ابتعت ميزان حرارة فوجدت درجة الحرارة فيهِ ذلك اليوم (28 يوليو سنة 1889م) بعد الظهر في الشمس عشرة فوق الصفر، فتأمل وقارن بين درجة الحرارة في ذلك المرتفع، وبين درجتها بمصر في مثل هذا التاريخ تعرف الفرق.

ثم استمَّر بنا المسير في طريقنا بعد ذلك نجتاز الأنهر، ونعبر البحيرات، ونمر بالأَودية والغابات بين جبال شاهقة، وأنهار دافقة، وبحيرات رائقة،

ومناظر غاية في البهجة، حتى وصلنا إلى بلدة فْلُويلَن، وهي أول بحيرة لوسرن من جهة الجنوب، وسرنا بشاطئها مدة وهي على يسارنا حتى وصلنا محطة بَرونن، ثم اتجهنا إلى الشرق، فمررنا ببحيرة، لوفِرْتْسْ، وكانت على يسارنا أيضاً، ثم إلى بحيرة زُوجْ، وكانت على يميننا فاستمرت كذلكَ إلى محطة أَمَّانْس فتركنا بحيرة زوج المذكورة وعدنا إلى بحيرة لُوسِرْنْ، فمررنا بحذاءِ شاطئها من الشرق إلى الغرب، حتى وصلنا إلى لُوسِرْنْ، والساعة 35,5 دقيقة بعد الظهر كما قدمنا.

* * *

لُوسِرْنْ

بمجرد وصولنا إليها وجدنا بالمحطة أشخاصاً لا تُحْصَى من رجال الفنادق المرسلين لاستقبال الزوار، يُعْرف كل منهمن عن اسم الفندق الذي هو من قبلهِ، فسلمنا في الحال تذكرة الأَمتعة إلى رجل (أُوتيل ضَوابِنْ)، الذي نحن عازمون على النزول بهِ، وتركناها لهُ، وركبنا عربة الفندق المذكور، حتى وصلنا إليهِ، وإذا بهِ مملوءٌ بالعالم، لم يبق فيهِ من غير سكني إلاَّ ثلاث غرف فقط، إحداهما بها سريران، اختصصتُ بها وسيدي الوالد، والأُخريان كل واحدة بها سرير اختص بكل واحدة واحد من رفيقينا، وما لبثنا أن حضرت الأَمتعة، فأُرْقِيتْ إلى غرفنا، وتفرجنا على ذلك الفندق واستعدادهِ وموقعهِ، وإذا بهِ من أحسن الأماكن مُطِلٌ على البحيرة، غاية في اللطافة.

وخرجنا بعد ذلك نمشي بشاطىءِ بحيرتها، فإذا هي متسعة الأَنحاءِ، غزيرة الماءِ، نقيَّة الهواءِ تحف بها تيجان أنوار الكهرباءِ، فتراها عند انعكاسها في الماءِ كأَنها النجوم في السماءِ، أو دراهم نثرت على بساط أَخضر، أو قطعُ ألماس بتاج ملك مظُفَّر، فكان النور شاملاً، والضياءُ كاملاً، كأَنما الشمس في رابعة النهار، نشأَت عنها هذه الأَنوار. وإذا هبت الريح على سطح تلك الأَنوار في الماءِ عدة مرايا في أَكُفّ شَلاَّءٍ، فللّهِ هذا المنظر ما أَحسَنَهُ وأَعلاهُ وأَغلاهُ واتقنهُ.

وما زلنا نسير على شواطىءِ هذه البحيرة، نمتع النظر بأَنوار تلك الفنادق

العظيمة المطلة عليها، وبما نراهُ حولها من اجتماع الناس لسماع الموسيقات الّتي احضرها البعض من أرباب هذه الفنادق، تسليةً للمسافرين، فتُنْشِد الأناشيد البديعة كل يوم أمام أبوابها على شاطىءِ البحيرة، ويكثر لذلك احتشاد الناس، لاسيما في يوم الأحد وقت البطالة من الأعمال، وترى الرجال والنساءَ في حال الاجتماع للاستماع، وفي حال التفرق للتنزه حول تلك البحيرة، مستصبحين بأنوارها الساطعة، وهؤلاءِ النساء كاملات الجمال كأنهنَّ البدور السافرة تدهش الألباب، وتنعش الأرواح وتأخذ بمجامع القلوب.

ولُوسِرْنْ هي رأس الإقليم المسمى بها من أقاليم السويسرة، ويبلغ عدد سكانها 17000 نسمة، وهي واقعة بمنتهى بحيرة لُوسِرْنْ من جهة الغرب على نهر رُوسْ من جهة مأخذه من البحيرة المذكورة، وهي موضوعة في موضع عجيب بين جبل ريجي من جهة، وجبل بَيلاتْ من جهة ثانية.

وأعظم أثر رأيناهُ فيها هو تمثال سبع منقور في جبل ملاصق للبلد على عين ماءٍ، ولقد اتُّخذ هذا التمثال تذكاراً للضباط والعساكر السويسريين الّذين ماتوا في ليلة 2 اغسطس سنة 1792م، وهم يدافعون عن سراي تُوِيلْرِي مقر لويس السادس عشر ملك فرانسا، الذي قتل في الاحتلال الفرنساوي الحاصل في تلك المدة، وكان اتخذ حرسهُ منهم اقتداءً بأسلافهِ، فلما ثار عليهِ الأهلون استمر هؤلاءِ الحرس السويسريون على المدافعة عنهُ حتى قتلوا فلم يتيسر للأهالي الاستيلاء على السراي الملوكية إلاّ بعد فناءِ هؤلاءِ، الأَثر عبارة عن أسد مات قابضاً على أرمة (شِعار) ملك البربون وجنبهِ مجروح بطعنة بليغة، بحيث يظهر على سيماه شعار الضجر والتألم،

يشيرون بذلك إلى شجاعة السويسريين، وصدق وفائهم، حيث إنهم لم يبالوا بالموت في جانب صدق العهد وحسن الوفاءِ.

وبجوار محل هذا الأثَر محل تصاوير، مصور فيهِ تلك الواقعة، واقعة موت السويسريين، على قماش طولهُ 16 متراً، ممثل فيهِ قتال الضابط والعسكر على سلم السراي يتناوشون مع الأهلين للذود عن السراي، فتراهم ما بين مشتغل بالقتال ومطروح على الأَرض، وعلى دَرَج السلَّم، وجريح دمُهُ يَسيل.

وفيها غير ذلك مما يتفرج عليهِ، وهو بعض الكنائس، ومحل الأَسلحة القديمة، وبالأَخص القناطر الممدودة على نهر رُوْس، وأخصها القنطرة القديمة لما تشتمل عليهِ من الرسوم والنقوش العتيقة الَّتي تمثّل بعض تواريخ سويسره، وبجانب هذه القنطرة البرج القديم المتخذ من سالف العهد دفترخانة تحفظ فيها أوراق المدينة ودفاترها، وهو في وسط النهر.

ومياه هذا النهر غاية في الصفاءِ ذات لون أخضر، وهو يَقْسم المدينة إلى قسمين متصلين بأربعة كوبريات.

وقد بقيت المدينة على هيئتها القديمة من حيث طرقاتُها والسور المحيط بها، وهو مشتمل على بروج سبعة.

والقسم الواقع على شاطىءِ البحيرة قد توسعوا في عمارتهِ، وأقاموا فيهِ فنادق كبيرة من أَحسن الأشكال.

ولم تكن هذه الفنادق البالغة حد النهاية في الزينة والرونق هي السبب في جلب من يقصد التنزه من الأجانب إلى لُوسِيرْنْ، وإن كانت لا تنكر لديهم مزاياها، وإنما السبب في ذلك حسن وضع المدينة وما جاورها من المرتفعات الزاهية الباهية الباهرة، وما انتشر على تلك المرتفعات من

القصور الجميلة الصنع المحكمة الوضع، ثم ما ينضم إلى ذلك كله من اللطائف الْخِلْقيَّة من أزهار وأشجار وأنهار، مما يدهش الناظر، ولا يَقْدُرُ قَدْرَهُ الواصف، وما ينبت بجبلَيْ ريجي وپيلاَت المجاورين للمدينة من أنواع النبات البهيج، والشمس حين تغرب فتترك بعدها الأُفُق مستنيراً بسبب انعكاس أشعتها برهة من الزمان، وهو مرأى لطيف بديع المثال، والمطر إذا حصل صيفاً فيترك بعدهُ قوس قُزَح كأنهُ يُشير بهِ إلى صفاءِ الوقت، وانتشار السّلم، وهو على هيئة يَعْجِزُ عن وصفها لسان الشاعر ويد الرسام.

والمتنزهات[1] حول لوسرن كثيرة تزيد في حسنها وبهائها الخلقي على غيرها، أخصها مُرتَقَى جُوتْش، ومَصعَد ريجي، ومَصعد پيلاتَ.

وقد تفرجنا على الأَولين، واستغنينا بثانيهما عن الثالث. إذ لا فرق بينهما إلاَّ في الارتفاع.

أما مُرتقَى جوتْش فمصعدهُ على مقربة من قشلاق لوسرن، ويُصْعَد إليهِ بالقدم في مسافة 20 دقيقة، وبالعربة المخصوصة بهِ في مدة ثلاث دقائق في منحدر طولهُ 180 متراً ومقدار انحدارهِ $\frac{52}{100}$.

ويكون الصعود إليهِ في عربة مدرجة على حسب ارتفاع الأَرض، تسير على خطين متوازيين من الحديد، على كُلٍ منهما عجلة للعربة، على وضع سكة الحديد المعتاد في بلادنا، وتزيد هذه للمساعدة على صعود هذا الانحدار بعجلة ثالثة مضرّسة بأَضراس ناتئة، بين كل اثنين منهما بقدر أحدهما، فتُعَشِّقُ هذه الأضراس بمثلها في الأرض من شريط حديدي على مثالها تسير فيهِ صاعدة وهابطةِ، يجرها حبل مرتَبط بهِ عربة قرينة لها تنزل من الأَعلى إلى الأَسفل، فتجر الَّتي في أسفل بواسطة الحبل، فبمقدار ما

(1) في الأصل: «متنزهات» المحرر.

تنزل إحداهما تصعَد الأُخرى، ويلتقيان في منتصفَ الطريق، فمتى وصلت السافلة إلى آخر المنحدر من الأَسفل تكون قد صَعِدت الأُخرى إلى آخرهِ من الأَعلى، وبعد ذلك ببرهة تبتدئ الَّتي صعدت في النزول، فترجع التي كانت نازلة إلى الصعود للأَعلى، وذلك بواسطة الحبل المرتبط طرفاهُ بكلٍ منهما، وهو دائر على محور في أَعلى المنحدر.

فإذا نزلت إحدى العربتين جذبت الأُخرى المقابلةَ لها بثِقَلِها إلى أَعلى، ويمر هذا الحبل في أثناءِ سير العربتين الصاعدة والهابطة على بكرات من الحديد، تُسْهِلُ مرورهُ، وتحول بينهُ وبين مفارقتهِ موضعهُ.

وهكذا تستمر العربتان في صعود وهبوط، وفي جانب كلٍ منهما على طولها وفي أسفلها حوض على شكل أسطوانة يُملأُ بالماءِ النازل من الجبل في المجاري المعدة لهُ بمحابس منتظمة، فمتى امتلأَ حُبِسَ عنهُ الماءُ، وأخذت العربة المملوءُ حوضُها في التزول، فَتَرْفَعُ بقوة نزولها العربة الثانية الواقفة بأَسفل الموقف، وفي أثناءِ نزولها ينصب منها الماءُ تدريجياً حتى إذا وصلت إلى الأَسفل يطلق منها ما بقي بها من الماءِ ليَسهُل على العربة الَّتي صعدت وقد امتلأَت بالماءِ بعد صعودها أن تجذبها من الأَسفل إلى الأَعلى بقوة نزولها.

وهكذا، وقد جعل إلى جانب عجلة كلٍ من العربتين قطعة من الحديد مستديرة قد أُعِدَّت للأَمن من الخطر لو انقطع الحبل وهي مرتكزة على قائمة من الحديد رافعة لها مشدودة بهذا الحبل، فإذا انقطع الحبل سقطت الرافعة لها فتسقط القطعة، فتحول بين العربة وبين سقوطها راجعة، فيأْمَنُ لذلك راكب العربة.

وهذه الطريق بما بها من العربات والأَدوات في ملك رجل يسمى

بُوزِنْجِزْ، مقيم في دار لهُ بأعلى الجبل، قد اتخذ فيها فندقاً يقصدهُ السائحون المتفرجون هناك، ومحل قهوة، وكلاهما مطلّ على مدينة لوسرن، وعلى مواضع من جبال الألْبْ.

وجوانب البحيرة وفروعها ذات مناظر بديعة حسنة، تعجب الناظر، وتسر الخاطر ويُصعَدُ إلى سطح هذا الفندق بُمزَقٍ[1] يسع ستة أشخاص، يرتفع بواسطة ضغط الماءِ، فيجدُ الصاعد على السطح شبه منارة ذات ثلاثة أدوار، يرى من أدوارها هذه كل ما حولها من الجبال والآكام والبحائر والأغوار، فلما جئنا إلى هذه الجهة ورآنا صاحبها المومىء إليهِ عرف بواسطة الطربوش والملابس ومكالمتي مع سيدي الوالد العزيز أَننا من مصر، وسألنا عن ذلك فصدقنا توسمهُ، وعند ذلك أخبرَنا أنهُ سَبقَ لهُ الوفادة إلى مصر للسياحة، وذكر لنا بعض المواضع الّتي رآها من بور سعيد والإسماعلية والصعيد الأَقصى، وأخذ في الترحيب بنا، والاحتفال بأمرنا وأرْقَانا إلى سطح الفندق، وإلى أعلى المنارة، وعرّفنا بأهلِهِ وولدِهِ، كأَنَّ لهُ بنا معرفةً سابقة، وألفة قديمة، وتقدُّمُ اختلاطٍ ومعاشرةٍ.

وأما مَصْعَد رِيجي فيتوصل إليه بباخرة بحريّة تسير في بحيرة لُوسِرْنْ من موضع بقرب الفندق الذي نزلنا بهِ، فتستمر نحو ساعة إلَى أن تصل إلى قرية بشاطىءِ البحيرة تسمى «وِتْسْنَوْ» على مرائي ومناظر لطيفة طول المسافة، ونقف في عدة مواقف في أثناءَ الطريق إلى أن ترسو بالقرية المذكورة، ومنها يُنتقل إلى سكة الحديد، فيسار في عربات خاصة بها يجرها وابور مخصوص إلى أعلى الجبل، مارّةً على مواقف متعددة، يأْتي بيانها، فيقطع من ابتداءِ الطريق حيث المحطة الأولى بواسطة انحرافات واعوجاجات إلى

(1) أي معهد. المحرر.

آخر محطة مسافة 7058 متراً في مسافة ساعة وربع، مع أن ارتفاع القِمَّة الَّتي فوق هذه المحطة الأخيرة عن سطح البحر لا يصل إلى هذا القدر، بل هو 1800 متر.

وهذه الطريق عملت بمعرفة شركة تألفت في الأصل من ثلاثة أشخاص جمعوا بواسطة أصحاب لهم نصف المصاريف، وهو 625000 فرنك، وأما النصف الثاني فقد حصلوا عليهِ باكتتاب عمومي في بعض ساعات بمجرد تصديق المجالس النيابيَّة على هذا المشروع، وكان ذلك في 22 سبتمبر سنة 1869م، وانتهى الخط المذكور، وتم عملهُ، وافتتح بالطريقة الرسميَّة في 21 مايو سنة 1871م.

وفي هذا الخط عدة وابورات مصنوعة بطريقة مخصوصة، قوة الواحد منها 120 حصاناً بخاريًا، وسرعة سيرهِ واحدة في الصعود والهبوط، على أن الحركة في الصعود بالبخار، وفي الهبوط بواسطة ثقل الوابور في الانحدار، أما العربات فهي مكشوفة من سائر الجهات ما عدا جهة السقف، ليتمكن المسافرون من رؤية المناظر، وكل قطار يتركب من عربة واحدة، ووابور والعربة بها 9 صفوف، كل صَف ستة أشخاص، وبها آلة تُمَكِّن من إيقافها في حالة حصول خطر في مسافة لا تتجاوز خمسين متراً.

وتسير هذه الوابورات بين محطة وِتْسْنَوْ وبين محطة ريجي كُولِمْ، وهي آخر محطة، خمس مرات في اليوم ذهاباً، وخمس مرات إياباً، كما أن وابورات البحر تسير من لُوسِرْنْ إلى وِتْسْنَو، وتعود من هذه إلى لُوسِرْنْ بعدد تلك المرات.

وبعد أن بارح بنا الوابور وتسنّى امتد الخط معوجاً بارتفاع $\frac{25}{100}$ إلى أول مجازة تحت الجبل، واستمر بعدها في الارتفاع، وصار كلما صَعِد اشتَدَّ استغراب المسافر، ورأى ما أوجب تأمُّلَهُ، واستلفات نظرهِ، إلى أن اجتاز غابة صغيرة، ثم عقبها مجازة طولها 75 متراً، وبعد مفارقتها كان يُخَيَّلُ للناظر أن الأَرض تهوي بهِ، حيث قد اجتاز الوابور بعد تلك المجازة قنطرة منصوبة على فراغ هائل، دل على شدة مهارة صانعها، ومزيد جراءَتهِ في إقدامهِ على ذلك، فهال منظرهُ جميع السائحين، لا سيما النساءَ فإنهنَّ صحنَ عند رؤيتهِ لرعبهنَّ، ومزيد ارتياعهنَّ، ويقال: إنهُ قلما تجاوزت امرأة هذه القنطرة بدون أن يحصل منها مثل ما حَصل من النساءِ اللآتي رأيناهنَّ، واستمرّ السير إلى أن وصلنا إلى أول محطة على ارتفاع 1016 متراً.

فانتهزنا فرصة الوقوف فيها للتمتع بالمناظر البهجة، وإجالة الطرف في الجبال الّتي حولنا، وكانت قممها لم تزل مغطاةً بالثلوج في فصل الصيف الذي كنا فيهِ، والنظر في البحيرات الّتي تحتها، وكنا نراها تصغُر في أعيننا كلما ارتفعنا عنها.

ثم بعد مفارقة هذه المحطة الأُولى استمر سير الصعود، فرأَينا من جهة اليمين مناظر أَبهج وأبهى من الأُولى، وكانت المتخفضات تتعاقب في الرؤية كالمرتفعات، فلا نفارق هُوِياً إلاَّ وقد صادَفْنا مرتفِعاً، ولا نكاد نتأملهُ حتى نصادف هُويًا آخر، ولا تزال لُوسِرْنْ مع ذلك كلهِ تبدو للناظر في وَسَط خليجها وإِنْ صَغُرَ حجمها عندهُ، واستمر السير هكذا حتى وصلنا إلى ارتفاع جبال الأَلْبْ السفلى، فَقَلَّ وجود الأَشجار، ورأَينا الحشائش أقل ارتفاعاً من الّتي كنا نراها قبل، وإذا بنا وصلنا إلى ثاني محطة، وهي على بعد 1186 متراً عن سطح البحر.

ثم استمر بنا الصعود بعد مبارحتها في وسط أشجار صَنَوْبر بين مناظر عجيبة حتى وصلنا إلى ريجي كُتْبَاد، وهي ثالث محطة على ارتفاع 1433 متراً، ومنها يتفرع خط حديدي ثانٍ يتجه لجهة أخرى، وبها فندق كبير يمكن أن يسع خمسمائة نفس محدق بغابات وبساتين ولهُ موسيقا خاصةٌ بهِ، وببستانهِ كنيسة مبنيّة في وسط الصخور يتعبد فيها الكاثوليك كل يوم، ما عدا يوم الأحد، فإنهُ اختص بهِ فيها البروتستانت.

ويتيسر للأجانب التنزه في الغابة المختصة بهذا الفندق بمجرد الاستئذان من صاحبهِ، ويُعطى الزائرُ رسمَ هذه الغابة خشية أن يَضل عن الطريق فيها، ويوجد بقرب الكنيسة السالفة الذكر يَنْبوع ماءٍ يُعتقد فيهِ الشفاءُ من أمراض الفالج والروماتزم والحميات المتقطعة.

وبعد المسير من هذه المحطة بمسافة غير كبيرة وصلنا المحطة الرابعة، محطة سَتَافِلْهوهْ على بعد 1551 متراً، وإذ نظرنا ما تحتنا من الجبال الكثيرة رأينا في آخرها أربعةَ أقاليم من أقاليم السويسرة، وهي الّتي لأجلها تَسَمّتْ بحيرة لَوسِرْنْ ببحيرة الأربعة الأقاليم.

ثم بعد قليل وصل الوابور إلى محطة سْتَافِلْ، ومنها ترى محطة ريجي كُلْمْ، وهي المحطة الأخيرة كأنها قريبة ولكن قد استغرق الوابور في قطع المسافة الّتي بين هاتين المحطتين زمناً أكثر ممَّا كان يُظَنّ، حتى وصل إلى محطة ريجي كُلْمْ، وهي على بعد 1750 متراً عن سطح البحر الملح، ثم مشينا على الأقدام بعد ذلك مسافة (50) متراً فوصلنا إلى قمّةِ ريجي كُلْمْ حيث كانت مرتفعة عن سطح البحر بألف وثمانمائة متر.

وهذه القِمة على ممر الأزمان مطمحُ آمال السائحين في هذه الجهات؛ فإنها لانكشافها من سائر الأطراف يُشْرِف الناظر منها على جهات يتعسر

تحديدها من جهة الاتساع والامتداد.

ووجدنا هناك منظارات ترى البعيد، أعدَّها بعضُ الناس للإيجار، كما أعدوا بعض مرتفعات متخذة من الخشب، يُصعد فوقها بدرج يجد فيها الإنسان زجاجاً ملوَّناً بعضهُ، وبعضهُ مُسْوَداً بدخان الشمع مثل الذي يتخذ عندنا لنظر الشمس يوم كسوفها، فصعدت مع سيدي العزيز لإحدى هذه المرتفعات، وأخذنا ما يلزم من المنظارات، ورأينا ما يجعل الناظر في غاية الاندهاش.

ومن المتعسر تحديد ما يراهُ الإنسان حال كونهِ في هذه القمة من المبدأ إلى الآخر؛ فإن ذلك يختلف باختلاف قوة بصر الناظر وضعفهِ، وكثرة حدتهِ وقلتها، والجبال الَّتي تنظر منها كثيرة جداً، حتى حكى لنا بعض من لقيناهُ بهذا المرتفع من أهل تلك الجهات أنها 334 جبلاً، منها ستون مغطاة قِممها بالثلوج في الصيف والشتاءِ، والبحيراتُ الَّتي تنظر منها في أوقات الصحو أربع عشرة بحيرة بين صغيرة وكبيرة، وكثيرٌ من أفرادها يرى أنهُ متعدد، فإن الجبال قد تكون حاجبة للنظر في بعضها دون الباقي فَتَفْصِل البحيرة الواحدة في نظر الناظر، إلى بحيرات متعددة، ويمتد النظر بعد ذلك كلهِ إلى مئات من الفراسخ بحسب ما يستطيع الناظر الوصول إليهِ.

ومن هذا المرتفع يرى الرائي منظرين عجيبين: منظر شروق الشمس، ومنظر غروبها. أما شروقها فإن جميع من يبيت هناكَ تتشوق نفسهُ لأن ينظر ذلك، فيسمع قبل شروقها بمسافة نفخَ بوق لإيقاظ النيام، فيذهب كل منهم مبادراً ليجد لهُ مكاناً يقف فيهِ لرؤية ذلك، فبقرب الشروق يأخذ النور في الازدياد، ويرتسم خط ذهبي فوق جبل سَانْ جالْ، ويأخذ هذا الخط في الانتشار والاتساع، فتتلوَّن القِمم المثلجة، وتتذهَّب وتلبس ثوباً ورديًّا،

كأنما كوكب النهار أودع قُبلتهُ خدود تلك القمِم المغطاة ببياض الثلوج، وحين ذاك ترى السكوت تاماً، والنظر عاماً وإذا شبهُ بَريق أضاءَ واستتار، وما هو إلاّ طلوعُ النهار، فترتفع الأصوات إظهاراً للفرح والسرور، ويعود كلٌّ إلى حيث كان.

وأما الغروب فليس أقل من ذلك في البهجة والبهاءِ والمبادرة إليهِ بشدة الاعتناءِ، فإن هذا الكوكب بعد دورانهِ طول النهار يميل إلى الغرب، فينزل عن الجبال الَّتي هناك حتى يصل إلى سطح البحيرة تدريجاً، وعلى حسب نزولهِ كذلك يرى انتشار الظلام شيئاً فشيئاً حتى تختفي الشمس، ويُقبل الليل زاحفاً بعسكرهِ ضارباً بخيلهِ ورَجلهِ ناشراً أجنحتَه، مُقيماً ألويتهُ، ولو ساعدنا الحظ لتمتعنا برؤية هذين المنظرين.

هذا وبعد أن أطلنا النظر والتمتع بهذا المرتفع، وبلغنا الأَرَبَ من التأمل والتفرج، واشترينا بعض أشياءَ بقصد أن نتذكر بها ذلك المكان ممّا يُباع بهِ ابتعنا تذكِرة من تذاكر البوستة، تبيعها امرأة هناك، فكتبنا بها ما أردناهُ، ممّا يدل على صحتنا وسرورنا بما قصدناهُ، وذكرنا فيها أنها كتبت على قِمة ريجي كلْمْ المرتفعة عن سطح البحر 1800 متر، وجعلنا عنوانها باسم صهري العزيز الأمير الجليل صاحب السعادة أحمد باشا السيوفي بمصر ووضعتها بيدي بصندوق البوستة الموضوع بهذه القمة.

وقد بلغ منّا إذ ذاك التفرج حدَّهُ، والجوع أشدَّهُ، فنزلنا من القِمة مسافة الخمسين متراً حتى وصلنا المحطة، ودخلنا الفندق الموجود بها، فإذا هو غاية في السعة والحسن والانتظام، مملوءٌ بالعالم، فجلسنا بمحل خالٍ في صالة الطعام، وطلبنا من الخادم أن يأتي لنا بالغداءِ، فأحضر لنا ما لزم من الأكل والفاكهة والقهوة، وأعطيناهُ ثمن ما أكلناهُ.

ولعلك تتصور أيها الصاحب أننا في نظير هذه الأَكلة العظيمة بهذا المكان البعيد عن المدينة مع تنوُّع الأَطعمة والفاكهة وإتقان القهوة، أُعطينا نحن الاثنين بعض ليرات، لا بل أعطيناهُ وَرَقَتَيْ غداءٍ من أوراق كوك الَّتي أخذناها بمصر البالغ ثمن الواحدة منها 10 قروش صاغ، واستفدنا مع ذلك التفرج على أماكن هذا الفندق وقاعات اجتماعهِ الفاخرة المحتوية على أصناف العالم، يتكلمون بسائر اللغات.

وبعد مفارقتنا الفندق لم نُرِد النزول إلى البحيرة دفعة واحدة من غير أن ننزل في محطة، بل قصدنا النزول في ما استحسناهُ من المحطات الَّتي تقابلنا في الطريق، وقد كان ذلك والوابور يهبط بنا في انحدارهِ بغاية الهدوء، فإنهُ يهبط بمجرد الانحدار، لا بقوة البخار كما سَبق، حتى وصلنا البحيرة، ومنها إلى المدينة.

وقد تلاقينا ونحن بالباخرة في البحيرة مع مواطننا صاحب الهِمَّة وقوة العَزْمَة المُسْيُو فيلكس سوارس أَحد أصحاب سكة حديد حلوان فتآنسنا، وتحادثنا في الشوق إلى الأَوطان بعد المذاكرة في عجائب الديار، إلى أن افترقنا، وقد رآنا في هذه الطريق أحد من سبق لهُ السكنى ببلاد الدولة العليَّة من الأوربيين، فعرفنا بملابسنا الشرقيَّة، وجاءَ إلينا بمجرد ذلك مستفسراً عن حالنا، وَعَرَضَ نفسهُ لخدمتنا إكراماً منهُ، وملاطفةً لنا، كأَنهُ يَعُدُّ نفسهُ بسبب المدة الَّتي قامها ببلاد الدولة العليَّة بلديًّا لنا، والحق أن بقاءَنا بملابسنا الوطنيَّة كان سبباً لتعظيمنا ومراعاة خاطرنا والاحتفاءِ بنا في سائر الجهات الَّتي مررنا بها، فكان كل من ذهب إلى بلاد الشرق ولو مرة، وكل من عَرَفَ من لغاتهم ولو كلمة، وكل من سمع منها ولو لفظة، يعدُّ من الواجبات أن يُعَرِّفَ نفسهُ لنا، ويكرمنا بما يمكنهُ من أنواع الإكرام،

ونحن وإن كنَّا والحمد لله في عدم احتياج إلى خدمة أحدٍ لوجود كتب الدلائل معنا، ولمعرفتنا اللغة الَّتي تسهّل للإنسان السفر في كل البلاد لكن كنَّا نُسَرّ كثيراً من هؤلاءِ الأجانب الذّين كانوا يتعهدوننا باللطف والمؤانسة على غير سابقة تعارُف بيننا، بل لمجرد نظرهم ملاَبِسَنَا الوطنيَّة، فليبقَ الوطن مؤيداً بعز مليكهِ السعيد.

هذا وحيث قد أُخذنا راحتنا بالإقامة في هذه البلاد اللطيفة، وقضينا بها مدة ثلاثة أيام، كنا حددناها لمُقامنا فيها بجدول السياحة قمنا منها قاصدين باريس في يوم الخميس أول أغسطس سنة 1889م في الصباح.

وكنَّا سمعنا بالإشاعة ضيق المحلات بباريس لوجود المعرض بها، وأن بعض الناس فيها صار يبحث طول الليل على محل يُؤْويه[1] فلم يجده، كتبنا بواسطة بيت كوك في لُوسِرْنْ إلى مدير الفندق المسمى أُتيل سَان بطرسبورغ في باريس بأن يحتجز لنا أربع غرف ليوم أول أغسطس سنة 1889م، فأفاد صاحب الأوتيل بالتلغراف أنهُ سيعمل الجهد في الوصول إلى المرغوب.

وقبل مبارحتنا لُوسِرْنْ وضع سيدي الوالد بصندوق بوستة محطتها كتاباً حررهُ إلى عزيزهِ صاحب السعادة علي مبارك باشا، ذكر لهُ فيهِ بعض ما يستحق الذكر من مبدإِ سياحتنا إلى الآن وهذه صورتهُ.

* * *

(1) في الأصل: «يأويه» المحرر.

(كتاب سيدي الوالد)

إلى صاحب السعادة علي مبارك باشا

«سعادتلو افندم حضرتلري

« بعد أن أطرز ديباجة هذا الرقيم برقوم التحيّة والتسليم، مُوَشّعة برسوم التبجيل والتعظيم، أسأل عن المِزاج الكريم سؤال المستقصي عن أحوالهِ، الداعي بدوام اعتدالهِ، وأحمد مولى الآلاءِ على ما أسبغ من النّعماءِ ضافية الرّداءِ، صافية الماءِ، غير مشوبة بالأقذاءِ، شاملة لجميع الرفقاءِ، وما منهم إلاّ شاكر للأفضال، ناشر لمحاسن تلك الخلال، داعٍ بدوام الإقبال، والله المسئول في نعمة القبول.

«ركبنا الباخرة من الإسكندريّة يوم الأحد سنة 1889م بعد التيمن بتقبيل اليمين الخديويّة الطاهرة، واستدرار غيوث القبول والإقبال من فيض بركاتها الظاهرة، فرأينا من البشر والإيناس ما جبلت عليهِ السجايا الخديويّة الباهرة، واقتضتهُ مكارمها الزاهرة، وشملتني عواطف ذلك الجناب من الإحسان بالنيشان الثاني المجيدي بما لم يكن في الحساب، وضاعف المنّة بهِ عليَّ أن جاءَ على غير سابقة وعد انتظرهُ في اليوم والغد، وإني تسلمتهُ من الجناب العالي الخديوي أدامهُ الله تعالى يداً بيد وانصرفت من لدنهُ شاكراً داعياً سامعاً لما تلقيت من الأوامر الكريمة، واعياً، وكان الشكر بلسان الحال أوفر منهُ بلسان المقال، وحضرني أبيات في هذه الحالة [في] أثناءَ انصرافنا إلى البلد مناسبة للصدد، وإن كانت قليلة العدد، فأودعتها الرحلة

على قصد تخليدها إلى الأبد، وها هي:

مولايَ قد أَوْلَينَني مِنَّةً ولم يكن لي أمرها في حسابْ
شكرتُ مولايَ على فضلها شُكْرَ نبات الروضِ فِعْلَ السَّحابْ
مَنْطِقَةُ أَعَجَمُ في شكرها ومنطِقُ الحال فصيحُ الخطابْ
متَّعَكَ اللهُ بما تَبْتَغي وسَرَّ بالأنجالِ ذاك الجنابْ

ثم سار بنا الوابور في اليوم المذكور، ونحن نرى الجو صحواً، والهواءَ رخوا، والبحر رهواً، والحال زهواً، فما هو إلاّ أن خرجنا من فم الميناء إلى صدر سعة الفضاءِ حتى رأينا البحر يموج، والسفينة بين هبوط وعروج، وفي الجملة رَقَصَت بنا فصلاً لا نقول خفيفاً إن لم نسمهِ مخيفاً ولا ندعوهُ لعباً إن لم نقل تعباً، فلا جَرَمَ صَبَرْنا على الأَسْواءِ من أخلاق تلك الجارية السوداءِ، وهي تظهر أنها وليّة تمشي على الماءِ، وتطير بأجنحة الهواءِ، وعلى ذلك اتصل مسيرها، واستمر مريرها إلى أن مررنا بين جزائر كريد وجورها يزيد على فعل يزيد، فلما تجاوزنا حدود تلك الجزائر، وغابت عن النواظر، هدأت السفينة بقدرة المليك القادر، وسرنا حتى رأينا برنديزي، فوصلناها، ثم تريستا فدخلناها، ولبثنا بها برهة تفرجنا فيها على قصر مكسيميليان، وما بهِ من المناظر الحسان، والمظاهر البديعة الشان، ثم سرنا بباخرة أُخرى إلى ڤينسيا من بلاد إيطاليا، وكانت بها ملكة البلاد فصادفنا زينة اتخذت لها احتفالاً، وزادتها مناظر الماءِ المتخلل ديار البلدة جمالاً، ثم سرنا بوابور البر إلى (ميلانو) من إيطاليا أيضاً، فبتنا بها ليلة، كما أننا بتنا قبلها في ڤينسيا، ثم سرنا إلى (لُوسِرْنْ) من بلاد السويسرة قبل يومين، ونحن بها الآن، وقد رأينا [في] أثناءَ طريقنا من المناظر البديعة وجمال الصنعة

والطبيعة لا سيما في جبل (سان جوتار)، وما في بلا السويسرة من الأَنجاد والأَغوار، والبحائر الكبار، والقرى والديار، ما يُذهش الناظر، ويستغرق الخاطر، مما تطول بشرحهِ أذيال المقال، وأخاف منهُ على شريف خاطركم الملاَل، لا سيما مع ما عندكم من الأشغال، وسأُودِعُهُ إن شاء اللّٰه تعالى كتاب الرحلة مفَصلاً، مُفرَّعاً مُؤَصلاً؛ ليكون تذكرة لمن يتذكر، وتبصرة لمن يتبصر، وقد اتخذت الأُهبة لذلك، والعُدَّة بمفكرات أُقيد بها الأَوابد، وارتبط بها الشوارد، ورسوم أجمعها لأَستوضح بها الخفيّ، وأُقَرِّب القصي، وأُذَلِّل العَصيّ، وكتب أَذخرها لتكميل البيان، وسؤال من ذوي الخبرة أؤكدهُ بالعيان، حتى إذا يسر اللّٰه سبحانهُ سلامة المعاد إلى البلاد، وهو ولي الرشاد والسداد، القادر على ما أراد أكُرُّ عليها بالبيان، واستعمال الفكر والبنان، وهو المسئول من فضلهِ أن يَصرِف الصوارف، ويمنع الموانع ويُصْحبنا كرامة التوفيق في جميع المواضع، لا رَبّ غيرهُ، ولا خير إلاَّ خيرهُ.

بعد أن وصلت إلى هذا الموضع من الخطاب في أثناءِ تحرير هذا الكتاب على نية الاقتصار والاختصار والتسويف ببيان ما رأَيناهُ في هذه الأمصار إلى ما بعد الوصول لمستقر الديار، رأيت أن أستميح شريف خاطرك في الإلماع بشيءٍ ممّا رأَيانهُ وسمعناهُ في فسحة هذا النهار الّتي فزعنا منها الآن، حين لم يتقادم عليها الزمان، لتكون كالثمرة القريبة العهد من القِطاف والخروج من القشر والغِلاف، لم يدنّسها عبث العابث، ولم يُذْبِلْها طول مكث الماكث، فإن أَبَيْتَهَا فأَلْقِهَا ناحية هناك، وإن رَغِبتَ في الاطلاع عليها فهاك.

خرجنا من مَثوانا بمحل مأْوانا في موقع من أَحسن المواقع على بحيرة (لُوسِرْن)، من أشهر بحيرات هذه المواضع، وهي حريَّة بذلك في الواقع،

فخطونا خطوات من محلنا قلائل إلى الباخرة المتهيئة للمسير على الساحل، فأقلعت بنا:

يَشُق حَبَابَ الماءِ حَيْزُومهَا بها كما قسم التُّرْبَ الْمفايِلُ باليدِ

ونحن نرمي بالأبصار إلى ما حولنا من الديار المنظمة بلَبَّات ذلك الماءِ انتظام فرائد القلائد على الغادة الجيْداءِ، والمنتشرة في المروج كالكواكب في البروج، بينها المشرف على تلك القلال إشراف الهلال، والمشرق إشراق الشموس في هامات تلك الذرى والرؤوس، تختلف بها المناظر بين أخضر ناضر، وأزرق زاهر إلى أبيض ناصع، وأحمر يانع وأصفر فاقع، هرمية السقوف بين شتى وصفوف، لم يلابسها الغبار، ولم تدنسها الأقذار، وتقول: لم يفارقها قبلِ هذه الساعة المعمار، وحولها أنواع النبات والأشجار، زاهية الاخضرار، متلونة النُّوَّار، متنوعة الأشكال، والثمار متولية غسل أبدانها الأمطار، فهي تتألَّق الأنوار، وتأخذ بمجامع البصائر والأبصار، وتذهب بالأفكار ذهاب التيَّار بموج البحار، قد عرف أهلها بمقدار نعمة المنعم الكريم، فأدَّوْها حقها اعتناءً واحتفاءً، واعتَنَوْا بمعرفة أسرار حكمة الصانع الحكيم، فاهتَدَوْا إليها بقدرتهِ اهتداءً، ولا جَرَمَ فالحق جلَّت نعمتهُ، وعَلَتْ عظمتهُ، يعطي على السؤال بلسان الحال والاشتغال بالسبب ما ليس يعطيهِ على السؤال بلسان المقال، الذي يعتريه الكذب في الرغَبِ والرَّهَب، بخلاف اللسان الأول فهو مميز بالعِصمة من هذه الوَصمْة، فالزارع منا إذا غرسَ شجرة، أو ألقى في الأرض الحرة بذرة، ثم تولاَّها من السقي والخدمة بكل ما في وُسْعِه من الهمة قد سأل اللّه سبحانهُ بلسان حالهِ فأعطاهُ ما استحق، وفوق ما استحق من نوالهِ، فقد أجرى عادتهُ - وهو أكرم مسؤول - أن لا يقابل السؤال لسان الحال إلاَّ

بالقبول، بخلاف ما لو زرع في غير مَزْرَع، أو أَعرض عن واجب الخدمة وامتنع، وقعد يسأل الحق بلسان المقال آناء الليل وأطراف النهار أن يرزقهُ منها أَطايب الثمار، ويستزيدهُ الإكثار، فقد أَساءَ الأدب ولم يُحْسِن الطلب، فطالبُ الحق جلت قدرتهُ بما يخالف ما جرت بهِ سنتهُ فلا يجد لذلك سبيلاً، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62] فاستحق أن يحرمهُ أبداً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

ألم ترَ أن الله قال لمريم   وهُزِّي إليك الجذع يَسَّاقطِ الرُّطَبْ
ولو شاءَ أن تَجْنيهِ من غير هزِّها   جَنَتْهُ ولكن كلُّ شيءٍ لَهُ سَبَبْ

فسبحان من أبدع وأبدى، و ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] [طه: 50]، وهذه هي الهداية العامة لكل ناطق وصامت، وحيوان ومعدِن ونابت، قد عَم كلاً بهذه الهداية لما يليق بحالهِ ويبلغهُ الترقي في معارج كمالهِ.

أراني أيها الأمير قد طوَّحتْ بي الفكرة من توالي النظرة بهد النظرة حتى خرجت من الوصف إلى التصوف، وإن شئت فقل: إلى التفلسف، ولسنا في شيءٍ من قبيل هذه الأنواع، ولكنهُ من طغيان اليراع، والحديث ذو شجون، والكلام يجر الكلام، وفي الجملة يلزمنا أن نرجع إلى المقام.

نعم سارت بنا الباخرة ماخرة في تلك البحيرة الفاخرة، ووقفت بنا في مواقف ذوات عدد، نزل في كل منها من نزَل، وصَعِد من صعِد، إلى أن وَصَلت بنا محطة (وِتْسْنَوْ) وهي آخر موقف فيما نحن بسبيله من الصدد، فخرجنا من باخرة البحر إلى باخرة البر نبتغي الصعود في تلك الجبال والآكام، إلى آخر ما يُرام، فوجدنا من كثرة الزحام واختلاف الأقوام

(1) لم يضمن المؤلف الآية كاملة. «المحرر».

والتفاف الأقدام بالأقدام ما عاقنا عن الإقدام، إلى أن فاتتنا ثلاثة وابورات، وركبنا مع الرابع؛ إذ تصدينا لمدافعة من يدافع، وممانعة من يمانع.

وتمتاز الوابورات والعربات المختصة بمثل هذه الجهة عن المعتادة عندنا في الديار المصريّة بأمور، منها: اختلاف الشكل، والهيئة بالكليّة، ومنها أن لكلٍّ منها سوى العجلات الجانبيّة عجلتين في المقدّم والمؤخر، كلتاهما ذات تضاريس في دائرها، يتخللها تجاويفُ بحسبها، معمولةً على نِسَبِها تتعشق [في] أثناء المسير مع أمثالها في خط ممدود على الأرض بحسب حالها، ذاتِ تضاريس وتجاويف على مثالها، مشاكلة لأشكالها، وهذا الخط سوى القضيبين المعتادين الموضوعين في الجانبين متوسط بين الطرفين، فيسير الوابور بهذه العجلات في ذهابهِ وإيابهِ وصعودهِ وانصبابهِ، وهو مسرع في المسير لا يظهر فيهِ لهذه التضاريس والتجاويف تأخير، كأن امرأ[1] القيس كان ينظر إلى حال عجلتهِ حين يقول في جاهليتهِ وبدويتهِ:

دَرِيرٍ كَخُذْروفِ الوَليدِ أَمَرَّهُ   تَتابُعُ كفيْهِ بخيطٍ مُوصَّلِ

والخذروف معروف الجسم وإن كان الآن مألوف الاسم، وهو قطعة مستديرة مثقبة يلعب بها الصبي، فيدخل في ثُقُوبها خيطاً يجعلهُ في أصابع يديهِ فيديرها بهِ في غاية السرعة بشد الخيط وإرخائهِ بالمقاربة بين اليدين والمباعدة، كلّنا رآهُ أيام صباهُ، لا أتذكر الآن ما كنا نسميهِ بهِ، وإنما أعرِف مسماهُ وما علينا، فلنَدَعْ لامرئ القيس خذروفهُ بين يديهِ، ونرجع ثانياً إلى ما كنا نتكلم عليهِ فنقول:

---

(1) في الأصل: «امرئ» المحرر.

لمصلحة هذه الطريق جملة من العربات والوابورات، وقد استحدثت بمعرفة شركة تركبت في الأول من ثلاثة أشخاص جمعوا من مالهم الخاص وبعض أصدقائهم الخواص نصف مبلغ المصروف وهو 625000 فرنك، ثم حصلوا على النصف الآخر بواسطة اكتتاب عمومي، تكامل في ساعات من الزمن بمجرد تصديق المجالس النيابيّة على هذا المشروع، وكان ذلك في سبتمبر سنة 1869 من الميلاد، وانتهى عمل الطريق وافتتاحه بالطريقة الرسميّة في مايو سنة 1871م بمحضر من رجال الحكومة والمساهمين.

وهكذا تفعل الشركات أمثال هذه الأَفعال من عظائم الأَعمال باتحاد الأَيدي والأَفكار من عظماءِ الرجال، ومساعدة المال بالمال، والحال بالحال، وكمال العدل والاعتدال، فينشأُ عنها من المنافع العموميَّة والخصوصيَّة والنوعيَّة والشخصيَّة ما لا يتأَتى بالانفراد وتفرق الآحاد.

و (يَدُ اللّه مع الجماعة) قضيَّة لا تختلف نتيجتها إلى قيام الساعة، واللّه تعالى يقول في محكم كتابهِ العظيم الشان: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: 2] وقد جاءَ في الحديث الشريف أيضاً: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضهُ بعضاً). ولنَدَعِ الآن هذا البحث، فهو طويل الأذيال، ولنعد لإكمال ما كنا فيهِ من المقال.

كل وابور من وابورات هذه الشركة قوتهُ 120 حصاناً بخارياً، وسرعة سيره 4800 متر في الساعة الواحدة، لا يختلف سيرها في ذلك صعوداً وهبوطاً، على أن الحركة في الصعود بقوة البخار، وفي الهبوط بمجرد قوة الانحدار.

ويختلف الميل في هذا الطريق من $\frac{5}{100}$ إلى $\frac{25}{100}$.

والميل في مرتقى آخر لناحية (كُوتْش) بغير هذه الجهة رأيناهُ بالأمس $\frac{52}{100}$ في جميع جهاتهِ، وندع الكلام في صفاتهِ وصفات عرباتهِ وسيرها بغير حيوان ولا بخار، ونتركهُ للرحلة رغبة في الاختصار. والعربات في الطريق الذي كنا نتكلم عليهِ مغطاةٌ من أعلاها للتوقي من الشمس، مكشوفة من سائر الجوانب؛ ليتمكن المسافر من رؤْية كل ما يمر بهِ من المناظر.

ويتركب كل ذيل (قطرٍ) من عربة واحدة، يسوقها وابور واحد، وليست العربة مرتبطة بالوابور، وإنما يدفعها من خلفها في الصعود، وينزل أمامَها فتسير خلفهُ في الهبوط، وذلك للتفادي من أن يصيبها ما أصاب الوابور لو أصابهُ شيءٌ من الأخطار، والعياذ بالله تعالى، وفي كل عربة آلة للأمن من الخطر، يتيسر بها إيقاف العربة في مسافة لا تتجاوز 50 متراً، وبعد مفارقة أول الخط يخترق الوابور قبل أول موقف من مواقفه منفذَيْن قد نُقبا لهُ في صلب الجبل، ثم يجتاز بعدهما على جسر من الحديد متقن الصنع، ممدود فوق قوائم من الحديد، على ارتفاع هائل، قد يروع الناظر، ويهول أمرهُ السائر، ثم يصل إلى الموقف المذكور، وهو على ارتفاع 1016 متراً عن سطح البحر.

وبعد الوقوف بهِ بعض دقائق يستمر في صعودهِ، ويقف في مواقف عديدة على ارتفاعات متفاوتة بين مناظر مختلفة ومحاسن مؤتلفة، فيرى المنخفضات تتتابع بقدر المرتفعات، ولا يكاد يفارق منخفضاً إلاَّ ويصادف مرتفعاً، وهكذا يستمر بين حدائق ونباتات وأشجار وغابات ومناظر بحيرات وجبال مغطاة بالثلج وغير مغطاة، مما يروق الناظر، ويعجب الخاطر، وكلما أَخذ في الارتفاع صغر في نظر الناظر حجم ما خلفهُ من البحائر وغيرها من

المناظر، وهكذا حتى يصل إلى محطة (ريجي كُلْمْ) وهي المحطة الأخيرة، وترتفع عن سطح البحر بقدر 1750 متراً.

ويوجد بالمحطة الأخيرة المذكورة وما قبلها من المحطات كثير من اللوكندات بديعة البهجة والاتقان، تسع نحو ألفي نسمة، يبيتون على جيد السُّرُر، ومستحسن الفرش، ويأكلون طيّبات المآكل، ويجدون غاية الراحة، ويسمع النازل بها كثيراً من الألسن الّتي يتكلم بها في العالم، وما ذاك إلاَّ لتوافد الزوار عليها من سائر الجهات.

والمحطة العلياءُ منحطة من أعلى قِمة الجبل، حيث يبلغ الارتفاع عن سطح البحر مسافة 1800 متر، فالفرق بين المحطة العليا وأعلى الذروة نحو 50 متراً.

وقد بُنيت المحطة منحطة عن القِمة بهذا القدر للاتقاءِ بالجبل من ريح الشمال، وهي هنا غير مطلوبة، ورأيناها كذلك في جهة بيروت وغيرها في سوريّة غير مرغوبة.

ويرى الإنسان وهو في أعلى الذروة من الجبال والمرتفعات المحيطة بتلك الجهات ما يتعاصى على الحصر والعد، ويتقاصى عن الضبط والحد، وإن أمكن ذلك فهو موكول إلى قوة النظر وحدتهِ وطول التأمل، واتساع مدتهِ، وقد أبلغها بعض من لقيناهُ هناك من أهل تلك الجهة إلى 334 جبلاً، بين صغير وكبير، منها 64 مغطاة بالثلج الدائم على قول ذلك الرجل، والباقي عارٍ عن الثلج في هذا الوقت.

أما البحيرات الّتي تُرى من تلك الذروة في أوقات الصحو فتبلغ 14 عداً، ويمتد النظر في هذا الموضع إلى مئات من الفراسخ، بعيدة الأنحاءِ، مختلفة السموت، لها من غرائب المناظر وعجائب المظاهر ما تنقطع دونهُ الأوصاف

والنعوت، لا سيما الجبال المكتسية بديباج من الثلج أبيض، المتحصنة بدروع من الزرد البديع النسج مُفَضَّض.

وإذا تأَمل الواقف بهذه الذروة العالية فيما يراهُ تحت قدميهِ من المواقع السافلة والأَغوار النازلة يتخيل أن ليس بها نسمة مخلوقة، ونفس منفوسة، لانقطاع الصوت، واتصال الصمت، وغاية تصاغر المنظر لبعد السمت، وحول هذه الذروة من المنازه والمنازل، والخَضْرة والنَّضْرة، والأرواح والأدواح ومواطن الأنس، والانشراح والراحة والارتياح والمباحثة والمناظرة والمسامرة والمسايرة، ما لم يكن يخطر ببال، أو يتصور بحال.

وكم رأينا في تلك البطاح من صابح الملاح، كلَّ خَوْدٍ رَدَاح شاكية السلاح من ألحاظ كالصّفاح، مِراض صِحاح، وقدودٍ كالرماح، دامية الجراح، فاتكة في الأرواح، وليس عليها لدى القانون فيما جَرَحت جُناح، وكل ما اجترحت مباح.

فليس للجَوْرِ في أيامهم أثرٌ   إلاَّ الذي في عيون الغيدِ من حَوَرِ

وهنَّ منتشرات في تلك الجهات كعقد خانهُ السّمط، فانتثرت دُرَرُهُ، وروض ألحت عليهِ الريح زَهَرَهُ بين وحدان وزَرافات، وشتى وجماعات، فهنَّ ظباءٌ في هذه المراتع رواتع، وأقمار من هذه المطالع طوالع، وأنوار في تلك المواضع سواطع قد رُبِينَ في مِهاد الدلالِ رواضع، وغَذَّتْهُنَّ بِلِبان الجَمال لا الجمِال المراضع، فبرزنَ كالحُور في غلائل نور، أو ورد جور في زَجاج بلور، تراهنَّ خِلال الأشجار، فتخالُهنَّ بعض الأزهار، وتنظرهنَّ على الماءِ فتقول قد تمثل فيهِ السماء، وهذه كواكب الجوزاء، ولقد أنسينني المشيب حتى خلت أنني عدت إلى الصبا، وكدت أَمُدُّ لداعي اللهو

والخلاعة يداً فأقول: مرحباً مرحبا، وأكون فيمن صبا إلى أن رأيت مرآة ببعض مفارش الباعة بديعة الصناعة، فإذا الشيب فيها يخاطبني بلسان الحال من بين الجماعة:

هيهَاتَ ما عَهْدُ الشبابِ براجع   يوماً ولا هذا المشيبُ براحلِ

سيدي،

كنت أريدُ شيئاً كثيراً ولكن غلبني الوقت، فاقتصرت واختصرت، وما تركت مما أردت أكثر مما ذكرت، ونحن على جَناحِ السفر إلى پاريس داعون لولي النعم الخديو الأعظم دعاءَ الابتهال، مترنمون بأحاسن الثناءِ في كل محل وكل حال، والله المسئول في أن يتقبل من عبدِهِ، ويَمُنَّ بالمزيد من عندِهِ، فهو غاية المسؤول، ونهاية المأمول في 31 يوليو سنة 1889م.

عبد الله فكري»

من لُوسِرْنْ إلى باريس

قمنا من لُوسِرْنْ والساعة 30,5 دقيقة من صباح يوم الخميس أول أغسطس سنة 1889م، كمَا سبق وإن كان يقوم منها إلى باريس عدة وابورات في النهار، لكن اخترنا هذا الوقت لنتمكن من رؤية ما بقي من مناظر سويسره، ونصل إلى باريس قبل الليل لنجد ما نأوي إليهِ من الأمكنة، فصرنا نمر بأَنهار وأَودية، ومناظر حسنة، وأرض مخضرة ناضرة، يتخيل للناظر أنها بساتين خُطَّت فيها السكك والطرق، وما زلنا سائرين نقطع ما نمر بهِ من المجازات والمنافذ، ونقف في بعض المحطات حتى وصلنا إلى أُولْتِنْ، ومنها إلى بَالْ من أَعمال سويسره بعد مسيرنا من لُوسِرْن بساعتين وربع ساعة، فمكثنا بها نحو ثلاثة أرباع ساعة، فأَكلنا واسترحنا.

وبَالْ هذه مدينة واقعة على ملتقى ثلاث ممالك من جهة الحدود ألْمانيا وفرانسا وسويسره قائمة على نهر رينْ، ذات ثروة اكتسبتها من توسطها بين هذه الدول، حتى اتسع نطَاقها، وازداد عُمرانها، وتقدمت فيها الصنائع، فصارت تزيد سكانها عن 45 ألفاً.

ثم سرنا منها متجهين إلى الغرب على باقي أرض السويسره نحو ساعتين، حتى وصَلنا إلى دِيلْ من أعمال سويسره أيضاً، وهي بلدة الحدود بين المملكتين، وبها الكمرك لكن لم تفتش أمتعتنا بهِ لأننا عند نزولنا من لُوسرْن سجّلناها على أن نستلمها في باريس فصار التفتيش يحصل هناك.

ثم بارَحنَا دِيلْ المذكورة بعد وقوف ربع ساعة فيها وسرنا بأَرض فرانسا قاصدين پاريس من شرق فرانسا إلى الغرب، متجهين لجهة الشمّال، مارين على بلْفوز وڤيزُولْ وشُومُونْ وتْرُوَا، نتفرج على المزارع الفسيحة، والمراعي المتسعة، والمباني المنتظمة، وغير المنتظمة، حتى قَرُبْنا إلى پاريس فأَرانا بعض من معنا بالوابوات الثوابت، فأَخذنا نتأَمل فيهِ، وصرنا كلما قربنا منهُ يتميز لنا، حتى علمنا أنهُ برج إيڤل المشهور، وإذا بنا قد وَصلنا پاريس والساعة 6 بعد الظهر، فكانت المسافة من قيامنا من لُوسِرْنْ إلى وصولنا لپاريس اثنتي عشرة ساعة ونصفاً.

* * *

الوصول إلى باريس

بوصولنا إلى المحطة خرجنا إلى قاعة الانتظار حتى يصير إخراج الأمتعة من عربات السكة إلى القاعة المخصصة بالتفتيش من طرف الكمرك، إذ إنهُ لم يسبق تفتيشهُ بمحطة دِيلْ كما أسلفناهُ، بل رجحْنا أن يفتش في باريس، وسلمناهُ على ذلك إلى إدارة السكة على أن لا نستلمهُ إلاَّ فيها.

فانتظرنا بعض دقائق، وإذا بباب مكان غاية في الاتساع انفتح، ودُعينا إلى الدخول فيهِ، فوجدنا بوسطهِ طاولات من الخشب على شكل دائرة عليها جميع أَمتعة المسافرين اللازم فحص ما بها، بمعرفة رجال الكمرك، ومن داخل تلك الطاولات رجال الكمرك، ومن خارجها الحمّالون، فصار كلٌّ يبحث على أمتعتهِ، ومتى وجد شيئاً منها طلب من أحد رجال الكمرك تفتيشهُ، فيحضر لجهة المتاع بلا توانٍ، ويأمر أحد الحمّالين بفك ما يكون مربوطاً بهِ من الحبال، ويسأل بغاية اللطف هل عندك يا سَيّدي ما يجب التعريف عنهُ من الدخان أو غيرهِ، فإذا أخبرتهُ بالحاصل ربما اكتفى بإخبارك، وقد يفتش المتاع أو بعض مواضعهِ للتحقق بنفسهِ من صحة ما قررهُ المسافر، كل ذلك بغاية اللطف ومراعاة الأدب، ولمّا لم يجد شيئاً مما يدفع عنهُ رسم للكمرك يضع على صندوق علامة بالطباشير، يَسْتَدِل بهِ خدم المحطة على انتهاءِ مأموريّة التفتيش، فيصرحون للمتاع بالخروج.

والسبب في سؤال رجال الكمرك المسافِرَ عما إذا كان عندهُ ما يجب التعريف عنهُ تخفيف مؤنة التفتيش عن رجال هذه الإدارة؛ لاستدلالهم لهذا

التعريف على ما تدفع العوائد عليهِ مما يصحبهُ المسافر.

أما إذا لم يُعَرِّفُ المسافر الحقيقة فإنهُ يضاعف الكمرك الذي كان يدفعهُ لو صرَّح بالصدق، وربما أدَّى الحال إلى مصادرة بعض المتاع المسكوت عنهُ بحسب الأحوال.

وأهم شيءٍ يسألون عنهُ الدخان؛ لأنَهُ محتكر من الحكومة، ولأن ترويج سوق هذا الاحتكار متوقف على قلة دخولهِ من الخارج، ولذلك قد جعلت عوائد دخولهِ عالية، فقد يُدفع على الكيلو جرام (ألف جرام) من 36 فرنكاً على السجاير المصنوعة، و25 فرنكاً على الدخان المجلوب من بلاد المشرق، و15 فرنكاً على المجلوب من غيرها.

ولم يكن معنا عند دخولنا پاريس شيءٌ من الدخان إلاّ في علب السجاير، فإننا لم نستصحب منهُ معنا شيئاً غير نحو ألف سجارة لسيدي الوالد، ومثلها أو أقل لرفيقنا الشيخ حمزة، على قصد إرسالها من فينيسيا للسويد مباشرة لنجدها هنالك بوصولنا؛ لأننا لو أبقيناها معنا لوجب علينا الاشتغال بها، ودفع الكمرك عنها مرات بقدر الممالك الَّتي يكون العبور منها والوقوف فيها قبل الوصول إلى محل المأموريَّة، وذلك مما لا ضرورة لهُ، على أن الدخان المشرقي المعروف عندنا بالإسلامبولي يوجد من سائر أنواعهِ بأثمان مناسبة في المدن الكبيرة.

ويوجد في سائر البلاد ما يقاربهُ في الذوق واللون من دخان البلاد الأجنبيَّة مما يمكن الاستغناءُ بهِ عنهُ تفادياً من ضياع الوقت في معاناة التخليص في كل الكمارك، على ما نجلبهُ معنا من دخان مصر، فضلاً عما

يستلزمهُ ذلك من المصاريف الباهظة.

وقد كنا أرسلنا السجاير الَّتي كانت معنا من فينسيا إلى السويد بطريق البوستة بدون إدخالها المدينة من نفس إدارة الكمرك بها، وإن استلزم ذلك عناءً؛ لأنَّنا توجهنا لهذا الغرض أكثر من مرتين لمحل الكمرك، وهو واقع على البحر، وانتظرنا في كلٍّ منهما مسافة من الزمن، ولا خفاءَ فيما يستلزمهُ ذلك الانتظار من المضايقة؛ لأنهُ فضلاً عن صعوبتهِ من حيث هو انتظار فإنهُ يترتب عليهِ تعطيل وإضاعة وقت كان يمكن الانتفاع بهِ في غيرهِ من التنزه والتفرج على المدينة.

هذا ولم يكن معنا مما تُدفع عليهِ العوائد غير الدخان إلاَّ عُلْبة أحد رفقائنا، وما أدراك ما هي علبة مصنوعة من الصفيح أسطوانيَّة الشكل، بها نحو الأقتين من كعك الدقيق المعروف بالغريّبة، استحضرها معهُ من مصر فاعتبر كمرك فينيسيا السالف بيانهُ أن ما بها من نوع الحلواءِ، ودفَّع صاحبنا عنها قيمة نحو خمس فرنكات، وكان يظن أن ما بها ينفذ في المسافة بين فينيسيا وپاريس، ولكن بقي فيها نحو ثلثيها، فإنها ثقيلة الهضم، ولم يُحِبَّ الرفاق لأجلِ ذلك الاشتراك معهُ فيها بتخليصهِ منها، ولم يقبل هو تركها بما بها، على أن ما دفعهُ عنها من الكمرك في فينيسيا وحدهُ كافٍ لشراءِ أَحسن منها من أي مدينة، وعلى أن أكل الصبح متيسر بطريقة ألطف، وبكيفيَّة أَخفّ من هذه المُثقلات في كل الجهات.

فأراد كمرك پاريس أن يدفع صاحبنا عنها رسم الحلواءِ، وذلك بعد أن طالت أبحاث رجالهِ في تحقيق ماهيتها؛ إذ من قائل منهم: إنها من العقاقير، وآخر يدَّعي المعرفة أكثر من الأول يقول: إنها من المجهزات الكيماويَّة، وثالث يَتَفَرّس في هيئتها المشرقية، ويقول: من جهلهِ بما فيها إنهُ لا بد

وأن يكون من نوع الحشيش، فبعد الجهد الجهيد، وإقامة الحجة على إثبات أنها من الحلواءِ عدّوها منها، وتحيّر الرفيق مع هذا بين تركها، وقد دفع عنها قبل ذلك ما دفع، وشغلت من صناديقهِ محلاً مهماً، ومدة الإقامة المنوي عليها في پاريس عشرون يوماً، ربما احتاج فيها إلى ما بها، وبين أخذها مع دفع الكمرك عنها ثانية، فبعد أخذ ورد وحلٍ وعقد دفع رفيقنا عنها خمس فرنكات ثانية، ورافقتهُ إلى پاريس.

ولكنهُ لم يتخلص بذلك من أذاها على ما علِمتُ منهُ بعدُ، وذلك أنهُ في أثناء مُقامنا في پاريس، وقرب قيامنا منها أراد رفيقنا الموماً إليهِ أن يتخلص مما كان استصحبهُ معهُ رغماً عن إشارتي عليهِ عند السفر بعدم لزوم ذلك في سفرنا هذا؛ لوجود ما يماثلهُ في كل محل نزلنا بهِ، مثل الغطاءِ، فإنهُ يوجد منهُ بجميع الفنادق، مثل طست الوضوءِ فإنهُ يوجد بكل محل طسوت من الصيني، تقوم مقامهُ، وكان قد تضرَّر من أُجَر السكك الحديديَّة على هذه الأشياءِ وما يماثلها مما يمكن الاستغناءُ عنهُ، فاشترينا لهُ من دكان كبيرة تعرف بمخازن اللوفْر بپاريس شنطتين صغيرتين، وضع فيهما اللازم من الثياب ووضع في الصندوق الكبير الذي معه الغطاء، والطست، وغير ذلك من الثياب والأشياءِ المستغنى عنها، ووضع معها العلبة المعهودة وأرسلنا هذا الطرد لمصر، مع طرد مثلهِ لنا وضعنا فيهِ ما اشتريناهُ من پاريس ومن غيرها من الأشياءِ، تخفيفاً للحمل، وقد اخبرني الرفيق بعد العودة عن أمر تلك العلبة المشؤومة[1] أنها قبل وصولها إلى الإسكندريَّة انفتحت في الطريق من اهتزاز الوابورات، ورفع الصندوق ووضعهِ في البر والبحر، فنزل الكعك الذي بها إلى ما تحتها من الكتب والملابس الجوخ وغير الجوخ، فانبسَّ وصار هباءً منبثاً وشربت دُهْنهُ وسمنهُ حتى لم يبقَ منهُ إلاَّ آثار

(1) في الأصل: «المشئُومة» المحرر.

بالملابس والكتب للدلالة عليهِ وصار لسان حالهِ يقول:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثارِ

ولكن هذا الانبساس نفع في عدم أخذ الكمرك عليها ثالثة.

وربما صحت الأجسام بالعلل

ولنرجع إلى الكمرك الذي كنا فيهِ فنقول: إننا بعد أن استخلصنا أمتعتنا بالوسم عليها من رجال الكمرك، وكانوا لم يفتشوا إلاَّ صندوقاً واحداً منها، ودفعنا كمرك العلبة المذكورة، نقل الحمَّالون أمتعتنا إلى إحدى العربات المغطاة المخصوصة، فوضعت فوق ظهر العربة يحتجزها عن الوقوع حاجز خفيف من الحديد بدائر سطحها، وجلسنا نحن الأربعة في داخل العربة، وأمرنا السائق بالتوجه إلى فندق سَانْ بطرسبورغ، وهو الذي حررنا لصاحبهِ من لُوسِرْنْ بحجز غرف لنا فيهِ، وأفاد أَنَّهُ سيعمل الجهد في ذلك، فقابلنا صاحب الدار بغاية الإيناس، وأرانا أَسَفَهُ الزائد على عدم خلو محل عندهُ من يوم التلغراف إلى الآن، وقال: إنهُ حجز لنا غرفاً لائقه بفندق دُومِينِيسي بشارع كَسْتِجلِيُون نمرة 7 ونمرة 9 ، وأَعطانا ورقة برسم صاحب ذلك الفندق، فقصدناهُ في الحال فإذا هو في نقطة أحسن من نقطة الأول، بأبهج موقع بالمدينة على خطوات عن حديقة تُويلرِي الشهيرة على مقربة من البلورات (الشوارع) المشهورة ومن تياترو الأوبرا ومن نهر السّينْ وبجوار فندق كُونْتِنتّالْ الشهير، فلا شك أن اللّه سبحانهُ أراد لنا بهذا المحل خيراً، فإنهُ أحسنُ مما اخترناهُ.

فقابلتنا صاحبة ذلك الفندق بكل اعتبار واحترام، وأوصلتنا إلى المحلات الَّتي أُعِدت لنا، وإذا هي بالطبقة المتوسط بين الأولى والأرضيَّة، وغير مطلة

على الشارع، بل تطل على صحن الدار فتكلمنا معها بعدم استحساننا لهذه المحلات، ورغبتنا في أحسن منها يكون الهواءُ فيها مطلقاً، والنظر ممتداً، فأرتنا صعوبة وجود المحلات للغاية في باريس زمن المعرض، خصوصاً في النقط المهمة منها، ووعدتنا مع ذلك بأن ستخصص بنا غرفاً أحسن من هذه، جامعة لما نرغبهُ من المزايا في اليوم التالي، فإنها ستخلو في الصباح، وبعد أن تفرجنا عليها وأعجبتنا للغاية قبلنا الغرف التي أُعدَّت لنا بهذا المساءِ.

هذا وبعد أن غيَّرنا ما رأينا تغييرهِ من الملابس، وتعاطينا طعام العشاءِ في الفندق، فوجدناهُ بالغاً حد النهاية في الحسن والنظافة والإتقان، خرجت مع سيدي الوالد نمشي الهوينا للإعانة على الهضم، ولكي أُرِيهُ أول بلورا (شارع) من بلوارات باريس الشهيرة، حيث أعهد من قبل أنهُ يبعد بعض خطوات عن المحل الذي نحن بهِ، فنأخذ قهوة الطعام في كافيه دُلاَبي (قهوة السّلِمْ) الواقعة عليهِ، فسرنا لجهة ميدان وَاندومْ فسكة السّلِمْ، حيث وصلنا إلى ميدان الأوبرا فكان أمامنا التياترو المذكور، وعلى اليمين شارع الطليان، وعلى اليسار شارع الراهبات، فجلسنا بالقهوة الواقعة بين الشارع المذكور وبين ميدان الأوبرا تحت جراند أوتيل (الأُتيل الكبير)، وهي قهوة السّلِمْ السابق ذكرها، وطلبنا قهوة في الخارج حيث أسعدنا الحظ بأن وجدنا محلاً خالياً هناك مما لا يتيسر في غالب الأوقات.

وصرنا ننظر إلى المارّين الذاهبين والآيبين وعددهم لا يحصيهِ إلاَّ اللّه، منهم الذاهب إلى محل معهود، أو القاصد لميعاد محدود، فهذا يذهب مسرعاً، ومنهم من يمشي لمجرد التنزه وقصد التفرج، وهذا يمشي الهُوَينا، ومنهم الراكب عربة، وهذا يمشي دائماً يمنَةً، فأخذ منا العجب

والاستغراب كل مأخذ من كثرة المارين أمامنا من أصناف المخلوقات، فكأنما جميع سكان پاريس قامت من أماكنها، وتعمدت المرور بهذا الطريق، وإلاَّ فما هذا الازدحام، وما هذه الأقوام، ذلك منظر لا يُنْسى، ومَرْأى وصفهُ لا يُستقصى، وكم بين هؤلاءِ الأشباح من ذوات ملاح، وكم بين هذه المشاة والركبان من أحاسن الغزلان، ولم يكن الازدحام قاصراً على رصيف دون رصيف، بل كان عاماً للجهتين شاملاً وسط الشارع أيضاً، حيث لا تنقطع منهُ العربات، حتى جعل في وسطهِ أرصفة ضيقة، بينها وبين بعضها فواصل؛ ليتمكن من يريد العبور من الالتجاءِ إليها قبل أن يصل الرصيف الذي يقصد، إذا خاف وصول العربات إليهِ، وإلاَّ وطئتهُ لا محالة قبل الوصول.

وكنا كلما امتدَّ منا النظر إلى جهة من جهات الشارع نجد الحركة متوالية، ويُتَخَيَّلُ لنا من كثرة الأضواءِ وقوتها وانتشارها وشدتها أن الليلة ليلة زينة واحتفال؛ فإن النور لم يكن قاصداً على نور الغاز المعتاد بالبلوار، بل إن كل حانوت من حوانيت الشارع أفرغ صاحبهُ جهدهُ، وبذل ما عندهُ في إنارة داخلهِ وخارجهِ بما يأخذ بالعقول، ويَبْهر الأَلباب، فضلاً عن الإِجادة في وضع الأشياءِ المعروضة[1] للبيع، وجعلها بهيئة تسر الناظرين، وتبهرهم، حتى يرغبوا في الشراءِ ولو لغير داعٍ ضروري.

وقد أخذنا في الكلام على هذه الخلائق وكثرتهم، وما نراهُ من نشاطهم وهمتهم، وانتقلنا إلى الكلام في كيفيَّة السير الذي نسيرهُ للتفرج على پاريس، وَجرَّنا ذلك إلى التكلم في السير للتفرج على المعرض أيضاً، وأخذنا نتروَّى في أي السيرين نقدمه على الآخر، هل نبدأُ بالمدينة أو بالمعرض، إلى أن

(1) في الأصل: «المعرضة» المحرر.

تقوّى عندنا جانب التفرج على المعرض والبدءُ بهِ في اليوم التالي لمعرفة حالتهِ بصفة إجماليّة، ورجح ذلك عندنا أَنهُ ربما وجدنا بهِ مكاتبات، وردت لنا من أَهلنا بمصر؛ فإنا كنا قبل التوجه إلى أوروبا أوصينا أن تُرسَل إلينا المكاتبات باسم صاحبنا السيد مصطفى الديب في شارع القاهرة بالمعرض، لِظَنّنا أَنّنا لا نطيل مكثاً قبل باريس بجهة يمكن وصول المكاتبة إلينا بها، ومنذ توجهنا لم تصلنا مكاتبة إلى الآن فزاد بنا التشوق إلى استطلاع أخبار الأهل والوطن.

وفضلاً عن ذلك أننا أطلعنا بالقهوة في إحدى الجرائد أن المعرض ستقام فيهِ الليلة التالية زينة حافلة احتفالاً بقدوم شاه العجم فيهِ، فعقدنا النيَّة علي مشارقة المعرض في اليوم التالي، والبقاءِ بهِ حتى الليل، وعلى إرجاء أول تفرج في باريس إلى اليوم الذي بعدهُ، ثم على تقسيم الزمن الذي صممنا على بقائهِ بهذا البلد بين زيارات المدينة وضواحيها، والمعرض ومحاسنهِ، وبعض أوقات من الليل نشتغل فيها بإتمام ما لم يتمّ من الأعمال العلميَّة الّتي عزمنا على تقديمها في المؤتمر، وقمنا على ذلك قاصدين الفندق حتى وصلناهُ، وبقينا بهِ إلى الصباح.

* * *

بعض إجماليات على باريس

ليس من قصدنا هنا التعرض إلى ذكر تاريخ هذه العاصمة، فإنهُ عبارة عن تاريخ فرانسا نفسها، وقد جَمَعتهُ مطولات كتب التاريخ بكمال الاستيفاءِ والاستيعاب، وإنما نريد ذكر بعض إجماليات تجعل القارئ يتمكن من السير معنا في التفرج على هذه المدينة الشهيرة، ويفهم بها هذه البلدة الّتي ربما توهمها الرائي لأول وهلة غاية في الصعوبة.

والقارئ يعلم ولا شك أنها عاصمة فرانسا، وأنها واقعة على ضفتي نهر السّين يدخلها من طرفها الجنوبي الشرقي، فيجري إلى الشمال الغربي بعد أن يرسم قوساً نحو الشمال، وأنها قائمة في وسط سهل مستوٍ تقريباً يتخللهُ بعض آكام تبعد عن النهر، اتصلت بها المدينة، وعلت ببنائها عليها، ولا يزيد ارتفاع هذه الآكام على 100 متر عن سطح النهر، و128 متراً عن سطح البحر، ومن هذه الأكمات شارُون ومِيلِيمُونْتَانْ وبِيلَفِيلْ ومُونْمارْتْرْ على الشاطئ الشرقي وميزُونْ بلانْشْ وغيرها بالشاطئ الغربي.

وبنهر السين المذكور جزيرتان في وسط مجراهُ بداخل المدينة جزيرة سَانْ لُوِي، وجزيرة لاسِيتِيه، تَكَوَّنَ كلٌّ منهما من عدة جزر صغيرة متقاربة عُدت بها واحدة.

والمدينة منقسمة إلى قسمين أصليين يفصلهما النهر، وهما جهة الشاطئ اليميني، وجهة الشاطئ اليساري، ويتبعهُ الجزيرتان المتقدمات، ولم يبقَ ما يميز البلدة القديمة مما استجد عليها، ومن الضواحي الّتي انضمت إليها،

بسبب الإصلاحات الكثيرة، والطرق المنظمة العديدة، والتحسينات المتكررة الّتي تمت فيها، غاية ما هنالك أن وسط المدينة يتميز عما سواهُ بكثرة مبانيه، وانضمامها لبعضها أكثر منهُ في غيرها، وبزيادة الحركة فيهِ، ويتميز محل استحكاماتها العتيقة، وقد أُبطلت بالشوارع المتسعة الّتي جعلت في محلها.

على أن الزيادات الّتي حصلَت في المدينة والتحسينات الّتي جُدّدَت فيما لا يمكن تخصيص نسبتها إلى عَهد من التاريخ دون سواهُ؛ فإنها عَمَل جميع الحكومات الّتي استولت على العاصمة، واشترك في إجرائها جميع الأَجيال الّتي سكنوها جيلاً بعد جيل، فهذه الآثار الجليلة الّتي سيأْتي عليك بيانها، وهذه المباني العظيمة الّتي تُرى [في] أثناءَ التفرُّج، وهذه الأَعمال النافعة الّتي أَحيَتَ المدينة اشترك في إِيجادها جميع الفرنساويين، وآخر عملهم فيها معرض سنة 1889م، ويمكن أن يأْتي بعدهُ ما يزيد عليهِ كما زاد هو على ما قبلهُ، ومن يَعِشْ يَرَهْ.

وتنقسم باريس تقسيماً إدارياً إلى عشرين قسماً، تفصلها عن بعضها شوارعُ وطرق. وتُحاط المدينة باستحكامات بُنيت في مسافة ثلاث سنين، بمقتضى قانون صدر سنة 1840م، وبلغ ما صرف عليها 140 مليوناً من الفرنكات، وهي عبارة عن سور محيط طولهُ 43 كيلو متر، وارتفاعهُ عشرة أمتار، يحيط بهِ خندق، اتساعهُ خمسة عشر متراً، ثم يتبع هذه التحصينات الداخليَّة 17 قلعة خارجية، كأنها سور ثانٍ للمدينة، وهذه أغلبها تهدم في حرب سنة 1870م وسنة 1871م، ولكن جرى إصلاحهُ بعد ذلك، ثم استحدثت تسع عشرة قلعة على بعدٍ من هذه الاستحكامات، كأنها سور ثالث.

هذا وإن انتظام طرقات هذه البلدة، واتساع شوارعها، وإِحكام نظامها على كثرتها وتعددها وسهولة تواصلها ببعضها لجدير بأن يستلفت نظر

السائح ومزيد تعجبه، لا سيما إن قارنَ هذا بما كانت عليهِ الطرقات القديمة في هذه المدينة من الضيق والاعوجاج، وعدم الانتظام، مما قد يوجد بعضهُ إلى الآن، وتفكر فيما صُرف على هذه الشوارع المستحدثة خصوصاً في وسط المدينة من النفقات الطائلة، وتعويض أصحاب المنازل الَّتي لزم هدمها وتعويض ساكنيها فهو لا يستغرب حينئذٍ كون المدينة مديونة من جرَّاءِ هذه الأعمال لعدة[1] أجيال.

أما لو لاحظ السائح أن تحت جميع هذه الشوارع الَّتي يراها، شوارعَ ليست أقلَّ إحكاماً منها، خاصة بسيلان المستعملات من المياه فيها ورأى مجاريها لزاد في الاستغراب.

فإذا مشى في البلد، ورأى تسلطن حركات العالم في جميع أنحاءِ المدينة، وسمع اختلاط أصوات السوق، ودبدبة العربات ودوابهّا، ونداء الباعة وعلو أصواتهم، بقصد إشهار ما يبيعونهُ، على اختلافهم في النداءِ والأصوات، وعلى اختلاف ما يبيعونهُ من جميع المصنوعات والأصناف من مأكول ومشروب وملبوس، وانضم إلى ذلك صفافير سائقي العربات، وأبواق عربات الأجرة من ترامْوَايْ وأُمْنِبُوسْ، وصادف من ينادي بالجرائد وأَسعدهُ الطالع بأن كان فيها الإعلام بخبر مُهِمْ، أو حادث مُلِمْ، أو ظهور جريدة جديدة في عالم الوجود، ورأى إقبالَ الناس عليها وتخاطفهم إيَّاها لقضى من ذلك كلهِ العجب العجاب، وزاد في الاستغراب.

وقد جمعت هذه المدينة من أسباب الجد والتمدن والعمران والتقدم كالمدارس العالية والمجتمعات العلميَّة ودور العلوم والفنون والصنائع وغير ذلك من موجبات ازدياد المعارف البشريَّة ما يغبطها عليهِ سائر المدن، ويجعلها مدينة العلم والعرفان، وعاصمة الآداب، كما أنها جمعت من

(1) في الأصل: «المدة» المحرر.

أسباب الهناءِ والدَّعَة والراحة من المتنزهات والبساتين والساحات وباقي أمكنة الأنس العموميَّة ما جعلها تدعى مدينة الحظوظ.

وفيها من الفنادق ما يصلح لسائر درجات الناس، للغنى مهما بلغ غناهُ، وللفقير مهما انحطت بهِ دنياهُ، وفيها من مواضع القهوة وتعاطي الطعام ما لا يدخل تحت حصر في سائر الجهات، وفيها من دكاكين الحلوائيين ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وفيها من التياترات الكبيرة ما يبلغ العشرين، فضلاً عن غيرها من محلات الملاهي الخاصة بالخيل والرقص، ونظر صور الوقائع والأشخاص من المشاهير، وفيها من الكنائس وأمكنة العبادة لليهود والبروتستانت، ما يفوق الوصف من حيث التشييد وحسن البناءِ.

ويوصلها بسائر بلدان المملكة من كل جهة خطوط حديديَّة كثيرة هي مركزها حتى المحطات بها تسع محطات.

ويوصلها بسائر بلاد المعمورة خطوط التلغراف، ومراسلات البوستة، وببعضها خطوط التليفون، وجميعها بالغة حد الانتظام والكثرة، فإن فيها من مكاتب البوستة وحدها 87 مكتباً منتشرة في سائر أنحائها، فضلاً عن مكاتب التليفونات ومكاتب التلغراف الَّتي بعضها منفتح على الدوام في سائر أوقات الليل والنهار.

وبها من المطبوعات كثير جداً، أَهمها صحف الأخبار، أقدمها المسماة جازيتْ فْرَانس، تأسست سنة 1631م، ولم يكن بها من المطبوعات الدوريَّة سوى 150 في سنة 1789م و140 في سنة 1790م و85 في سنة 1791م، ثم تناقص عددها بعد ذلك إلى أن بلغ في مدة نابليون الأول 13، ثم تزايد بعد مدتهِ، فكان يطبع منها في زمن الحكومة الَّتي بعده 150، منها ثمان

جرائد سياسية، واستمرت في الازدياد زمن الحكومات التي تعاقبت بعد ذلك حتى بلغت المطبوعات الدوريَّة بپاريس وقت رحلتنا 1550، منها سبعون جريدةً سياسيَّة، أكثرها يباع في الطرقات العموميَّة بالمناداة عليها، وفي أمكنة معمولة من الخشب بالشوارع الكبيرة لبيع ذلك.

وپاريس هذه محور لماليَّة فرنسا وتجارتها، وأشهر بنوكها (لاَبَنْك دُه فرانس) ولهُ فروع في سائر الولايات والملحقات الفرنساويَّة، ولهُ وحدهُ الحق في إصدار أوراق ماليَّة تقوم النقود في البلاد.

وصنائعها في غاية الرواج والانتشار، يشتغل فيها أكثر من خمسمائة ألف صانع، وقد اشتهرت بالصياغة والحلى على اختلاف أنواعهِ، وعمل الساعات والكشمير، وأشغال الأَبنوس، والمراوح والشماسي وألعاب الصِّبيان وغيرها من اللطائف المسماة (أَرْتِكِلْ دُه پاري)، وقد فاق الپارسيون فيها غيرهم من جهة الظرافة، وبحسن اشغال الأَنسجة وأقمشة الملبوسات بأنواعها على اختلاف أصنافها وأوصافها، وبعمل الآلات الموسيقيَّة على اختلاف أشكالها من پيانو وغيره وباصطناع المواد الكيماويَّة، وبصنعة الخراطة والحفر والنقش بالأَخشاب والعاج، وباشغال الصوف والحرير والقطن والتيل، بديعها ودقيقها، وبعمل الأَوراق جميعها للكتابة ولزينة الجدران، وبصناعة الصابون والطيبِ، وبعمل الأَزهار الصناعيَّة، وبإتقان ملابس الرجال والنساءِ تفصيلاً وخياطة وزخرفة، وبعمل الأسلحة بسائر أنواعها وآلات الحرب بجميع أصنافها، والآلات الميكانيكيَّة وغيرها من سائر الآلات فقد اشتهرت آلاتها الرياضيَّة والمنظاريَّة والجراحيَّة وغيرها بالجمال والإتقان.

وبها معامل لتكرير السكر وصناعة البارود، وتجهيز الجلود، وبها مطابع لطبع الأقمشة حريرها وقطنها وصوفها، عاليها ودانيها، وبها مصانع تخص الحكومة منها معمل جُوبْلانْ يصنع فيهِ من الطنافس والبُسُطِ ما لا يدخل المتجر لغلو أثمانهِ، بل خصت الحكومة مصنوعاتهِ بزينة أماكنها العموميَّة وزخرفتها، وبإهداءِ بعضها لكبار بعض الدول تودداً وتحبباً.

والشوارع الكبيرة تسمى عندهم (بُلْوارْ) وتنقسم إلى أربعة أقسام: البلوارات الداخليَّة أو القديمة، والبلوارات المستحدثة، والبلوارات المحيطة.

وأهم هذه البلوارات وأكثرها حركة البلوارات الداخليَّة، وسميت بالقديمة أيضاً لأنها في مكان أسوار المدينة القديمة الَّتي هُدِمت في عهد لويس الرابع عشر، لكن لفظ البلوار أو البلوارات الكبيرة عند الإطلاق لا ينصرف عندهم إلاَّ على جزءِ البلوارات الداخليَّة، الواقع على شمال نهر السين، وهو أهم أقسام البلوارات الثلاثة على العموم، وباقي البلوارات الداخليَّة على الخصوص، فهو أهم الأهم، ويمتد على شكل نصف دائرة تقريباً، وتختلف أسماؤُهُ في هذه المسافة بإضافتهِ إلى أسماءِ أُخر، حتى تبلغ أحد عشر فيقال، بلوار كذا وبلوار كذا إلى آخره.

وحقيقة هذه الشوارع لا تكاد تُتصوَّر بمجرد الإخبار بدون مشاهدتها، فإنها إذا شوهدت يُجْزَمُ بأنها أحسن شوارع العالم أجمع، من حيث اتساعُها وإتقانها والمبالغة في زخرفتها واتساعُ دكاكينها المشتملة على أثمن الحرائر، وأنفس الحلى والجواهر، والمغالاة في تنظيمها، ومن حيث كثرة العالم فيها، واستمرار الحركة بها.

وبعض هذه البلوارات مبلط بالحجر، وبعضها مغطًى بالخشب، وبجميعها أرصفة متسعة مبلطة بالإسفلت، وبجانبيها أشجار كبيرة مرتفعة، وبتلك الأرصفة على مسافات متقاربة أماكن صغيرة (كشك) معمولة من

الخشب، بعضها معدٌّ لبيع الجرائد، وبعضها لإقامة بعض رجال البوليس، وبعضها معد لحاجة بعض المارّين من الرجال، يتخلل مسافتها الّتي في البين عُمُدٌ تلصق فيها إعلانات التياترات لإعلام العموم بها.

ومن أَعجب أسواق باريس السوق المركزيّة (هَالْ سَانْتْرالْ) وهي مؤلفة من عشر دوائر - مزمع جعلها اثنتي عشرة دائرة - مبنيّة بالحديد، مسقفة بالزنك، يتخللها طرقات مسقوفة، عرض كلّ منها وارتفاعها 15 متراً، يقطعها شارع عرضهُ 32 متراً، متجه إلى شارع رِيفُولِي، وتشغل جميعها قطعة أرض مساحتها 88 ألف متر مكعب[1]. وهذه الدوائر تشتمل الواحدة منها على 250 دكاناً، مساحة كل منها أربعة أمتار مكعبة أجرة المتر منها عشرون سنتيماً في اليوم الواحد، وتحتها مخازن أرضيّة ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار، وثمانون سنتيمتراً، ومساحتها كمساحة ما فوقها لخزن البضائع، لا يقل عددها عن ألف ومائتي مخزن، ومن أَراد أن يعرف قدر ما يصرف في المآكل بمدينة باريس فعليهِ أن يقصد هذه الأسواق في الصباح، ولا ينبغي أن ينسى أن بالمدينة مع ذلك أسواقاً أُخَر من نوع هذه خلا الحوانيت المنتشرة في المدينة، ومحلات بيع الخبز والنبيذ، فإنهما لا يباعان بالأسواق المركزيّة، وقد دلت الإحصاءَات الأخيرة على أنهُ يخص الواحد من سكان باريس على المتوسط في السنة 148 كيلوجرام «خبزاً» و212 ليتراً[2] مشروبات، و188 ليتراً نبيذاً، و85 كيلوجرام لحماً ، و10 ونصف كيلوجرام سمكاً، فيكون ما يخص سكان المدينة على ذلك في السنة بدون حُسبان الأجانب غير المتوطنين 347060000 كيلوجرام خبزاً

(1) المساحة تكون عادة بالمتر المربع «المحرر».

(2) في الأصل: «ليتر» المحرر.

و497140000 ليتراً مشروبات و 199325000 كيلوجرام لحماً و24622500 كيلو جرام سمكاً، ومجموع أثمان هذه الأصناف مليار من الفرنكات في السنة، ونحو ثلاثة ملايين فرنك في اليوم الواحد، ويبلغ عدد عربات النقل الّتي تنقل المأكولات لهذا السوق في اليوم والليلة نحو خمسة عشر ألف عربة.

وتجلب لهذه السوق جميع أصناف المأكولات والفواكه من جميع المدن الفرنساويّة، ومن سائر بلاد العالم.

وهذه المدينة فضلاً عن كونها مقر الحكومة الفرنساويّة ودواوينها ومجالسها النيابيّة و[قضاء][1] مصالحها العمومية، ومركزاً لمحاكمها العليا القضائيّة والإداريّة، هي محط رحال، وكعبة آمال تقصدها الأجانب من سائر الأقطار.

وهي كما تقدم مقر العلم والعرفان، ومحل انتشار المعارف والآداب، فقد اشتهرت بالمكاتب العالة والمدارس الخصوصيّة السامية الّتي يقصدها الطالبون من سائرة الجهات، فيوجد فيها من محلاّت التعليم العام، والمجتمعات العلميّة ما سارت بذكرهِ الأنباءُ في جميع الأنحاءِ.

فالعلوم العالية يخصها من ذلك مدرسة العلوم، ومدرسة الآداب، ومدرسة اللاهوت ومدرسة الحقوق، ومدرسة الطب، وكُوليج دُه فْرَانْس، أي (مدرسة فرانسا) ومُوزِيُومْ (محل تدريس) التاريخ الطبيعي، ومدرسة أركان الحرب، ومدرسة الصيدليّة (الأَجزائيّة)، ومدرسة الفنون المستظرفة، ومدرسة التجارة، ومدرسة اللغات المشرقية ومدرسة الفنون والصنائع، ومدرسة العلوم السياسيّة، والمدرسة المركزيّة (إِيكُولْ سَانْتْرالْ)، ومدرسة

---

(1) في الأصل ثمة ثُلمة في الكلمة «المحرر».

الموسيقا[1] والغناءِ، والمرصَد الفلكي الذي قيل فيهِ: إنهُ مركز العلوم الفلكيّة.

هذا والتعليم الثانوي يختص بهِ مكاتب عدة، أما مكاتب التعليم الابتدائي فلا يعلم عددها إلاَّ من أَحصى سكان باريس أَجمع، فإنهُ يعلم حينئذٍ ما يلزم من المكاتب لتعليم البنين والبنات؛ لأن أَمر التعليم إجباري فيها، وفي سائر البلاد الفرنساويّة الآن.

وأشهر جمعياتها العلميّة الـ (أَنستِيتُو)، وهي جمعية مؤلفة من كبار العلماءِ أقيمت لإصلاح العلوم والآداب والفنون، وتنقسم إلى أقسام خمسة: أشهرها الأكاديمية (محفل العلماءِ) الفرنساويّة، وهي أَعلى ما يتمنى الانتظام في سلكها رجال القوم وكبار علمائهم، ثم يليها أكاديمية النقش والتصوير والفنون المستظرفة، وأكاديمية الكتابات القديمة، وأكاديمية العلوم والفنون، وأكاديمية العلوم السياسيّة والأدبيّة ومن جمعياتها العلميّة سوى ما ذكر، أكاديمية الطب، وجمعيّة تاريخ فرنسا، والجمعيّة الجغرافيّة، والجمعيّة الأسياويّة، والجمعيّة الجيولوجيّة، إلى غير ذلك.

ويها متاحف علميّة وفنيّة عديدة، من أشهرها متحف علم المواليد، ويتصل بستان النباتات، ومتحف كُلُوني للأثاث والسلاح، ومتحف الفنون والصنائع، وهو يشتمل على أشكال الآلات والأدوات المخترعة قديماً وحديثاً، ومتحف متعلقات فن الطوبجيّة، وبهِ مجموعٌ عظيم من الآلات الّتي اخترعتها يد البشر لإبادة بعضهم بعضاً، ويدخل تحت ذلك جميع أنواع الآلات من الفأس الحجريّة، إلى المدافع الجديدة المصنوعة على الطراز الأَخير، ومتحف معادن فرانسا في مدرسة المعادن ومتحف للمسكوكات في دار الضرب، يشتمل على جميع أصناف المسكوكات الّتي ضربت في فرانسا من عهد شارلمان إلى هذه الأَيام وفي المطبعة الوطنيّة

---

(1) في الأصلى: «الموسيقى» المحرر.

متحف للمطبوعات الحديثة والقديمة، يتبين منهُ ما كانت عليهِ صناعة الطبع في بدايتها، وما وصلت إليهِ من الكمال، ثم متحف اللُّوفْرْ، وينقسم إلى دوائر متعددة سيمرُّ عليك بيانها.

وبها من جمال[1] الكتب الكتبخانة الأهليّة وهي من أعظم كتبخانات العالم؛ لما بها من الكتب المكتوبة بخط اليد والمطبوعة، وغيرها من الآثار، لا يناظرها إلاَّ الكتبخانة الانجليزيّة، ثم يلي هذه الكتبخانة الأهليّة كتبخانات الأَرْسنالْ والقديسَة جَنْفِياف والسُّوربونْ، ومازَارِينْ والأنْسِتيتُو والمدينة واللُّوفْرْ والدفترخانة الملوكيّة، هذا غير الكتبخانات المخصوصة ببعض المصالح والجمعيّات، (ويسهل الانتفاع بما في هذه من الكتب بالاستئذان)، وغير الكتبخانات العموميّة الّتي أحدثت أخيراً في كثير من أقسام باريس لتكون على مقربةٍ من الأهالي، مفتوحة في ساعات توافق وقت فراغهم من الأشغال، لانتفاعهم بكتبها، والاستعانة بها على صنائعهم المعاشية، وأعمالهم اليوميّة.

هذا ولم يُهْمَل في پاريس على اتساعها وكثرة سكانها أمر الضعيف، ولم يترك في يوم من الأيام بين سكانها مواساة المُعْوِز والفقير، فتألفت لذلك الجمعيات الخيريّة من رجال ونساءٍ في سائر الأنحاءِ، يجمعون الصدقات، ويطلبون التبرعات فيحصرونها في إدارة مركزيّة تعد فرعاً من فروع نظارة الداخليّة، تسمى المساعدة العموميّة، لها مدير، وديوان لتدبير عموم مصالحها، ولهُ دوائر فرعيّة ومأمورون متعددون لتوزيع الصدقات، وإعطاء المساعدات في داخل البيوت وخارجها، وفي المستشفيات الكثيرة القائمة على نفقة هذه الإدارة الخيريّة، وذلك فضلاً عن المستشفيات العموميّة

---

(1) ثمة ثُلمة في حروف الكلمة ولعلها [محال] «المحرر».

لسائر الأمراض، والخصوصيّة لأمراض مخصوصة القائمة بمساعدة الحكومة أو من طرف بعض الشركات أو من إحسانات بعض أغنياءِ الآحاد، حتى زاد عدد الأَسِرّة في المستشفيات برسم الفقراءِ عن عشرين ألف سرير.

وعدد سكان باريس آخذ في الازدياد؛ فإنهُ بعد أن كان في سنة 1872م 1851792 نسمة، صار في الإحصاءِ الذي حصل في سنة 1886م (2344550 نسمة).

هذا والسائح لا يسأَم من اتساع هذه المدينة، ولا يتعب، فإنهُ كلما سار فيها وقف على أمر جديد لم يعلمهُ قبلُ، ولأَن المشي بها سهل للغاية لانتظام الشوارع واتصالها ببعضها، كما أن وسائل الانتقال متوفرة فيها جداً؛ إذ بها من عربات الكراءِ المعتادة للركوب ما يزيد عن 15 ألف عربة، وبها غير ذلك من عربات التّرامْواي والأُمْنيبُوسْ ما يتخلل طرقاتها طول النهار، وجزءًا كبيراً من الليل بلا انقطاع، حتى لا تكاد تمر بالإنسان خمس دقائق في طريق من الطرق إلاَّ ويرى منها صاعداً أو نازلاً، وتبلغ خطوطها 36 خطاً للأُمنيبوس، وأربعين خطاً للترامواي، وبباريس أيضاً غير ذلك من وسائل الانتقال، وابورات نهر السين تمر بجوانبهِ طول النهار، وجزءاً كبيراً من الليل، وفيها زيادة على هذا كلهِ السكك الحديديّة المحيطة بها، يسهل للإنسان بواسطتها سرعة الانتقال من أي جهة من ضواحي المدينة إلى أي جهة غيرها.

* * *

(أول يوم في باريس)

أول يوم في المعرض

نظرة إجماليّة

أَول شيءٍ قصدناهُ في باريس في أول من إقامتنا بها هو زيارة المعرض، كما سبق أنهُ ترجح عندنا ذلك ليلة وصولنا إلى باريس.

وكان يمكننا أن نتوصل إليهِ بعربات الأُمْنِيبُوسْ وبالترامواي وبالوابورات الَّتي تسير في السين، وبالسكة الحديد الَّتي تسير بجهات الضواحي، وبعربات الكراءِ المعتادة، فاخترنا هذه.

وقد سبقهُ معارض عموميّة بباريس أهمها معرض سنة 1855، ومعرض سنة 1867، ومعرض سنة 1878.

وهذا المعرض قد تقرَّر عملهُ منذ شهر نوفمبر سنة 1884، حيث صدر أمر رئيس الجمهوريَّة في ذلك التاريخ (بإقامة معرض عمومي في باريس لجميع الحاصلات الصناعيَّة، يفتتح في يوم 5 مايو سنة 1889، وينتهي في يوم 31 أكتوبر سنة 1889، وبأَن تقبل فيهِ حاصلات جميع الأمم)، وقد ابتدئَ في أعمالهِ بالفعل في أوائل سنة 1886.

وتقدرَّت نفقاتهُ بمبلغ 43 مليوناً من الفرنكات بعد تنزيل قيمة المواد الَّتي يستحصل عليها من المباني الَّتي ستقام من أجلهِ، وتهدم بانفضاضهِ، تحملت منها الحكومة 17 مليوناً، ومدينة باريس 8 ملايين، والثمانية عشر مليوناً الباقية قامت بها شركة تَدفَعُها تحت الاستيلاءِ عليها من العوائد الَّتي تتحصل من

الداخلين فيهِ، وخَلَفت هذه الشركة شركةٌ ثانية حلت محلها في جميع تعهُّداتها وامتيازاتها، ودفعت ثلاثة ملايين ونصف زيادة على ما دفعتهُ الأولى، فبلغت المصاريف العموميّة على ذلك 46 مليوناً ونصفاً من الفرنكات.

وصار تقسيم الأشياءِ المعروضة بهذا المعرض إلى تسعة أقسام، وكل قسم تحتهُ عدة أنواع.

القسم الأول: الأعمال الفنيّة بأنواعها، وهي المتعلقة بالرسم والتصوير، مجسماً أو غير مجسم، معمولاً باليد أو مطبوعاً، والمتعلقة بالعمارات على اختلاف تنوُّعاتها.

القسم الثاني: كل ما[1] تحتاجهُ التربية والتعليم ومتعلّقات الفنون العقليّة، وأنواعهُ أحد عشر، منها متعلّقات التعليم الابتدائي للأطفال وغيرهم من الشبّان، ومنها متعلّقات التعليم الثانوي، ومنها متعلّقات تعليم العلوم العالية، ومنها المطابع والكتب، ومنها الورق والتجليد وأدوات الرسم والتصوير، ومنها متعلّقات الفطوغرافيا وأدواتها، ومنها آلات الموسيقا ومنها متعلقات الطب الإنساني والبيطري، والجراحة، ومنها الآلات الدقيقة ومنها الخرائط والآلات الجغرافيّة والقسموغرافيّة والطبوغرافيّة والرسومات المتعلقة بالهندسة والأشغال العموميّة.

القسم الثالث: أثاثات المنزل، وملحقاتها، وأنواعهُ ثلاثة عشر، منها الفرُش الغالية الأثمان والمتهاون في ثمنها، ومنها متعلّقات تزيين المحلات وزخرفتها، ومنها زجاج النوافذ وأواني البلور والزجاج، ومنها أواني الفخّار، ومنها البسط وأقمشة الفرش، ومنها الأوراق المنقوشة التي توضع بالجدران، ومنها السكاكين، ومنها المصوغات، ومنها البرونز والمعادن

(1) في الأصل: كلما. المحرر.

المصبوبة، ومنها الساعات على اختلاف أنواعها، ومنها أدوات التدفئة وأدوات الإنارة بغير الكهرباءِ، ومنها الأعطار ذوات الروائح الذكيّة.

والقسم الرابع: المنسوجات والملابس وتوابعها، وأنواعهُ أحد عشر، منها الخيطان، ومنها منسوجات القطن، والكتان، والقنّب، ومنها خيطان الصوف ومنسوجاتهِ، ومنها الحرائر منسوجة وغير منسوجة، ومنها الدانتيلات وأشغال التطريز والحياكة، ومنها القلانس وملابس الرجال والنساءِ، ومنها الحلي، ومنها الأَسلحة الَّتي تحمل، ولوازم الصيد في البر، ومنها متعلقات السياحة والإقامة في السفر.

القسم الخامس: حاصلات المعادن وغيرها طبيعيّة ومصنوعة، وأنواعهُ سبعة، منها المعادن المستخرجة، ومنها حاصلات الغابات، ومنها حاصلات صيد البر والبحر وآلاتهُ، ومنها الحاصلات الزراعيّة غير المأكولة، ومنها الحاصلات الكيماويّة، ومنها الحاصلات الصيدليّة، ومنها الجلود.

القسم السادس: آلاتُ الفنون الميكانيكيّة، وكيفيات استعمالها، والكهرباءِ، وأنواعهُ تسعة عشر: منها آلات استخراج المعادن، وطرق استعمالها، ومنها آلات استغلال الأَرض الزراعيّة والغابات، ومنها الآلات المستعملة في الصنائع المتعلقة بالمأْكولات، ومنها الآلات المستعملة في الفنون الكيماويّة والاجزائيّة، ومنها الماكينات المستعملة في الصناعات اليدويّة، ومنها الآلات المستعملة في صنع الحبال، ومنها الآلات المستعملة في النسيج، ومنها الآلات المستعملة في خياطة الملابس

وتجهيزها، ومنها الآلات المستعملة في عمل لوازم أثاث المنزل والسكنى، ومنها الآلات المستعملة في أشغال متنوعة، ومنها الآلات المستعملة في صناعة العربات، وتنجيد الفرش وعمل السروج، ومنها لوازم السكك الحديدية، ومنها الكهرباء، ومنها الآلات، المستعملة في الهندسة المدنيه والأشغال العموميّة، وأشغال العمارة، ومنها لوازم الصحة، ولوازم مساعدة الفقراء ومنها أدوات السباحة وتخليص الغرقى، ومنها الآلات المختصة بفن الحرب وكيفيّة استعمالها.

القسم السابع: الحاصلات الغذائيّة، وأنواعه سبعة، منها الحبوب والدقيق على تنوعهما، ومنها حاصلات الخبز والفَطير والحلاوة على اختلاف أنواعها، ومنها حاصلات اللبن بأنواعهِ والبيض بأنواعهِ، ومنها المُتَبِّلاتُ ومنبهات المعدة والسكّر وما يستخرج منهُ من المربيّات والأشربة، ومنها المشروبات المتخمرة.

القسم الثامن: الزراعة المعتادة، وغرس الكرم، وفن تكثير الأسماك، وفيهِ أربعة أنواع: منها المختص بالزراعة ولوازمها من مساكن ومعامل، ومنها المختص بغرس الكرم، ومنها المختص بالحشرات النافعة والحشرات المضرة بالزراعة، ومنها المختص بتكثير الأسماك بأنواعها.

القسم التاسع: صناعة البساتين، وفيهِ ستة أنواع: منها المختص ببيوت تربية النباتات وأدوات البستان، ومنها المختص بالأزهار ونباتات الزينة، ومنها المختص بالفواكه وأشجارها، ومنها المختص بالبذور والنباتات الَّتي توجد في الغابات، ومنها المختص بالنباتات الَّتي تُزْرَعُ في بيوت التربية السالف بيانها.

وممّا ذكرناهُ اتضح للقارئ ما اشتمل عليهِ هذا المعرض من الأشياءِ، فلم يدع شيئاً إلاّ واشتمل على أنواع منهُ، ثم لم توجد أُمّة من الأمم إلاّ اشتركت في أعمالهِ وأحضرت حاصلاتها لعرضها، فيهِ، فإن لم يكن بصفة رسميّة فمن عند آحاد أبنائها من تلقاءِ أنفسهم.

ولا غرو في أنهُ يلزم لجميع هذه الحاصلات أمكنة متسعة وميادين شاسعة؛ فلهذا جعل هذا المعرض في ساحة شَانْ دُهْ مَارْس وطولها 1000 متر وعروضها نحو 500 متر، وفي سراي تْرُوكَادِيرُو، وهما اللذان فيهما معرض سنة 1878، وأضيف إليهما رصيف أُورْسي على شاطئ السين (من الشان دُهْ مَارْس إلى ساحة دار العواجز طول ذلك 1200 متر)، وزيد على ذلك ساحة دار العواجز المذكورة أيضاً (إِسْلاَنَاذ ديزنْفَليذْ)، وقدرها طولاً 500 متر، وعرضاً 250 متراً، فتكون مساحة الأرض الّتي أقيم عليها هذا المعرض جميعها 84 هكيتاراً (والهكتار عشرة آلاف متر مربع) وهو غربي المدينة.

وقسم (شانْ دُه مارْس) منهُ على جنوب نهر السين، وقسم تُرُكَاديرُو على شمالهِ يوصل بينهما قنطرة إِيينَا، وقسم رصيف أُورسي يتصل بالشانْ دُهْ مَارْس من جهة الشرق، ويستمر على النهر حتى يصل إلى ساحة أَنْفَالِيْد، وهي القسم الرابع.

أما قسم شان دُهْ مَارسْ فهو أهم الأقسام ويشتمل بالأخص على معارض الفنون المستظرفة والفنون العقليّة والصنائع بأنواعها والماكينات، وسرايات معارض بعض الأمم الخصوصيّة.

وقسم تروكاديرو يشتمل على معارض الأمور البستانيّة وغيرها.

وقسم كيه دورسي (رصيف أُورْسِي) يشتمل على المعارض الزراعيّة.

وقسم إِسْبَلانَادْ دِزَنْفَلِيدْ يشتمل على معارض البوستات والتلغرافات، وديوان الحربيّة والصحة وغيرها، خصوصاً معارض بلاد الجزائر وتونس، وملحقات فرانسا والبلاد الداخلة تحت حمايتها، وفيهِ بعض القرى الوطنيّة من هذه البلاد البعيدة.

وحيث قد عَرفْتَ الآن هذا المعرض وتقسيماتهِ ومصاريفَهُ واتساعاتهِ فلنذكر لك حال زيارتنا الإجمالية فنقول:

إخترنا للدخول فيهِ جهة تُرُوكَادِيرُو، ولأنها مرتفعة عن جهة شَانْ دُه مَارْس بطبيعة أرضها، فيتيسر للناظر أن يرى منها مجموع هيئة جهة شَانْ دُه مَارْس المذكورة، فدخلناها من أحد أبواب الدخول إليها (وعددها خمسة أما عدد أبواب الدخول إلى المعرض جميعها 22)، وهي سراي عملت لمعرض سنة 1878، على شكل أبنية الأندلس عبارة عن نصف دائرة، في وسطها بناءٌ مستدير، فيه قاعة الاحتفالات والمجتمعات العلميّة تعلوهُ قبة عظيمة، وفي كل من طرفيه برج، وجناحا هذا البناء من اليمين ومن اليسار متجهان نحو السين، وأمامهُ من جهة النهر محل متسع مرتفع (يسفُل عنهُ شبه غدير مملوءٍ بالماءِ متقن الصنع) وقفنا بهِ لننظر المعرض وما فيهِ، فرأَينا تحت أقدامنا ذلك الغدير اللطيف، وحواليهِ بستان غاية في الانتظام والبهجة، ينتهي إلى نهر السين قد أُعد معرضاً لما تحويهِ البساتين من الأشجار والأزهار جمع من أنواع الورد وحدها 4500 نوع تتخللهُ في بعض جهاتهِ أَبنية رشيقة ومحلات أَنيقة ما زلنا نمتع الطرف بها حتى عبرنا النهر من قنطرة إِيِيِنَا.

أما ساحل النهر من الجهة المقابلة لنا فقد أُعد معرضاً لمتعلقات الأبحر والأنهر، واصطفت بجوانبهِ المراكب والفلائك من كل صنف.

ومذ عبرنا هذه القنطرة دخلنا قسم شَانْ دُه مَارِسْ، فصرنا في أَهم محال المعرض إن كان يجوز التمييز بين محال هذا الصنع العجيب والأثر الغريب.

وأول ما يقابل المتفرج الطريق الذي سمّي (تاريخ السكنى)، بناهُ المهندس الشهير جارْنِييهْ باني الأُوبرا الپاريسيَّة، وجعلهُ موازياً للنهر يخُترق هذا القسم من الشرق إلى الغرب، وشيَّد على جانبيهِ ثلاثاً وأربعين عمارة، حاكى بها أماكن السكنى عند جميع الأمم في الأزمان القديمة، فجاءَ فريداً في بابهِ لم يُسْبق إليهِ.

وحيث انتهينا من النظر في هذا الطريق يمنة ويسرة سرنا إلى الأَمام، فقابلنا برج إيفل الشهير، وسيأتي الكلام عليهِ، فمررنا من تحتهِ بجوار الفسقيَّة العظيمة الَّتي شادها المهندس سان فيكتور، حتى انتهينا إلى ما بعدهُ من حدائق الشَانْ دُهْ مَارِس.

وفي وسط هذه الحدائق الفسقيّة ذات الأنوار الكهربائيّة، وَبِمَيْمَنتنا من الأمام سراي الفنون العقليّة (آرِلِيبيِرُو)، وبميسرتنا في مقابلتها سراي الفنون المستظرفة (بُوزَاز)، فهما جناحان، أما القلب فهو سراي الصناعات المتنوعة (أَندوسْتْرِي دِفِرسْ)، وفي منتصفها على مدخلها العمومي القبة المركزيّة (دُومْ سَنْتْرَالْ)، وسيأتي الكلام عليها.

وبين كلٍّ من الجناحين المذكورين والفسقيّة ذات الأنوار الكهربائيّة بناءٌ موازٍ لهما أصغر من الجناحين بكثير تخصص بمعرض مدينة پاريس.

فإذا دخل المتفرج من باب سراي الصناعات الوسَطِي، واستمر في طريقهِ

على استقامة في الممشى الكبيرة الَّتي تقسم هذه السراي إلى قسمين متوازيين، انتهى بهِ السير إلى قاعة الماكينات (جَلِيرِي ده مَاشِينْ) الهائلة.

أما حوالي برج إيفل ووراء طريق تاريخ السكنى فقد أُقيم بهما أبنية مشيدة، وعمارات فريدة، أُعدت لمعارض أمم أمريكا وغيرها مما سيأتي الكلام عليهِ في الزيارات الخصوصيَّة.

والجهة الغربيَّة من سراي الصناعات المتنوعة مشغولة بمعارض بعض الدول المشرقيَّة مثل اليابان وسيام ومصر ومراكش والعجم وشارع مصر الذي أزمعنا الذهاب إليهِ.

وهذه السرايات العظيمة والعمارات الجسيمة والحدائق المتسعة والقباب المرتفعة وبرج إيفل من بينها يفخَر بارتفاعهِ، ويُعجب بحسن أوضاعهِ، وهذه الخلائق منكبةٌ عليها. ومتواردة من كل فج إليها[1] فضلاً عما احتوت عليهِ من البدائع وغرائب الصنائع مما لا يدخل تحت حصر، ويوجب استقصاؤُهُ الْعيَّ والحصر، على أنك لو رأَيت ما رأَيت وحَدَّقت النظر فيما استقصيتُ لاستحسنتَ ما استحسنتُ، واعترفتَ بما بهِ اعترفتُ، وها أنا مع هذا سأَبذل الجهد في وصف مشاهدت حسب ما استطعت في الزيارات الخصوصيَّة الَّتي سأُجريها بعد.

---

(1) وقد دخل المعرض يوم افتتاحهِ ممن يدفع رسم الدخول، وكان فيهِ ثلاث فرنكات 111295 نسمة سوى المستخدمين بهِ، وأصحاب الحاصلات المعروضة فيهِ، وهم لا يدفعون رسماً، فما بالك بمن يدخلهُ بعد يوم الافتتاح، وقد توافد إليه الوافدون من جميع الأنحاء ورسم الدخول بعد اليوم المذكور من الساعة 10 قبل الظهر إلى الساعة 6 بعدهُ ورقة دخول (تِيكِيتْ) واحدة، قيمتها الاسمية فرانك واحد، والحقيقة لا تزيد عن ثلاثة أرباعهِ، وفي الصباح إلى الساعة 10 قبل الظهر، وفي المساء من الساعة 6 بعد الظهر ورقتان اهـ.

هذا وقد ذهبنا إلى شارع مصر بقصد أخذ المكاتيب الّتي نجدها فيهِ، والاستراحة عند صاحبنا السيد مصطفى الديب والتوجه بعد ذلك إلى قسمي المعرض اللذين بقي علينا زيارتهما اليوم، وهما قسم رصيف أُورْسي، وقسم أَنْفَاليِد بالسكة الحديديّة المعمولة على طريقة دِيكُوفيلْ من محطتها الواقعة بآخر شارع مصر عازمين على قلة المكث بهذن القسمين، والإسراع بالعودة إلى صاحبنا الموماً إليهِ كما وعدناهُ للأكل معهُ، والتفرج بصحبتهِ على الاحتفال الذي سيحصل بالمعرض في ليلة هذا اليوم احتفاءً لشاه العجم حيث يزان لأَجلهِ بالأنوار والأضواء.

وشارع مصر هذا قامت بانشائهِ جمعيّة ماليّة من أعضائها البارون دِه لُورْ والموسيو شارْل دُه لسپس، وتولّى الأول منها مباشرة الأعمال، وأحضر من أعمال الخرط والمشربيات القديمة المعروفة بمصر عدة عديدة، مما نُمّقَ وضعهُ، ومن الأبواب المصريّة العتيقة ما حسن صُنعهُ، وشاد به المنازل الكثيرة والمساكن الخطيرة الّتي رأى مناسَبَتها، وأجرى تشغيل كل ذلك حسب إرادتهِ وتحت مباشرتهِ.

وجعل في أولهِ من الشمال إلى الجنوب جامعاً أقام لهُ منارة شبه منارة جامع قَايِتْبَاي، وبأَحد جوانبهِ سبيلاً، ثم جعل من الجانبين مساكن مصريّة على الطرز القديم والتزم ذلك في جميعها بأَن جعل الطبقة الأرضيّة منخفضة، وعلّق على بعض أبوابها تماسيح، ثم جعل في الطبقة العليا خَرْجاتٍ من الخشب أو الحجر على شكل المعروف بالمقرنص، وجعل عليها مشربيات، وبنى فوق سطح هذه الطبقة حواجز تحجز من فوقهِ، عن نظر المارة كعادة أهل الشرق، قاصداً بذلك كلهِ مشاكلة الهيئة القديمة بمصر، حتى إنه جعل البياض مُغْبَرّاً لتتم المشابهة، فجاءَ هذا الشارع غايةً

في اللطف، حتى عدَّهُ الپاريسيون، ومن حضر لزيارة المعرض من أحسن جهاتهِ، فكانوا ينكبُّون عليهِ، ويكثر تواردهم إليهِ، وقد بلغت مساكنهُ خمسة وعشرين غير الجامع، وجعل الدكاكين الَّتي انشأها تحت هذه الأماكن محلات اتجار في الأشياءِ الَّتي تصنع أو تباع في مصر، فخصَّ أحدها بصائغ من مصر يبيع أصناف المصوغات المصريَّة من الذهب والفضة وأشكال الحلى، وأسكن في دكان آخر رجلاً يصنع الحلاوة والمربيَّات على الطريقة الشرقيَّة حتى الكنافة، وفي غيرهِ صانعاً يصنع قللاً على شكل القلل القناويَّة، سالكاً في ذلك الطريقة الأَصليَّة الَّتي يدير فيها القلة بيدهِ، والآلة برجلهِ، وفي غيرهِ بائع دخان، وفي غيرهِ بائع طرابيش.

وجعل بعضُ الشرقيين فيهِ فسطاطاً محل قهوة على الطراز الشرقي من أبهج ما يُرى، وسيمرُّ بك الكلام عليها.

وأَعدَّ بيت كوك في هذا الشارع دكاناً لعرض بعض تماثيل العمارات المصريَّة القديمة وتماثيل ما يستعملهُ في نقل السياح من أقاصي بلاد العالم إلى مشاهدة هذه الآثار في النيل من وابورات وذهبيات وصواوين، وغير ذلك حتى جاءَ ببعض التراجمة بملابسهم المصريَّة من سراويل وطرابيش مكتوب عليها اسم كوك.

وقد أُعدَّ مكان واسع في هذا الشارع لبيع العطريات الشرقية والأنتيكات المصريّة بجميع أصنافها، وأنواع الفخّار الأسيوطي من آنية وغيرها، وأنواع أواني النحاس مكتوبة ومنقوشة على الهيئة القديمة، وهي تصنع بجهة خان الخليلي بمصر، والحرائر المصريَّة كالكريشة والملس والشاهي والقطني والمُلاءَات بأجناسها، والأَلاجات والغزليّات والبن والفستق والبلح والمراوح والشُّبُكات والشَّيَشِ بأَنواعها، وأَنواع المصوغات المشرقية

المعمولة من النحاس، ومن الفضة، والذهب كالأساور والأقراط والخلاخيل إلى غير ذلك من أنواع الحليّ المستعمل بمصر، وقد صُفَّتْ جميع هذه البضائع داخل المكان وفي دواليب بدائرهِ والمستخدمون واقفونَ عندها للبيع، فيدخل الزائر يجول ويتفرج بسائر أنحاءِ المكان، ويشتري ما أراد، وهذا مكان صاحبنا السيد مصطفى الديب.

وما أدراكَ ما هو، هو أحد الوطنيين المُجِدّين المجتهدين لهُ محل بيع أعطار بالتربيعة في مصر، استحسن التوجه إلى پاريس في معرض سنة 1878 الماضي وتعهدت الحكومة لهُ ولجميع من أراد الذهاب إلى ذلكَ المعرض من مصر بتسفير بضائعهم على مصاريفها، فلما وصلها استأجر دكاناً تحت المنزل المصري الذي بنتهُ الحكومة المصريةُ هنالك ووضع فيهِ أنواع الأعطار المصريَّة في زجاجاتها، وعلى أشكالها المعتادة عندنا، فانكب عليهِ المتفرجون لغرابة هذه الأشياء عندهم، ولأنهُ حافظ على الملابس الوطنيةُ اللطيفة (الجبة والقفطان الشاهي والعمالة والمركوب الأحمر)، ولذكائهِ تعلم من اللغة الفرنساويةُ ما يلزم تجارتهُ، فكان يقول بهيئته هذه وبيدهِ زجاجة من عطر الورد مثلاً سأنتي ما دام اي (شمي ياسيدتي)، إِيسأنْس دُه رُوزْ (عطر الورد)، أُون فرَانْ (ثمنها فرانق واحد)، فباع واشترى، وتَفَرَّجَ واكتسب.

ثم عاد بعد ذلك إلى معارض أُخرى منها، معرض حصل في قصر البلور في بلاد الإنجليز، ومعرض قبلهُ أو بعده بِلِيدِن من أعمال هولنده وزار النمسا وألمانيا وباع واشترى فيهما، وعرف ما يلزمه من لغات هذه البلاد.

فلما حَلَّ موعد هذا المعرض (سنة 1889) رَغِبَ السفر، فاستأجر المكان المتسع الذي ذكرناهُ، وجعلهُ محلاً للبيع والشراء، وكان ملتقى للمصريين

يجتمعون فيهِ، ويأوون إليهِ فيشربون القهوة العربية من تلك القهوة السالف ذكرها، ويشرب من يريد منهم النرجيلة إكراماً لهم من هذا الوطني، وتصلهم برسمهم فيهِ مكاتباتهم.

وإنا وإن كنا لم نبلغ القصد من وجود مكاتيب فيهِ من الأهل، إلا أننا وجدنا مكاتيب من بعض الأصحاب دلتنا على أخبار الوطن، وقرأنا الجرائد المصريّة فيه، فأفادتنا حالة مصرنا بعد أن فارقناها، وحظينا فيهِ بِلُقيا كثير من المصريين السائحين، مثل حضرة الوجيه الماجد حسن بك مدكور وحضرة عثمان فهمي بك مدير البحيرة حالاً وكان وَكيل محافظة مصر وقت ذاك، والمرحوم إبراهيم بك زكي قاضي محكمة الاستئناف الأهليّة، ورأينا من المقيمين في باريس من المصريين للعلم والدراسة حضرة الفاضل أحمد شفيق بك رئيس قلم ترجمة الديوان الخديوي الآن، وحضرتي جميل بك ثابت وعزيز بك ثابت نجلي الأمير الجليل سعادة ثابت باشا رئيس الديوان الخديوي وقت ذاك، وهما من وكلاءِ النائب العمومي الآن لدى المحاكم الأهلّية والمختلطة.

وإذ كان ملتقى المصريين كما قدّمناهُ شرّفهُ صاحب السموّ والإجلال ولي عهد الحكومة المصريةً وقت ذاك، وهو الآن خديوينا الأفخم المتحلي باسمهِ الكريم هذا الكتاب، ومعهُ صاحب السعادة والسيادة البرنس محمّدٌ علي بك أخوهُ الماجد، وقد زيّنهُ صاحبهُ بأحسن الزينة من الفرش والحرائر والسجاجيد والنجف والفوانيس، تحفها البيارق والرايات إجلالاً لهما وسروراً بتشريفهما، وتَنَزُّلاً بأَن تعاطيا فيهِ القهوة تشجيعاً لصاحبهِ وجبراً لخاطره، وحباً في أهل الوطن، ومراعاةً لجانبهم يصحبهما. في هذه الزيارة رئيس الوزارة الفرنساويةً ومدير المعرض وغيرهما من كبار الفرنساويين وعظمائهم.

وجديرٌ هذا المكان أَن يُزار، فياحبذا لواقتفى أثر صاحبنا هذا إخواننا المصريون في الإقدام والهمة والنشاط والخروج إلى البلاد الأوربيةِّ ابتغاءً التجارة والكسب والتفرج عليها، ومعرفة عاداتها وأحوالها وتجارتها حتى يكون لهم خبرة بطرق التجارة والكسب، ويأخذون عند عودتهم من هذه البلاد ما يلزم لتجارتهم ويروج أنواعاً كثيرة ينتخبون منها ما يناسبهم، وربما كان بعض ما يأخذه السماسرة منهم أو التجار المتوسطون هنا بينهم وبين تجار أوروبا كافياً لمصاريف السياحة، فيكونون اكتسبوا التنزه، ومعرفة أحوال البلاد، وتحصلوا على متاجرهم بثمن أقل من الثمن الذي كانوا ينقدونهُ فيها بمصر.

وحقيق بنا أن نترك الكسل والإصرار على عدم الخروج من أَوطاننا، ويا نعم ما لو اشتغل بذلك الأَغنياء منَّا، فبثوا في الناس روح الكسب بالسعي في مشارق الأرض ومغاربها.

فهذا صاحبنا اشترك هو وابن أخته السيد محمَّدٌ الديب مع اثنين آخرين في تأسيس هذا المكان الذي ذكرناهُ، ومكان مشرقي آخر بهذا المعرض في الشارع المذكور، وجعلوا رأس مال الشركة 8000 جنيه، فهل علمت ما ربحوهُ بعد جميع المصاريف كما علمتهُ من صاحبي هو كما أخبرني، عشرون ألف جنيه ربحوها ربحاً صافياً بعد الاستحصال على رأْس المال، وجميع ما صرفوهُ، وبعد استيداعهم مبلغاً قدرهُ 300 جنيه احتياطاً بأَحد البنوكة لمصاريف دعوى أقاموها ضد البارون دُهْ لُوز، ولم تنتهِ إلى الآن فخص صاحبي وقريبهُ 100000 جنيه، وخص الشريكين الآخرين 100000 جنيه مثلهما.

وَحَرِيٌ هذا الشارع الذي انتقل بنا إلى هذه الأفكار الحسنة أن نعود إليهِ

بالذكر، وهو أن منازلهُ ومشربيأتها والبائعين فيهِ والبضائع الَّتي يعرضونها للبيع كلها مصريةٌ فكأنما الواحد منّاً بمصر في شارع من شوارعهما القديمة مزدحم بالأجانب غاية الازدحام.

فإن انتقل بالزائر الفكر نظراً لكثرة الأجانب به إلى أنهُ ليس في مصر، بل في طريق من بلاد أخرى تشابه مصر، وصرف النظر عن جميع ما قدمنا، فإنهُ لا يستمر طويلاً في هذا الفكر عندما يسمع كل من جهة الحمَّارة تصيح «يمينك شمالك يا عم».

وذلك لأَن البارون دُهْ لُوزْ أَحضر خمسين حماراً بيضاً بحالتها الَّتي تكْرَى بها في مصر، ومعها خمسون حَمَّاراً، وما يلزم لذلك من القصاصين والبياطرة وصانعي البراذع؛ لإصلاح ما عساهُ يفسد منها، وجعل أجرة الركوب من الشارع إلى نقطة قريبة منهُ فرنكاً واحداً فلم تكن الحمير تستريح دقيقة واحدة من النهار والليل لشدة إقبال الناس عليها، حتى اضطر مأمور المعرض العمومي لأَن يُصدر لهُ قراراً مقتضاهُ أن لا تُركب هذه الحمير إلاَّ في ساعات معلومة من النهار، ليس إلَّا مراعاة لنظام المعرض الداخلي، ولكن البارون دُهْ لُوزْ لم يخسر شيئاً، فإن حميرهُ استراحت، ورجالهُ في مسافة البطالة هذه وماليتهُ لم تتغير، فقد جعل رسم الدخول إلى الاصطبل الذي به هذه الحُمُر نصف فرنك، فلا تسل عن ازدحام العالم عليهِ وتواردهم إليه، فكانوا يدخلون فيرَوْن الحمير مرصرصة على طوايلها، والحمَّارة جالسين يطبّلون على الْدرَبُكةِّ، ويضربون بالدُّف، ولهم جلبة عظيمة، فيقفون بعض دقائق، وينصرفون ليدخل غيرهم.

ولنترك الحمَّارة مع حميرهم الآن، ولنرجع إلى ماكنا قصدناه من زيارة القسمين الآخرين في المعرض، ونركب لذلك سكة حديد دِيكُوڤيلْ، وهي

سكة عملت داخل المعرض لتسهيل الانتقال فيهِ من إحدى جهاتهِ إلى الجهة الأخرى؛ لزيادة اتساعهِ كما تقدم (فهي من وسائل مساعدة الزائرين كالكراسي ذات العجلات الَّتي جُعِلت لجلوس النساءِ والشيوخ ممن لا قدره لهم على المشي الكثير، ليتفرجوا على المعرض من غير مشقة، وهي أشبه بالعربات المجعولة عندنا للأطفال يدفعها السائق من الخلف) أعطي امتيازها للموسيو دِيكُوڤيل فسميت باسمهِ، وهذا المسيو لهُ ورشة عظيمة مخصوصة بصناعة أمثال هذه من السكك الحديديةُ الضيقّ ما بين قضيبيها، التيّ تنقل من جهة إلى أخرى، وهي كثيرة الاستعمال عند الجيوش في حال انتقالها لنقل مهماتها وأثقالها، إذ إنَّ قضبانها توضع كما هي بدون عمليّة أخرى ، وتستعمل أيضاً من طرف نظارة الحربيةُ الفرنساويةُ في الطوابي والقلاع لنقل المدافع وتركيبها.

وقد جعلت من درجات الركوب فيها اثنتان إحداهما أجرتها نصف فرنك، والثانية أجرتها ربع فرنك، مهما كانت المسافة وطولها، من مبدئها أحد أطراف المعرض إلى الطرف الآخر ثلاثة كيلومتر ونصف، وجعل لها خطان من الحديد الصلب، يقوم الوابور من كلّ منهما في كل عشر دقائق مرة من الصباح إلى نصف الليل، فتكون المرات مائة وتسعين، ويقطع المسافة من المبدأ إلى النهاية في 21 دقيقة مع مافي ذلك من مسافات الوقوف في محطات ثلاث، وقد استلزم ذلك خمسة عشر وابوراً، كلها تسير بقوة لكهرباءِ.

فسرنا في هذا الطريق، وكان الوابور يمشي الهُوَيْنا في أطراف المعرض، والطريق محفوف بحاجزين من الجانبين، وكان تارة يمشي فوق القضيب على الأرض المعتادة، وتارة تحت الأرض وطوراً تحت بعض البيوت، وحواجز الجانبين كلها إعلانات مكتوبة بسائر لغات العالم مشرقية ومغربيةٌ بخط جلي،

بالتحذير من أن يخُرج الراكب رأسهُ من العربة حال سير الوابور لكيلا يصادفهُ غصن شجرة أو غيرهُ، فيتأتّى لهُ منه مالا يُحْمَد، إلاَّ اللغة الألمانية فلم يكتب بها إعلان نظراً للتنبيهات الَّتي أصدرها البرنس بسمارك وقت ذاك بالتضييق على الألمانيين، والتحريج عليهم في المجيءِ، فكأنما الفرنسيس يقولون: حيث إنهُ لا يحضر أحد من الألمانيين في معرضنا اتباعاً لتنبيهات حكومتهم الرسميةً، فلا حاجة إلى تحذير قوم لا يحضرون من خطر لا يتعرضون له لذلك.

فنظرنا في الطريق بعض مواضع كي دُورسي وهو الرصيف الَّتي تشغلهُ معارض الزراعة والحاصلات الغذائية، واستمرَّ بنا السير حتى وصلنا إلى إسپلانَادْ دِيزَانفاليدْ (ساحة دار العواجز).

وهذا القسم تقسمهُ طريق متسعة جداً إلى شطرين شطر على يمين السائر، وأهم ما فيهِ معرض نظارة الحربيةً، ومعارض الصحة والمياه المعدنيةً والاقتصاد الاجتماعي، وما يتبعهُ من المساكن الَّتي هي من أحسن ما يُعَدُّ لسكنى العَمَلة، وشطر على يسار السائر خصص بمعارض المستعمرات الفرنساويةً، والبلاد الداخله تحت حماية فرنسا، وأولهُ من جهة السين سراي معرض الجزائر، وقد جعلت على هيئة جامع سيدي عبد الرحمن بعاصمة الجزائر، وسراي معرض تونس، وقد جعل قسم منها على شكل جامع سيدي ابن عروس بتونس والمأْذنة والقبة على شكل جامع سيدي عقبة بالقيروان ثم سراي أَنَامْ وتُونْكينْ، وفي مقابلتها سراي كُوشَنشينْ، وبينهما سراي الملحقات الفرنساويةً ووراءَ ذلك قرى وطنية بنيت على الحالة الَّتي تكون عليها في تلك البلاد يسكنها أُناس من أهلها الحقيقيين.

وهذا القسم على عمومهِ وخصوصهِ غاية في الجمال، ونهاية في النظام،

لا سيما أن سرايات المعارض الَّتي ذكرناها فيهِ يحرسها عساكر من أَهلها لابسون لباس الحرب الذي هيأ تْهم بهِ الدولة الفرنساوية، فضلاً عن أن أكثر هذه الأماكن صنعها عَمَلة وطنيون، وحضروا من تلك البلاد البعيدة على مصاريف الحكومة الفرنساوية لتستدل بأعمالهم على تأثيرها في تلك الأصقاع من حيث إدخالها في أهلها المعارف والصنائع.

وما بلغنا هذا المبلغ من التفرج إلاّ وقد دخل علينا الليل بصحبةُ الجوع، لمضي زمن طويل من وقت أكلنا في أحد محلات المعرض وقت الظهر، فعدنا بالسكة الحديديَّة إلى شارع مصر.

ولا يُظنُّ أن صلاة المغرب حصَلت في الجامع الموجود فيه، أَو أن الأكل كان في الطبقة الَّتي تعلو محل تجارة السيد مصطفى الديب.

أما من جهة الجامع فلأن هيئتهُ هيئة جامع من الخارج ليس إلاّ، أما من الداخل فهو قهوة جعلت لراقصات مصريات وعبيد ترقص ودراويش تدور أَوجدها البارون دُهْ لُوْر، لما رآهُ من انكباب الناس على القهوة الَّتي جعلت في آخر الشارع من الطرف الآخر في فسطاط كما تقدم.

وأما من جهة الطبقات الَّتي تُرى أنها تعلو هذه الدكاكين فذلك من الخارج أيضاً، والواقع أنهُ ليس وراءَ الحائط الخارجي شيءٌ، مع أنه يخيل للناظر غير ذلك، فأكلنا في محل التجارة بعد أن أُغلقِت أبوابهُ من جهة الطريق بإقبال الليل، والأطعمة أحضرتها طاهية من أهالي تلك البلاد، استأجرها صاحبنا للخدمة والطبِاخة، وعَوّدها على تهيئة الطعام بأقرب ما يمكن من الأُسلوب الشرقي، فأكلنا أكلة شرقيةً مع شرقيين في محل شرقي من سكة مشرقيةً.

وقمنا بعد ذلك للتفرج على الاحتفال باستقبال شرقي، وهو سمّو شاه العجم حيث يستقبل في هذه الليلة استقبالاً رسمياً بالمعرض.

وذلك أنه حضر بباريس يوم الثلاثاءِ الماضي 30 يوليو سنة 1889، فاستقبلهُ، على المحطة رئيس الجمهوريةً مصحوباً بالوزراءِ وأمراءِ الجيوش، واصطفت لهُ العساكر في الطرق الّتي مرَّ منها، حتى وصل إلى سراي كُوبِرنِيك، وقد أُعدت لإقامتهِ ضيفاً عند الحكومة الفرنساويةً.

واحتفل القوم بهِ عظيم احتفال؛ لأنَهُ أول ملك زار هذا المعرض من ملوك العالم المتمدن، فأَعدَّ لهُ رئيس الوزراءِ وليمة في اليوم الثاني لوصولهِ عقبها ليلة باللو، وأعد لهُ رئيس الجمهوريةً وليمة في اليوم الذي بعدهُ عقبها باللو أيضاً، وهذه الليلة الثالثة (2 أغسطس سنة 1889) أَعدَّ لهُ هذا الاحتفال في المعرض، وصار تزيين البرج بمواد كيماويةً، تُرى كاللهب فيهِ، كأَنهُ يحترق وتُوِّرتْ جميع محلات المعرض، وأضيئت الفساقي الكهربائيةً بأَنوراها البهجة، وفي الليلة الآتية تعد له ضيافة بنظارة الخارجية، ويتبعها ليلة باللُو، وفي التي بعدها تسمعهُ الموسيقات العسكريةً ألحانها في (سراي الصناعة) في (شانزيليزيه)، وفي الّتي بعدها يتفرّج على الإپدرُومْ والتي بعدها يتفرج رسمياً بتياترو الأوپرا.

والشاه جدير بهذه الاحتفالات ، فإنهُ محبوب في بلاده عادل في رعاياهُ، محب لخيرهم، باحث عن راحتهم، حكم فيهم منذ تسع وأربعين سنة.

ولم تكن الساعة التاسعة بعد الظهر حتى تمَّ احتشاد الناس، وكثر تواردهم إلى إن غَصّتْ بهم الساحات والمتنزهات، وقد حضر الكثير منهم نهاراً تفادياً من دفع أجرة الدخول في المساءِ، وقد جعلت من الساعة السادسة بعد الظهر عشرة أوراق دخول (تِيكِيتْ)، وأحضروا معهم ما يأْكلون تخلصاً من أثمان أطعمة الفنادق الباهظة، فقد حكي بعضهم أنهُ احتسب عليهِ فيها ثمن الصنْف الواحد عشرة فرنكات، فأَكلوا في حدائق الشّانْ دُهْ مَارْسْ.

وكان المنظر بهجاً، لا يقدر أن يوفيه القلم حقهُ ولا البيان وصفهُ، فهذا برج إيفل فضلاً عما تزيَّنَ بهِ من الأنوار في طبقاتِهِ جميعها صار إلهابهُ وإشعالهُ بمواد كيماويَّة، يخال الرائي أنهُ محترق، وكلهُ لهب، فيا لهُ من منظر لم يُرَ أَبهج منهُ، ولا الطف، ولا أبدع، ولا أظرف، ولا أحسن، ولا أبهى، ولا أجمل، ولا أزهى.

وهذه القبة المركزيَّة وبابها والتُّروكاديرُو وبرجاهُ وسائر العمارات مُنَارة بأحسن الأنوار، وضوؤها يبهر الأبصار، متشكلة بغريب الأشكال، متلونة بألوان الجمال من الغاز والكهرباءِ، مما لم يسبق نظر مثلهِ في أنحاءِ المعمورة، وهذه الحدائق مزدانة بالفوانيس على أشكال حسنة، وتنظيمات مستحسنة، وهذه الفساقي المنوّرة بالكهرباءِ، وما يُرى بها من انعكاس النور في الماءِ تبهر العقل، فترى الماءَ عند انصبابهِ وتدفقهِ وانكبابهِ يتلوَّن بأحاسن الألوان، ويتشكل بأشكال حسان.

وقد حضر الشاه في الساعة التاسعة، ومشى بالمعرض نحو ساعة، تفرج فيها على الزينات والاحتفالات، فأَحسن القوم ملاقاتهُ، وكثيراً ما أَبدَوْا لهُ علامات السرور على حضورهِ لديارهم.

ورأيناهُ من إحدى النوافذ على كثرة الزحام وتراكم الأَقوام، وإذا بهِ متوسط القامة قريبها إلى الطول، ذو شارب وسِبَالَيْن غلاظ، حليق اللحية أبيض اللون، لابس قلنسوة بلادهِ، وعليها قطعة كبيرة من الألماس.

ومكثنا بعد انصرافهِ مدة طويلة نمتع النظر بما نراهُ من الأَنوار الزاهية، والأضواءِ الباهية، والأشكال البديعة اللطيفة، والمناظر البهجة الظريفة جالسين على كراسي استأجرناها بقرب تلك الفساقي البهيَّة، وننظر ما

حولنا حَسْب مد البصر في جميع الأنحاءِ الزاهية بالأزهار والأضواءِ.

فلعمري، لو نظرها امرؤُ القيس لعمل فيها المعلقات، وترك وصفهُ للمنازل والعَرَصَات، أو شام برقها نابغة ذُبْيَان لنظم فيها القصائد الحسان، أو شاهدها قُس إِياد لكان لهُ في وصفها الأَياد، ولو رآها سحبان وائل لفضَّلها في المحاسن على الأوائل، ولو أبصرها قُدَامة أو البديع لأطنبا القول في حسن هذا الصنيع.

ثم آن أوان انصراف الناس، وشُرِع في إطفاءِ بعض المصابيح، ومع ذلك لا تسمح أنفسنا بالخروج عن هذه الملاذ، ونتمنى أن لو طال الليل إلى أن اضطرنا الحال إلى التوجه أخيراً، فخرجنا نبحث على عربة توصلنا إلى الفندق، فما وجدناها إلاَّ بعد جهد جهيد وبحث شديد، فركبناها بخمسة أضعاف التعريفة والمعتاد إلى أن وصلنا الفندق.

* * *

(ثاني يوم في باريس)

أردنا في هذا اليوم (السبت 3 اغسطس سنة 1889) أن نتفرج وسيدي الوالد على پاريس، وننظرها نظرة إجماليّة نعرف بها إجمالياتها تاركين دخول ما اشتهر من الأماكن ورؤية ما بها إلى فرصة ثانية، فاكترينا لذلك عربة في الصباح، وعرّفنا السائقَ بأن يسلك بنا طريقاً بيناهُ لهُ، فسار بنا كما ستراهُ.

خرجنا من الفندق الساعة التاسعة صباحاً، ومَشَيْنا قليلاً حتى وصلنا ميدان پَالِيه رُوَيَّالْ (السراي الملوكيّة)، فسلكنا طريق رِيفُولي مارّين على برج سَان جَاكْ ودار الحكومة البلديّة (أُوتيلْ دُه ڤيلْ)، ثم سكة سانت انْطُوَانْ إلى ميدان الباستيل (القلعة) القائم في وسطهِ كُولُونْ دُه جُويلْيهْ (عموديوليه)، ومنها إلى جرانْ بُلْوَارْ (الشوارع الكبيرة)، فمررنا منها على بلوار بُومَارْشيه، وعلى بلوار دُه تَامپلْ (شارع المعبد)، وعلى رحبة الجمهوريّة، وعلى بلوار سان مَارتن، وبلوار سان دِيني، وبلوار بُون نُوڤيلْ، وبلوار پُوَلسُّونيير، وبلوار الطليان، ثم ميدان الأُوپرا، وكان على يميننا، والطريق المسمى أوينُودُولُوپيرا (طريق الأُوپرا) على يسارنا، وهو متجه من هذا الميدان إلى ميدان التياترو الفرنساوي، فتفرجنا حوالي الأُوپرا من الخارج، وعدنا إلى ميدانه حيث ابتدأنا .

ومررنا في طريقنا الذي أتينا به من شارع الايطاليان قاصدين باقي الشوارع الكبيرة، فمررنا ببلوار كاپوسِينْ، ثم بلوار مَاذْلين، ثم ساحة كنيسة المادلين،

فتفرجنا على الكنيسة المذكورة داخلاً وخارجاً، ومن هذه الساحة نزلنا على اليسار، فمررنا بالسكة الملوكيّة (رُوَيَال) حتى وصلنا إلى ميدان لاكونكورد (الوفاق)، ومررنا حوالي مسلة كليوبطره القائمة هناك، واتجهنا إلى اليسار حيث رأينا متنزه الشانزيليزية العظيم الإحكام، البديع النظام، وسرنا فيهِ حتى وصلنا إلى باب النصر (أَرْكْ دُه تِرِيُونف) القائم على ميدان إِيتْوَال (الكوكب)، فتفرجنا عليه، وصعدنا فوقهُ فاستطلعنا تلك المناظر اللطيفة الّتي سيأتي عليك بيانها مع غيرها في آخر هذا الفصل، ثم عجنا متجهين نحو نهر السين فعبرناهُ على قنطرة (أَلما) ووصلنا شَانْ دُهْ مَارَسْ حيث المعرض، كما سبق في الفصل المتقدم، ولم ندخلهُ، بل مررنا من الخارج لرؤية الجهات القريبة منهُ، ومررنا على أَوْتيل ديزنفاليد (دار العواجز المتقاعدين من العسكر) ، وانثنَيْنا إلى سكة جُرُونيل، فوصلنا بلوارسان جِرمان، ومنهُ وصلنا سكة بوناپارت.

ومررنا بكنيسة سان سولپيس، حتى وصلنا سراي لُكْسَمْبُورَج، واجتزنا حديقتها، فتذكرت العهد القديم مذ كنت بباريس مدة دراستي بها، فإني كنت معتاداً على التنزه فيها بعد الفراغ من الدروس آخر النهار، فكانت محل نزهتي مع إخواني وأحبائي وخلاني، فتأثرت من تذكر أولئك الإخوان، وما كان لي معهم من محاسن الحديث وأحاسن الأُلفة، وروابط الود والمحبة، وجال تفكري في تفرقنا بعد الاجتماع، وتشتتنا في سائر البقاع، وعرّفت سيدي الوالد بذلك، وما كنا عليهِ فيها مع الإخوان، وما زلنا نتنزه بها، حتى خرجنا منها، وكنا وجهنا العربة إلى سكة صُوفْلُو، فقصدناها، وسرنا بها حتى وصلنا إلى ساحة (پَانْتِيُونْ)، وعن يسارنا مدرسة الحقوق الّتي كان تعليمي بها، وعن اليمين قسم البلديّة الخامس، فدخلت

المدرسة لتشوقي إليها، فإن لها ولمعلميها الفضل عليّ، وقد مضى لي منذ فارقتهم أحد عشر عاماً، وإني ما عشت أذكرهم بالثناءِ الجميل.

ولم أتجاوز صحن الدار لعدم وجود أحد فيها من الأساتذة والتلامذة لانقضاءِ مدة الدراسية السنويّة، وقصدنا منها سكة كَرْدِنيالْ لُموانْ، حيث كنت ساكناً مدة إقامتي بپاريس، لأرى المنزل الذي كنت ساكناً به، وأُريه لسيدي الوالد، فلما وصلناهُ أريتهُ إيّاه من الخارج، وعرّفتهُ الغرفة الّتي كنت ساكنها بالطبقة الثالثة منهُ، وأرَيْتهُ خرجة الغرفة الّتي كنت أرى منها سكة كردنيال المذكورة، وسكة مونج، حيث كانت داري على تقاطعهما تقريباً بنمرة 59 وإذا بالشباك مفتوح وحال المحل على ما كان عليه قبل، ولكنني لم أدخل المنزل؛ لأنه بلغني أن صاحبتهُ الأولى تغيرت، وقصدنا من هنا سكة مونج، فشارع سان جِرْمان حيث سرنا جهة الغرب إلى أن التقينا ببلوارسَانْ مِيشيل، فانثنينا إلى جانب متحف كُلُونِي بسكة سُوْمرَار حيث الفندق الذي كنت آكل بهِ آخر إقامتي بپاريس، فسررت لرؤيتهِ بعد غيبتي عنهُ المدة الطويلة.

وكانت محادثتي مع سيدي الوالد المسافة كلها في الأيَّام الخالية وأنا بپاريس وقت الدراسة، وفي صفاءِ تلك الأيام وخلو البال من الشواغل والانكباب على الدراسة والتفكر في إتمام ذلك، والعودة إلى الوطن بخلاف حالنا الآن من شغل الفكر فيما كان لا يخطر ببالنا وقتذاك، وشربنا القهوة في المحل الذي كنت متعوداً شربها فيهِ مدة الدراسة بآخر بِلُوَارسان مِيشيل تجاه الفسقيّة المشهورة هناك، وأخذنا في الحديث بشأن هذه الجهة، أي الجهة اليسرى من السين المعروفة بـ (كارْتيية لاَتَانْ)، وأنها مقر المدارس العالية وغيرها من محلاّت التعليم والتدريس، وأنها مسكن

التلامذة من الفرنساويين، ومن يقصد فرانسا من سائر بلاد العالم، فيعيشون فيها عيشة راضية يقضون أوقات الدروس في الاستحصال على نفائس المعلومات، وبعد الفراغ منها يتنزهون في متنزه لُكسمبرج، وما جاروهُ من المتنزهات، ويتآنسون بمن يريدون في القهاوي، وبها يطالعون الجرائد، ويعرفون الأخبار، وهم في أثناءِ ذلك يروضون أنفسهم بالمداعبة مع عدم الكُلفة، وكمال الحريّة، فتراهم ضاحكين فرحين مستبشرين، وربما ارتفعت أصواتهم أحياناً إلى درجة يظنها من لا يعرفهم، ولا يَقْدُر أعمالهم العقلية حق قدرها أنهم مجانينُ أو سكارى، وليسوا كذلك، بل المقصود رياضة أذهانهم وإراحتها من أتعاب الأفكار في العقليّات حتى يأتوا دروسهم، وهم بغاية النشاط والشوق إليها.

على أن التلامذة ليسوا على حالة واحدة من انتظام الحال والاستعانة بالرياضة والتنزه وإراحة الذهن على النشاط والتوجه إلى استحصال العلوم برغبة وهمة، بل منهم من تكون لهم الرياضة والتنزه سبباً في التعطيل عن الاشتغال بالعلم والدرس، فإنهم جعلوا ذلك محط أنظارهم فترى الواحد منهم يقضي السنين العديدة والأحقاب المديدة، وهو لم يتزحزح عن سنتهِ الأولى الدراسية ولم يتقدم عنها خطوة واحدة، فهو فيها للسنة الخامسة عشرة تواليهِ أهلهُ مع ذلك بالمصاريف لغناهم، واقتدارهم ولتفهيمهِ إيّاهم بانهماكه على الدرس وانكبابهِ على المطالعة، وهو منهمك لا على الدرس، بل على اللهو واللعب، ومنكب لا على العلوم، بل على استصحاب الفَتَيَات اللطيفات، مقسم أوقاتهُ تقاسيم منتظمة في غير الدروس، ساهر ليلهُ في غير المطالعة، فهو يخرج في الصباح فيذهب إلى قهوة معلومة، يَجد فيها من هم على شاكلتهِ من إخوانهِ فيقضون الصباح في اللعب والشرب حتى يأتي وقت الغداءِ، فيتوجهون إلى محل الطعام

الذي اعتادوهُ، ويخرجون منهُ إلى قهوة لتعاطي القهوة واللعب بالورق حسب ما يسمح بهِ الوقت، ولو في نظير أن المغلوب يجُعل ثمن القهوة على حسابهِ، (قلت على حسابهِ ولم أقل يدفع، فإن هذه القهاوي يفتح فيها حساب لهؤلاءِ الطلبة يقيد فيهِ ما يشربونهُ تحت دفعهم بعض شيءٍ من ثمنهِ في آخر كل شهر، فيقيد صاحب القهوة في حسابهم ما أخذوا، وربما قيّد عليهم مالم يأخذوهُ، وهيهات أن يدفعوا لهُ ما اخذوهُ بالفعل)، ثم ينتشرون للتنزه في ضواحي المدينة، وفي متنزهاتها، ويعودون وقت طعام العشاءِ، وبعدهُ يتوجهون إلى محلات الشرب فيتقابل الواحد فيها مع أمثالهِ، ومن يحب، فيقضون ليلهم في لعب ولهو وصياح حتى يقرُب أو يُصبح الصباح فَيبُعدَ ما كان عليهِ في الأَمس، وهكذا دأُبهم على الدوام في جميع أوقات المُقَام.

هذا ولما طال بنا الجلوس في هذه القهوة، واسترحنا، وقد استغرق منا الحديث زمناً طويلاً تركناها، وعبرنا من نهر السين على قنطرة سان ميشيلْ إلى جزيرة لاَسِيتِيه، وسرنا فيها بشارع سراي المحاكم، حتى وصلناها، ثم جاوزناها ، وهي عن يسارنا، ومحكمة التجارة عن يميننا، حتى فارقنا الجزيرة المذكورة، وعبرنا باقي السين ثانيةً، وصرنا في الجهة اليمنى منهُ بساحة الشاتْليه، على يميننا تياترو الأوپراكوميك وعلى يسارنا تياترو الشاتْليه، وسرنا قليلاً حتى وصلنا برج سان جَاكْ الذي سبق لنا المرور عليهِ في ذهابنا، وإذا بنا في طريق ريڤولي فأَخذنا على يسارنا ومررنا أَمام مخازن اللوڤر الكبيرة، حتى وصلنا لجنينة سراي التويلري، فانْثَنَيْنا على يسارنا في طريق كستجليون إلى محل إقامتنا، وكان الوقت وقت الغروب، فاسترحنا، وبعد مسافة تعشينا، وأمضينا الليل في مطالعات تتعلق بما ستفرج عليهِ في اليوم التالي من الآثار كالمعتاد كل ليلة ليسهل علينا معرفة ما نقصدهُ.

وقد رأيت بعد الفراغ من تعليق ما كتبتهُ إجمالاً في هذا الباب أن أذكر في الأيام الآتية كل ما أقف عليهِ بالتفصيل من جميع الأمكنة التي أراها، ليكون القارئ منها على بصيرة، حتى لا يضيق ذرعاً من الإجماليات، والتعداد من غير تفصيل، ويكون في غنى عن أن تكون خريطة پاريس بمرأى منه، ويكون ما أكتبهُ لهُ كالرفيق في هذا الطريق.

وها أنا الآن أكتب بيانات وتعليقات تختص بما رأيناهُ من الآثار في هذا النهار:

- (طريق ريڤولي) هو من أهم شوارع پاريس بعد (الْبِلْوَارَاتُ الكبار)، وتمر بين ميدان پَالِي رُوَيَّالْ وسراي اللوڤر فيبتدأُ من ساحة كُونكوُرْد، وينتهي للطريق المسمى سانت انطُوانُ، وهو مواز لنهر السين، طوله نحو ثلاثة كيلومترات[1]، وسمي بهذا الاسم تخليداً لذكر واقعة انتصر فيها ناپليون بوناپارت على النمساويين بناحية ريڤولي سنة 1797، وقد ابتدئَ في عمارتهِ سنة 1802، فانتهت سنة 1865، وعماراتهُ متشابهة في البناءِ والجسامة، تحفها تُرْتوارات مغطاة بسقوف تحملها عُمُدٌ (كالتي بعمارة البوستة القديمة بالازبكية عندنا) من ميدان الكونكورد إلى طريق لوڤر على امتداد 1400 متر، وكلهُ في هذه المسافة مشغول بدكاكين غاية في الزخرفة، وبفنادق من الدرجة الأولى، ومن أشهر العمارات التي بجانبيهِ سراي اللوڤر الملوكيَّة من جهة اليمين للآتي من رحبة الكونكورد، وتجاهها مخازن اللوڤر الكبيرة.

- (برج سَانْ جاكْ) هو برج كنيسة قديمة بني معها (من سنة 1508 إلى سنة 1522) ارتفاعهُ 53 متراً، ثم هُدِمت، وكان التصميم على هدمهِ معها لو لم تشترهِ مدينة پاريس، فجددَّته وحفظتهُ من الاندثار، وكان لمدة قريبة يقصدهُ السيَّاح لمشارفة پاريس من أعلاهُ لارتفاعه ووقوعهِ وسط پاريس، ولكنهم

(1) في الأصل: «متر» المحرر.

منعوا عنه الآن منذ خصص بعلم الحوادث الجويةً، واتخذ معملاً للكيمياءِ والطبيعة.

– (أوتيلْ دُه ڤيلْ) أي دار الحكومة البلديّة هي عمارة من أَحسن عمارات مدينة باريس وأهمها، أُعيد بناؤها حديثاً على شاكلة الدار الَّتي كانت قبلها وموضعها، وقد أحرقها حزب الكُومُون سنة 1871 إنما هذه أوسع من الَّتي قبلها، وأتقن منها في النقش والزخرفة، وهي بناءٌ هائل على طراز عمارات القرن الخامس عَشَر تتألف من كثير من المحلات ، ذات القباب معمولة على هيئة أَبراج القرون الوسطى، تعلوها الرواشن، ومنافذ المداخن، وهي منفصلة عن الطرقات المحيطة بها بدرابزين من حديد، يليهِ خندق يصل منهُ النور إلى طبقتين مبنيتين تحت الأرضية منها، وهذه الطبقة الأَرضيةٌ تحيط بها أعمدة مربعة الشكل بخلاف الطبقة الَّتي فوقها، فإنها محاطة بأَعمدة مستديرة عالية.

وأَهم مافي هذه العمارة منظراً وِجْهَتها الأَصلْية الّتي على الميدان المسمى باسمها، وتنقسم هذه الوجهة إلى ثلاثة أقسام، الوسط منها بارز عن الآخرين، وهو ذو ثلاثة أبواب، أَوسطها الباب الأصلي، وعلى جانِبيَهُ صور مصنوعة من البرونز تُمثِلّ العلم والصناعة، وقد جعل في الطبقات العليا من الوجهة صفُفَ متجهة فتحاتها إلى الخارج، وُضع فيها كثير من تماثيل مشاهير الرجال وغيرها من الصور المجسمة الَّتي تمثل بعض المدن الفرنساوية، ويوجد في وسط هذه الوجهةَ سَاعة غاية في الإتقان يحيط بها سبع تماثيل، ويعلوها قبة صغيرة فيها جرس السّاعة حَولها تماثيل عديدة، فيبلغ عدد التماثيل الَّتي تزينت بها هذه الوجهةَ نحو المائتين.

ويداخل هذه العمارة محلات متسعةَ، وأَبنية متعددةَ مخصوصة بمصالح المدينة كافية لاحتياجاتها العديدة أهمها قاعة جلسات المجلس البلدي.

ولهذه الدار شهرة كبيرة، ومدخل عظيم في التاريخ الفرنساوي، فإنها كانت تجتمع فيها أحزاب الثورة الخارجون على الحكومة أيام الانقلاب الأول الذي تمّ في سنة 1789، كما أنها اجتمعت فيها الأحزاب بمناسبة الانقلابات الّتي تمت بعد الثورة العامة المذكورة، وقد أوى إليها لويس السادس عشر لما رجع من فِرْسَايْ مذ رأى نفسهُ محاطاً بالأهلين، ولم يسكن جأشهم إلاّ بعد أن شارفهم من إحدى نوافذها، فرأوْا العلامة ذات الألوان الثلاثيّة الّتي صنعها لافَاييتْ، وألفَّها من اللون الأبيض الخاص بعائلة البربُون، ومن اللونين الأزرق والأحمر الخاصين بمدينة باريس، وكانت هذه الدار مركزاً لبعض الحكومات الفرنساويةّ حتى إن حكومة الكومون اتخذتها مقرّاً لها، وأحرقتها لما طردتها منها العساكر المنتظمة في سنة 1871 السالف بيانها.

ولميدانها ذكر لاينْسى في التاريخ، وإن كانت تتجدد بذكراه الأحزان، فكم أُعدمت فيهِ أُناس بالاحراق والقتل والشنق بأمر الحكومات الملكيّة لجرائم سياسيةّ، وبأمر رجال الثروة[1] أيام الاختلال.

– (ميدان بَاسْتيل) أي القلعة، سمي بهذا الاسم لأَنهُ كان محل قلعة من قلاع السور القديم الذي انهدم، وبقيت لدفع هجمات سكان قسم سانت أنطوان عن المدينة إذا دعتَ الضرورة إلى أن صارت بمرور الأَزمنة سجناً تحبس فيهِ الأكابر الّذين يتهمون بجرائم سياسيةّ، وتسجن فيه كبار الشريرين، وصارت بعد ذلك يودع فيها من لا ذنب لهُ من الناس إلاّ معاداتهُ للمقربين، أو كراهتهُ للاستبداد والمستبدين بمجرد إبرازِ أمر من الحكومة، وبدون أدنى تحقيق، ومن غير أن تصدر بالحبس أحكام،

(1) الصواب رجال الثورة اتساقاً مع السياق. «المحرر».

فكانت هذه القلعة مطمح أنظار انتقام الثائرين، حتى إنهم بمجرد إشاعة سمعوها من أنّ مَن في القلعة يستعد لمهاجمة قسم سانت انطوان المذكور قصدوها بعدد لا يحصى، ورغبوا الدخول فيها، فلما استشعر بهم حفظتها أَغلقوا الأَبواب، ورفعوا القناطر الَّتي يُمَر عليها، ولكن الثائرون تغلبوا عليها، ودخلوها عَنْوَةً، فقتلوا من لم يتيسر لهُ النجاة من حراسها انتقاماً لمن قتل منهم في دخولها، وأَخلَوْا سبيل المحبوسين فيها ظلماً وهدموها عن آخرها فكان تاريخ استيلائهم عليها (14 يوليو سنة 1789) مبدأ محو الاستبداد، وقطع آثار الظالمين، وفاتحة الإصلاحات الجديدة، ولذلك صار يُعدَ عيداً وطنياً عند جميع الفرنساويين.

– (عمود يُولْيَهْ) هذا العمود القائم وسط الميدان السالف ذكرهُ أُقيم (من سنة 1831 إلى سنة 1840) تخليداً لذكر من قُتِلوا في ثورة يوليه سنة 1830 وارتفاعهُ 47 متراً، وهو قائم على أساس مستدير من الرخام الأَبيض، يعلوهُ قاعدة مربعة، على أطرافها كثير من الصور والتماثيل، كتمثال العدل، والقانون الأساسي، والقوة والحريّة إلى غير ذلك ، وساقه مصنوع من البرونز، قُطْرهُ أربعة أمتار، منقوش على جوانبهِ أسماءُ من ماتوا في واقعة يوليه المذكورة، وعددهم 615، وفوق تاجهِ صورة من البرونز المذهب تمثّل الحريّة واقفة على إحدى قدميها، وبإحدى يديها مصباح التمدن، وباليد الثانية سلاسل الاسترقاق مكسورة مهشومة.

ويمكن الصعود لأَعلى العمود بواسطة سلم درجهُ 238 درجة، فيرى الإنسان منهُ جميع الجهات المجاورة، ويمكن النزول لأَسفلهِ، فيمر النازل بين قتلى يوليه السالفين وغيرهم ممن تلاهم من القتلى السياسيين.

– (جْرَانْ بُلْوَارْ) أي: الشوارع الكبيرة – سبق لنا في الفصل الذي

خصصناهُ ببعض إجماليّات على پاريس ذكر تقسيم الشوارع الكبيرة (جْرَانْ بُلْوَارْ)، ونقتصر هنا على ذكر الشوارع الّتي رأيناها في رياضة هذا اليوم، ومررنا بها، وهي أهم بُلْوَارَاتْ پاريس اتساعاً وحركةً ومتجراً وزخرفةً وإتقاناً، وهي متواصلة كأنها طريق واحد منحنٍ على شكل نصف دائرة تحتلف أسماؤُهُ باختلاف مواضعهِ مُبْتَدَأً من ميدان بَاسْتِيلْ، ومُنْتَهٍ إلى ميدان مادْلِينْ.

– فأولها بُلْوَارْ بُومَارْشيه وهو أَطول هذه البُلْوَارَاتْ؛ إذ يبلغ طولهُ 750 متراً، سمي بهذا الاسم تخليداً لذكر الكاتب الشهير بومارشيه، وعلى اليسار بنمرة 25 تياترو بومارشيه.

– ثم بلوار فِيْ دُكالْفِيرْ نسبةً لدير كان قائما بهذه الجهة في القديم، وبآخر هذا الشارع محل ملعب الخيل المعروف بملعب الشتاءِ.

– ثم بلواردُوتَامپلْ (شارع المعبد) وطولهُ 405 أمتار، وكانت على جانبيهِ محلات تياترات متعددة، وكانت الحركة فيهِ سابقاً أكثر مما هي عليهِ الآن، وقد تحولت عنهُ إلى ما بعدهُ بسبب تحول مركز المدينة، ورمى الرجل المسمى فييسكي ملك فرانسا لُوي فيليب في المحل القائم فيه الآن البناءُ المنمر بنمرة 42 في يوم 28 يوليو سنة 1838 بآلة قَتَّالة لم تصبهُ، وإنما أماتت كثيراً من حاشيتهِ ومن المارة.

ثم وصلنا پلاس دُلاَرِيپُوْبلِيكْ (ميدان الجمهوريةِّ)، وهو من أجمل الميادين، طوله 275 متراً، وفي وسطهِ تمثال الجمهورية، أقيم في سنة 1883 قاعدتهُ من الحجر ارتفاعها نحو خمسة عشر متراً ونصف، وهو من البرونز، ارتفاعهُ تسعة أمتار ونصف متر، تحيط بهِ بعض الصور، وقد

عملت تمثيلاً للحريةً والمساواة والإخاءِ ونقُش على قاعدتهِ كثير من الرسومات بارزة في الحجر، لتمثيل الوقائع الشهيرة المتعلقة بالجمهوريةً، وتحيط بهذا الميدان أشجار كبيرة تتخللها فساقي المياه، وأكبر عمارة قائمة على الجانب الأيمن فندق (أُوتيل مُودِرْن)، وقشلاق للعسكر، ويتفرع من هذا الميدان عدة طرق وشوارع مهمة.

ثم يلي الميدان المتقدم بلوارسان مَارْتَانْ، وبهِ كثير من التياترات منها تياترو فولي دَراماتيكْ، وأَمبيجو كُوميكِ، وتياترو پُورت سان مارْتَانْ وتياترو رُونيسأنْسْ.

وبهذا الشارع الباب المسمى (پورت سان مارتان) وهو باب ارتفاعهُ 17 متراً ونصفاً[1]، وعرضهُ مثل ذلك، وسَمكهُ 4 أمتار ونصف، أقيم في هذا الطريق سنة 1674 إجلالاً للملك لويز الرابع عشر، وتذكاراً للوقائع الّتي انتصر فيها الفرنساويون في عصرهِ.

ثم بُلْوَارْ سَان دِيني، وتتفرع منهُ على اليمين واليسار طرقات معدودة من أهم طرقات باريس، تخترق المدينة من شمالها إلى الجنوب، مبتدأةً من محطة الشرق، وتستمر بِبُلْوَارْ بطرسبرج وَبُلْوارْ سيبستاپُولْ، ثم تستمر بِبُلْوَارْ سراي الحقانيّة، وبُلْوَار سَان مِيشيلْ حتى تصل إلى الرصَدخانه.

وقد أُقيم على بلوارسان دِيني هذا الباب سمي پُورت سَانْ دِيني شيد احتفالاً بانتصار لويس الرابع عشر، على هولانده والمانيا قبل الباب المتقدم بسنتين، وارتفاعهُ 24 متراً وخمسة وستون سنتمتراً ، وعرضهُ 25 متراً،

(1) في الأصل: «ونصف» المحرر.

وسمكهُ 5 أمتار، وليس بهِ غير فتحة واحدة، طولها 15متراً، وعرضها 8 أمتار (بخلاف السابق إذ فيهِ ثلاث فتحات)، وعليهِ رسومات مسلات مغطاة بأسلحة، ورايات يرمز بها إلى النصر والغلبة.

وكلما تقدم السائر من هنا إلى الأمام زادت العمارة، واتسعت مظاهر الثروة، وصارت الدكاكين أكثر نظاماً وإتقاناً ، والمنازل ومحلات المساكن أحسن ترتيباً وإحكاماً، وأجمل هيئة واعتباراً، وترى جدرانها ملأى بكتابات ذهبيةٌ تدل على ما يُباع أو يصنع أو يُتّجَرُ بِهِ فيها، إلى أن يصل السائر إلى بُلْوَارْ بُون نوڤيلْ حيث تياترو جِمْنَاسْ قائم على إحدى جانبيهِ.

ثم بُلْوَار پُوَاسُونيِيرْ ويتفرع عنهُ من جهة اليسار سكة پُواَسُونْيير الموصلة إلى السوق المركزيةْ السابقة الذكر، ويتفرع عنهُ من جهة اليمين سكة فُوبورج (ضواحي) پُواسُونْيِيرْ الَّتي فيها بنمرة 15 مدرسة الموسيقا والغناء، وهي مجعولة ليستخرج منها مشخصو التياترات الوطنيّة، وفيها من المعلمين عدد 73، ومن التلامذة 600 أصليون، و200 ملحقون لا يدخلون إليها إلاَّ بعد اختبار عمومي، ولكنهم متى قبلوا فيها يتعلمون مجاناً لغاية انتهاءِ التعليم، وجعل للذين تكون لهم الدرجة الأولى من التلامذة في السنة المتممة للدارسة مكافأَة قدرها 3000 فرانك، تصرف إليهم سنوياً مدة ثلاث سنين من طرف الحكومة بشرط أنهم يتسيّحون في جهات إيطاليا وألمانيا تتميماً لاكتساب الفن الذي تحصلوا عليهِ، وبهذه المدرسة متحف لآلات الموسيقا، فريد في بابهِ، ولها كتبخانة مستوفاة.

ثم بُلْوَارْ مُونَمارْتر، وطولهُ لا يزيد عن 215 متراً، وهو أكثر شوارع پاريس وبلواراتها حركة، فقد أُبلغ بعضهم ما يمر فيهِ من العربات في اليوم الواحد إلى مائة ألف عرَبة.

والقهاوي الّتي على جانبيهِ أكثر ممّا في غيره، والدكاكين الّتي به أصحابها أزيد ثروة من غيرهم، وعلى جانب هذا البلوار من اليمين پَسَّاجْ (مجاز) پأنوراماً، ومن اليسار پَسَّاجْ جُوفْروَاهْ، وبهما من الدكاكين ما لا يدخل وصفهُ تحت حد، ولا يقدر قدرهُ امرؤٌ، ولو بلغ الجهد، وهما أكثر محلات پاريس من جهة تردد الناس عليهما مهما كان الوقت صحواً أو مُمْطراً، حارًّا أو بارداً.

وعلى يمين پَسأَجْ جوفرواه هذا متحف جِرِيڤانْ، وهو من عمل الرسام الشهير جريڤان صَوَّر فيهِ مشاهير الرجال والعظماء ومشاهير الحوادث، وهو من الأماكن التي يزورها السياح من كل جانب.

ثم بلوار الإيطاليان، وهو من أكثر البلوارات حركة وأزيدها رونقاً وسمي بهذا الاسم نسبة لتياترو الإيطاليان الذي كان بهِ، ويتفرع منهُ سكة لاَفيتْ، وسكة تِيتّبُو وسكة شُوسّيهْ دَانْتَانْ، وهي السكة المعمورة بكبار الماليين وأكبر البنوكة.

وعلى هذا البلوار تياترو النُوڤوتيهْ (المستحدثات)، وعمارة بنك الكريدي ليونيه المشيّدة الأركان، وتجتمع فيها بورصة المساءِ من الساعة 45,8 دقيقة إلى الساعة 45,9 دقيقة بعد الظهر من كل يوم.

وفي آخرهِ مكان كرِسْتُوفْل الشهير بصياغة الفضيات والأَواني المتخذة من المعادن الّتي يغطيها بطبقة من الفضة لا تذهب.

ثم بلوار كاپُوسينْ وعليهِ من جهة اليمين تياترو ڤُوذويل، ثم القهوة الأميركانيّة الشهيرة ثم ميدان الأوپرا.

ويتفرع من هذا الميدان خمسة طرق مهمة منها رُودُهْ لايبه (طريق السّلم) ويرى منهْ عمود وَانْدُوم وأَوِينُودُه لُوبِرا (طربق الأوپرا) الفاخر، وهو موصل ميدان الأوبرا بميدان التياترو الفرنساوي، ومنها رُوكاتُر سپتمبر (سكة أربعة سبتمبر)، ثم رُهاليفي، وآخرها رُو (طريق) أوبير.

أما (الأُوپرا) وهي أكاديميةٌ الموسيقا الأهلية فهي بناءٌ زاهٍ زاهر، بني على حسب رسم المهندس جارنييه (ابتدئ فيهِ سنة 1861، ولم ينتهِ إلا سنة 1874)، وهو أوسع تياترات العالم أجمع، ولو أن أوپرا وتياتري (سكَالاً) بميلانو و(سَانْ كَارلُو) بناپولي كلٌ منهما يسع لكثرة محالهِ أكثر مما يسع هو من المتفرجين، لكن هذا أوسع منها، فإنهُ يشغل أرضاً يبلغ مقاسها 11237 متراً مربعاً.

وقد صرف عليهِ مصاريف طائلة، حيث أنفق في شراءِ الأرض الّتي أقيم عليها 10500000 فرانك، وأنفق في بنائهِ 36500000 فرانك، فإن أساساتهِ استوجبت أن يحُفر لها عمق خمسة عشر متراً تحت سطح ماءِ نهر السين، واستعملت ثمان آلات بخاريةٌ مدة سبعة أشهر كاملة ليلاً ونهاراً لرفع المياه من الأساسات، ونزحها منها، إذ صودف فيها تيار مائي.

والوِجهة العظمى تشتمل على طبقة أَرضيَّة خذات سبع قناطر، بكلٌ من طرفيها مجاميع صور مجسمة، تمثّل الشعر والموسيقا والغناءَ والإنشاد والرقص وغير ذلك، ويعلو هذه الطبقة طبقة تشتمل على سبع نوافذ، فوق القناطر السفلى تحيط بهذه النوافذ عُمُدٌ يبلغ عددها ثلاثين، ستة عشر منها طول الواحد أزيد من عشرة أمتار، وهي من الحجر، وباقيها أقلُ من ذلكِ، وهي من الرخام الملون، ورؤُوس الجميع مصنوعة من البرونز

المطلي بالذهب، وقد صنعت البلكونات (خرجات) الموضوعة على هذه النوافذ من الرخام الأَخضر المجلوب من بلاد السويد، ثم بأَعلى هذه الطبقة العلوية كرينش مملوءً بما يفوق الوصف من التماثيل المذهبة والصور المصنوعة بمعرفة مشاهير الرسَّامين ، ثم فوق الكرنيش من الجانبين الأَيمن والأَيسر مجاميع تماثيل مجسمة من الحجر المنحوت، ترمُزُ إلى الموسيقا والشّعر والشُّهرة، ويُرى من هذه الوجهة قبة تعلو ذلك كلهُ فوق قاعة المتفرجين، يعلوها تمثال إله الشعر ورب الإنشاد، وخلفها سقف هَرميٌّ فوق الملعب.

أما الوجهات الأُخرى فهي وإن كانت متقنة الصنع مشيدة الأَركان لكنها لا تبلغ درجة الوجهة العظمى.

وداخل الأُوبرا أَبدع من خارجها، ومما يستحق الذكر فيهِ قبل غيرهِ السلم العمومي المعمول للصعود منهُ إلى طبقات الحجرات (لوج)، وصالات الاستراحة، فإنهُ في حد ذاتهِ محل تفرج من حيث صنعهُ ومن حيث ما يراهُ الإنسان من البالكونات (الخرجات) المصنوعة في كل بسطة من بسطاتهِ، إذ يتمكن أن يرى منها جماعات المتفرجين في صعودهم ونزولهم، ودرجات هذا السلم من الرخام الأَبيض، وأصابع درابزينهِ من الرخام الأَحمر، وما رُكب فيها من مواضع وضع اليد هو من الحجر الأَحمر ذي اللون العقيقي، ويحمل هذا السلم ثلاثون عموداً من الرخام، هذا فضلاً عما هو بسائر جهاتِه من الصور المجسمة من الحجر والمنحوتة من غريب الصناعة وبديعها.

أما قاعة جلوس المتفرجين للتفرج (الصالة) مع المطل عليها من الحُجَرِ

فبالغة حد النهاية من الرونق والزينة بالتذهيب، ومن انتشار التماثيل وصور آلات الموسيقا والغناءِ بالسقف وسائر الأنحاءِ، أما أنا وقد أسعدني الحظ بحضور ليلة من ليالي التمثيل بهذا المكان، فلا تسلني عما رأيتهُ من الاجتماع والاحتشام وانتظام المحفل مع شدة الزحام، ومع كثرة الكواعب الحسان اللواتي يعجز عن كنه وصفهنَّ اللسان ثم الملعب ارتفاعهُ 60 متراً، وعرضهُ 55، وبآخرهِ محل الرقص وبهِ مرآة عرضها سبعة أمتار، وارتفاعها عشرة.

وصالة فُسْحةِ المتفرجين بين فواصل اللعب (فُوَايِيَهْ) هي أيضاً من إحدى عجائب هذا التياتر من حيث بناؤها وإتقانها وزخرفتها وتذهيبها، وما بها من الْعُمُدْ العظيمة، ومن حيث سعتها، فإن طولها 54 متراً، وعرضها 13 متراً، وارتفاعها 18 متراً، وبها مرايا الواحدة منها ارتفاعها سبعة أمتار، بجوانبها عُمُدْ تبلغ العشرين، ومن حيث من يوجد بها من المتفسحين والمتفسحات، والفطن البصير يتَبيَّنُ لهُ من أحوال من فيها محاسن الأخلاق وأحاسن العادات.

هذا وإذا بارح المتفرج ميدان الأوپرا ومشى إلى يمينهِ في ما بقي من بُلْوَارْ كاپُوسين، فإنهُ يجد أولاً الفندق الكبير (جرَانْدُاوتيلْ)، وتحتهُ قهوة السَّلمْ (كافي دهُ لاَپِيهْ) الَّتي جلسنا بها في أول ليلةِ من وصولنا لپاريس، وتفرجنا بعض التفرج.

ثم يلي بُلْوَارْ كاپوسين هذا بلوار ماذلين، حيث ينتهي إلى ميدان مادلين، وتنتهي بهِ البلوارات الَّتي نحن بصددها الآن.

- (كنيسة مادلين) - الوجهة المهمة من هذه الكنيسة متجهة نحو سكة رُوَيَّال، وهذه السكة تصل منها إلى ساحة كُونكُوزد، وتمر بقنطرة كونكورد حتى تنتهي إلى سراي مجلس النواب على الضفة الثانية من السين، وهذه السراي تشابه كل المشابهة كنيسة مادلين المذكورة في المنظر والهيئة والعمد والسلم الذي أمامها.

وهيئة هذه الكنيسة لا تشابه هيئة الكنائس المعروفة؛ فإن منشئها أراد أن يجعلها على شاكلة (بَانْتِيُونْ)، وهو الهيكل الَّتي كانت تَعُدُّهُ رومة القديمة لجميع الآلهة، (وقد ابتدئ فيها سنة 1764، ولم تنته إلا في سنة 1842)، ويحيط بها العمد العظيمة من كل جانب من الخارج، ويصعد إليها من جهة الوجهة بسلم تبلغ درجاتهُ ثمانية عشر، وفوق عمد الوجهة بنِيَّةٌ مثلثة في أعلى البناءِ ارتفاعها نحو الثمانية أمتار، وعرضها نحو 39 متراً، صَوَّر فيها أحد مشاهير الحفارين صوراً ناتئة في الحجر، ترى من الأرض بغاية الوضوح لكبرها وجسامتها، تمثِّل يوم العرض والحساب.

واتساع هذه الكنيسة من الداخل 108 أمتار في الطول، و43 في العرض، أما ارتفاعها فيزيد عن ثلاثين متراً من أَرضها إلى القبة، مع أن أرضها مرتفعة عن أَرض الساحة بنحو سبعة أَمتار، ولم يدخل في بنائها شيءٌ من الأخشاب، وبابها الأَعظم مصنوع من البرونز، ارتفاعهُ عشرة أمتار ونصف، وعرضهُ خمسة أَمتار، وعليهِ كثير من التصاوير الناتئة فيهِ تمُثّل الوصايا العشر[1] غاية في الإتقان.

(بِلاَسْ دُه لاكُونْكوزد) - ميدان الوفاق - هو أَحسن ميادين پاريس وأكبرها وأتحفها وأفخرها، طولهُ 357 متراً، وعرضهُ 217، يَحُدُّهُ نهر

(1) في الأصل: «العشرة» المحرر.

السين من جهة الجنوب، ويحدهُ من جهة الشمال خزينة الأمتعة قديماً، والآن قسم منها بهِ ديوان البحريةِ، والقسم الثاني مقر النادي المعروف بالنادي الجديد، ويحدهُ من جهة الشرق حديقة تويلري، ومن جهة الغرب متنزه شانزيليزيهْ، وإذا وقف الإنسان في نحو وسطهِ يشاهد كنيسة مادلين يمنة، ومجلس النواب يسرة، وقوس النصر من جهة الأمام، وسراي اللوفر من الجهة المقابلة لقوس النصر المذكور.

وإنّ منظر هذا الميدان في المَساءِ بمساعدة أضواءِ الغاز خصوصاً من جهة شانزيليزِيهْ لمن أفخر المناظر وأبهاها وأبهجها وأزهاها، حيث يرى الناظر على مَد البصر أنوار المصابيح كأنها النجوم الزواهر، هذا في الأيام المعتادة، أما في أيام الزينة والاحتفالات فتبلغ الأنوار في هذا الميدان مبلغاً يقضي منهُ العجب، فإنه يوقد فيهِ من طرف البلدية نحو 25 ألف مصباح، خلاف زينات المباني العمومية والقهاوي الّتي بهِ وما يجاورُهُ من المحلات.

وهذا الميدان لم يتم عملاً على الحالة الّتي هو عليها الآن إلاّ في سنة 1854، وقد كان في أواسط القرن الماضي من المحلات المهجورة، وأول عمل بدئ به فيهِ مدة لويس الخامس عشر سنة 1748، واستمر فيهِ التحسين والإصلاح وصارت أسماؤهُ تتغير بحسب الأحوال إلى سنة 1792، فتسمى ميدان الثورة، ورفع منهُ تمثال لويس الخامس عشر، ووضع مكانهُ تمثال للحريةِ، ونصبت بجوارهِ آلة ضرب العنق المسماة جِلْيُوتين صنع الدكتور جِلْيُوتَانْ.

وقد حافظ هذا الميدان على نسبتهِ للثورة طول مدتها؛ لأنهُ أُعدم فيهِ بالآلة المتقدمة الملك لويس السادس عشر، والملكة مَارِي أَنْطُوَانِيتْ اَمرأتهُ، ثم

رؤساءُ الثورة والأحزاب والمتقدمين منهم، رئيساً بعد رئيس، وحزباً بعد حزب، كلما تغلّبت فئة حلَ بالمغلوبة أليم العذاب، كأنما تريد الانتقام منهاً عما فعلتهُ فيمن قبلها، وأُحصي من مات مضروب العنق بالجِلْيُوتين في هذا الميدان من 21 يناير سنة 1793 (يوم وفاة الملك) إلى 3 مايو سنة 1795 (2800) شخص، وفي ضمنهم النساء والشيوخ، حتى أراد اللّه بزوال الشدة واطمئنان الحال.

وفي وسط هذا الميدان مسلة الأقصر الشهيرة، كان أَخَذَها الملك لويس فيليب من أفندينا الأكبر جنتمكان مُحمَّد علي باشا، وأقامها في هذا المحل يوم 25 أكتوبر سنة 1836 بعد أن مكثت في الطريق من مصر إلى فرانسا أكثر من ستتين بسبب ما حصل في نقلها إلى فرانسا من الصعوبات، وهي قطعة واحدة من الحجر الصوان، ارتفاعها 23 متراً و83 سانتي، وزنتها 250 ألف كيلوجرام، واتخذت لها الحكومة الفرنساويةُ قاعدة من الحجر ارتفاعها أربعة أمتار، مركبة على أساس بني هناك يرتفع متراً عن سطح أرض الميدان، وقد رسمت على الجهة الشماليّة من هذه القاعدة الأدوات والآلات الّتي استعملت في نقلها من مصر، وعلى الجهة الجنوبية الآلات والأدوات الّتي استعملت لإقامتها حيث هي الآن، وفي الوجهين الآخرين تواريخ العمل وأسماءُ الأشخاص.

ولجانبي المسلة فسقيتان كبيرتان، وكل واحدة منهما حوض من الحجر، قطرهُ 16 متراً ونصف متر، يعلوهُ حوضان ملتفان على عمود في وسطِهِ، حجمهما أصغر من حجم الحوض الأول، ويتدفق من هذا العمود ماءٌ بقوة يرتفع تسعة أمتار، فيصُبُّ في الأحواض الثلاثة بالتدريج، هذا وبذلك الحوض الأرضي تماثيل بنات البحر، وغيرهنَّ من التماثيل، تنبعث منها

المياه فتصل إلى الحوضين المرتفعين، وتصب بالثاني منهما إلى الحوض الكبير.

ثم في حوالي الميدان ثمان صور كبيرة، قاعدة كل واحدة منها محل مبني تُمثّل مدن فرانسا الشهيرة، وهي ليلْ، وستَراسْبورْغ، وبُورْدُو ونَانتْ، ورُوان، وبِرِسْت، ومرْسِلْيا، وليُون.

وفي وسطِهِ المئات من الأعمدة كبيرة وصغيرة تعلوها مصابيح الغاز مثنى وثلاث ورباع، فتنير هذا الميدان العظيم في المساءِ بأَحسن الأَضواءِ.

(شَانْزِيليزيْه) - هذا المتنزه عبارة عن البستان المجاور للميدان المتقدم (وطولهُ 700 متر وعرضهُ من 300 متر إلى 400 متر)، وبجوارهِ محلة مشتملة على مساكن بديعة الأشكال منتهية بقوس نصر الكوكب (أَرْكْ دُه تِرِيئْفْ دُولِتْوَالْ)، ويخترق هذا البستان وهذه المحلة طريق بالغ حد العظم والاتساع، فيصل من ميدان الوفاق إلى قوس نصر الكوكب في مسافة 1900 متر.

وهذا المتنزه من أعظم متنزهات باريس وأكثرها رغبة في التنزه، فلا ينقطع مرور الناس بهِ مشاة وركباناً خصوصاً في ساعات الفسحة، وعلى حافتي الطريق المذكور كراسيُّ يستأْجرها الناس للتفرج على المارّة وتمتيع النظر في مناظرة المرونقة البهجة، فضلاً عما فيهِ من محال اللعب والتمثيل المعروفة باسم (كُونْسيرْ).

وعلى يمين المتنزه سراي إِيليزيه، وهي مقر إِقامة رئيس الجمهوريّة، ومدخلها من طريق آخر، وعلى يسارهِ سراي الصناعة، وما أدراك ما سراي

الصناعة، هي سراي بنيت لإقامة معرض سنة 1855 العمومي فيها، وهي تشغل مساحة من الأرض مقدارها 27 ألف متر مربع، ومن أهم ما فيها مدخلها بما عليهِ من الصور الفائقة والتماثيل البارزة، فإن عرضهُ خمسة عشر متراً، وارتفاعهُ ثلاثون، فضلاً عما يعلوهُ من مجامع الصور الَّتي تُمثل فرانسا، وهي تُوزع الجوائز، وتُعطي العطايا الفنونَ والصنائع.

ومن أهم ما بداخل هذه السراي قاعة كبيرة مسقفة بالزجاج، طولها 192 متراً وعرضها 48 متراً، وهي الآن مجعولة لمعارض خصوصية سنويةٌ وغير سنويةٌ، منها معرض الرسم السنوي، ويدخل فيه نحو خمسمائة ألف نفس مدة افتتاحهِ، وهي مركز لعدة متاحف، منها متحف فنون الزينة والزخرفة، ومتحف حاصلات البلاد الملحقة بفرانسا.

هذا! وفي نصف الطريق بين ميدان الكونكورد وميدان قوس الكوكب ميدان مستدير مزين بالفساقي، وحياض المياه، يفصل البستان عما يليهِ من المحلة المتقدمة الذكر المتهية بيمدان قوس نصر الكوكب.

وهذا القوس هو أكبر جميع الآثار الَّتي من هذا القبيل وأجسمها، فيُرَى من جميع ضواحي پاريس (وقد بدأ في بنائهِ ناپليون الأول سنة 1806 ولم ينتهِ إلاَّ في سنة 1836)، وهو عبارة عن قوس واحد علوُّهُ تحت العقد 29 متراً، وفتحتهُ 14 متراً، ويداخل كلٍّ من جانبيهِ قوس صغير، ارتفاعهُ 18 متراً، وعرضهُ 6 أمتار، وارتفاع القوس مع ما فوقهُ من البناءِ نحو الخمسين متراً، وعرضهُ 45 متراً، وسمكهُ 22 متراً فأكثر، وكلهُ منقوش بالنقوش الناتئة في الحجر من سائر أَطرافهِ، تمثيلاً للوقائع الحربية الَّتي انتصرت فيها الجيوش الفرنساويةُ.

ويُصْعَدُ إلى أعلى هذا القوس بسلم يبلغ عدد درجاتهِ 261 درجة، فيرى الإنسان من أعلاهُ الطرقات الّتي تتفرع حواليهِ، فتذهب في جميع جهات باريس، وعددها 12، وهي لا تلبث حتى يتفرع منها كثير غيرها، ويرى غير هذه الطرقات وغير ما بجوانبها من العمارات غابة بولونيا الشهيرة، وحياضها الواسعة الكثيرة، ويرى برج إيفل وما يليهِ من المعرض وازدحامهِ، ويرى سائر المباني المرتفعة. وبالإجمال، فإن بهجة هذا المرأى وشهرتهُ ورغبةَ الناظرين فيهِ، ووصف الواصفين في محاسنهِ ومعانيهِ قد صادف محلهُ من كل الوجوه.

هذا وقد طال بي الكلام في هذا الفصل؛ فلذا أترك الكلام على دار العواجز المتقاعدين والپانيتون، وقد مرَّ ذكرهما إجمالاً إلى فصلٍ ثانٍ لاسيما أننا في فسحة هذا النهار لم ندخلهما، بل مررنا عليهما من الخارج.

* * *

ثالث يوم في باريس

ثاني يوم في المعرض

خصصنا في الترتيب الذي جعلناهُ لأنفسنا من أيام مُقامنا بباريس ثمانية أيام لزيارة المعرض، سوى اليوم الأول، وقسمناها عليهِ، فخص هذا اليوم (الأحد 4 أغسطس سنة 1898) زيارة سراي ترُوكادِيرُو وما جاورها من معارض البساتين والأزهار.

وسراي ترُوكادِيرُو هذه بُنيت بمناسبة معرض عام 1878 على مرتفع مسمًّى بهذا الاسم الذي تسبت إليهِ، وشكلها كالهلال، في وسطها دائرة من البناءِ هي قاعة الاحتفالات، وطرفاهُ شبيهان بجناحي طائر مفتوحين يطير بهما (والطائر يشبههُ البناءُ الوَسَطِي)، يتجه أحدهما نحو اليمين على امتداد 250 متراً، والثاني مثلهُ نحو اليَسار، وفي السراي إلى الأمام رواق على عُمُدٍ بقدر طولها يبلغ 500 متر، فسيح مطل على الغدير الملتصق بها، وعلى البستان الذي أُعد لعرض الأزهار والأشجار، وعلى نهر السين، وعلى ميدان شَان دُهْ مَارس بجميع ما احتوى عليهِ من بدائع الصنائع وصنائع البدائع، ومقدار الأرض الَّتي يشغلها بناءُ هذه السراي 15000 متر مربع.

أما البناءُ الوَسَطِيُّ فهو محتو على قاعة الاحتفالات المذكورة، وهي أوسع جميع القاعات الَّتي وجدت إلى الآن مبنيّة على شكل مستدير، بها مقاعد لخمسة آلاف متفرج أو مستمع وبها فضلاً عن هذا محل يسع طقم موسيقا

مقدار أشخاصهِ 1500 نفس.

وقد راعى فيها المهندس الذي شادها مسألة انتشار الصوت، ووصولهِ إلى جميع من فيها وإن كان ضعيفاً، كما راعى مسألة تجدد الهواءِ بواسطة خمسة آلاف فتحة، كل واحدة منها تحت مقعد من المقاعد، وسلّط على هذه الفتحات ما يأخذ الهواء الرديء فيصرفهُ إلى مرتفِعات عالية بعيدة، ويأتي بدلهُ بأهوية نظيفة أما نورها فبالكهرباءِ فلا محل معهُ للخوف من اشتداد الحر بسببهِ. وقبة هذه القاعة قطرها خمسون متراً وارتفاعها كذلك.

وعلى يمين هذه القاعة ويسارها برجان مرتفعان إلى عنان السماءِ، يُصْعَد إلى كلهِ منهما بمُزْقٍ موصل إلى انتهائِه، وارتفاع الواحد 80 متراً، فيرى كل من يصعدهُ من جمال المنظر ولطافة الهواءِ والاطلاع على البقاع المجاورة على بُعْدِها ما يزيد تشوُّقهُ إلى صعود برج إيفِل الذي سنذكرهُ، وكل آتٍ قريب.

والجناح الذي على جهة اليمين يحتوي على متحف علم خصوصيات الشعوب (إِيتنُوا جْرافِيك)، وقد جمع بدائع الآثار في هذا الباب، وغرائب الأشياءِ فيهِ، حتى جماجم بني آدم، وهياكل عظامهِ على اختلاف أزمنتهِ وأشخاصهِ، بكيفيَّة يمكن معها الوقوف على حقيقة الشعوب الَّتي تسكن القارة على اختلاف أجناسهم.

والجناح الذي على جهة اليسار محتوٍ على متحف نقل الصور المجسمة والنقوش بواسطة إفراغها، وصبها في قوالب من الجبس (مُولاَجْ)، وقد اشتمل على صور أعظم العمارات الموجودة في المدن الفرنساويَّة منقولة على هيئتها مجسمة بحالتها الَّتي هي عليها، فهذا باب كنيسة شارْتِرْ الكاتدرائيَّة، وهذه قطع منتخبات من كنيسة رِمْسْ، وهذه محلات من

القصور القديمة الفرنساويّة نقلت إلى الجبس، كأنما انتقلت حقيقةً من مكانها إلى هنا، ولقد صدق من قال: إن زيارة ساعة لهذا المتحف بمثابة زيارة أشْهُرٍ للعمارات الفرنساويّة المنتشرة في أنحاءِ متفرقة، اللّهمّ إلاّ أن الفرق بين زيارتنا هذه والزيارة الحقيقيّة أَن المباني مشتتة في الثانية، بين الواحدة منها والأخرى أيام طوال لا يمكن معها المقارنة كاللازم، وهذه يفصلها عن بعضها خطوات تجعل المقارنة سهلة للغاية.

وهذان المتحفان المذكوران في الجناحين قديمان قبل المعرض الحاضر، ويستمرّان بعدهُ، وإنما ذكرناهما اليوم لأننا رأيناهما وأعجبانا، خصوصاً الثاني منهما؛ لأن هذا مع اشتمالهِ على صور العمارات المجسمة جعل أيضاً معرضاً للمصوغات الفرنساويّة من الأزمان القديمة إلى آخر القرن الثامن عشر.

وإنّ معرض المصوغات هذا لجدير بأن يستلفت النظر، ويستوقف الزائر، فقد حوى من الآثار ما يستحيل عادة الجمع بينها بغير هذه الفرصة، فهذه آثار الكنائس، ولا تخرج من خزائنها إلاّ ساعة في كل سنة، أو أكثر من سنة، يتبرك بها بعض الممتازين، وتعاد إلى ما كانت عليهِ من الخفاءِ مثل بعض الصحف والأكؤس وصوالجة الأساقفة وتيجانهم المزركشة وذخائرهم ومباخرهم المتقنة الصنع المزدانة بالأحجار الثمينة، جمعت بهذا المحل، وأظهرت في هذا المحفل، ليتمتع القوم بالوقوف على أسرار صنائعها ومخبئات كيفياتها وأشكالها وإتقانها ونظامها، وهذه نفائس المصوغات الّتي حازها الأغنياءُ بعد أن دفعوا في سبيل اقتنائها الأموال الطائلة، وكانت في مساكنهم لا يطّلع عليها إلاّ من أَسْعَدَهُ الحظ بالقرب منهم، ونال ثمرة معرفتهم، عرضت ههنا ليطلع عليها الأفراد فيقتبسوا منها أَسرار صنعتها، ويعلموا منها حكمة إيجادها بالهيئات اللطيفة

الّتي جعلت عليها.

وإذ فرغنا من أبنية السراي فلنتنقل إلى البستان، فنرى ما احتوى عليهِ، ولنترك وصف الغَدير الذي صنع بجانب هذه السراي وانحدار الماءِ منهُ، وشدة انصبابهِ ولطافتهِ، فإنهُ لا يقدر على كنه وصفهِ إلاّ الشعراءُ المجيدون، فلعل أحدهم يراهُ فيقوم بما يمكن من واجب وصفهِ، ويُبينُ عن بعض حسنهِ، ولنترك أيضاً وصف البستان من حيث انتظامهُ وإتقانهُ، وكيف صُفّت الأزهار فيهِ بألوانها المختلفة، وكيف طُرّزت حَوَاشيهِ بأشجار الأثمار، وكيف جعلت مَظَلات من القماش اللطيف على الطريقين الكبيرين فيهِ (ويذهبان من السراي بجانبي الغدير إلى النهر)، لتكون معارض للزهور بحسب أوقاتها في المواعيد المحددة لها، فهذا أمر يتعسر القيام بواجبات وصفهِ أكثر من تعسر القيام بوصف الغدير، ولنكتفِ بذكر ما حواهُ البستان من العمارات بوجهِ الإجمال.

فأهم العمارات الّتي اشتمل عليها هو القصر المشيد لعرض حاصلات الغابات، فإنهُ بني جميعهُ من الخشب بحالتهِ الطبيعيَّة وقشورهِ، إلاّ أن استعمال الفكر في انتخابهِ وانتقاءِ أجناسهِ وتعدد ألوانهِ ووضعهِ على أشكال مخصوصة جعل هذا القصر الهائل - (وقد شغل أرضاً مسطحها 1591 متراً مربعاً، ويبلغ طولهُ 47 متراً، وعرضهُ 43 متراً وارتفاعهُ 20 متراً واستعملت في تشييدهِ 1800 متر مكعب من أخشاب الغابات المأخوذ جميعها من غابة فونتِنْبْلُو القريبة من باريس، وسيأتي عليك بيانها) - من أحسن القصور وأغربها شكلاً، وأبدعها هيئة، وقد صفت في داخلهِ الأخشاب وأصنافها من حاصلات فرانسا بكيفية بديعة وهيئات لطيفة على

حسب ترتيب أصنافها مع كثرة تعدد أشكالها، واختلاف أنواعها، وزينت سقوف هذا القصر من الداخل بقشور الأشجار ملونة بألوانها الطبيعيّة المختلفة، فصار كأنهُ صنع في نقشهِ أشهرُ المشتغلين بالرسم، وأعظم المحترفين بالتصوير، وقد صُفِّت فيهِ العُمُد محمّلاً عليها السقف من الأخشاب الأصليّة الّتي أخذ منها على هيئتها الطبيعيّة أيضاً، وجعلت رؤوسها فروعاً[1] من فروع الأشجار الّتي تناسب هذا الشكل، وتوافق هذه الهيئة.

وقد دلَّ هذا الصنع الفريد في بابهِ على كثرة تعدد الأخشاب وأصنافها بالغابة الّتي أُخذ منها، ودلَّ على مهارة من صنعهُ، وعلى مزيد تفننهِ؛ إذ لا شيء أنسب لعرض الأشجار وحاصلاتها الطبيعيّة غير محل يصنع منها بهذه الكيفيّة.

وتجاه هذا القصر من الجهة الثانية مكان شيد للأشغال العموميّة فجمع كل ما يستعملهُ المهندسون في الأشغال المختصة بالحكومة وبالآحاد. ويحتوي البستان على محلين غير هذين أحدهما للأكل، والثاني لتعاطي الجعة (البيره) والمرطبات. وما عدا ذلك فكلهُ مشغول بالأزهار والأشجار، مكشوفة تحت السماءِ، أو مغطاة تحت العنابر الزجاجيّة (سِيْر) المصنوعة من أجلها، فتُعطيها بواسطة البخار الحرارةَ الّتي تلزم لنموها، كأنها في بلادها، أو تُظللها خيام تمنع عنها شدة أَشعة الشمس وتأثيراتها، وقد بلغ عدد العنابر الزجاجيّة المذكورة 62، وبلغت مساحة الأرض الّتي تشغلها هذه العنابر وتسترها الخيام السالفة 3000 متر.

ولا تسل عن الأزهار وكثرتها، واختلاف أنواعها على لطافتها (الورد وحدهُ يوجد منهُ 4500 نوع)، وقد جَلَبَت النساءَ للتفرج عليها، فهنَّ يُحيينها

(1) في الأصل: «فروع» المحرر.

ويرغبنَ فيها أكثر من غيرها، خصوصاً في هذه العاصمة، فإن النساءَ يهوَيْنَ الأزهار حتى إنهنَّ يقتنينَ أشجارها في منازلهن ومجتمعاتهنَّ وداخل حجرهنَّ، فلا غرو أن صار هذا القسم من المعرض ملتقى النسوَة، يَهْوَيْنَهُ أكثر من غيرِهِ، ويَأوِينَ إليهِ، وهذا ممَّا زاد الرغبة فيهِ، وكأنَّ مؤسسي المعرض خطر ببالهم فكرة اجتماع أحاسن الأشجار وأزهارها البهيَّة بأحاسن النساءِ، وقدودها الميَّاسة، وخدودها الوردية، وأرادوا أن يتم هذا النظام، ويخلص لهم ذلكَ المرام، فجعَلوا المتكفل بحراسة أدوات البساتين ولوازمها ودللاءَ المتفرجين عليها والتعريف عن أثمانها بسائر أنواعها من النسوة، وبالمصادفة[1] كنَّ جميلات فتمت بذلك المناسَبات.

ولا ننسى بهذا البستان أشجار الفواكه المجلوبة مثل الأزهار من مشارق الأرض ومغاربها، حارّها وباردها، فإنهُ جيء بها من الهند والصين واليابان، ومن البلاد الَّتي بأقصى الشمال، وهي مع ذلك مزهرة مثمرة، كأنما هي في هذا المكان من قديم الزمان، مع أن الأيدي قد لعبت ببعضها أي لعب، وتفننت في تسييرها وتعديل فروعها لأي وجهة كما أحبت، وهي منقادة لا تتعاصى، فهذه شبه جدران مقامة من الكمثري والتفاح والخوخ والمشمش، ليس إلاَّ، وأخرى من التين والزيتون، وهكذا، وهذه موضوعة على أشكال لا يدخل في التصور أن تتهيأ بها الأشجار إلاَّ بعد الرؤية لها، فمنها الأشكال غير[2] الهندسيَّة، ومنها الأشكال الهندسيَّة كالهرميات والمخروطيات والمثلثات والمربعات.

فإذا جاوزتَ الأزهار والأشجار وصلتَ إلى حيث تعرض الخضراوات، فترى كيفيَّة زرعها، وحال نمادها بالمياه الَّتي تصل إليها من مجاري باريس.

---

(1) في الأصل: «وبالصدفة» المحرر.

(2) في الأصل: «الغير» المحرر.

ولو شئتَ لا طلعتَ على بعض أَشجار الغابات الَّتي نقلت إلى البساتين للزينة كالصنوبر وغيرِهِ، وشاهدتَ الأشجار الَّتي تمتد وتتسلق عالي الجدران والمرتفعات، ونظرت الأشجار الَّتي صوَّر الباري سبحانهُ أوراقها بما لا تصل إليهِ يد الصناع.

وبعد هذه أَشجار ثلاثة كبيرة مجلوبة من اليابان وشيلي وأميركا، وهي أكبر أشجار هذه البلاد، فيبلغ ارتفاعها ما لا يبلغهُ غيرها من الأشجار.

وبعدها بركة ماءٍ متسعة مملوءَة بالأشجار المائيَّة من جميع الأشكال، وبقرب النهر أشجار نخل كثيرة أُحضرت من الجزائر باهية زاهية.

ولا ننسى معرض اليابان فقد جُلِبت إليهِ أَشجار تلك البلاد وأَزهارها، موضوعة في أَواني من فخار، متقنة الصنع، وأُحيطَ بسياج من أشجار الخَيْزَران، جعلت منظرهُ من أَحسن المناظر، وأَغرب ما فيهِ أشجار عمرها نحو مائة سنة عادتها العلو والكِبَرُ، اجتهد هؤلاءِ في أَن لا تعلو، ولا تكبَر، رغماً عن مرور الأعوام (كما يفعل جيرانهم الصينيون في أَرجل نسائهم حيث تبلغ المرأَة سن الشيخوخة ورجلها هي هي حينما كانت بنت أيام)، فرأَينا فيها من أَصناف السرو والصنوبر أَشجاراً عمرها على ما قيل خمسون عاماً، وهي لا يزيد طولها على خمسين سنتيمتر.

وقد تخصصت أَيام في كل شهر، بعضها بعرض الأزهار الَّتي صار جنيها، وإِعطاءِ المكافأَة لمن يجيءُ بأَحسنها، أو لمن ينظمها أَحسن من غيرهِ في الأواني، أو في زينة الأماكن أو موائد الطعام، وبعضها بعرض الورد، وقد أَسعدنا الحظ بأَن صادفنا بعض هذه المعارض، فتبارك الصانع الذي أَوجد هذه الأنواع المختلفة الأشكال والألوان.

وحيث انتهينا من تفرج هذا اليوم عدنا إلى الفندق، وقد أقبل الليل.

فأردت الخروج منفرداً بعد تعاطي الطعام للتنزه، فاستمر بي السير إلى متنزه شَانْزِلِيزِيه، حتى وصلت سراي الصناعة (بَالِيه دُه لاَنْدُسْتِيري)، فوجدت عندها من الازدحام، وعلى أبوابها من الزينة ومن توارد المدعوين والمدعوات ما فهمت منهُ أنهُ يحتفل فيها الليلة احتفال موسيقيٌّ برسم الشاه، تسمع فيهِ كثير من الموسيقات العسكريَّة مجتمعة، وظننت أن الدخول لا يكون إلاَّ للمدعوين، وتمنيت لو كنت منهم لأشاهد هذا المهرجان، وبقيت مع ذلك أتفرج على الواردين، وإذا ببائع من بائعي الجرائد يصيح "بروجرام المساءِ" فاشتريتهُ، وإذا بهِ يذكر أن رجال الموسيقا سيكونون مؤلفين من 1200 شخص، تحت رياسة رئيس موسيقا الحرس الجمهوري، وأن الدخول رسمهُ ثلاث فرنكات، فأسرعت للدخول في الحال، ووصلت من دِهليز مُتَّسع (بهِ سلم يصعد منهُ إلى الطبقات العليا) إلى قاعة الاحتفال، وهي في غاية الاتساع، مضاءَة بنور الكهرباءِ والغاز إضاءَةً ليس لها مثيل، وهي مستطيلة مطلة عليها غرف في طبقتين غير الطبقة الأرضيَّة، وتمتاز ثلاث غرف عن غيرها في الطبقة الأولى بزيادة إشرافها عما سواها، وبانتظام فرشها، وزخرفة ستائرها، وتمتاز الوسطى منها بأَن وضع فيها ثلاثة كراسي من الكراسي المزخرفة المتقنة، وقد أخبرني من أخذت أحادثهُ ويحادثني وقتها من المتفرجين بأن أحد هذه الكراسي للشاه، والثاني لرئيس الجمهوريّة، والثالث للرئيسة امرأَتهِ.

ثم إن الرئيس حضر في الساعة التاسعة، فصدحت الموسيقا بالسّلام الجمهوري، وهو واقف يُصْغي، ومثلهُ كل الحضور، وما فرغت حتى أخذ القوم في التصفيقِ ترحيباً بهِ، وأخذ الكثير يصيحون، فليعش كارنو - فليعش

الرئيس – فلتحيَ الجمهوريّة، وهو يشير باليد إلى التشكر لهم مبتسماً مسروراً، وما استقر بهِ المجلس إلاّ والشاه قد حَضَر فقام لاستقبالهِ، وصدحت الموسيقا بسلامهِ الملوكي، وأجلسهُ عن يمينهِ بعد أن تصافحا باليد، والقوم يصيحون «فليعش الشاه» مرات متواليات، وهو يرد السلام باليد يُقرّبها من قلنسوتهِ السوداءِ ذات الألماس الذي رأيناهُ أول أمس، وكلما رد السلام كلما[1] كرر القوم التحيّة والاحتفاء، وذلك لأنهُ أول ملك عظيم زار المعرض كما سبق زيارة رسميّة.

وجلس أمراءُ الملك ووزراؤهُ بالغرفتين المجاورتين للغرفة الّتي هو فيها، وبقي التشريفاتي قائماً خلفهُ، كما لبث تشريفاتي الرئيس خلفهُ قائماً أيضاً ليتلقى كلٌ منهما أوامر سيدهِ.

وبقي الشاه في الغرفة أكثر من ساعة تصدح في خلالها الموسيقا بألحانها اللطيفة في غاية الانتظام والإتقان مع كثرة عدد الموسيقيين (1200)، ومع اتساع المحل وكثرة الناس وازدحامهم، وإن كانوا وقت السماع لا يبدي أحد منهم حراكاً، وكأنما القاعة خالية من الناس.

وقد أُحضرت المرطبات (الدوندورمه) للشاه وللرئيس، فأخذ الأول طبقة وإذا بالتصفيق وارتفاع الأصوات «يعيش الشاه» فرَد السلام بالملعقة الصغيرة الّتي يتعاطى، بها وأعاد القوم التصفيق والاستحسان.

ثم انصرف الشاه بصحبةُ الرئيس إلى مسافة بعيدة، والناس يصفقون، ويُعْلِنون «يعيش الشاه».

وعاد الرئيس بعد ذلك، فبقي نحو نصف ساعة قابلهُ فيها الجمع بالترحيب عند الحضور، وعند الانصراف، كما سلّمت عليهِ الموسيقا

(1) كلما الثانية تكرار خطأ «المحرر».

بالإنشاد المعروف بالمَارْسِلْيِيز مثل ما سلمت عند حضوره، ووقف الجميع لهذا الإنشاد كما هو العادة إشارة إلى احترام الوطن وتعظيمهِ.

ولم يلتفت أحَد حال وجود الشاه، ولا بعد انصرافهِ، ولا بعد انصراف الرئيس إلى ملك آخر من ملوك السودان كان حاضراً في الحفلة مع امرأتِه إلاَّ بذكر كيفيَّة سفره، وأمر حضوره لهذه الجهات، وذلك أنهُ من سلاطين إحدى الجهات الصغيرة الَّتي دخلت ضمن أملاك فرانسا من أفريقية، فدعاهُ الحاكم أن يتوجه إلى پاريس للتفرج عليها وعلى معرضها، قصد أن تنطبع في ذهنهِ قوة مالكي بلادِهِ، فينشر عند عودتِه بين قومهِ ما رآهُ من قوتهم، وقد أَحضر امرأَتهُ معهُ، وأَفهمها أنهُ ياخذها للتغيب أياماً قلائل، وما دَرَت أنها ستغيب عن بلادها أشهراً طوالاً.

والذي كان يلوح على وجه هذا الملك علامات الانذهال والاستغراب، أَما امرأتهُ فكان يظهر عليها أنها لا تفهم شيئاً ممَّا تراهُ، وقد أَخبرني جارٌ لي في التفرج أنها كانت تنام طول مدة مكثها في هذا المكان والعهدة عليهِ.

وبعد أَن بقيت مدة أَتفرج على هذا الجمع، وأَنظر إلى هؤلاءِ الحاضرين من أَجانب ووطنيين وما هم عليهِ مع كثرتهم واختلاف أصنافهم من السكينة والوقار ومزيد الاحتشام واحترام بعضهم بعضاً نساءً ورجالاً، تمنيت لو التُزِم في اجتماعاتنا الوطنيَّة هذا الحال، وفارقتُ الجمع، وفي النفس حب البقاءِ بهِ إلى الصباح.

* * *

رابع يوم في باريس
ثالث يوم في المعرض

خصصنا هذا النهار (يوم الاثنين 5 أغسطس سنة 1889) بزيارة برج إيفلْ والمعارض الموجودة بجوانبهِ الّتي لبعض ممالك أمريكا، وبعض المعارض الخصوصيَّة، فابتدأْنا أولاً بسكة تاريخ السكنى؛ لأنها كانت قبل البرج بموازاة نهر السين كما سبق.

(سكة تاريخ السكنى) قام بتنظيمها على حساب المعرض منشئها المسيو شَارْلْ جَارْنِييه مهندس الأُوبرا، وأَحد أَعضاءِ الجمعيَّة العلميَّة الفرنساويَّة، قاصداً بها أَنْ يعرض على الناظرين كيفيات سكنى جميع الأمم من جميع الأَجيال المتقدمة بأَشياءَ محسوسَة، وأَسكن بعض الدور الّتي شيدها أقواماً بلباس القوم الذي كانوا يستعملونهُ وقت سكناهم منازلهم، على أَنهُ وإِن استعمل في إيجاد هذه المساكن جُهْدَهُ من التحرّي والنقل من التواريخ والآثار القديمة، فإِنهُ اضطرَّ في بعضها إلى استعمال القياس والاستنتاج، خصوصاً بالنسبة إلى الأماكن الّتي كانت تأْوِي إليها الأمم المتوحشة قديماً؛ إذ إنها لم يعثر لها على مَبَانٍ باقية عند عالم الاستكشافات.

وابتدأَ مساكنَها من اليسار إلى اليمين، فابتدأْنا من حيث ابتدأَ، فوجدنا أولاً الأمكنة الّتي كانت تأوي إليها الأولون بالاضطرار، مجعولة من فجوات الجبال، ونحو ذلك، فراراً من الوحوش المفترسَةِ، وتفادياً من الأمطار، واتقاءً لظى الشمس وسعيرها.

وتجاوزناها إلى ما هو أرقى منها، فوجدنا خِصاصاً[1] مصنوعة من فروع الأشجار بغير انتظام، إلى أن زادت درجة المعرفة، ووصلت إلى عمل أكواخ من أَحجار مرصوصة بحالتها الَّتي أَمكن نقلها بها، وموضوعة كيف ما اتفق من غير إِحكام ولا اتقان، ثم وجدنا الأَحجار دخل في صنعها الحديد، فصار نحتها، ووضعت على هيئات أَحسن من الَّتي قبلها.

هذا في السهول والجبال، وأما من يسكنون شطوط البحائر وأطراف الجزائر فيعيشون بقرب الماءِ كما كان في جهات سويسرا وبعض جهات إيطاليا، فقد أوجد المنشئُ لهذه السكة شبه بحيرات طبيعيَّة، وجعل فيها مساكن تلك الأقوام الأولين، وهي أكواخ من الغاب على أطراف الماءِ يحيط بها سياج من الخشب المأْخوذ من الأشجار.

إنما تعذر على المنشئِ الموما[2] إليهِ أن يوجد في هذه المساكن سكاناً على حالتهم وقت سكناها بالنسبة لأَمر اللباس، فإن لباسَهم أكواخُهم، والآباد الجديدة تأْبى الظهور بهذا اللباس.

ثم انتقل المنشئُ من هذه المساكن إلى مساكن للمصريين والآشُورِيِّين والفِينِيقِيِّين واليهود والإِتْرُورِيِّنَ واليونان والطليان وغيرهم.

فهذا بيت المصريين القدماءِ، فيهِ الانتيكات العتيقة، والمومياءُ والتوابيت والملابس، وهذا القصر الآشُوريُّ نقلةُ من أَصل غير مشكوك فيهِ، وهذا المنزل الفينيقيّ غريب عجيب، وهذه فساطيط العبرانيين، وهذا منزل على أسلوب مساكن إِتْرُورِيِّه الَّتي محلها الآن إقليم توسكان، وبهِ فرشهُ وأدواتهُ على الحالة الَّتي كان عليها في تلك الأَزمان، ووراءَهُ عش صُنِع من أحجار

(1) في الأصل: «أخصاصاً» المحرر.
(2) في الأصل: «الموماءِ» المحرر.

بحالتها الأصليّة الهمجيّة على مثال الّتي كان يسكن بها أول من سكن أرض إيطاليا واليونان.

ثم بعد هذه بيت صُنع على هيئة مساكن الهند، يسكنهُ بعض أهالي إقليم كشمير، فيعرضون صنع بلادهم من الشيلان العالية القيمة.

وبجوارهِ بيت للعجم، وفيهِ موسيقيون من أَهل تلك البلاد، ويقال إن الشاه عند زيارتهِ المعرض كان يستريح في هذه الأنحاءِ.

وبعد ذلك مساكن بلاد الجلالقة واليونان وإيطاليا مجاورة لبعضها، ويجد المتفرج في الأولى والثانية الأشربة الخاصة بتلك الجهات في تلك الأوقات، وفي الثالثة يجد معملاً من معامل الزجاج فيهِ الأدوات المستعملة لهذه الصناعة الآن، وما كان مستعملاً لها في قديم الأزمان.

وهنا انتهى النصف من هذه السكة، حيث التقاطع بينها وبين الطريق الموصل من النهر إلى البرج، وإلى سائر قصور المعرض، فقطعنا هذا الطريق المقاطع، واستمر سيرنا في سكة تاريخ السكنى الّتي كنا سالكيها. فابتدأنا بخص من خصاص سكَنْدِنَافيّة، حيث يسكن بعض الصيادين من النرويج بملابسهم الأصليّة، فيبيعون بعض أخشاب مصنوعة لمن أراد. وبعدهُ منزل على طراز المساكن الرومانيّة مدة القرون الوسطى، وهذا أُعدَّ لاستراحة رئيس الجمهوريّة عند زيارته المعرض، فتعهدت فرشهُ إدارة المفروشات الأهليّة، وفرشتهُ من أَحسن الأشياءِ مناسبة للحال، وبجوارهِ مسكن على طراز المساكن المستعملة في الأزمان الّتي تلي القرون الوسطى مباشرة.

وبعد هذه المنازل مساكن على الطراز البيزنتيني والبلغاري والروسي والعربي، فالأول منها فيهِ كثير من الملابس المستعملة في كُرْوَاسيا وسلفونيا من أعمال النمسا، والثاني فيهِ معمل لاستخراج ماءِ الورد، وضعهُ فيهِ أحد مشاهير تجار هذا الصنف بجهة قزانلق، والثالث فيهِ عائلة روسيّة

تصنع كثيراً من الأشياءِ الصغيرة الَّتي تؤخذ للزينة، والرابع عبارة عن فسطاط على الطراز البدويِّ يسكنُه بعض المغربيّات بملابسهنَّ الأصليّة، وهنَّ من يهود الجزائر مشهورات بحسن الْخِلْقَة، والمهارة في التجارة والأخذ والعطاءِ.

وبعد هذه مسكن من مساكن السودان بجهات الكونغو الداخلةِ تحت ملك فرانسا، وبهِ بعض حاصلات تلك الجهات الحديثة العهد بالتمدن.

ثم بعدهُ مسكنان للصين واليابان، وبعدهما مساكن لأهالي لأَبُونيّا أشبه بحفائر في التراب، وبعدها مساكن لبعض أهالي أفريقية المتوحشين، وبعض أهالي أَميريكا الأصليين، وتنتهي هذه بمسكن من مساكن أهالي مكسيكا الأصليين، حيث يوجد على بعض خطوات خلفه معرض الجمهوريّة المكسيكيّة، وسيأتي الكلام عليهِ في هذا النهار.

وإذ انتهينا من هذه السكة العجيبة، ورأينا كيف كان الأقدمون يسكنون ويعيشون، حدّقنا النظر قليلاً، فرأينا البرج المشيَّد، فكأنما هذه السكة التاريخية شيِّدَت بهذا المحل مجاورة لهذا البرج، ليستدل منها على تقدُّم هذا العصر على تلك العصور الخالية الَّتي هذه مساكنها، فإنَّ هذا من عمل العصور الحاليّة شيَّدتهُ يد المعرفة من الحديد الصرف، فدلَّ على تقدُّم من شاد، وسنتكلَّم عليهِ بعد التفرُّج على معارض الجمهوريَّات الأمير يكانيَّة الَّتي اعتنت فيها كل الاعتناءِ، وصرفت عليها المصاريف الطائلة إكراماً لأختها الجمهوريَّة الفرنساويَّة، حتى جارتها غيرها من البلاد الَّتي كانت غير جمهوريَّة وقتها كالبرازيل، ثم ننتقل إلى بعض المعارض المخصوصيَّة القائمة على جهة اليسار من البرج لنتفرَّغ بعدها للتفرُّج عليهِ، ومشاهدة ما حولهُ من أعلاهُ حتى ينتهي النهار.

(معرض مكسيكا) - إن معرض هذه الجمهوريّة لمن أَحسن معارض ممالك أميركا وأكبرها وأَتقنها، فقد صرفت الحكومة على بناءِ محلهِ مليوناً من الفرنكات، بناهُ أحد المكسيكانيين المهندسين بشرط أن يمكن فكهُ ونقضهُ قِطَعاً بعد فراغ المعرض، لنقلهِ إلى مكسيكو، والتزم في بنائِه الحديدَ الصب والفولاذ، وطلا منهُ الطبقة الخارجيّة، فصارت كالحجر في المنظر بالسواءِ.

وجعلهُ على طراز العمارات الَّتي كان يشيّدها أهل هذه البلاد قبل اكتشاف الأوروبيين قارة أمريكا.

وأراد أن تكون وِجهتهُ رامزة لجميع اعتقادات الملة المكسيكيّة، وجميع عاداتها القديمة، فجعل القسم المتوسط منها على طراز المعابد الَّتي كانوا يشيدونها للشمس، وأحاطهُ بصُورَ وتماثيل تدل على حياتهم السياسيّة ومعتقداتهم الدينيّة غير ما عندهم من الصنائع والفنون.

وهذه العمارة تشغل من الأرض 2150 متراً مربعاً، وتشتمل من الداخل على قاعة وسطى، ومحلين بجانبيها من الجهتين، يصلها النور من سقوفها الزجاجيّة، وفي الوسط سلم بديع الشكل ذو جهتين، يُصْعَد منهما إلى الطبقة العليا من البناءِ، وقد تزينت هذه المحلات من الخارج مثل زينتها من الداخل بأَحسن النقوش الوطنيّة والصور المليّة.

ومن أَهم الحاصلات المعروضة فيها الذهب والفضة، فمعادنهما كثيرة في هذه البلاد الغنيّة، وليس من المستغرب معهما أَن أسرع التمدن والتقدم فيها أيّ إسراع، ثم غيرهما من المعادن النافعة، ثم الحاصلات الزراعيّة من

ثمار ونبات، فإنهُ لمناسبة طول الإقليم ينبت فيهِ كثير من النباتات، بحسب كلٍّ من جهاتهِ الموافقة لهُ مما لا يوجد في غيرهِ من الجهات، ففيهِ الموز، والصنوبر، والبن، وقصب السكر، والقطن، والحبوب بأنواعها، وفيهِ من الحاصلات الفنيَّة والصناعية، الخرائط، والأطالس الجغرافية، والجيولوجيَّة، وأدوات الفرش والزينة، والمطابع، والكتب، والأخشاب الغالية، وأخشاب البناءِ، والمنسوجات والحلى، والمصوغات مما دل على تقدم هذه البلاد.

(معرض جمهوريَّة الأَرْجَنْتِين) - بناءُ معرض هذه الجمهوريَّة بجوار المعرض السابق قبلهُ، وقد اعتنى فيهِ اعتناءً لا مزيد عليهِ، حرصاً على شهرة هذه البلاد، لأنها بلاد الذهب والثروة والغنى السريع، وهي المقصودة من جميع أنحاءِ العالم يتوجهون إليها أفواجاً أفواجاً، ودائماً في ازدياد ابتغاءَ الرزق والوصول إلى الثروة، فضلاً عن رغبة حكومة هذه البلاد، في أن تظهر لأختها الفرنساويَّة في الجمهوريَّة، المحبة والاعتناءَ وشدة المودة، حتى استدعت أحسن الرسامين والنقاشين الفرنساويين، وعهدت إليهم مع مهندسيهم تشييد هذا المحل، ولم تبخل عليهم بالمال، بل نقدتهم في مصاريفهِ بالحالة الَّتي هو عليها 1200000 فرنك، مشترطة أنهُ بعد انتهاءِ المعرض يفك البناءُ ليركب في بُوينوس إيريس عاصمة الجمهوريَّة، ولذلك صنع جميعهُ من الحديد وأنواعهِ ليس إلاَّ، فشغل في الطبقة الأَرضيَّة مسطحاً قدرهُ 1600 متر مربع، و 1400 في الطبقة العليا، وجاءَ بعد بناءِ مكسيكا أهم المباني الأَمريكانية.

وهيئتهُ الظاهرة غاية في الزخرفة كهيئتهِ الداخلة، تعلوهُ قبة كبيرة، حولها أربعة أصغرُ منها، ويحيط بالطبقة العالية منهُ ممشى للإشراف على الخارج

وللزينة، وقد سُلِّطت أشعة الكهرباءِ في نحو ألف شعلة على زجاج النوافذ، مجعولاً على هيئة الأحجار الثمينَة، فصار في الليل من أحسن مناظر المعرض، وأبهجها، كذلكَ في النهارِ هو من أحلاها وأعلاها، فكلهُ مشغول بالميناءِ والفسيفساءِ والقيشاني والنقوش البديعة ظاهراً وباطناً داخلاً وخارجاً. والسلم المعمول بداخلِهِ للتوصيل إلى الطبقة العليا مصنوع من الحديد والخشب بمناسبة باقي البناءِ في الرونق والبهاءِ. وترتيب الأشياءِ المعروضة بداخلهِ وكيفيَّة تنظيمها وإتقان وضعها، فضلاً عن جَوْدة الأصناف ليست غريبة على من نظم هذا المحل، ولا على غنى تجار تلك البلاد.

ولو أردنا استيفاءَ هذه المعروضات جميعها لطال بنا الكلام، وخرجنا عن غرض الاختصار؛ إذ فيهِ من الحاصلات الزراعيَّة والمعدنيَّة والنباتيَّة، ما لا يحصى كثرةً، فضلاً عن كونها بكيفيَّة تزيد في رغبات الأمم في طلب الرحيل إلى هذه البلد الَّتي خصها اللّه بمزايا الخصوبة وسعة المعيشَة، ومع هذا نذكر الآلة المبرِّدَة الَّتي عرضت فيهِ وهي آلة مجعولة لحفظ اللحوم وصيانتها من التعفُّن، وبقائها على حالتها الرطبة الطريَّة مهما طال الزمن، وبلغ ما بلغ الأمد، ولا خفاءَ ما في ذلك من الفائدة للعالم عموماً، ولهذه المملكة خصوصاً، فإنها مشهورة بكثرة الحيوانات فيها، فيسهل عليها بهذه الآلة نقل اللحوم مذبوحة إلى أوروبا، فتصلها بحالتها الطبيعيَّة، وتباع فيها بأثمان أقلّ من أثمان لحومها الناتجة فيها.

(معرض البرِيزيل) أراد أهل هذه البلاد التفاخر بحاصلات بلادهم الزراعيَّة والمعدنيَّة، وساعدتهم على ذلك مجالسهم النيابيَّة، فاكتتبت بمبلغ 800000 فرنك، واكتتب بعض المدن المهمة بما أوصل النقود المكتتبة

إلى أزيد من مليون فرنك، وعضّدهم على ذلك امبراطورهم وقتذاك دون پدروَ الثاني، (أما حكومتهم الآن فجمورِيّة) فشيدوا بما تحصل بواسطة أحد المهندسين الفرنساويين بناءً عالياً بجوار البرج والجمهوريّة الأرجنتينيّة، عرضوا فيهِ حاصلات بلادهم بعد أن جعلوا لها معرضاً خصوصيّاً في رِيُودُه جَانِيرُو، افتتحهُ الامبراطور بنفسهِ، وعرضوا فيهِ أشياءَ جمة اختاروا منها ما أرسَلوهُ إلى هنا.

وقد شغل البناءُ وهو من الحديد أيضاً كسابقهِ ما مسطحهُ 400 متر (أما المعرض جميعهُ فيشغل 1200 متر مسطح، وجعل ذا طبقات ثلاث، تدور حَوْل رحبة من الداخل تشرف جميعها عليها، وفوقها قبة وراءَها برج ارتفاعهُ أربعون متراً، وفيهِ سلم الصعود إلى الطبقات العليا.

ووجهتهُ مزينة بالخزف المطلي، والميناءِ مرسوم عليها صور ستة تمثل أنهار البريزيل الستة، وما ينبت حواليها من الأشجار والأزهار، وحول ذلكَ شارات أقاليم المملكة تعلوها الراية الوطنيّة.

ووراءَ المحل عنبر للنبات (سير) يشتمل على النباتات البريزيليّة المزهرة في جميع فصول السنة.

وحَوالي هذا كلهِ بستان لباقي النباتات والأشجار، جمع المغرب والمطرب والمعجب، ومغارة جعلت لبيان هَيئة بعض النباتات على حالتها الطبيعيّة، وحوض ماءٍ غزير يصب فيه دائماً وأبداً، ماءٌ سَخُنَ حرارتُه ثلاثون درجة، زرع فيهِ النبات المائي المسمى (فِكْتُورْيَا رِجيَاً) الشهير بعلوهِ وارتفاعهِ على شواطيءِ نهر أَمازُونْ، الورقة الواحدة منهُ لو وضع عليها طفل حملتهُ على ما قيل، ولونها أبيض، وقطرها متر ونصف متر.

ثم محل لمذاق المشروبات والمأكولات عرضت فيهِ حاصلات البلدة الغذائيةً مأكولة ومشروبة.

وقد احتوى هذا المعرض على حاصلات مختلفة الأشكال، عظيمة المقدار، خصوصاً المعدنيَّة منها، مثل الألماس الخام والمصقول والأحجار النفيسة، مما دل على اقتدار هذه البلاد وغناها.

وقد شيد الموسيوجَارْنِيية صاحب سكة تاريخ السكنى في السكة المذكورة، بيتاً من بيوت البر يزيل الواقعة على ضفاف نهر أَمازون هناك، ووضع فيهِ كثيراً من الأواني الفخاريَّة الَّتي كانت تُصنع قديماً بتلك الأصقاع، استعارها من متحف رِيُودهُ جَانْييرُو عاصمة هذه البلاد.

ويكفي في الدلالة على عظم قدر هذا المعرض البر يزيلي، أَن عدد من عرضوا بضائعهم فيهِ بلغ 1600.

(معرض وِينيزُولا) هو جنوبي المعرض المكسيكي، جميل الشكل، لطيف الهيئة مبني على طراز العمارات الإسبانيوليَّة، يبلغ مسطح أرضهِ 600 متر، اشتمل على كثير من الحاصلات، أهمها المعدنيَّة وأخشاب العمارات، والصبغ، ونباتات الطب والصيدليَّة، مما دل على ثروة هذه الجمهوريَّة الواقعة في جنوبي أميريكا ذات العجائب الطبيعيَّة والغرائب الصناعيَّة.

(معرض شِيلي) بناءُ معرضها صغير بالنسبة لصغر الجهة المراد عرض حاصلاتها فيهِ، وهو على 60 متراً مربعاً، ولكنهُ في الزخرفة والإتقان من أحسن المعارض المجاورة لهُ.

وقد عمل من حديد ليسهل نقلهُ بعد المعرض إلى سَانْتياجُو عاصمة

البلاد، ويحتوي على مجموعة معادن بالحالة الّتي استخرجت عليها من أشمل المجموعات الّتي عُمِلَتْ إلى هذا اليوم، وأوفاها، ويحتوي على أشياء كثيرة من حاصلات هذه البلاد الغنيّة، مثل الصوف والنيلة والكينا والأخشاب بأنواعها.

(معرض بُوليفيا) لقد صرحت المجالس النيابيّة في جمهوريّة هذه البلاد بمبلغ ثلاثمئة ألف فرنك، لتشييد محل معرضها، فجاءَ عظيماً فاخراً على طراز العمارات البوليفيّة، وعرضت فيهِ حاصلات هذه الديار بأنواعها، وأهمها، وسبب الثروة السريعة والتقدم العاجل فيها معدناً الفضة والنحاس، فضلاً عن غيرهما من المعادن والحاصلات النباتيّة والصناعيّة.

(معرض جمهوريّة خط الاستواءِ) يشغل بناءُ معرض هذه الجمهوريّة الأميركيّة 100 متر مربع فقط، وهو مع ذلك في غاية اللطف عمل على طراز المعابد الّتي كان يشيدها أهالي تلك البلاد للشمس، وقد استعان من أنشأه بالصور الموجودة بمتحف التروكاديُرو، مصنوعة من الجبس نقلاً من المعابد الأصليّة.

وقد عرضت فيهِ حاصلات البلاد بجميع أصنافها من البن والقطن والكينا، والأخشاب بأنواعها، والحبوب بأصنافها، والنباتات الطبيّة، والجلود، والسكّر، والشمع، والمعادن الثمينة، والبلور الصخري، والكبريت، فضلاً عن المشغولات الدقيقة الصناعيّة، كالدنيلات ومنسوجات الحرير والصوف، والقطن، والكتان، مما دل على تقدم هذه البلاد الصغيرة.

(معرض جمهوريّة نِيكَارَا اجْوَا) المحل الذي تخصص ببناءِ هذا المعرض

هو من خشب تكسوهُ طبقة مطليّة على شكل الآجُر، ولم يشغل مسطحاً أكبر من مائتي متر، يشتمل على قاعة وسطيّة، ، وقاعتين بجانبيها، وقد جعل في وسط القاعة الكبيرة رسم نهر نِكاراجْوا مجسماً على طول تسعة أمتار، وعرض متر ونصف؛ وذلك لأنَهُ الأصل في خيرات هذه البلدة الصغيرة الَّتي أجهدت نفسها، وعرضت أنْفَسَ ما عندها من المزروعات، وحاصلات المعادن والمحاجر، وأشهى ما لديها من الطيور ذوات الشكل اللطيف، وريشها الذي يستعمل للزينة، فضلاً عن الروائح الذكيّة ومستخرجاتها العطريَّة، وما ذلك كلهُ إلاّ ترويجاً لتجارتها، وترغيباً فيها؛ فلذا صرفت في هذا المعرض ما يبلغ خمسمائة ألف فرنك، حالة كون سكانها لا يزيدون عن نصف ذلك العدد إلاّ قليلاً.

ثم تفرجنا بعد ذلك على (المعارض المخصصة بباقي الجمهوريَّات الأميركيَّة)، فرأينا المخصص منها بجمهوريَّة سَانْ سَالْ ڤَادُوز وبجمهوريَّات أُورَاجْوِي، وسان دُومِينِيخْ، وبَارَاجوِي، وهَايْتي، وجُوَاتِمالا الجميعَ مختلفاً في الشكل والهيئة، والزينة والزخرفة، والكبر والصغر، على حسب أهميَّة البِلاد واتساعها، كما أنهُ مختلف في مواد البناءِ، فمنهُ، وهو الأكثر، ما هو مصنوع من الحديد، مثل المحال المتقدمة، ومنهُ ما هو بالحجر والآجر، ومنهُ مثل محل جواتِمالا معمول من الخشب على هيئة مساكن تلك البلاد، مطليَّة جدرانهُ بالبوية الزيتيَّة اللمَّاعة، المعمولة على هيئة القيشاني، وغيرها من الهيئات اللطيفة.

وهذا المحل الأخير مركب من طبقة أرضيَّة، وطبقة فوقها، تحيط بالعليا خرجات متسعة مظللة بالمظلات المتخذة من القماش.

وفي هذه الديار أشياءُ كثيرة من حاصلات تلك البلاد ومعادنها

ومصنوعاتها، وأهم ذلك في الطبقة الأرضيّة منها، فإن فيها مجموعة حيوانات وحشرات مضرة، جمعها رجل فرنساوي من تلك البلاد في سنين طويلة بمشقات كبيرة، فجاءت من أحسن مجاميع العالم، وبالطبقة العليا، كذلك حيوانات ذلك القطر، مثل النمور، والثعابين، وبنات آوى، وغير ذلك من الدواب، وقَلّ أن يوجد مثل هذه المجموعة في متاحف أوروبا.

ثم في الطبقة العليا قاعة صغيرة للمطالعة، وحيدة في بابها تحتوي على جميع جرائد أمريكا الجنوبيّة والوسطيّة.

ثم انتقلنا بعد هذه الجمهوريّات إلى (المعرض الصيني)، وقد أقامهُ بعض تجار مينا كَانْتون الصينيّة، (وهي أقرب المواني لفرنسا، وإن كانت تبعد عن مرسيليا 35 يوماً) بعد أن كاد الوقت أن يفوت، ولم يتيسر لهم لهذا أن يجلبوا صنّاعهً من بلادهم، إلاّ أنهُ جاء بهمة المهندس الذي شيدهُ على طراز المباني الصينيّة يُشبه الدور الّتي تتخذ لعبادة بُوْذَا في تلك البلاد. بما حواليها من الأبراج، وما هي عليهِ من الشكل المخصوص، وما بها من الزينة الخارجيّة، حفراً في الخشب وطلاءً بالبوية الكثيرة الألوان.

وهؤلاءِ التجار ليسوا مع ذلك كثيري العدد، فإنهم خمسة عشر فقط، ولا كلهم من مشهوري الأغنياءِ، بل فيهم اثنان من المشهورين لا غير، ولم يشغلوا بالبناءِ محلاً كبيراً؛ لأن المحل الذي كانت خصصتهُ الحكومة الفرنساويّة بالصين في سراي الصناعات المختلفة كانت تصرفت فيهِ لتأخر هذه عن الاشتراك، بل أعطت لهم أرضاً مساحتها 300 متر ليس إلاّ، مع أن أهالي الصين يزيدون عن 400 مليون، ومع هذا لم يشغل تجار كانتون جميع هذه الأرض وحدهم، بل اشترك معهم فيها التجار الصينيون المقيمون للتجارة في باريس من مدة مديدة بحق سبعي الأرض.

وقد اشتمل هذا المحل مع هذا كله على بدائع وغرائب تأخذ بالأبصار والألباب، بحيث يعجز القلم عن سرد ما اشتهر مما احتوى عليهِ من النفائس والآثار، وقد اشتمل على صنائع نفيسة، وأشياء غريبة دلت على مزيد تقدم هؤلاءِ الأقوام، فهذه قشور أشجار الخيزران منقوشة بنقوش عديمة المثال، وهذه المنسوجات اللطيفة من السجاجيد والبسط وغيرها مزينة بأَحسن الألوان، وعليها أَحسن الصور والتماثيل، خصوصاً واحدة منها طولها سبعة أمتار، وعرضها متران ونصف، أَخبر العارفون أَنها يعجز عن أن يأْتي بمثلها أعظم صناع العالم، من حيث اتحاد الألوان وسبكها، وإحكام الصور وحبكها، فهي في غاية البهجة كما يظهر لأَي إنسان رآها، وهذه الستائر والمراوح من النباتات والمنسوجات، وهذه مصنوعات العاج على اختلاف الأشكال والأصناف، وهذه الفرش والأثاث ونظامها وإتقانها وإحكامها، مزخرفة بالعاج والفضة، وهذه الأواني الفخاريّة الصينيّة، ويكفي مجرد ذكرها عن إطالة الشرح وزيادة البيان، وهذه آلات الموسيقا، وهذه أَدوات الزينة، وهذه وهذه من كل المدهشات وسائر المَطربات، وجميع المعجبات في الأشكال والألوان.

ويجوار هذا المعرض تفرجنا على (المعرض الهندي) - وقد أقامهُ أيضاً بعض تجار الهند، فاحتوى على أَنفس النفائس، وأَغرب الغرائب، وأَبدع البدائع، وصار تشييدهُ على هيئة مخصوصة ذات قباب موافقة هيئات بلادهم، وجعل لونهُ أحمر قانياً، ومن الغريب في هذا اللون أنهُ أُدْخِل في تركيبهِ كثير من دم الثيران الّتي تذبح في باريس، والذي يتضح بادىءَ بدءٍ لمن يتأَمل في النفائس الّتي شَملها هذا المكان والغرائب الّتي أَبدعتها يد

صناعة هؤلاءِ الأقوام أنهم كما كانوا أول المتمدنين في الصناعة والعرفان، لا يبعد أن يرجع إليهم دور التقدم والمعرفة ما داموا على هذا السير.

(سراي الأطفال) ثم بقرب هذه المعارض سراي الأطفال، وبهذه المناسبة أذكر المحال الَّتي جعلت لرياضة الأطفال وتنزههم في هذا المحل وفي غيرهِ من محلات المعرض.

وذلك أنهم كانوا لم يلتفتوا إلى أمر الأطفال في المعارض السابقة، وكان أهلوهم يضطرون إما إلى تركهم بمنازلهم [في] أثناء حضورهم للمعرض مع تشوقهم إليهِ، وفي ذلك من إشتغال البال ما لا يخفى، خصوصاً على من لم يكن عندهُ من يعول لهُ الأولاد، وإما أن يُحضروهم معهم فيرى الكبار من عجائب الصنائع وبدائع المعروضات ما يُسرون منهُ، ولكن تنقبض نفوس الأطفال من تعب المشي، لمشارفة أشياءَ لطيفة في حد ذاتها لا يفقهُ كنه أمرها إلاَّ الكبار، فأراد مؤسسو هذا المعرض تلافي هذا الضرر، وتفادي هذه المحظورات، فبنوا لذلك قصوراً فاخرة في جهات متعددة من المعرض لم يقصد منها غير رياضة الأطفال، وتسليتهم وانشراحهم، فهذا البناءُ سَمَّوهُ سراي الأطفال، هو من المحلات الَّتي شيدت لهذا الغرض، وفيهِ تُلعَبُ الألعاب المضحكة بالإشارات (بانْتُوميمْ) وألعاب الحيوانات، والحواة، والراقصات، فضلاً عما في البستان المحيط بهِ من الملاعب اليدويَّة، وبائعي الحلواءِ، فيتمكن أهل الأولاد من تركهم في هذا المحل يتفرجون، وهم يذهبون إلى حيث أرادوا من المعرض.

وهذه (سراي البحر) ملحقة بالمحل المتقدم، تابعةٌ لهُ، عُمِلَت بكيفيَّة ميكانيكية مخصوصة، يخال للموجود فيها أنهُ راكبٌ سفينة حقيقيَّة، في

وسط لجج البحر، تلعب بها أمواجهُ، حتى ترسُوَ بالراكب يمينا من مواني اليابان، وهناك ينزل، فيجد متحفاً ممتلئاً بالأشياءِ والملابس المختصة بتلك البلاد.

وهذه (بانُورَامَا بواخر الشركة الترانْزَا تَلانتِيقِيّة) أي: محل رؤية بواخر الشركة المخصوصة بأسفار البحر الأتلانتيقي، يُتَخَيَّلُ للرائي الذي في داخلِهِ أنهُ في وسط سفينة من أكبر سفن هذه الشركة، تسمى لاتُورَيْن راسية، مع كثير من أكبر سفن هذه الشركة في مينا هافر، وكأنها كلها حقيقيّة، حتى إنهُ لو نزل في داخل السفينة الذي هو واقف على سطحها، لوجدها على هيئة الوابورات السفريّة من الداخل، كما هي كذلك من الخارج، مع أن كل هذه المناظر من الرسم وإحكام وضعهِ وتوجيهِ الضوءِ إلى أجزائِهِ، ولا حقيقي فيها غير المحل الذي أُعِدّ لوقوف المتفرجين عليهِ، وجُعل من داخله على الهيئة المطلوبة من حيث الوضع والأسلوب.

وهذه (الكرة الأرضية) في جهة أخرى، وقد عُمِلت مُجَسّمة في وسط محل مخصوص بها تحت قبة هائلة، والكرة المذكورة بمقدار واحد من المليون من كرة الأرض الحقيقية فيكون محيطها على ذلك 40 متراً في مقابلة 40000 كيلو متر الَّتي هي مقياس دائرة نصف النهار الحقيقية.

وكل مِلّيمتر واحد في سطح هذه الكرة في مقابلة كيلو متر واحد في سطح الحقيقية، والمتر الوحد يقابله 1000 كيلو متر.

وقطر هذه الدائرة 732 ملّيمتر واثنا عشر في مقابلة 12732 كيلو متر قطر الأرض الحقيقي.

وفرطحة القطبين الّتي هي في الكرة الحقيقيّة 21 كيلو متر ليست في هذه الكرة إلاّ 21 ملّيمتر، فهي لذلك غير محسوسة للنظر.

وداخل هذه الكرة عيدان من الحديد، يغطيها 586 قطعة من الورق، ممسوكة من الداخل ببعض أخشاب، فيتيسر فكها وإعادة تركيبها بأي مكان،

ووزن هذه الكرة عشر طونولاطات من الحديد، وثلاث من الورق، وهي واقفة على مدار يتيسر معهُ إدارتها بالسهولة.

وقد دُهنت بيوية الزيت، ولم تتبيَّن فيها الجبال بارزة، فإن أكبرها إرتفاعاً 8000 متر، فكان يقابلها في هذه الكرة 8 ميليمترات، وهي لا تكاد تُحَسُّ.

وكذلك البحار لم تتبين أعماقها منخفضة في هذه الكرة للسبب المتقدم، وإنما صار تلوينها بألوان تختلف بحسب أعماقها، فاللون المجاور للشطوط والجزائر يدل على الأعماق الّتي لا تتجاوز 2000 متر، والذي بعدهُ من 2000 إلى 4000 متر، والذي يليهِ من 4000 إلى 6000 متر، والرابع من 6000 إلى 8000 متر، والخامس يدل على الأعماق الّتي تزيد عن 8000 متر.

وعلى جدران المحل جداول إحصائيّة عديدة، تدل على سكان البلاد، وأهم حاصلاتها، وجداول أخرى تدل على أعماق البحار، وغيرها تدل على غير ذلك من متعلقات كرتنا الأرضيّة، هذا فضلاً عما اشتملت عليهِ الكرة نفسها من بيان أسماءِ المدن وخطوط السكك الحديديّة، وخطوط الشركات البحريّة، مع بيان الأمم التابعة هي لها، وبيان أماكن معادن الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والفحم، والألماس، كل بلون خاص بهِ يميزهُ عن غيره وبيان محال الثلوج في القطبين، وغير ذلك من البيانات المهمة.

ويوجد غير هذه الكرة مَلَاهٍ للأطفال داخل المعرض وخارجهُ، وغيرها للرجال، مثل الموسيقات الوطنيّة، والراقصات الوطنيات، الّتي ترجد في كثير من القهاوي الموجودة في أنحاءِ هذا المعرض، كالمصريّة، والمغربيّة والسودانيّة، والإسبانيوليّة، والإيطاليّة، وكذلك يوجد في محلات أخرى بعض أغاني جهات أفريقيّة وآسيا، هذا فضلاً عن بعض القرى الّتي كأنما نقلت بتمامها من محلها إلى بعض محلات انڤاليد، مما سيأتي الكلام عليهِ.

هذا وقد رأينا أن نتنقل إلى المحال الموجودة بجهة اليسار من برج إيڤل، لنتفرغ[1] منها، ثم نصعد إليهِ قبل أن يفوت النهار، فذهبنا إلى (محل مخبري الجرائد)، وقد أعد لهم هذا المحل، وجعل فيهِ كل ما يلزم لهم للكتابة والمراجعة، وما يستلزم ذلك من الكتب والأدوات، وهُيِّئ لهم على مقربةٍ منهُ محل للبوستة، ومحل للتغراف، ومحل للتليفون.

ثم بعد ذلك قصدنا محل (معرض مُوناكو) وقد أراد أصحاب هذا البلد إنْ لم تساعدهم حكومتهم مساعدة ماديّة أن يشتركوا في هذا المعرض، فاكتتبت بعض الشركات الماليّة بمبالغ كافية لتشييد هذا المحل، فجاءَ غاية في الزخرفة والبهجة على طراز الأبنية الإيطاليّة المتأخرة، وجعل لهُ أربعة بروج تحيط بهِ، يحدق بها أشجار النخيل وغيرها من الأشجار الخاصة بالبلاد الحارة لتتم بها الهيئة، وليتشكل منها معرض زراعي يحتاط بالمعرض الصناعي المنحصر في البناءِ.

وعدد الّذين عرضوا بضائعهم في هذا المحل 36، وأهم ما عرضوه المياه العطريّة والحاصلات الصيدليّة، وكثير من متعلقات البساتين وزراعة الأشجار،

---

(1) الصواب لنتفرغ اتساقاً مع السياق «المحرر».

ثم الأواني الفخاريَّة الفاخرة والقيشانيَّة الجميلة الصناعة، وأهم هذا كلهِ مجموعة النباتات البحريَّة، وبعض الأسماك الغريبة الَّتي استحصل عليها ولي عهد حكومة موناكو في سياحتهِ حول الأرض، فإنها استلفتت انظار العلماءِ، كما استحقت كتاباتهُ الَّتي كتبها عن سياحتهِ هذه في جريدة (رُڤُوتْه دُومُونْدْ) الفرنساويَّة مدحَ الكتاب والفضلاءِ.

والذي يستدل من معرض هذه البلد واعتناءِ أهليها بهِ أنهم يرغبون منهُ إظهار مقدرتهم في الصنائع والمعارف، وقد بلغوا ما تمنوا من هذا القبيل، ونالوا الاستحسان العام، وياليتهم يكتفون بهذا الكسب الحلال عن الاستحصال على الأموال بطرق الميسر وأشكالهِ من الألعاب.

ثم بالقرب من هذا المحل البناءُ الذي أُعد لعرض أصناف الدخان التركي، فيهِ من طرف إدارة التزام الدخان في تركيا، فتباع فيهِ على اختلافها وكثرتها، وبالقرب منهُ تياترو. (ڤُولي پاريزْيين) أو الهزليات الپاريسيَّة، وتُلعب فيهِ جميع الأَلعاب المسلِّية، كما أن فيهِ الأغاني المطربة، وفصول الرقص المعجبة، مع إطلاق الحريَّة للمتفرجين في الشرب، واستعمال الدخان [في] أثناءَ الأَلعاب، ويمتاز عن التياترات المعتادة بأن صُنِعت فيهِ محال اللعب وغرف التفرُّج، وغالب الأماكن من الحديد الفولاذ المنقوش، فصار في حد ذاتهِ، ومن حيث بناؤُهُ بهذه الصفة عمَلاً صناعيًا، وأثراً هندسيًا، يُتَفَرَّج عليهِ بخصوصهِ بصرف النظر عما يُلْعَبُ فيهِ من الألعاب.

وبجوار هذا التياتر مسكن بناهُ الإنجليز من الفولاذ أيضاً لإقامة مأمور معرضهم، فجاءَ البيتان المصنوعان من الحديد متقاربين، وسهلت بذلك المقارنة بينهما لمعرفة أيهما أقرب للزينة أو للمتانة، ولكن الحقيقة أنهما

متساويان في الهندسة والنظام، وحسن الصنع والإتقان، وإن اختلفا في الشكل الظاهر.

هذا وعلى مقربة من هذا التياتر (المنزلان الفَنْلَنْدِي والنُّرْويجي)، وقد صنعا من الخشب، وحسن صنعهما ووضعهما، وكملت زخرفتهما مع أنهما صنعا في بلديهما، وأُتي بأخشابهما متفرّقة، وصار تركيبها هنا كما يمكن تركيبها بعد في أي محل كان، وهما غاية في التناسب مع الاختصار، ومراعاة الضروري، وسهولة النقل.

هذا وبالقرب من هذين المنزلين (محل للأكل في المعرض) نذكر بمناسبتِهِ أن محال الأكل في المعرض كثيرة في كل جهة من جهاتهِ، وفي أي طرفٍ من أطرافهِ، مختلفة الأثمان والأشكال، فيها الرخيص، والمتوسط، والغالي غَلاءً ليس فوقهُ غَلاء، ولذلك قد نَصحتْ الجرائد المتفرجين بالتحرُّز من هذه المحال، والسؤَال عن الأثمان قبل الأكل بطلب قائمة المآكل، وفيها ثمن كل صنف، للوقوف على الحقيقة قبل الوقوع في الورطة، واجْتهدتْ مع هذا إدارة المعرض في إنقاذ الناس من هذا الضرر بالاتفاق مع أصحاب هذه المحلات على تحديد أثمان للأكل، وكتابتها في قائمة تُعَلَّق خارج المحل، يطلع عليها من يريد الدخول إليهِ، فإذا أعجبتهُ دخل وأكل، وإلاَّ بحث عن محل توافقهُ أثمانه، ولكن بعض هذه المحلات، اعتماداً على حريَّة التجارة، وتمسكًا بعقد الإيجار الذي بيدها من إدارة المعرض المبيح لها استعمالها لبيع المآكل بدون اشتراط أثمان، امتنعت عن إجابة طلب الإدارة، وبقيت تتصرف في عباد الله بحسب ما تراهُ.

وبالقرب من هذا (معرض التليفون) عُرِضَتْ فيهِ جميع أشكال التليفون

المستعملة على اختلاف كيفياتها، وكيف كانت في الأول، ثم كيف تحسنت إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن، وأهم ما استجلب أنظار الاستغراب فيهِ - وإن كان كلهُ غرائب - صندوق كصناديق البوستة، ذو فتحة مكتوب عليهِ العبارة الآتية، وهي: «ضع خمسين سنتيماً وخذ المَسْمع، واصْغَ تسمع مِن بعدُ الساعة كذا بعد الظهر لُعْبة كذا تلعب في تياتر كذا بباريس»، فإذا أراد المتفرج أن يسمع اللعبة فليأتِ في الوقت المخصوص، ويضع المبلغ المذكور، ويأخذ المسمع، ويُصغي فيسمع اللعبة الموعود بها.

وكيفيَّة ذلك أن شركة التليفون وضعت آلة في محل التياتر، ينتقِل بواسطتها الصوت، من اللاعبين إلى الآلة الَّتي عندها يسمع السامع بمجل التليفون، فإذا رمى القطعة المتقدِّم بيان قيمتها في الصندوق، صادفت في نزولها كِفة ميزان، فأسقطتها بقدر ثقلها مسافة تتحول معها الْصُمَّامة الَّتي كانت تسدُ الطريق على السامع، فيسمع بذلك مسافة معلومة، حتى إذا انتهت عادت الْصُمَّامة إلى محلها، والكفة إلى حالتها قبل أن يضع فيها قطعة الفضة، بحيث لو وصلت إليها قطعة غير قطعة الفضة المعلومة الوزن لم تتحرك الْكِفة بقدر الحركة المطلوبة، فيترتب على ذلك عدم تحوُّل الْصُمَّامة عن محلها، واستمرار انسداد طريق السمع على هذا الذي أراد أن يسمَعَ غِشًا بدون الأجرة المقررة، فخسر بهذا ما دفعهُ مهما كان قليلاً، ولم يسمع شيئًا.

وبعد هذا (معرض الغاز)، وهو بناءٌ مشيَّدٌ أقامتهُ شركة إنارة الغاز الباريزيَّة من طبقتين، تعلوهما قبة لطيفة مزخرفة، عرضت فيهِ جميع الأشكال وسائِر الألوان بكيفيَّات استعمال الإضاءة في الشوارع، وفي محلات الجلوس بهيئآت

مختلفة، وفي محلات النوم والمطالعة، ثم للطبيخ بكيفيّات متعددة وأساليب متنوعة، ثم للتدفئة بدل الفحم والوَقُود في زمن الشتاءِ على طرق زائدة في الكثرة، ثم في زمن الاحتفالات عوضاً عن سائر ما عداهُ من المضيئات، وجعلت محلها هذا الذي أقامتهُ أنموذجاً لأنواع الزينة في كل ليلة داخلاً وخارجاً، وساعَدَها على هذا، أنها شيدتهُ بكيفيّة تمكنها من ذلك، فإنها أكثرت فيهِ من النوافذ، وتفننت في تعدد الألوان وأشكالها، وأتقنت قبتهُ، وأكثرت فيها الزخارف. وقد حثها على الظهور مزاحمة شركات الكهرباءِ لها، حتى صار ما أجْرَتْهُ من باب الدفاع عن النفس، وصار واجباً أكيداً بهذا الوصف، هذا وبجوار هذا المعرض.

(مَنْحَتهُ الألماس الهولانديَّة): وقد شيدها بعض التجار المقتدرين، وبنوها بالحجر والآجُرّ، على طراز عمارات بلادهم، في أوائل القرون المتأخرة، وجعلوها طبقتين: العليا تشغلها إدارة المعرض، والأرضيَّة مشغولة بِالْمَنْحَتة. وفي وسطها طاولة مغطاة بالزجاج، فيها كثير من حجارة الألماس صُنِعَ من بعضها شكل برج إيفل مرصوصاً (بدون أن يكون مشغولاً) على بساط من القطيفة الزرقاءِ، وبجوارهِ في أطباق من المعدن كثير من الألماس أيضاً، حتى بلغت قيمة ما تحت هذا الزجاج وحدهُ مليوني فرنك.

وبجوانب المحل طاولة يتيسر للزائرين المرور بالقرب منها، فيرون الصناع مشتغلين بتهيىءِ الألماس، وقد جلب غير مصنوع، فيقطعونهُ أولاً، ثم ينحتونهُ نحتاً أولياً، ثم يعيدون نحتهُ وتهذيبهُ بواسطة مِحَكّات تديرها قوة الغاز.

وبجوار هذه المحكَّات والآلات الجديدة، المسِنَّات الَّتي كانت تستعمل في القرن الخامس عشر، وتُدار بالرجل ليتبين الفرق بين هذه وتلك.

ويتصل هذا المحل بمحلات البوليس بواسطة التليفون، للإستعانة عند الحاجة، إتماماً للنظام، ولكي لا ينقص لهذا المعمل الألماسي شيءٌ أصلاً.

وبجوار هذا المحل بناءٌ شيدتهِ إدارة احتكار الدخان، فأرت فيهِ كيف يصنع بالدخان من حالتهِ الأصليَّة حتى يصير سجاير موضوعة في علبها، كل ذلك بآلات البخار، للسُّهولة والإسراع، وتوفير أجر العمال: هذا وبمفارقتنا هذا المحل وصلنا إلى [برج إيفل].

* * *

(بـرج إيـفـل)

وحيث كان هذا البرج أهمّ شيءٍ استلفت الأنظار في هذا المعرض، وهو من أعظم أعمالِهِ، وانتشر صيتهُ، وشاع ذكرهُ، ورسم على أشياءَ لا تحصى بالتصوير والتجسيم، وانتقلت هذه الصور من پاريس إلى سائر أنحاءِ الأرض، شأن كل عجيب مرغوب، رأينا أن نتكلم عليهِ بإيضاح أكثر من غيرهِ، وأن نطنب في وصفهِ حسب ما هو عليهِ، فنبتدئُ بذكر:

– (أساسَاته): قد ابتدىءَ في عمل تجهيز اللازم لها في يوم 28 يناير سنة 1887م، فانتشرت الفَعَلَةُ في جميع أنحاءِ المكان تقلع الأشجار (حيث كان بستان قائم على المحل الذي بهِ البرج الآن)، وتحفر الأساسات، وتجهز المحل اللازم للعمل في هذا البرج العظيم، فإن البرج المذكور يشغل مسطحاً قدرهُ أكثر من 16000 متر مربع، وكل ضلع من أضلاع مربعهِ 129 متراً و22 سنتيمتراً، فهو على ذلك يشغل أرضاً تقرب من أربعة أفدنة، فإنّ الفدان 4200 متر و83 سنتيمتراً، وهو قائم على أربعة عمد، يعبر عنها بالأرجل أو الأكتاف، وضعت في الجهات الأصليّة الأربعة، فالرِجْلان اللتان من جهة النهر الأولى منهما (على يسار الآتي من الجهة التروكاديرو) في نقطة الشمال، والثانية (على يمين الآتي من الجهة المذكورة) في نقطة الغرب، والرِّجْلاَنْ الأُخْريَانْ إحداهما على نقطة الشرق، والأخرى على نقطة الجنوب.

– (في أرض الأسَاسَات) اختبر المسيو إيفِلْ بواسطة المجسّات تركيب

الأرض الّتي يراد وضع أساسات البرج عليها اختباراً جيداً، وعرف أن الطبقة السفلى منها مكونة من طبقة من الطُّفْل المندمج، سمكها 16 متراً تقريباً، مرتكزة على طبقة طباشيرية، وأن هذه الطبقة السفلى كافية لتحمل الأساسات، وأنها مائلة قليلاً متجهة في انحدارها نحو نهر السين، وأن فوقها طبقة ثانية من الرمل والزلط مندمجة إرتفاعها في البعد عن النهر 6 أمتار إلى 7 أمتار، وفي القرب أقل من ذلك، فإنهُ أثّر فيها فعل المياه بالنحر حتى كادت أن تكون معدومة.

وفوق هذه الطبقة الثانية الرمليّة ثالثة طينيّة مختلطة بالرمل الناعم والردم المختلف الأجناس، لا تتحمل الأساسات، فاضطُر المسيو إيفِلْ إلى اتخاذ احتياطات خصوصيّة، واستعمال طريقتين مختلفتين في الأساسات بحسب حالة الأرض.

فأما الرِّجْلاَنْ البعيدتان عن النهر، فإنهُ أمكن بالسهولة تأسيسهما على كتلة من الخراسنة سمكها متران صنعت من الإسمنت في الهواءِ المطلق، حيث وجدت الطبقة الرمليّة الزلطيّة اللازمة لتحمل الأساسات على منسوب 27 متراً (أعني فوق سطح البحر المالح، وهذا المنسوب يعادل منسوب سطح مياه السين المعتدل في الحال المتوسطة)، وسمكها ستة أمتار في هذا المكان.

وأما الرِّجلاَن القريبتان من النهر فإنهُ صار تأسيسهما بطريقة غير الأولى، وذلك لأن الطبقة الرمليّة الزلطيّة اللازمة لتحمل الأساسات، لم توجد إلاَّ على منسوب 22 متراً، أعني على عمق خمسة أمتار تحت سطح مياه نهر السين، ولا يُتوصّل إلى هذه الطبقة إلاَّ بعد اختراق أرض وحليّة مستحدثة من الطمي الجديد، ولهذا اضطر المسيو إيفل إلى استعمال طريقة التأسيس بالهواءِ المنضغط بواسطة صناديق من الصاج طولها 15 متراً، وعرضها 6 أمتار،

موشحة بقطع من الحديد قوية، واستمر نحو الثلاثين من الفَعَلة، يشتغلون مدة شهرين داخل هذه الصناديق تحت ضغط هواءٍ مكبوس بواسطة آلات أُعِدّت لذلك، لحفر ما يوجد تحت أَرجلهم من الطين الرَّخْو والأَحوال، وإخراجها حتى أنزلوا هذه الصناديق إلى عمق خمسة أمتار تحت الماءِ وملأوها بالخراسانة صبّاً، وقد جعل لحمل كل رجل من الأرجل الأربعة للبرج أربعة من هذه الصناديق.

ثم غُطّيت هذه الخراسانات في الأَرجل الأَربعة بمدماكين من الحجر، النحت المأخوذ من محجر شَاتُولاَ نْدِنْ، ومقاومة هذا الحجر للتفتت تبلغ 1235 كيلو جرام على السنتيمتر المربع في الحد المتوسط، مع أن الضغط الواقع من البرج تحت مواقع الأرجل لم يبلغ سوى 30 كيلوجراماً على السنتيمتر المربع، فالحجر لا يشتغل حينئذٍ إلاّ بقدر جزءٍ من أربعين جزءاً من مقاومتهِ الحقيقيّة، وعلى ذلك تكون شروط الأَمن متوفرة وزيادة.

– (المكابس الإيدرُوليكيّة أي المائية): ومع ما ذكر، فإنّ المسيو إيڤل زيادةً في الاحتياط، ورغبةً في مداركة ما عساهُ أن يحصل لأَرجل البرج من الهبوط وقتاً ما، قد تدبر في كيفيّة لإرجاع البرج إلى حالة موازنتهِ الأصلْية، فوضع لهذا الغرض تحت كل رِجْل من أَرْجُلهِ مكبساً إيدروليكيّاً من قوة 800 طونولاته، يتيسر بواسطته في أي وقت، رفع كلّ من الأَرْجُل بالقدر اللاّزم لإرجاعها إلى حالتها الاصليّة.

وقد ترك في قاعدة أَحد الارجل كهفاً مُعَدّاً لوضع الآلات وقزاناتها اللازمِة لعمليّة تشغيل المراقي. وقد أخذ من أجل صرف الكهربائيّة الجويَّة من مبدإِ الأمر احتياطات قويّة، فوُضع لكل رِجْل من الأَرْجُل ما سورتان من الزهر، قطر الواحدة منهما خمسون سنتمتر، لصرفها إلى أعماق

الأرض، وهما متصلتان بقاعدة الرِّجْل الحديديّة، ونازلتان رأسياً إلى مُستَوَى الطبقة المائيّة، فتنعطفان أفقياً في الطبقة المذكورة على طول 18 متراً منها.

– (تركيب البرج): في 30 يونيو سنة 1887 ابتدِئت أعمال تركيب الأجزاءِ المعدنيّة للبرج، وكانت الصعوبة الأصليّة في هذه المسألة منحصرة في كيفيّة وقوف الأضلاع الرئيسة من الأكتاف؛ إذ كان واجباً وضعها في الفراغ وضعاً مائلاً، وهو ما يعبر عنهُ في أشغال العمارات بالتركيب على الخلو، (ومن المعلوم أن هذه المسألة دقيقة جداً في حد نفسها ؛ لأن مُنْشِئ البرج وأعوانهُ لم يسبق لهم إلى ذلك الحين أنهم انشأوا عملاً مثل هذا في الجسامة والدقة، ولو أنهم سبق لهم القيام بأعمال مهمة كبيرة)، فأخذوا لذلك في التجارب، وعملوا من الخشب نموذجاً صغيراً لأحد الأكتاف، درسوا عليهِ الطرق اللازمة لاستناد هذا الجسم عليهِ بإركازهِ كلما ارتفع على نقط ارتكاز خفيفة، بواسطة ما وضعوهُ تحتهُ من العيارات والتخاشيب الهرمية الشكل، إلى أن استدلوا بالحساب على أن لزوم هذه النقط الارتكازيّة لا يكون إلاَّ بعد ارتفاع 26 متراً.

وعلى هذا عندما وصل تركيب الأضلاع الرئيسة للأكتاف الحديدية إلى ارتفاع 26 متراً كانت العيارات والتخاشيب المعدة للارتكاز حاضرة، فإنها هُيئت والعمل جار في أسفل الأكتاف، وقد وضعوا فوق هذه التخاشيب عُلباً مملؤة بالرمال، معدة لأن تركز عليها الأجزاءُ الحديدية، وبوصول الارتفاع إلى 26 متراً أخذ مركز ثقل جزءٍ كتلة الكتف الذي تمَّ إنشاؤهُ في أن يسقط خارجاً عن مربع القاعدة، ولكن سندتهُ التخاشيب، وأمكنهم بهذا

أن يسيروا في العمل إلى ما فوق ذلك مع التحميل على الخلو في وضع جديد بعد نقطة الارتكاز الأولى، وهكذا استمرّ العمل حتى وصلت الأضلاع الرئيسة من الأكتاف إلى نقطة ارتكازها العُلويّة، وهي الأعتاب الأفقيّة للطبقة الأولى من البرج الّتي هي كناية عن قناطر منصوبة على ارتفاع 48 متراً، وعلى عرض 42 متراً، لكل واحدة من هذه القناطر.

- (تعشيق الحدائد ببعضها وربطها): إن هذه الأعتاب الحاملة للطبقة الأولى من البرج، لم يكن ممكناً مدُّها في الفراغ؛ لأنها ليس لها نقطة ارتكاز، فجعلوا لحملها قبل أن تصلها الأكتاف في مكان الفسقيّة الجميلة الّتي أنشأها سَان ويدال بعد ذلك تحت البرج في النقطة الوسطيّة منه أربعة عمد هرميّة من التخاشيب، ارتفاع كلّ منها 45 متراً، وضعت عليها الأعتاب الكبيرة المقنطرة الّتي ستتصل بها أرجل البرج الأربعة، وبذلك زالت أصعب صعوبات العمل.

ولأجل تطابق نقط ارتكاز الأضلاع الرئيسة مع الأعتاب الأفقيّة من الطبقة الأولى تطابقاً تاماً أنزلوا كمية من الرمل الموجود بالعُلب المُسنِدة للأضلاع الرئيسة المذكورة، فتسبب عن ذلك انحطاط في الاكتاف، به تقاربت تدريجياً من رؤُوس الأعتاب التي كانت ثابتة كما تقدم فوق عُمُد، وبهذا أمكن تطابق القطع المقصود ربطها ببعضها بغاية الضبط، وقد نجح هذا العمل، حتى إن الثقوب المعدة لربط أطراف الأكتاف بالأعتاب البالغ عددها 200 ثقب تطابقت تطابقاً كليًا مع بعضها، بحيث لم يحتج الحال إلى توسيع أدنى ثقب لإجراءِ عمليّة البرشمة.

- (العيّارات): وقد صار رفع الأجزاءِ المعدنيّة إلى ما علا من البرج

لتركيبها بواسطة أربع عيارات صار تثبيتها على الأكتاف، فترتقي بواسطتها القطع الحديديّة على اختلاف حجمها وأثقالها، حتى تصل إلى الصناع المتعلقين في حديد البرج تعلق النواتيّة بحبال السفينة.

وإنَّ منظر هذه العيارات لمنظر عجيب حينما[1] كانت تشتغل برفع هذه الأثقال، فتسير بها ذات اليمين وذات اليسار داخل أطراف البرج وخارجها، حتى تصل بها إلى محلها المعدّ لها بكل إحكام. فلما ارتفع البرج إلى أزيد من 150 متراً استبدلت هذه العيّارات بآلة واحدة رافعة بخاريّة.

وسارت الأعمال على درجة من السرعة والتقدم الغريب، حتى انتهى العمل إلى الطبقة الثانية في مسافة اثني عشر شهراً، وتيسر إيقاد الصواريخ الباروديّة لمناسبة حلول العيد الأهلي في يوم 14 يوليو سنة 1888، على ارتفاع 115 متراً وفاءً بما وعد المسيو إيفل.

- (المُرْقِيَات): يوجد مُرقيات للصعود من الأرض إلى الطبقة الأولى على طريقة (رُو) و (كُمبالُوزْيِيهْ) و (لُوِيَاجْ)، ويُصعَد من الطبقة الأولى إلى الثانية بواسطة مُرْقٍ على طريقة أُوتيس، وضع في الكتف الجنوبي، فَيصْعَدُ من الطبقة الأولى إلى الثانية فقط دون أن يصعد من الأرض.

ويوجد مُرْقٍ آخر على طريقة أُوتِيسْ أيضاً موضوع في الكتف الشمالي، صاعدٌ من الأرض إلى الطبقة الثانية بدون وقوف في الطبقة الأولى، ويَصْعَد مرقٍ على طراز إيدُو من الطبقة الثانية إلى الطبقة العليا تحت القمة، وجميع هذه المراقي تحركها المياه وسنشرحها هي وكيفيّة تَسييرها على قدر الإمكان.

- (مُرْقِي رُو ورفيقيه): إنَّ اختلاف مُرْقِي رُو هذا عن المراقِي الاعتياديّة

---

(1) في الأصل: «حين ما» المحرر.

منحصر في أن المسيو رُوْ ورفيقيهِ عَوّضوا الساق المستقيم المعمول من قطعة واحدة في الْمُرقِيات الاعتياديّة بساق مركب من جملةُ عَقل متعشقة في بعضها من أطرافها تعَشقاً مَفْصليًا، كل عقلة منها تدفع العقلة الّتي فوقها، ويتكَوْنُ من هذه الْعُقَل شبه جنزير حِلَقِي لافٌ من الأسفل على عجلة موضوعة فوق أرض البرج ، ومن الأعلى عَلىٰ بكرةٍ بمحاذاة الطبقة الأولى يدور عليهما كما يدور حبل الساقية، والمركَبَةُ المعدَّة لجلوس الصاعدين والنازلين، مرتبطة في أحد فرعي هذا الجنزير من أحد جوانبها وتتحرك بتحركهِ، ومن الجانب الآخر مرتبطة بجنزير كالأول، فكأن المركبةَ مجذوبةٌ بجنزير مضاعف، وإذا حَصَل قطع في الجنزير تَقِف المركبة مكانها بواسطة حافظ أَعدُّوهُ لذلك.

وتحصل حركة الجنازير بواسطة ضغط مكابسها بالماءِ المخزون في حيضان موضوعة في البرج على ارتفاع 115 متراً.

وسرعة صعود هذا الْمُرقِي ونزوله متر واحد في الثانية، وكل مركَبَة تسع مائة راكب فتصل إلى الطبقة الأولى، أو تنزل منها إلى الأرض في أقل من دقيقة واحدة ليس إلاّ.

– (مُرقِي أُوتِيسْ) هذا الْمُرقِي على الطراز الأميركاني، وقد وضع من أجلهِ أسطوانة من الزهر في كتف البرج مائلة بميل الأضلاع الرئيسة، وفي داخل هذه الأسطوانة يتحرك مِكْبس بواسطة الماءِ المأخوذ من حياض موضوعه في الطبقة الثانية، أعني على ضغط أحد عشر، أو اثنى عشر جَواً، وساق المكبس يدفع شبهَ عربةٍ مثبت بها ست بَكَرَاتٍ متحركة وكل بَكَرة من هذه البكرات يناظرها بكرة ثانية في الطبقة العلويّة المقصود الوصل إليها، قطرها كقطرها، بحيث يتكَّون من مجموع ذلك شبه عيّارٍ

يمر حبلهُ العمومي على بَكَرَاتٍ تحويل موضوعة من مسافة إلى مسافة، لغاية مافوق الطبقة الثانية ثم ينزل ليتعلّق بمركَبَةِ الْمُرْقِي.

ويُنْتُجُ من هذا الترتيب أنهُ كلما تحرك المكبس متراً واحداً في الأسطوانة، ترتفع المركبة أو تنخفض بقدر اثني عشر متراً، والحبال المعلق بها المركبة مصنوعة من سلوك من الصُّلْبِ، عددها ستة، كل واحد منها كافٍ وحدهُ لحمل المركبة وما بها من الركّاب بدون أدنى ضرر عليهِ، وقد وضعوا أيضاً تحت المركبة آلة أَمن ذات فكوك، تمنع بنفسها الخطر بمجرد انقطاع أي حبل أو بمجرد حدوث طول غير اعتيادي في أي حبل من الحبال. ولا تسع هذه المركبة إلاّ خمسين راكباً، لكن يكون سيرها مترين في الثانية، أعني ضعف سير الْمُرْقِي السابق، فتكون نتيجتهما واحدة.

- (مُرْقي إِيْدو) يتركب هذا الْمُرْقِي من مَرْكَبتين مرتبطتين معاً بواسطة حبال، تنقل إحداهما الركابَ من الطبقة الثانية إلى نصف المسافة بينهما وبين الثالثة، وتنقلُهُم الثانية من هذه النقطة المتوسطة إلى النقطة العُليا.

فأما المركبة الأولى، فمحمولة على مِكبسين مائيَّن مرتبطين من طرفهما العلوي ارتباطاً مفصليّاً، في حَمَّالة تحمل المركبة من وسطها، ويخرج من هذه الحمالة ومن نفس المركبة المحمولة عليها أربعة حبال، تمر على بَكَرَات مثبتة في قمة البرج، وتنزل حتى تتصل بالمركبة الثانية، واثنان من هذه الحبال يرتبطان بحمَّالة موضوعة في وسطها المركبة الثانية المذكورة، والحبلان الآخران مثبتان مباشرة في جسم هذه المركبة، ومعدّان للأَمن في حالة حصول ضرر للآخرين.

وهاتان المركبتان ترفع الواحدة منهما 750 شخصاً في الساعة الواحدة،

فإنّ مسطح كلٍّ منهما 14 متراً مربعاً، وتسع الواحدة منهما 63 شخصاً في المرة الواحدة.

ولما كانت كل مركبة لا تقطع سوى نصف المسافة بين الطبقتين الثانية والثالثة استلزم الحال انتقال الركاب من إحداهما إلى الأخرى في منتصف المسافة، ويحصل هذا الانتقال بواسطة طريقين ممتازتين عن بعضهما لعدم الازدحام وضياع الزمن لو كانت الطريق واحدة، ، هذا وتبلغ سرعة الصعود 90 سنتمتراً في الثانية، فيصل الصاعد في مسافة دقيقة ونصف دقيقة إلى المسافة المتوسطة، وفي مثلها منها للطبقة العليا، ويقضي دقيقة واحدة للانتقال من إحداهما إلى الأخرى، فتكون الجملة أربعَ دقائق لأَجل الصعود من الطبقة الثانية إلى الثالثة، أو النزول من هذه إلى الثانية.

ولكلّ من المركبتين آلة أمن قويّة لأجل حفظ الركاب من كل خطر، بحيث لا يخشون شيئاً مهما حصل للمركبة ولو انكسر أي قسم منها.

وترفع المرقيات كلها في الساعة الواحدة 2350 شخصاً إلى الطبقتين الأولى والثانية، و750 شخصاً إلى القمة، ويمكنُ لعشرة آلاف نفس أن يوجدوا في آن واحد على البرج في طبقاتِهِ المختلفة وسلالِهِ ومُرَقِّياتِهِ بدون أن يحصل فيهِ أدنى ازدحام.

– (سلالم البرج): صُنعت سلالم لصعود هذا البرج في كلّ من الكتفين: الشرقي والغربي، عرض كل درجة فيها متر ، ذاتُ بُسَط كثيرة، يُصْعد بواسطتها من الأرض إلى الطبقة الأولى بكل سهولة.

أَما من الطبقة الأولى إلى الطبقة الثانية فقد جعلت سلالم حلزونيّة، أربعة في كل كتف منَ الأكتاف سلم، عرض الدرجة فيه 60 سنتمتر، وقد خُصّص اثنان منها بصعود المتفرجين، واثنان بالنزول.

وتكفي هذه السلالم لأن يمر منها ألفا شخص في الساعة الواحدة صاعدين وهابطين.

– (في الصعود بواسطة السلالم): لا شك أن الصعود بواسطة السلالم أنزهُ وأجمل من الصعود بواسطة الْمُرْقِيات وإن كان أقلّ راحة منهُ لأنّ الرائي يتمكن بواسطتها ويتمتع بمناسبتها من مناظر غاية في العِظم، فكأنما هو طير في قفص من الحديد جميل الصنع، وكأنما ساحة الْشَان دُه مَارْس بما فيها من الأبنية الفاخرة والأماكن المزخرفة، يزداد مجموعها وضوحاً حين يراها صاعداً، فتزداد في عينهِ حلاوة وطُلاوة.

هذا إذا نظر لجهَة الأرض أما إذا نظر إلى العُلُوّ فيرى نفسهُ كأنما هو في سفينة عظيمة الحجم منسوجة من الحديد جميع حبالها وأدواتها منهُ، وكأنما بجانبهِ شريطا سكة حديدية منصوبان على الأرض، ليمر عليهما وابور كبير الحجم، وما هما إلاّ ممر أحد الْمُرْقِيات الّتي سبق الكلام عليها، وهو لا يزال مستمرّاً في الصعود، فيمر على مخازن الطعام وأماكن الطبخ الّتي جُعِلت في الطقة الأولى من البرج، ويصل بعد قليل إلى الطبقة الأولى نفسها، ويشاهد بقرب وصولهِ الانحناءات في الحدائد، وتغيُّر الأشكال، واختلاف الاتجاهات فيها.

ويرى الرائي من هذه الطبقة مدينة باريس الزاهرة، وقباب أَبنيتها الذهبيّة الناضرة، واعتدال شوارعها، وانتظام طرقاتها، وإحكام ميادينها ومتنزهاتها ممّا لا يدخل تحت الوصف، ولا يبلغ مداهُ الإحصاءُ.

والصعود لهذه الطبقة بواسطة السلم في غاية السهولة، لا سيما إذا لم يجهد الإنسان نفسهُ، ومشي الهوينا، متكئاً على الدرابزين الحديد الذي

بجانبِهِ، وعدد درجاتهِ 350، ويلزم لصعودها من سبع دقائق إلى ثمانية ليس إلاَّ.

ومن الطبقة الأولى إلى الثانية يكون في الصعود بعض الصعوبة لازدياد عدد الدرج فيه، ويكون شكل السلم حلزونياً وعدد الدرج فيه 380 يلزم لصعودها نحو عشر دقائق.

ومن الطبقة الثانية إلى القمة يوجد سلم حلزوني أيضاً، ارتفاعهُ 160 متراً، ولكنهُ مختصٌ بخدمة البرج وعمَّالهِ، فلا يصعد فيهِ الأجانب، وعدد درجاتهِ 1062 درجة، فيكون عدد درجات سلم البرج من الأرض إلى القِمة 1792 درجة.

- (نظام الصعود إلى البرج) تفتح أبواب البرج للزائرين كل يوم من الساعة 9 صباحاً إلى الساعة 11 بعد الظهر، إنما لا تُعطي أوراق بعد الساعة العاشرة، ويبتدئ حُراس البرج بدعوة الزائرين للنزول منهُ ومبارحتهُ من الساعة 10 ونصف.

وتُعطى تذاكر الصعود من الأرض إلى كل الطبقات، ومن كل طبقة إلى ما فوقها. ولا يقبل أكثر من مائة شخص في المُرْقيات الَّتي تصعد إلى الطبقة الأولى، ولا أكثر من خمسين في الَّتي تصعد للثانية، ولا أكثر من سبعين في الذي يصعد من الثانية إلى القمة.

والسلالم قد تخصص بعضها بالنزول، وبعضها بالصعود كما مرَّ، وتُغلق الأبواب الموصلة من الطبقة الأولى إلى الثانية من غروب الشمس، أما السُلَّم الذي يصعد بهِ من الثانية إلى القِمَّة فلا تقبل فيهِ الأجانب أصلاً كما مرَّ.

(تعريفة الصعود)			
في أيام الأسبوع العادية	في أيام الأحد والأعياد		
	من الساعة 11 إلى الساعة 6	قبل الساعة 11 وبعد الساعة6 فرنك	
2	1	2	
1	50,0	1	إلى الطبقة الأولى بالْمُرقِي أو بالسلم.
2	50,0	2	- من الطبقة الأولى إلى الثانية بالْمُرقِي أو بالسلم.
فرنك	فرنك	- من الأرض	- من الثانية إلى الثالثة بالْمُرقِي.

فتكون حينئذٍ أجرة الصعود من الأرض إلى القِمَّةِ في أيام الأسبوع خمسة فرنكات، ولا فرق بين الْمُرقِيات والسلام في الأجرة ولا في التذاكر.

وقد جعلت ستة عشر مكتباً تُوَزَّع منها التذاكر، عشرة في الطبقة الأرضيَّة، وأربعة في الطبقة الأولى، واثنان في الثانية.

والأوراق تختلف ألوانها فالتي للطبقة الأولى زرقاء، والَّتي للثانيةِ بيضاءُ، والَّتي للقِمة حمراء، وهي ألوان العلم الفرنساوي المثلثة بحسب ترتيب وضعها فيهِ.

وتسع السلالم والمُرقِيات أن يصعد فيها للبرج خمسة آلاف نسمة في كل ساعة.

- (الطبقة الأولى): تبعد الطبقة الأولى عن سطح الأرض 57 متراً و63 سنتمتر ومسطح أرضيتها 4200 متر مربع وهي مفتوحة من وسطها على

مسطح 900 متر مربع، فيرى الناظر من هذه الفتحة أرض البرج المحصورة بين أكتافهِ الأربعة، ويُطِلُّ على الفسقيّة البديعة الّتي عملها سَانْ ويدال تحتهُ.

وحوالي هذه الطبقة ممشى ذات عقود طولها 383 متراً، وعرضها متران وستون ستتمتراً.

وقد شيد في هذه الطبقة أربعة أماكن أعدت للطعام، يسع الواحد منها من 500 إلى 600 نسمة، جيدة الصنع، بديعة في الإتقان، وَحُسْن الوضع، جُعِل في أحدها محل بَارْ (محل بيرة وأكل) على الطراز الفلامندي، وفي ثانيها محل أكل روسي، وفي ثالثها بار على الطراز الإنجليزي الأميريكاني، وفي رابعها محل أكل فرنساوي.

وقد جُعِلت أماكن الطباخة وتخزين الأنبذة والأشربة اللازمة لهذه المحلات منحطة عنها، ينْزَلُ إليها بنحو عشرين درجة، فهي مرتفعة عن سطح الأرض بنحو خمسين متراً فقط، يُطبخ فيها، ويُستنار بأبخرة المياه والكهرباءِ، فلا يدخلها الغاز؛ لأنهُ لا يستعمل إلاَّ في إنارة محلات الأكل.

وقد نُقِشَت في أعلى محلات هذه الطبقة أسماءُ العلماءِ، وكبار المهندسين الفرنساويين، الّذين اشتهروا في هذا القرن باختراعاتهم ومعلوماتهم، فكأنما هذا البرج صار تشييدهُ تحت حمايتهم، وبعين عنايتهم، إذ لولاهم ولولا اختراعاتهم لما تيسر تشييدُه بهذه الحالة، ولما تُوُصِّل إلى إقامتهِ بهذه الكيفيةِّ.

وعلى هذه الطبقة دعا المسيو إيفل في يوم 4 يوليو 1888 نحو مائة من كبار محرري الجرائد الپاريسيةِّ لتناول الطعام، وكانوا أول من صعد إلى البرج بعد صُنَّاعهِ.

– (الطبقة الثانية): تبعد هذه الطبقة عن سطح الأرض 115 متراً و73

ستمتراً، واتساع كل ضلع من أضلاعها ثلاثون متراً، وإلى هذه الطبقة ، كانت أكتاف البرج الأربعة منفصلة عن بعضها، وهكذا تبقى إلى سقف هذه الطبقة، فحينئذٍ تتصل ببعضها، ويتكوّن منها عمود واحد يصعد من هذه الطبقة إلى القِمةً.

ومسطح هذه الطبقة 1400 متر مربع، القسم الوسطي منها متخصص بالانتقال من الْمُرْقِيات التي تُوَصّل هذه الطبقة بما تحتها إلى الْمُرْقِيات التي توصلها بما فوقها.

وقد صعدنا إليها بالمُرْقِي، وكان الزحام على الصعود شديداً؛ إذ هو لا يتيسر لكل واحد إلاّ بحسب ترتيبه في الحضور، فطالت مدة الانتظار علينا، حتى زادت عن الساعة، إلى أن أتت النوبة لنا، فوصلنا هذه الطبقة، ووجدنا فيها محطة انتقال الصاعدين والهابطين كما مرّ، وفي وسطها محل اتخذتْهُ جريدة الفيجارو الپاريزيّة الشهيرة، وَسمتْهُ باسمها، ووضعت فيهِ ما يلزم من أدوات الطباعة، ومن يُراد من المحررين والكتّاب، وجعلتهُ لإصدار جريدة يوميةً سمتها باسمها (فِيجَارُو)، وخصصتها بأعمال المعرض وعجائبهِ وغرائبه، فكأنها أرادت أن تعرض في هذا المعرض كيفيةً تحرير جريدة وطبعها ونشرها، فوضعت آلة من أحسن الآت الطبع (مارينُوني)، يحركها الغاز، وجعلت نخبة من محرريها يتولّوْنَ أمر التحرير والتسطير، وكثيراً من الجماعين والطبّاعين في هذا المكان الخشبي البديع الإتقان، وجعلت لكل من يزور إدارتها هذه، الحق في أن يكتب اسمُه في دفاتر أعدّتها لهذا، وجعلت على نفسها أَن تطبع هذه الأسماءَ بالتوالي في أعداد هذه الجريدة المخصصة، فكتبنا أسماءَنا، وجعلت لكل زائر فوق هذا أَن يستلم نسخة يومها الذي طبعت فيهِ هي، فاستلمناها بعد دفع ثمنها، وقد طُبع عليها ما يأْتي ترجمتهُ:

«هذه النسخَةُ سُلّمت تذكاراً لزيارة كشك الفيجارو في الطبقة الثانية من برج إيفل على ارتفاع 115 متراً و73 سنتمتراً من سطح أرض شَانْ دُه مَارْس» ثم خَتْم الجريدة، وفيهِ اسم الكشك، والبرج وتاريخ 5 أغسطس سنة 1889.

وقد لخصنا من هذه الجريدة بعض إيضاحات متعلقة بدرجة الحرارة في البرج يوم صدورها، وعدد من صعدوا إلى البرج في اليوم الذي قبله، وعدد من دخلوا المعرض في اليوم المذكور.

- أما درجة الحرارة فكانت في نصف الليل 19 ، وفي الساعة 6 صباحاً 16، وفي وقت الظهر 21، وفي الساعة 3,5 بعد الظهر 23 فوق الصفر.

- وأما عدد من صَعِد إلى البرج فبلغ 12,705 من الأرض إلى الطبقة الأولى، و 2,535 من الأرض إلى الطبقة الثانية و6,921 من الطبقة الأولى إلى الثانية، و 2,234 من الأرض إلى الطبيقة الثانية، و6,921 من الطبقة الأولى إلى الثانية، و4,234 من الطبقة الثانية إلى القمّة.

وبلغ عدد من دخل المعرض من المتفرجين الَّذين يدفعون أجرة على الدخول 212,383 نسمة.

وجريدة الفيجارو الأصليّة من أهم الجرائد الفرنساويةّ شهرةً وانتشاراً، يطبع منها في اليوم 80000 نسخة، يحررها أحسن المحررين، تبلغ مرتباتهم الشهريّة 60000 فرنك، وهي لشركة ذات سهام، كانت قيمة السهم الواحد المدفوعة منها 500 فرنك، أما الآن وقد تقسّم السهم الواحد إلى ثمانية سهام فيساوي الواحد من هذه 1300 فرنك، فصار من دفع 500 فرنك في الأسهم الأولى يمتلك الآن سهاماً في مقابل ذلك قيمتها 12400 فرنك.

هذا وحول كشك الفيجاور المذكور بالبرج ممشى عظيمة، طولها 150 متراً وعرضها متران وستون سنتمتراً، مطلة على ماتُشرِف هذه الطبقةُ عليهِ من الأمكنة والبقاع، فيرى الرائي ما هو فوق التصور من پاريس وآثارها وعماراتها، ويرى نهر السين يقتسم هذه المدينة الباهرة، كأنما هو زنار من الفضة في وَسَط فتاة، ويرى من هذا العلو في ساحات الْشَانْ دُه مَارسْ نقطاً صغيرة سوداء هي العالَم المجتمع في ذلك المكان، ويرى بعد هذا كلهِ ما وراءَ پاريس من الغابات والآكَام مَدّ البصر، وحَدّ النظر، مما يعجز قلم البليغ عن وَصفهِ، ويقصر لسان الفصيح عن رصفهِ.

- (الطبقة الثالثة): ليس للوصول إلى هذه الطبقة غير طريق واحد، هو طريق المرقيات، على أن الراكب فيها يستبدل مُرْقِيَةً بغيرِهِ في وسط المسافة كما مرَّ في ذكر المرقيات.

وهذه الطبقة على ارتفاع 276 متراً و13 سنتمتراً، وهي عبارة عن قاعة متسعة الأطراف، عرض الضلع من أضلاعها 16 متراً و50 سنتمتراً تسع نحو 800 نسمة، ويحيط بها حاجز من البلور؛ ليقي الزائرين من البرد والرياح، وبعدة جهات من تلك القاعة منظارات عاديَّة وفلكيَّة، تختارُ منها ما شئتَ لتنظر ما تريدُ، والفلكية كل واحدة منها موجهة إلى جهة من ضواحي پاريس، وتلك الجهة مُبَيّنة على خريطة موجودة بجانب تلك المنظارة، ومقدارُ ما يراهُ الرائي بحسب حدة البصر وقلتها، وبحسب إتقان المنظارات وإحكامها، وحسن صنعها، ومعرفة استعمالها، وبحسب صحو الجو وقلة ذلك؛ ولهذا قد يرى الرائي إلى تسعين كيلو متراً، وربما مقدار المرئي بالتحري والمعرفة وصفاءِ الجو إلى مائتي كيلومتر.

وإنَّ هذا المنظر لمنظر بهيج يبهر الناظر؛ إذ يرى پاريس وما حولها من

القصور المشيدة، والمباني الجسيمة العديدة، والشوارع والحارات، والميادين والطرقات، والبساتين والمتنزهات، والأشجار المتكاثفة والظلال الوارفة، والأنهار والغدران، والإنسان والحيوان، وكأنها لم تكن شيئاً يذكر، فهذه شوارعها وطرقاتها وميادينها وحارتها على ما فيها من الاتساع كأنها بيوت نحل، أو طرق نمل، وهذه بساتينها ومتنزاهاتها كأنها حشايش لا تتميز ، وهذه سكانها أولو[1] المعرفة والنشاط والحركة، كأنهم نقط سود، أو نمل يذهب ويعود.

فإذا أمعن الإنسان النظر وقارن بين باريس، وهو فيها يجول في شوارعها ونواحيها ممتع الطرف بمتنزهاتها الزاهرة وقصورها الفاخرة، ورأى ساكنيها على ما هم عليه من الإعجاب والخيلاءِ، وبين الحالة الَّتي هي عليها الآن، وهو بهذا المرتفع زاد في العجب والاستغراب.

فلبثنا مليًا باهتين متعجبين مما رأيناه، ثم أخذنا نذكر فضل الإنسان، ونمتدح اجتهادهُ ونشاطهُ حيث بلغابهِ الدرجة القصوى من المعرفة، وحدانا ذلك إلى تمجيد الخالق سجانهُ الذي خلق الإنسان وعَلَّمهُ البيان.

وقد دخل الليل، وآن وقت الانصراف، فقصدنا النزول، وإذا قد وقع نظرنا على صندوق من صناديق البوستة المُعَدَّة لوضع الخطابات، فاشتريت ورقة بوستة، وكتبت فيها السلام لسعادة صهري العزيز الأمير الجليل أحمد باشا السيوفي وأحبابنا بمصر، ووضعتها في هذا الصندوق.

- (القِمَّةُ): ليسَ للزائرين أن يتعدوا الطبقة الثالثة، وهي على ارتفاع 276 متراً وثلاثة عشر سنتمتراً كما مرَّ.

أمّا ما فوقها فقد صار تقسيمهُ إلى عدة قاعات، جعُل بعضها لإجراءِ بعض

(1) في الأصل: «أولوا» المحرر.

تجاربات علميّة وجعُل بعضها مسكناً للمسيو إيڤل، اتخذه لنفسه؛ ليقيم فيه بعض الأحيان.

وهذا الجزءُ العلوي مركب من أربعة عُمُد شبكية التركيب، كالصناديق، وترتبط هذه الْعُمُد مع بعضها من الأَعلى بقواصر، فتحمل فوقها الفنار، ويصل إليه العمال المخصصون بعملية تنويره بواسطة سلم دائر في وسط الْعُمُد المذكورة.

وقد جعلت ثلاثة معامل في هذه الطبقة القِميَّة أولها: خصص بالأرصاد الفلكّية، والثاني: مخصص بالطبيعة والحوادث الجويّة، والثالث: تخصص بدراسة حياة الأجسام العضويَّة، وبدراسة الميكروبات الهوائيةً، ويؤمل العلماءُ في هذه المعامل الحصول على نتائج مهمة.

(الفنار) قوة هذا الفنار الضوئية تعادل قوة أكبر الأضواءِ المجعولة على شواطئِ فرنسا البحرية، وقد اتخذوا الضوءَ الْمُعَد لإنارة أرصفة مدينة (رُوان) حَدًّا للمقارنة في حساب إنشائها، فإن أنوار هذه الجهة موضوع لها ينبوع ضوئي على ارتفاع 13 متراً ، تعادل شدتهُ 24 أَمپيراً، فينير دائرة قطرها 130 متراً.

أما في برج إيڤل فلما كان بُعد الينبوع عن مركز الشكل يعادل عشرة أضعاف البعد في فنار رُوان لزم هنا ينبوع شدتهُ تعادل شدة الينبوع الأول مائة مرة، وحيث إنهم فضلاً عن هذا راعوا تشرُّب الضوء في الجو زادوا الينبوع الضوئي عن ذلك، فجعلوهُ 24125، أعني 3000 أَمپيراً.

ولهذا الحين لم يمكن الحصول من ينبوع ضوئي واحد على أكثر من 90 أَمپيراً في النهاية العظمى، فاستلزم الحال وضع 33 لامبة، كل واحدة منها تعطي تلك النهاية العظمى، فعوضوها بثمانية وأربعين لامبة مختلفة الشدة،

جعلوها حول الينبوع العلوي على ثلاث طبقات، فتنير ثلاث مناطق ذات مركز واحد.

وهذا الفنار ثابت، لكن الصفائح الزجاجيةُ الموضوعة أمام الأنوار متحركة، تدور بواسطة آلة ساعة، وهي زرقاءُ وبيضاءُ وحمراءُ على مثال العلم الفرنساوي.

ولا يمكن رؤية هذا الفنار من ميدان شَانْ دُه مارسْ، ولا يراهُ إلاَّ من يبتعد عنهُ بنحو 1500 متر، فَيُرَى من ميدان الكونكورد مثلاً.

وقد لزم لإيجاد هذه الأضواءِ آلة قوتها 500 حصان، فأُوجدت مع الماكينات الَّتي استلزمتها الْمُرْقِيات تحت أحد الأكتاف.

– (قاذِفات الضوء): قد وضعت آلتان قاذفتان للضوءِ عظيمتان في الشدة، بهما يتيسر قذف حُزم ضوئيَّة على مباني باريس الأثريَّة مدة الليل، وهما غير الفنار، وهو يطوف بأنوارهِ الثلاثيَّة في نقط مختلفة حول باريس على سطح دائرة نصف قطرها سبعون كيلو متراً.

وهاتان القاذفتان كهربائيتان، لا يقل قطرهما عن تسعين سنتمتراً، وهما موضوعاتان على ارتفاع 290 متراً، وتصل أشعتهما في الليالي الصحوة إلى بُعْدِ عشرة كيلو مترات تقريباً. وهما من نوع الأجهزة المستعملة في مدرعات الدونتمة الفرنساويَّة، ومجموع شدة أشعتهما الضوئيَّة تعادل 16 مليوناً من فوهة كارْسِلْ. وتُوَجَّهُ أنوار هاتين القاذفتين إلى النقط المرتفعة من باريس وضواحيها بمعرفة عُمَّال كهربائيين، يشتغلون مدة النهار بتنظيف الآلات، ومدة الليل بهذا العمل.

– (العَلَمْ): فوق قبة الفنار سطح صغير قطرهُ متر وأربعون سنتمتراً، يحيط بهِ داربزين من حديد، يُصْعد إليهِ بواسطة سُلَّم يمر من داخل الفنار في ماسورة

قطرها ثمانون سنتمتراً، تشابه مداخن السفن البحريةً، ولا يتيسر الصعود منهُ إلاَّ لشخص واحد، وقد جعل من الداخل لقصد عدم الإضرار بأشعة الفنار، وعدم حجبها عن جهة ما من سائر الجهات.

وهذا السطح الصغير واقع على ارتفاع 300 متر من الأرض، وقد خصص بمقاييس الهواء (أنيمُومِتْر) ولآلات الأرصاد الجويَّة الَّتي تستدعي عزْلة تامة، وقد ثُبِتَ في وسط هذا السطح عمود من الخشب يحمل العلم الفرنساوي الذي طوله ثمانية أمتار، وعرضهُ ستة.

وفي يوم الأحد 31 مارس سنة 1889 رُفِعَ على هذا السطح العلم الفرنساوي بمعرفة المسيو إيفل، إشارة إلى انتهاءِ الأعمال، وإتمامها، فقابلتهُ بالترحيب، أصوات المدافع الَّتي وضعت لهذا الغرض على الطبقة الثالثة من البرج، وهو لا يزال مرفوعاً في هذا المحل.

- (مانِعةَ الصواعق) هَنَأت أكاديمية العلوم بباريس المسيو إيفل عند تمام البرج على النتائج الحسنة الَّتي استحصل عليها، وعلى عدم لزوم وضع مانعة للصواعق عليهِ، لأن وضعها ربما كان من مُوجبات تعطيل التجارب العلميةً الَّتي يُرام إجراؤُها في أعلى البرج، وذلك لأن البرج، في حد ذاته، عبارة عن مانعة صواعق جسيمة تحمي مسافة كبيرة حولها، فإن أجزاءَ البرج المعدنية متصلة بالطبقة المائية الَّتي تحت الأرض بواسطة الموصّلات الخصوصيةً الَّتي نُظِمَت في طول كل كتف من أرجل البرج، وبهذه الاحتياطات يكون داخل البرج ومن فيهِ من الأشخاص في أمن تام من الصواعق وأخطارها.

(خشية العواصف في البرج): قد اشتغل مشاهير العلماءِ بمسألة ما عسى أن يحصل في البرج من الحركة لعظم ارتفاعهِ عند حصول العواصف، فقرروا

بعد البحث والتدقيق أن أعظم حركة يحتمل حصولها في القمة، لاتتجاوز عشر سنتمترات مهما بلغت شدة العواصف، بحيث لووُجد زائر في قمة البرج وقت حصول هذهُ العواصف لما شعر بهذه الحركة.

– (أعالي مباني الدنيا) : قد علمتَ أن ارتفاع برج إيفل 300 متر، فنذكر ما عداه من أعلى مباني الدنيا ليُعلم أنهُ أعلى منها جميعاً، وها هي:

متر:

66 قبة كنسية نُوتِرْدام في باريس.

83 قبة بانْثِيوم باريس.

105 قبة دار العواجز العسكريين بباريس.

132 قبة كنيسة القدّيس بطرس برومه.

142 كنيسة ستراسبورغ الكاتدرائيّة.

146 الهرم الأكبر بمصر.

159 كنيسة كُولُونْيا الكاتدرائيّة.

049 باب نصر الكوكب (إيتوال) بباريس.

150 كنيسة رُوَانْ الكاتدرائيّة.

والأثر الذي أقيم بفيلادِلْفِيا تخليداً لذكر واشنْطُونْ وارتفاعهُ 169 متراً و35 سنتمتراً كان أكبر الآثار ارتفاعاً قبل برج إيفل، على ما كان في بنائهِ من الصعوبات، وذلك أنه كان الأصل في العزم سنة 1848 أن يشاد هرم ارتفاعهُ 600 قدم (183 متراً) فلما وصلوا في ارتفاعهِ سنة 1854 إلى 46 متراً رَأَوْا أنهُ مال فتخوفوا من ذلك، وأوقفوا العمل، ولم يعودوا إليه إلاّ في سنة 1877 مضطرين مع ذلك إلى تخفيض ارتفاعهِ، وجعلهِ 169 متراً فقط إيثاراً لمتانتهِ، وتفادياً من سحق الأحجار التحتيَّة وتفتتها من الأثقال

الّتي فوقها، وأخذوا من ذلك الحين يبنون 30 متراً في السنة حتى تم الهرم في 21 فبراير سنة 1885، وبلغت مصاريفهُ سبعة ملايين فرنك ومائة ألف فرنك.

- (عُمّال البرج): لم يكن عدد العُمّال الّذين شيّدوا هذا البرج كثيراً، وهذه حالة تستلفت النظر في مثل هذا العمل العظيم، حيث لم تُجمع لهُ جموع كثيرة كما كان يُظَنّ، ولم يكن للعمال فيهِ جلبة وضوضاءُ بل الحديد نفسهُ لم يسمع صوتهُ المعلوم، وما السبب في ذلك إلاّ أن قِطَعَ الحديد كانت تُجْلَبُ تامة الصنعة من معمل المسيو إيفل ببلد (لُوڤَالْوَا پيّريْه)، عليها نمرة يُعْلَم منها المحل الذي تُوضع فيهِ، فيحكم وضعها على سابقتها بكل سهولة من غير أن يُحتاج فيها إلى إحداث ثقب للبرشمة، ولا إلى إحضار آلات للتوسيع والتعديل، وكان مائتا عامل كافين كل الكفاية لعمل التركيب، بل كان في بعض الأوقات لا يلزم للعمل أكثر من مائة وخمسين عاملاً.

وكانت أجرة العامل الواحد في الساعة الواحدة 80 سنتيماً لغاية 31 أكتوبر سنة 1888، ثم حصلت زيادة 5 سنتيمات في أول سبتمبر سنة 1888، ثم خمسة أُخرى من أول أكتوبر التالي لهُ، ثم خمسة ثالثة من أول نوفمبر، كل هذه الزيادات عموميّة، ثم خمسة سنتيمات زيادة خصوصيّة للعمال المشتغلين بالمحلات العالية.

ومما ينبغي التنبيه عليهِ أن كثيراً من العمال المشتغلين بتركيب هذا البرج، لم يصعدوا صعوداً تامًّا من الأرض إلى القمة يوم الافتتاح بعد تمام البرج خلف المدعوين الرسميين، وذلك لأن هؤلاءِ كانوا مشتغلين إمّا في الطبقة الأولى، أو في الثانية في المحطات والمخازن الّتي كانت مقامة فيهما بصعود الحدائد وتشغيل العيّارات في توصيلها (وكانت تبلغ زنة بعضها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف طونولاطه) من محل وجودها إلى إحدى هاتين الطبقتين، أو إلى

القمة، وكانت المسافة الَّتي تلزم إلى إرقاءِ قطعة من الحديد إلى ارتفاع 220 متراً ثلاثة أرباع ساعة.

وقد جعل المسيو إيفل في الطبقة الثانية على مقربة من المحل الذي بهِ الآن مكتب الفيجارو قاعةً متسعة للأكل، عهَّد بهِ أحد المتعهدين، واشترط عليهِ أن يبيع لِلْعَمَلَة الأكلِ اللازم لِغذائهم وقت الظهر، بنصف الأثمان الَّتي يُباع بها الأكل في محلات الطعام المجاورة لمحل تشييد البرج، في مقابلة قيامهِ لهذا المتعهد بوقود الطعام، وبمبلغ 60 سنتيماً عن كل أكلة يأكلها العامل، وقَصَد بذلك المسيو إيفل توفير النصف للعمال في مصاريفهم كما رأيتَ، وتوفير أتعاب الصعود والهبوط إلى الأكل، ومنهُ مما كان يضيع الوقت سدًى، ويورثهم تعباً ومشقة، فضلاً عن تأخر العمل في هذه المسافة الذي ربما يعوق إتمامهُ في أوانهِ.

والعمَّال الَّذين كانوا مُعَرَّضين للمتاعب أكثر من غيرهم هم النقاشون والمبرشمون لِقِطَعِ الحدائد ببعضها حال التركيب، فإنهم كانوا يتعلّقون في الهواءِ مرتكزين على شِبَاكٍ رفيعة من الحديد بينهم وبين الأرض العدد الكثير من الأمتار، وكلما تقدم العمل زاد الارتفاع، فالنقاشون لطِلاءِ البوية وجهاً بعد وجه، والمبرشمون لبرشمة الحدائد ببعضها بإدخال مسمار كبير مُحَمًّى بالنار إلى الدرجة البيضاءِ في ثقب الحديدتين المراد جمعهما، فكان هؤُلاءِ عرضة لتقلبات الجو والهواءِ، واختلاف الأنواءِ وتساقط الأمطار وشدة البرد، وسائر الأخطار، حتى إن درجة البرد عندهم في الشتاءِ وصلت إلى ثمان درجات، وإلى عشرة تحت الصفر في بعض الأحيان.

ولكنهم كانوا العدد القليل من عشرين إلى ثلاثين، وكلهم من الأمناءِ لمعامل إيفل، ومن المتعودين على المتاعب والمصاعب، ومن المجربين

كل التجارب، فكانوا معهُ في الأعمال الجسيمة الّتي قام بها إلى الآن سواءٌ كانت في القناطر والهواءِ أو تحت الأرض أو الماءِ.

وكان بجوار الواحد منهم مع هذا تنور يتنقل معهُ أينما كان ممتلئٌ ناراً تتلظى، يُدَفِّئهُ، ويستعملهُ في إحماءِ مسامير البرشمة.

- (لماذا استعمل الحديد): ليست فكرة تشييد برج عظيم الارتفاع جديدة، بل سبق أن المهندس الإنجليزي تريفيتيك صمم أن يبني بناءً ارتفاعه ألف قدم (304 أمتار و80 سنتمتر)، وكذلك الأمريكانيون كثيراً ما سنح بفكرهم مثل هذا المشروع، ولكن الذي يميز برج سنة 1889 هذا عما سواهُ من جميع ما صُمم عليهِ أو تُفكر فيهِ، هو تشييدهُ من الحديد دون سائر المواد، وتركيبهُ بطرق خاصة بالمسيو إيفل نفسهِ، ومن ابتكاراتهِ.

فقد ألَّفهُ من شَبَكَات من الحديد ذات مقاومة عظيمة مع المرونة والخفة، متصلة بعضها بواسطة قطع من الحديد مبرشمة بالحديد، وهذا الذي أكسب البرج الشكل الهوائي الشبيه بالدنتيلة المصنوعةِ من الحديد، فهو غاية في اللطف، نهاية في الظرافة والملاحة، كما اعترف بهِ كل من رآهُ، ومنهم المعارضون في هذا المشروع الّذين تصدُّوا إلى الممانعة فيهِ قبل وجودهِ.

واستعمال الحديد دون غيرهِ في هذا العمل الخطير لعدة أسباب، منها: أن استعمال البناءِ بالحجر في الآثار العظيمة قد أبلغهُ منتهاهُ أهل الأعصر القديمة والقرون الوسطى والأزمان المتأخرة، فلم يكن في الإمكان سبيل للإبداع فيهِ أكثرَ مما أَتى بهِ القدماءُ، ومنها أن درجة تحمل الحجر للأهوية أقل بكثير من درجة تحمل الحديد.

أما الحديد فبعكس الحجر في كل ذلك من شدة المقاومة، ومن صِغَرِ حجم السطح المعرض منه للهواءِ، ومن مرونتهِ الّتي تجعل جميع أجسامهِ

المرتبطة مع بعضها كجسم واحد صُنِع من قطعة واحدة.

مع أن الحديد فيهِ مزية أخرى ليست في الحجر، وهو أنهُ قابل للنقل إلى أي مكان، فيمكن نقل هذا البرج من مكانهِ الذي هو فيهِ الآن إلى أي محل يراد نقلهُ إليهِ، وقد قرر لنقله المسيو إيفل لو أريد ذلك من 600,000 إلى 700,000 فرنك.

– (زِنَةُ البرج) زنتهُ مع جميع لوازمهِ وملحقاتهِ وسقوفهِ وأدواتهِ صار تقديرها بتسعة ملايين كيلوجرام. وهذا الحمل العظيم موزع على مسطح من الأساس لا يتجاوز الضغط الواقع منهُ عليهِ كيلوجرامين على كل وَحْدة سطحية. وإنّ ثقل الحدائد الّتي استعلمت فيهِ وحدها سبعة ملايين كيلوجرام، وثقل مسامير البرشمة الّتي استعلمت لربط الحدائد ببعضها يقرب من 450,000 كيلو جرام، وعددها 2,500,000 قطعة، منها 800,000 برشمت في البرج نفسهِ حال تشييدهِ.

وعدد القطع المعدنية المتقاطعة مع بعضها في جميع الاتجاهات 12,000 قطعة، وكل واحدة منها بالنظر لشكلها أو لاتجاهها في الفضاءِ استلزمت رسماً خصوصيًا، وجميع هذه الرسومات بأشكالها صار حسابها باللوغاريتم بدرجة ضبط لا يكون فيها فرق بعُشر مِلّيمتر، وذلك في مكتب معامل المسيو إيفل ببلدة لوفالْوابِيرِيَة، حتى صارت أوراق الرسوم بانضمامها على بعضها كجبل من الأوراق المرسومة، ولا غَرْوَ أن أنتجت جبلاً شامخاً من الحديد، وقد أجمعت التقارير الرسميّة على أن البرج تم بدون غلطة واحدة، ولا حصول خطأ واحد في حسابهِ.

– (تاريخ البرج): لما عرض المسيو إيفل فكرة إيجاد هذا الأثَر الخطير على الحكومة تلقاها المسيو لُوكْرُوَاهْ وزير التجارة إذ ذاك بكل قبول، وشجَّعهُ

كل التشجيع، وتكلمت بها الجرائد، فاشتغل بها الرأي العام، واستحسنها وساعدها كل المساعدة، وصدّق عليها كل التّصديق، حتى إن الحكومة لما أعلنت بالمكافأة لمن يأتي بأحسن رسم لمعرض سنة 1889 في الأجل الذي ضربتهُ، وبالشروط الّتي وضعتها، جعلت من ضمن ذلك إيجاد برج فيهِ ارتفاعهُ ثلثمائة متر، فاعتبِر هذا بمثابة قبولها مبدئيّاً إيجادَ هذا البرج، واضطر جميع من اشتغلوا بعمل رسومات للمعرض، وتعرّضوا لنوال المكافأة، أن يجعلوهُ في رسوماتهم الّتي قدّموها.

وإنما حصلت لهذه الفكرة معارضة واحدة أقامها في طريقها جماعة من مشاهير الشعراءِ والرسّامين والمهندسين والعلماءِ، بكتابة إلى المسيو ألفَانْ، رئيس أعمال المعرض، قالوا فيها: «إن هذا البرج سيكون جِزْياً لباريس، وعاراً عليها»، «وإن هذه المدخنة تمحق بهيئتها الوحشية وقبح شكلها جميع مباني باريس الأثرية، فَتُصَيّرها صغيرة بجانبها، وتضيع بذلك بهجتها، وتذهب بنضارتها، ويستطيل على هذه المدينة الّتي تولّى أعمالَها وشيد أبنيَتها وأقام آثارها أذكياءُ القرون الماضية والحاضرة ظلٌّ هذا العمود الحديدي الكئيب، كقطعة من الحبر سوداء».

فكتب المسيو لُوكْرُوَاهْ إلى المسيو ألفان كتابة في رد هذا الاعتراض، وقد ظن نفسهُ المقصود بالذات منهُ لمساعدتهِ في هذا المشروع، وجعلهِ الحكومة تمديد المساعدة فيهِ بمليون ونصف مليون من الفرنكات، وبعد أن قال فيها: إن باريس لا تخاف شيئاً، ولا يخشى عليها أصلاً من هذا المشروع، قال ما ترجمتهُ: «وإنما كانت تصح هذه المعارضة لو تقدم وقتها عن هذا المشروع، وجاءَت في أوانها، فإنهُ كان ينجو بها من الدمار، ويسلم بها من الخراب تلك الأرض الواسعة والبقعة المرملة الشاسعة المعروفة بالشّانْ دُه مَارسْ الجديره»

بأن يحمي حماها الشعراء، وأن تستمد من قفرها أذهان المصورين الفضلاء»
واستمر على هذا النمط من الاستهزاء إلى أن ترجّى المسيو ألفان أن يُحافَظَ على هذه المعارضة: «فإنها جديرة بأن تُعرض في أحسن محال المعرض، وهي لا شك في أنها تستجلب أنظار عموم الناس فيهِ حتى ربما أدّتهم إلى الاستعجاب والاستغراب».

أما المسيو إيفل فلم يوقفهُ شيءٌ من هذه المعارضات والمناضلات، بل استمر في عملهِ مواظباً عليهِ مجدًا فيهِ مهتمًا في إتمامهِ، عاملاً على إنجازهِ في ميعادهِ المحدود حتى نال متمناهُ، ووصل إلى أقصى مناهُ.

– (مصاريف البرج): صُرِف على البرج حتى تم ستة ملايين ونصف مليون من الفرنكات على حسب البيان الآتي:

فرنك	
900,000	في الأساسات وأبنية ما تحت الأكتاف.
3,800,000	تركيب البرج وأثمان الحدائد ورسوم الدخوليّة الّتي دفعت عليها.
200,000	طلاءُ البرج بالبوية أربع مرات، اثنان منها بالمِنْيُوم (زُنْجفر).
1,200,000	المُرْقيات والماكينات.
400,000	محلات الأكل وقاعاتهُ وزخرفة الطبقات الثلاثة وغير ذلك.
6,500,000	

ولم يلتزم المسيو إيفل التقديرات الّتي قدَّرها باديَ بدءٍ كل الالتزام، بل كان يغير منها كلما دلتهُ الأعمال على ما هو أحسن منهُ، وكلما رأى لزومهُ فزاد مثلاً نحو 600 طونولاطه من الحديد على ما كان قدرهُ أولاً في قسم البرج

الذي بين الأساس والطبقة الأولى، وصرف في المُرْقِيات زيادة على ما قُدِّرَ لها أولاً 600,000 فرنك.

وقد دفعت الحكومة من مبلغ الستة الملايين ونصفِ مليوناً ونصفاً، وتبرعت مدينة باريس بالأرض اللازمة لتشييد البرج، ولكن كل ذلك على شرط أن تكون للحكومة مِلكيَّة البرج بعد مضي عشرين سنة من يوم انفضاض المعرض.

أما من وقت افتتاح المعرض إلى تمام العشرين سنة فالبرج تستغلّهُ شركة ماليّة تسمت بشركة برج إيفل، ألَّفها المسيو إيفل من بيتين أو ثلاثة من البيوت الماليّة الكبيرة، رأس ما لها خمسة ملايين ومائة ألف فرنك، بدون اكتتاب عمومي، وتقسَّمت سهام هذه الشركة إلى قسمين متساويين: أُعطي قسم منها إلى المسيو إيفل في مقابلة فكرتهِ وعملهِ، ووُزِّع القسم الثاني على الشركاءِ الَّذين نقدوا الملايين.

ويؤكدون أن إيرادات السنة الأولى (سنة المعرض) كفت بعد المصاريف لأداءِ رأس المال المدفوع بتمامهِ، إن لم تزد عنهُ فيكون استغلال البرج مدة العشرين سنة ربحاً صافياً يقتسمهُ إيفل وشركاؤهُ.

- **(فائدة البرج ومنفعتهُ)**: برج إيفل بكيفيتهِ هذه الَّتي شُيِّد بها سيكون نموذجاً تُشاد على مثالهِ أعمال كثيرة نافعة، وأشياءُ خطيرة مهمة، كالقناطر والفنارات، بعد أن كان مهرة المهندسين إلى اليوم لا يجسرون عليها مخافة عدم النجاح. أما الآن وقد نجح هذا العمل فسيتبع السير فيهِ العاملون، ويقتفي أثرهُ الفاهمون، فهو لهذا مقدمة إصلاحات جمة، وتغييرات في عالم الاستقبال مهمة.

ولم يقتصر نفعهُ مع هذا على ذلك، بل ريثما تمَّ تجاري العلماءُ وتسابق الفضلاءُ إلى اختيار ذروتهِ العالية وقمتهِ السامية، معامل لأبحاثهم ومجامع لتجاربهم واختباراتهم، ومراصد تعود على النوع البشري بأَحسن الفوائد وأجل العوائد.

فهذه الأرصاد الفلكية قد جعل من أجلها في قمة البرج، نظارة معظمة هائلة يتمكن بها علماءُ الفلك من رصد الكواكب، هذا فضلاً عن أن نقاءَ الهواءِ في هذا الارتفاع وصفاءَ الجو من الضباب فيهِ (وكان يكثر في جهات الرصدخانة الپاريسية) يتيسر بهما من الآن إجراءُ ملاحظات فلكيَّة، كانت تستحيل قبل هذا البرج في مدينة پاريس.

وهذه الأرصاد العلميَّة كانت تحصل قبل الآن في داخل زوارق معلقة في القباب الطيارة (البالون) على ما فيها من عدم الثبات والدوران مع الأَهوية والرياح، فصَارت تحصل الآن في قمة هذا البرج الثابتة على ارتفاع 300 متر، حيث لا يعتري من يجري التجارب والأرصَاد فيها أدنى اهتزاز، ولا أقل اضطراب، وصار يمكن بهذه الواسطة تكملة التجارب المبتدأة من عهد بعيد بغاية الضبط والإحكام، مثل ما يتعلق بسقوط الأَجسَام في الهواءِ، ومقاومة الهواءِ، وقوانين المُرونة، ودراسة تركيب الغازات والأبخرة ودراسة ذبذبات البندول، ودوران الأرض إلى غير ذلك.

وهذه الأرصَاد المتعلقة بالحوادث الجويَّة (الميتربُولُوجِيَّة) يمكن الوصول إلى معرفة نواميسها، والوقوف على حقائقها بحالة تؤدي إلى استنتاجات نافعة، مثل معرفة اتجاه التيَّارات الجويَّة، وشدتها، ومثل حالة الجو وتركيبهِ الكيماوي، وتكهرب الجوّ والتيارات العليا، والصواعق، ومثل درجة الحرارة في ارتفاعات البرج المتفاوتة، وفي الساعات المختلفة من

النهار، ومثل درجة جفاف الجو إلى غير ذلك.

وهذه الأرصاد الحربيّة يستعمل فيها البرج في حالة الضرورة والحرب لملاحظة سير جيش العدو وحركاتهِ على مسافة سبعين كيلومتراً بعد استحكامات پاريس، ولاستمرار المواصلات بين پاريس والأقاليم الفرنساويّة بواسطة الأنوار الكهربائيّة الّتي فيهِ، واستعمالها بطرقها المعهودَة.

هذا فضلاً عما سيظهرهُ الاستقبال من فوائد هذا العمل العظيم ومنافعهِ غير الّتي ظهرت إلى الآن، على أنهُ لو اقتصر نفعهُ على إثبات فضل واضعيهِ وتقدمهم في العلوم والمعارف لهذه الدرجة الّتي شهد بها الجميع لكفاهُ ذلك شرفاً، ولكفاهم هذا فخراً ومجداً.

ويكفي هذا اليوم الثالث في زيارة المعرض اختتامهُ بهذا الأثر الباهر والعمل العظيم الفاخر.

وموعدنا في زيارة باقي المعرض اليوم الثاني عشر من مُقامنا في پاريس، وسيكون الرابع في المعرض كما سيأتي عليك إن شاءَ الله.

* * *

(خامس يوم في باريس)

رأى سيدي الوالد أن يزور بعض مدارس الزراعة، وبعض المدارس الأخرى بفرنسا، لمعرفة كيفيَّة الجاري بها، فاتفقنا مع مُوجيل بيك ناظر الإرساليَّة المصريَّة هنا على أن يكون دليلنا في هذه الزيارات، وإن كنا نعلم أنّ الوقت وقت بطالة وفسحة، لا وقت تدريس، وأن التلامذة غير موجودين والمعلمين أيضاً، ولكن حيث إن مدة البطالة المذكورة لا تنقضي قبل مبارحتنا باريس وفرنسا، رأينا الاكتفاء برؤية ما يمكن من أماكنِ التعليم، فإن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ، فتقابلنا اليوم (يوم الثلاثاءِ 6 أُغسطس سنة 1889) بناءً على سابق الاتفاق مع موجيل بيك بمحطة مُونبَارْنَاس، وقمنا منها، والساعة سبعة إفرنكي صباحاً، قاصدين مدرسة جِرِنْيُونْ الزراعيَّة فوصلنا محطة جِرِنْيُونْ بعد سفرنا بساعة ونصف، وركبنا عربة نحو عشرين دقيقة حتى صرنا في المدرسة، فاستقبلنا بها أحد المستخدمين الذي عليهِ النوبة في ملاحظة المحل والمواشي والزراعات مدة البطالة، وأخذ يُفَرِّجنا بكل إكرام على محال المدرسة وما يتبعها.

والغرض من هذه المدرسة تعليم الشبان الذين يريدون تعاطي الزراعة، ما يلزم من المعلومات العلميَّة والعمليَّة الضروريَّة لاستغلال الأرض، حتى يكونوا على خبرة في الصناعة الزراعيَّة وشرائطها ولوازمها، فيقدروا على انتخاب أصلح الطرق واستعمالها لما لهم من الإلمام التام بجميع أُصول هذه الصناعة، فضلاً عن معرفتهم فن التدبير فيها، فينتفعون في أعمالهم الزراعيَّة الخصوصيَّة، وينفعون في التدريس، وفي البحث والتنقيب عن

المفيد النافع في المسائل المشتغل بها في الأمور الزراعيّة.

ولذلك كان التعليم في هذه المدرسة علميًا وعمليًا، فيكون التعليم ابتداءً بإلقاءِ المسائل على التلامذة شفاهاً على وجهها العلمي، ثم ينتقل المعلم والمتعلمون إلى قاعة فيها من الآلات والأدوات ما يزيد في إفصاح المسائل العلميّة الّتي تلقّوْها شفاهاً، ثم تنتقل التلامذة بعد هذا مع معلميهم إلى الغيطان والحدائق النباتيّة، ومحال زروع الخضروات والفواكه، وإلى محل تربية الأبقار والثيران والمعَز والخيول، بحيث تتمرن التلامذة بالتدريج على جميع الأعمال، من العلم إلى العمل بالآلات، إلى الحرث في الغيطان والبساتين، ومباشرة أعمال السّماد.

ومدة الدّراسة سنتان ونصف، تتعلم فيها التلامذة الزراعة علماً وعملاً، وما يتعلق بذلك من علم طبائع الحيوانات، وعلم الكيمياء والمعادن وطبقات الأرض، والنبات وفن غرس الغابات، وفن زرع الكروم، وقوانين الزراعة، وعلم الألبان، وكيفية اصطناعها، والتدبير الزراعي وغير ذلك.

وتنقسم التلامذة إلى داخليّة وخارجيّة، يُمْتَحنون في أوقات مخصوصة، ويستحصلون عند انتهاءِ الدراسة على شهادات دراسية، وإلى تلامذة لا يمتحنون ولا يأخذون شهادة وإنما يتعلمون ليس إلاّ.

فتفرجنا على محال التدريس، وهي عبارة عن مدرّجات متّسعة، وبجانبها محالٌ بعضها للآلات الزراعيّة، وبعضها للأدوات العلميّة الّتي لها تعلق بها، فالزراعيّة منها في محلات غاية في الاتّساع، محتوية على جميع الآلات المستعملة قديماً وحديثاً، ففيها محاريثُ على شكل الّتي كانت تستعملها الأقدمون، ومحاريثُ على أشكال متنوعة، يُستَدل منها على كيفية ترقي

المحراث إلى أن وصل إلى الحالة الَّتي هو عليها الآن، وهكذا بالنسبة لسائر الآلات اللازمة للزراعة، مثل آلات الحصاد والدراس والغربلة، وكذا الأدوات العلميَّة مثل المتعلقة بالطبيعة والكيمياءِ وغيرهما، في محلات أُخرى مستوفاة للغاية.

ويحيط بالمدرسة أرض متَّسعة، ربما تبلغ نحو ألف فدان، أغلبها محاط بسور، بعضها غابة، وباقيها مزروع بسائر أَنواع المزروعات والأشجار بأَصنافها، وسائر أنواعها معتادة عندهم وغير معتادة، فالمعتادة مزروعة في الغيطان المكشوفة، وغير المعتادة مزروعة في عنابر زراعيَّة، وهي محالٌ مغطاة لها حرارة مخصوصة بواسطة تسخينها بالنار.

وقد جعلت أَشجار الفاكهة في هذه الحدائق على سائر الأشكال، فلعبت بها يد الإنسان، وشكَّلتها على أي شكل أراد، حتى ترى أَشجار الكمثرى والتفاح وغيرها مسطحة تغطي بعض الجدران، أو تنتشر على بعض السياج المتخذة من الخشب، فتكسوها بعروشها مثل ما تعمل النباتات الزاحفة كاللبلاب والعنب واللوف.

وبالمدرسة محلات لتربية الأبقار والثيران والمعز والدجاج وكثير من الحيوانات ومحلات تصنع فيها الألبان، فتصير جُبُناً بسائر أشكال الجُبن المعهودَة وغير المعهودة مختلفاً طعمهُ وألوانهُ.

وبها محل لعمل السَّماد يضرب بهِ المثل في الكتب العلميَّة الزراعيَّة. وهذه المدرسة إحدى مدارس ثلاث من نوع واحد، والأُخريان إحداهما بمدينة مُونپلْيِيه، وثانيتهما ببلدة جَرانجْوانْ.

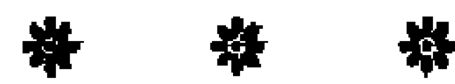
وأَقل من هؤلاءِ درجة في التعليم، المدارس الزراعيَّة العلميَّة بالمديريات

وغيرها، المعروفة بالمزارع المثاليّة (فِرْمْ مُوديلْ) وعدد هذه 34.

ويكل مديريّة ما عدا ذلك أستاذ زراعي تحت أمر المدير يَسْتَعْلم منهُ تارةً عما يرى لزوم الاستعلام عنهُ، وينشر أفادَتهُ على أهالي المديريّة لاستفادتهم بنصائحهِ المتعلقة بأمر يُهمهم عموماً، ويطلب منهُ تارةً أن يتوجه إلى جهات مَعلومَة من المديريَّة ليفتش فيها على المزروعَات وكيفياتها وحالاتها، ويقدم لهُ عما يراهُ تقريراً، ويكلفهُ أحياناً بالتوجه لجهات معلومة وإلقاءِ خطب زراعيّة فيها على مواد يخصصها لهُ بحسب الظروف ومقتضيات الأَحوال.

وفوق ذلك كلهِ المجمع الزراعي (أَنسِتيتُو أَجْرُونُومِيكْ) الذي مركزهُ مدينة باريس.

وبعد أَن أتممنا التفرج عدنا إلى بلدة جرنيون، فتغذَّينا بها، واسترحنا من مشاق السير، ثم رجعنا إلى باريس.



(سادس يوم في باريس)

كان هذا اليوم يوم عيد الأضحى السعيد (7 أغسطس سنة 1889)، فأدَّينا صلاة العيد، وأردفها سيدي الوالد العزيز بكتابة تلغراف أرسلهُ إلى الأعتاب الخديويَّة، قياماً بواجب التعييد، فصدر الأَمر العالي الخديوي بإرسال ردهِ في يومهِ تفضُّلاً منهُ وكرماً من لدنهُ، وقد وصَلَنا بعد بضع[1] سَاعَات بإمضاءِ سعادة سر تشريفاتي خديوي بما ترجمتهُ.

«لسعادة فكري باشا بباريس

«عرضت تلغرافكم للأعتاب الخديويَّة، وسموّ مولانا الخديوي متشكر لكم رشدي»

مع أَن إدارة التلغراف تحرَّت محل وجود سيدي الوالد، فسأَلت عنهُ من السفارة العثمانية، وهذه دلَّتها على رئيس الإرساليَّة المصريَّة، فدلَّها على الفندق الذي نحن بهِ كما علمنا ذلك من التأشيرات الَّتي صار توقيعها على ظرف التلغراف.

وقد أَمَّنا في الصلاة حضرة رفيقنا الشيخ حمزة فتح الله، وخطب خطبة مناسبة للمقام، ثم بعث إلى سعادة ثابت باشا رئيس الديوان الخديوي محرراً بالتعييد، ويذكر الصلاَة، فكتبَ سيدي الوالد حاشية على ما حرر نَسَختُ صُورتها ونصها.

«حضرتُ الشيخ عند إنهاءِ كتابتهِ، فأَحببتُ الاقتداءَ بإمامتهِ في عواطر التحيات أُهديها، وشكوى لواعج الأشواق أُبديها، فكان في الحلبة الودادية

(1) في الأصل «بعض» المحرر.

مُجَلِّياً وكنت خلفهُ بين الجماعة مصليًا، كما أني صليت معهُ العيد مأموماً، وثنّينا بعدهُ بالدعاءِ لأفندينا ولي النعم فرضاً محتوماً ومسكاً مختوماً.

«نعم صلينا فشهد لنا المكان، وإن لم يشهدنا السكان، ودعونا بما رقمهُ المَلَكان، وإن لم يكن علمهُ إنسان، أما الثناءُ علي وليّ النعم، ونشر ما لهُ من محامد الشيم، فكلنا نُعطر بهِ المجامع جهراً، ونشنّف بهِ المسامع درًا، ونجعلهُ استهلال المقال، وحلية الحال، وبراعة الكمال.

«سيدي لو رأَيت الشيخ وقد اتّخذ سريرهُ مِنبراً، واستهلّ خطبتهُ العيديّة مبكراً، وأخذ في الموعظة الحسنة، يسردها وعلى مقتضى الحال والمناسبة يوردها، لخلْتهُ قُسًّا في عكاظهِ خاطباً، أو سَحْبانَ لقومهِ مخاطباً، وكلنا مكبٌّ على الإصغاءِ والسمع، وإن كنا في أقل مراتب الجمع، ولو علم بنا من حولنا لَعَظَم المزدحم، وهم السواد الأعظم، ولكن الله سَلم، والله يوالي لولي النعم الأعياد سارة، والمسرات قارة بارة، ويديم سرورهُ بالأشبال الأماجد الأنجال على خير الأحوال، وكلنا هنا بحمد الله ذي الجلال، وحسن أنظار خديونا المفضال في هناءِ بال وجمال حال.

«وقد رأَينا نجلي سيّدي النجيبين، حَرَسَ الله شبابهما، وجَمّل بالإقبال حظهما، كما كمل بحسن الخلالِ آدابهما، فرأَيْنَا من النجابة والذكاءِ ولطف الشمائل الغرّاءِ ما لا يستغرب من موافقة الفرع النبيل للأصل الأَصيل، فسرنا ذلك سرور المحب، إذا رأَى ما يسرُّ من يُحب، وداما ودمتم فوق ما راما ورمتم».

ثم حضر عندنا موجيل بيك على حسب اتفاقنا معهُ قبل ذلك، فخرج سيدي الوالد، وأَنا معهما للتفرج على بعض محلات الدراسة بپاريس.

فتوجهنا أولاً لمدرسة تُورْجُو، وهي بسكة تُورْبيجُو، أسّستها بلديّة پاريس سنة 1839، وجددتها في سنة 1866، والسكة المذكورة من أحسن مواقع پاريس، وهي مجعولة لأن تسع 800 تلميذ خارجيّة، يتعلمون فيها مجاناً، كما في سائر المكاتب البلديّة، ولا تدفع التلامذة إلاّ مقابل مآكلهم وقت الظهر إن أرادوا الأكل هناك، وذلك عشرون فرنكاً في الشهر على كل تلميذ.

وقد أُنشئت ليتخرّج بها التلامذة الّذين يُعِدُّون أنفسهم للتجارة، ولأعمال البنوكة وللصنائع والفنون الصناعيّة، وللإدارات التابعة للحكومة، أو المتعلقة بآحاد الناس، كما أنها يتخرّج بها من يستعد للدخول في المدارس الخصوصيّة الصناعيّة.

والتعليم فيها عمومي لجميع التلامذة بها في مدة الثلاث سنوات الأُولى من الدراسة، وفي السنتين الأخيرتين المكمّلتين لمدة الخمس سنين المقررة يكون التعليمُ خصوصيًا لكل فرقة، بحسب الأمر الذي تُعِد التلامذة أنفسهم لإتقانهِ.

ومتى أَتَمّ التلميذ الدراسة فيها فإن لم يستعملهُ أهلهُ في أمر يُريدونهُ ويريدهُ، فإن المدرسة تجعلهُ في محل لائق بحالِهِ الذي تَعَلّمهُ فيهِ، وذلك إما بواسطتها مباشرةً، أو بواسطة دخولِه في جمعيّة التلامذة القدماءِ المتخرجة بها، فإن التلميذ يدخل في هذه الجمعيّة بمجرد طلبهِ، فينتفع بأعضائها كل الانتفاع في الحال والاستقبال، لانتشارهم في أنحاءِ المدينة وفي غيرها من الأنحاءِ.

وكل فنّ يُعلّم في المدرسة لهُ قاعة مخصوصة (أَنْفِتْيَاتْر) لتلقي الدروس فيها من الأساتذة بحضور المعيدين، ويُستحضرَ فيها ما يلزم من الآلات إن كان

في ذلك سهولة، وإلاّ فتنتقل التلامذة إلى معامل الكيمياءِ والطبيعة وغير ذلك، وبعد الانتهاءِ من الدرس تتوجه كل فرقة إلى محلها المخصص بالمذاكرة، فتشتغل بهِ مع المعيد المخصوص.

وبالمدرسة فضلاً عن هذا ورشة لتعليم الصناعات والأشغال اليدويّة، إذ من مقتضى طريقة التعليم الجديدة أن يتعلّم التلميذ صناعة تسليهِ، أو تَسُدُّ خَلّتَهُ عند الحاجة إليها.

وبها محل لتعليم النشان، وحمل السلاح، فإن جميع تلامذة مدارس باريس يتعلمون التعليمات العسكريّة كآحاد العسكر، بمعرفة ضباط يدرّبونهم عليها في ساعات مخصوصة، فإنها إجباريّة عليهم، بل على جميع الأفراد، كما أن مطلق التعليم إلزامي بالنسبة لسائر الآحاد، فيوجد بباريس فرقة مخصوصة تسمى الفرقة المدرسية، يبلغ عددها الآن خمسة عشر ألفاً، تامة النظام والترتيب من ضباط وصف ضباط، وأسلحة ومهمات، حتى إنها تستعرض أمام رئيس الجمهوريّة مع سائر الجيوش في يوم 14 يوليو من كل سنة. وبها لرياضة التلامذة محلات للصيف ومحلات للشتاءِ.

فإذا أنت تأمّلتَ ما ذكرناهُ من تعدد المحلات واللوازم، واستيفاءِ محلات التنزه والرياضة الكافية لثمانمائة تلميذ، وعرفتَ أن المتر الواحد بهذه الجهة تساوي قيمتهُ أكثر من 800 فرنك، وعرفتَ ما يلزم من الأمتار للعدد الذي بيّناهُ، وأَضفتَ إلى ذلك متانة البناءِ، وبلوغَهُ حد الإتقان، واستكمال آلات التعليم، وأدوات التحصيل والتفهيم، تصوّرتَ ما صُرِفَ على هذه المدرسة من النفقات.

ثم بعد الفراغ من هذه الفسحة، وقد آن أوان الغداءِ أكلنا في محل قريب، وقصدنا بعد ذلك مدرسة سكة كامُون، وهي آخر مدرسة أنشأتها مدينة باريس على الصورة الَّتي أوصلها إليها منتهى التجارب والاختبارات.

وهي مركبة من قسمين: قسم يسمى (إيكُولْ مَاتِرْنيلْ) مدرسة الأُمهات، وهي مجعولة للأطفال الَّذين لا ينقص سنهم عن سنتين، ولا يزيد عن ست سنوات، وقسم يسمى (إيكُولْ پِرِيمِيرْ) المدرسة الابتدائيَّة منفصل عن الأول في المدخل، وإن كان متصلاً بهِ في البناءِ، مجعول للتلامذة الَّذين لا ينقص سِنّهُم عن ست سنين، ولا يزيد عن ثلاث عشرة سنة، وهو منقسم في حد ذاتهِ إلى قسمين منفصلين عن بعضهما: قسم للذكور، وقسم للإناث، بخلاف القسم الأول فتختلط فيهِ الذكورِ بالإناث.

أما قسم مدرسة الأُمهات فالأَصل فيهِ أن بعض السيدات الخيِّرَات كنَّ اجتمعنَ في سنة 1826، وشكَّلنَ جمعيَّة جمعت من البر والإحسان ما مكَّنها من تشييد محل سمَّينهُ (سَال دَازِيلْ) الملجأ، تلجأُ إليهِ الأُمهات اللواتي تمنعهنَّ أشغالهنَّ المعاشيَّة في النهار عن القيام بأَمر أولادهنَّ، فيودعنهم في هذا المحل طوال النهار، حيث يوجد فيهِ من يقوم على نفقة الجمعيَّة بأَمر مُوالاتهم، وتطعيمهم حتى تعود أُمَّهاتهم من أشغالهنَّ، فيأْخذنهم مَعهنَّ إلى منازلهنَّ مسافة الليل إلى الصباح.

ثم ما زالت هذه الجمعيَّة تتقدم وتزداد، ويتشكَّل لها مماثلات في سائر الجهات إلى أن كثرت محلاتها، وتنظمت بالحالة الَّتي سميت بها مدارس الأُمَّهات، فصارت فضلاً عن حفظها الطِفل، تعلمهُ وتُؤَدِّبُهُ وتجهزهُ إلى درجات أَعلى بحسب ما يرى فيهِ من اللياقة والاستعداد. ومعلمات هذه المدارس جميعهنَّ من النساءِ نظراً لعلمهنَّ بحالة الأطفال، ولاطمئنان

هؤلاءِ بهنَّ بدلاً عن أمهاتهم، ولتمكنهنَّ بشفقتهنَّ الفطريَّة من اجتذاب محبتهم لهنَّ؛ ولذلك تراهنَّ يجتهدنَ كل الاجتهاد في استمالة قلب الطفل، وتعليمهِ بما لا يَمل منهُ، فيتخذنَ لهُ قطعاً صغيرة من الخشب يُرَسِّمنهُ بها الرسومات بكيفيَّة الألعاب، وَيُعلِّمنهُ بها ما ليس بهِ اعوجاج من الحروف، ويطبعنَ في ذهنهِ بها الأعداد، ومتى تقوَّى أَعطينهُ قِطعًا صغيرة من الورق، فيشكِّل الطفل منها بديع الأشكال بتشكيلها مع بعضها، ثم يعلمنهُ الكتابة، كل ذلك بكيفيَّة لا يمل منها بأن لا تزيد مدة الدرس الواحد عن ربع ساعة، يعلمنَ الأطفال فيها بالتدريج ما يقدرون عليهِ، حتى كيفيَّة التكلم والإلقاءِ، وتحسين اللفظ، والتأَدُّب في الإصغاءِ.

والحاصل أنهنَّ يجتهدنَ بحسن سيرهنَّ وملاحظة سير من يُرَبِّينهم في أن تنشأَ هذه الأطفال مطبوعة على حسن الخُلُق وحب المكرُمَة، وعلو النفس بما يلقينهُ إليهم من حلو الأحاديث ومنتقيات المنتخبات وأحاسن سير مشاهير رجال الوطن، الَّذين أكسبوا البلاد المجد والشرف، فَتَغْرَسُ في قلوبهم محبة هذه الرجال، وحب ما اتَّصفوا بهِ من محاسن الأخلاق.

وجميع التلامذة خارجيَّة، يأْتون معهم بالخبز، وتصرف للواحد منهم المدرسةُ صحناً من الأكل النظيف الطبخ وقت الظهر، في مقابلة عشر سنتيمات للمقتدرين، ولغيرهم بدون مقابل؛ لأن الحكومة تتحمل أكثر نفقات هذا الطعام.

وأدوات التعليم مجانيَّة كالتعليم، فإنهُ لما كان إجباريًا وجب أن يكون مع أدواتِهِ مجانيًا، وإلاَّ كان من باب الأمر بما لا يستطاع.

وتُفرَّق على الفقراءِ عند حلول الصيف والشتاءِ الملابس مجانًا، بتصديق

ناظرة المدرسة وطلبها، تشتري من نقود مخصوصة في ميزانيّة البلدية، وتتولى تفصيلها وخياطتها وترتيبها جمعيّة نسوة خيريّة، هذا فضلاً عما يصل الأولاد من الجوائز بمناسبة الأعياد والمواسم، وتقدمهم في التهذيب والتعليم لا يُفَرِّق بين الغني والفقير؛ لعدم تطلع طائفة إلى ما يصل الأخرى، ولأن المقصود من هذه الجوائز التنشيط والحث على الرغبة في التعليم، وإدخال الفرح والسرور على من امتاز عن غيره في التحصيل.

أما نظافة هؤلاءِ الأطفال ونظافة ملابسهم وأيديهم، مع صغر سنهم، لتعويدهم عليها، وأدبهم وحسن ألفاظهم ورقتها، ولطف أطوارهم، وكل ذلك مع ملاحظتهم باللطف، وكمال الملاينة حسب ما تقتضيهِ الإنسانيّة فمما يقضي بالاستغراب.

ثم بعد الفراغ من مشارفة مدرسة الأُمهات المذكورة، والتفرج على المحلات المعدّة بها لألعاب (جمناستيك)، وهي الألعاب الّتي تمرن على النشاط والخفة وتقوي الجسم، وعلى المحلات المعدة لتفسح التلامذة في الصيف، وعلى محلات فسحة الشتاءِ، انتقلنا للتفرُّج على القسم الثاني قسم المدرسة الابتدائيّة.

والتعليم فيها يقصد بهِ الوصول إلى ثلاثة أشياء: التربية الجسمانيّة، والتربية العقليّة، والتربية الأدبيّة، فيشتمل على تعليم القراءة والكتابة، واللغة الفرنساويّة، والجغرافِيَة والتاريخ عموماً، وجغرافِيَة فرنسا وتاريخها خصوصاً، وبعض معلومات عموميّة ابتدائيّة في القوانين، والاقتصاد السياسي، ومبادئ الكيمياءِ، والطبيعة، والتاريخ الطبيعي، مطبقة على الزراعة، وعلى قواعد حفظ الصحة، وعلى الصنائع والأعمال اليدويّة، وعلى استعمال الآلات المتعلقة بالحرف الكثيرة الاستعمال، ثم بعض

مبادئ من الرسم والموسيقا والجِمناستيك، وتعليم استعمال السلاح للذكور، وأشغال الإبرة للبنات. ومدتهُ ست سنوات للمجد المجتهد من الذكور والإناث.

ويُعطى للتلميذ عند دخولهِ المدرسة دفتر يبقى معهُ ما دامت دراستهُ بها، ويحفظ فيها بعد خروجهِ منها، فيكتب فيهِ مرة في الشهر بنفسهِ، وبدون أدنى مساعدة أجنبيَّة موضوعاً يقترحهُ عليهِ أستاذهُ من كل علم تلقَّاهُ، فيتيسر بواسطة هذا الدفتر معرفة درجة التلميذ واستعدادهِ، ومعرفة تقدّمهِ في المدرسة من يوم دخولهِ إلى يوم الخروج.

ومن شرائط التعليم الَّتي لا بدَّ منها في هذه المدارس أن تخصص بالأقل حصة من حصص الصباح للتعليم الأدبي، يعطيهُ الأستاذ، إما في صورة محادثات ائتناسيَّة، أو بمناسبة كتاب مطالعة يدرج ذلك التعلُّم ضمن تفسير عباراتهِ، وتفهيم معانيهِ.

ومن يُعلّم بمدارس الأُمهات ومدارس البنات جميعاً من النساءِ المتحصلات على شهادات بالتعليم، والتعلم تعطى إليهنَّ بعد الامتحان.

ثم بعد الفراغ من التفرج على هذه المدرسة الابتدائية دخلنا محل المعرض، قاصدين قسم مدينة پاريس الخاص بالتعليم في المدينة، فمشينا بهِ، ورأَينا تفاصيل أعمال التلامذة من أول نشأَتهم في مدارس الأُمّهات، كيف يتعلمون حروف الهجاءِ، وأعداد الحساب، وكيف تكون أعمالهم في الكتابة والرسم والنقش وغيرها، حتى في الألعاب بجعلها نافعةً مفيدة.

ثم رأينا أعمال تلامذة المدارس الابتدائية وكراريس كثيرة من كراريسهم،

وعلمنا من تصفح بعضها معلومات التلميذ عند دخولهِ المدرسة ومعلوماتهِ عند إتمامهِ الدروس فيها، وكذلك اطلعنا على بعض كتب تعليم المبتدئين، وعلمنا منها كيف أنها سهلة العبارة مفهومة المعنى، ظاهرة المبنى، خالية من التعقيد خليّة من الصعوبات المشوشة لأذهان المبتدئين، مما استدللنا منهُ على مزيد اعتناءِ القوم في أمر التعليم والتهذيب، فقد جعلوهُ كما مرَّ إجباريًا مجانيًا، واجتهدوا مع هذا في جعلهِ مفيداً للعقل، نافعاً للجسم، موجداً في التلميذ فضائل محاسن الأخلاق، ملجئاً لهُ على اكتساب مزايا الآداب بما يُلْقى إليهِ من أخبار خِيار القوم، وأفعالهم الَّتي نفعوا بها البلاد، فحازوا بها فخراً يجعل هؤلاءِ الأطفال يُحِبونهم، ويميلون إليهم لذلك، ويُصِرون على الأخذ بالسبيل الذي سلكهُ هؤلاءِ، وبهِ وصلوا جادة الهدى والرشاد، وهم لا يَرَوْن من أخلاق معلميهم ومن معاملاتهم لهم، ومن مطالعة الكتب الَّتي بأَيديهم إلاَّ كُلَّ ما[1] يُعضّد حبهم في المعارف، وتصميمهم على موالاتِها والمواظبة عليها.

هذا وما فرغنا من التفرج على معرض تعليم باريس إلاَّ وقد فرغ النهار، فاستحسنا التوجه إلى شارع مصر بالمعرض، وقد كنا على مقربة منهُ بعد تعاطي طعام العشاءِ بأحد الفنادق القريبة لهُ، فذهبنا إليهِ، وسلمنا على صاحبنا السيد مصطفى الديب، وهنأْناهُ بالعيد، وتعاطينا في محل تجارتهِ القهوة العربيّة، وأتحفنا بشيشة (نرجيله)، وكنت منذ بارحنا الإسكندريَّة ما تعاطيتُ مثلها، فانشرحتْ نفسي بذلك، وعنَّ لنا بعد هذا أن نتوجه إلى القهوة المصريَّة التي في هذه السكة، وقد تناقلت حديثها الجرائد، وكتب دلائل المعرض، فذكرت رقاصاتها ومغنياتها بجميل المدح وكمال الاطراءِ، فدخلناها.

(1) في الأصل «كلما» المحرر.

وهي فسطاط كبير متقن الصنع، وِجهتهُ عرضها ثمانية أمتار وثلاثون سنتمتراً، وارتفاعها أربعة أمتار وخمسون سنتمتراً، معمولة تلك الوجهة على هيئة مشربيَّة من أخشاب مُحْكَمة الخرط، أمامها عمد مكسوة بالقيشاني اللطيف، مكتوب على بابها بخط عربي جليٌ:

عــزٌ صــيــوانٌ لــنــا فــي داركــم   فــادخـــلــوهُ بــســـلامٍ وســـرور

وفي الداخل وجدنا هذا الفسطاط محلًى بأَحسن النقوش، مزركشاً بأحلى الوشي والتطريز، مزيناً سقفهُ بقناديل من الطرز القديم، جميلة الوضع، تنبعث منها الأشعة والأنوار، فتزيد النقوش حلاوة، والهيئة طلاوة، وقد صُفَّتِ الكراسي بهذا المحل الرحب لجلوس المتفرجين، مجعولة على الطراز الشرقي، ووُضِعَت في صدر المكان تِكَكٌ مرتفعة، غاية في البهجة والزخرفة، مغطاة بألواح من الخشب، متينة لرقص الراقصات، وغناءِ المغنين.

والمغنون تختهم مستوفي العُدَد والآلات من عود وقانون ودُفٌ وكمنجة وغير ذلك، وقد أحضروا من مصر، ومعهم منها الراقصات أيضاً بما يلزمهنَّ من الدَربُكَّة والمزمار والساجات.

فرقصت عَيُوشه، وبعدها فهيمة، فأَدهشتا العقول بحركاتهما، وبهرنا الحاضرين بحسن سبك ملابسهما المزركشة بالقصب والتلي المعمولة على الطراز المصري القديم، وبحليّهما المصوغ على الطريقة الشرقيَّة بما فيهِ من الخلاخل والجلاجل، وقد اختصت إحداهما بالرقص بالشمعة موقدة في زجاجة تحملها على رأسها في سائر حركاتها، وجاءت بعدهما ثالثة أعجبت وأجادت.

كل ذلك والآلاتيّة يُشنفون الأسماع بموسيقاتهم العربيّة، والحضور في غاية الطرب والحبور. ثم قعدت الراقصات، وتلاهنّ درويش مولويٌّ لابس قلنسوة الدراويش المولويّة (كُلاه) وفستانهم (تَنُّورَه)، وأخذ يرقص على نقرات الدُّف، دائراً وفستانهُ يستدير حولَه ورأسهُ مائل إلى الجانب على الهيئة المعلومة في مصر، مسافة استغرب لها الحضور، وأشبعوهُ تصفيقاً مثل ما أشبعوا سابقاتِهِ استحساناً.

وفي أثناءِ ذلك دارت على المتفرجين القهوة العربيّة في الفناجيل المستعملة بمصر، يسقيها فراشون مصريون بملابسهم المشرقيّة المعتادة.

وما فرغ الدرويش المولويُّ من دورانهِ إلاّ وقد انفضّت الحفلة، وذهب المتفرجون، ودخل غيرهم للتفرج مثلَهم بقدر ما يسع المحل، وبقي الباقون بالخارج ينتظرون خروج من دخلوا، فإن العالم منكبّون على التفرج في هذه القهوة لغرابة ذلك عندهم، ولا يؤخذ من كل واحد من الداخلين في مقابلة التفرج وشرب القهوة إلاّ فرنك واحد.

وقد انصرفنا مع المنصرفين، منتقدين على هذا الدرويش؛ لإتيانه بما سميناهُ رقصاً في مثل هذا المكان، وليس هو كذلك في طريقتهِ، ومعترضين على هؤلاءِ الأقوام على ما أكثروا من الاستحسان، ومعترضين على أنفسنا في دخولنا هذا المكان، وقد يُدْفَعُ الاعتراض على المستحسنين بغرابة هذا الأمر عندهم، وحبهم الاطلاع على ما لم يكونوا يعرفونهُ من قبل، ويدفع الاعتراض عنا بأن وجود هذا المحل في باريس ليس كوجودهِ عندنا؛ فإنهُ وإن اختصَّ بدخول مثلهِ بمصر السفهاءُ، لكن من يدخلهُ هنا هم العظماءُ والأُمراءُ مع غاية الكمال وتمام الاحتشام، وأما الانتقاد على هذا الدرويش فلا وجه لدفعهِ حسب ما ذكرناهُ.

وعند وصولنا إلى الفندق أُخبرنا بأنهُ حضر للتعييد علينا أثناءَ النهار من سبق لنا ذكر اجتماعهم بنا من مواطنينا الأعزة، وزاد عليهم غيرهم من المقيمين بپاريس من المصريين، أخص بالذكر منهم الفاضل حسين رشدي بك طپوز زاده، نجل صاحب السعادة محمود حمدي باشا، وكيل الداخليّة وقت ذاك، فكان تفضلهم بالسؤال عنا مما زادنا سروراً وانشراحاً.

* * *

(سابع يوم في باريس)

قد علمنا من إعلانات بيت كوك أن لهُ عربات ودللاءَ مخصوصين يفرّجون السياح على باريس في يومين، وعلى فِرْسايْ في يومٍ واحد، وعلى فُونْتِنبْلُو في يومٍ واحد أيضاً، في نظير 31 شلناً عن كل شخصٍ في أيام باريس، وفِرْسايْ، و23 شلناً عن كل شخصٍ في يوم فُونْتِنبْلُو، فاستحسنا هذه الطريقة؛ لمناسبة أن التفرُّج فيها يكون بصحبة أشخاص عديدين، وفي ذلك فائدة تبادل الأفكار على الشيءِ الذي يُرى من استحسانهِ أو انتقادهِ، ولأن التفرُّج يكون بواسطة دليل عارف يُفهم السائح كل ما يراهُ من العمارات والأشياءِ. نعم إني أعرف باريس، لكنني لم أعرفها معرفةَ هؤلاءِ الأشخاص المتَّخذين ذلك صنعةً لهم، فإنهم عارفون بتلك الأشياءِ وبتواريخها حقَّ المعرفة، ولأن السائح، ولو استعان بالدلائل المطبوعة، لا يتيسر لهُ معرفة جميع محال التفرُّج في هذه المدة اليسيرة.

وقد اهتمَّ بنا دللاءُ كوك بناءً على توصية رئيس البيت، فصاروا بعد أن يتكلموا عن الشيء بالإنجليزي مع رفقائنا من سياح الإنجليز يتكلمون لنا عنهُ بالفرنساويَّة، وأنا أترجمهُ للرفقاءِ ما عدا أَحَدَ يومي باريس، فإن الدليل كان فيهِ من أبناءِ العرب الَّذين يفرّجون سُيَّاحَ كوك على آثار صعيد مصر، فهذا كان يعبر لنا عن الأشياءِ بالعربي قبل التعبير عنها بالإنجليزي لباقي السياح.

وكنا نُخبر محل كوك بباريس عن اليوم الذي نريد التفرُّج فيهِ، وعن

الجهات الّتي نريد الذهاب إليها قبلهُ بالمشافهة، أو الكتابة، ليحجز لنا محلات بعرباتهِ، وهي تشابه العربات المستعملة عندنا لأصحاب الفنادق في ركوب السياح، ونقلهم من المحطة إليها أو بالعكس مستطيلة الشكل ذات ست عجلات، تَسَع بجوار السائق محلين، وعلى ست كراسي بها ثمانية عشر شخصاً، على كل كرسي ثلاثة أشخاص، وهي مكشوفة من الجانبين لتمكن الراكب من رؤية المناظر في طريقهِ.

فتمر العربات علينا بالفندق، أو نذهب لمحل كوك قبل الميعاد فإنهُ يقرب من الفندق، وليس بيننا وبينهُ إلاّ بعض خطوات؛ إذ هو أمام الأوپرا، فنركب في ما هيأهُ إلينا من أحسن محلاتها، وكلما مررنا بمكان يستحق أن يُتَعَرَّفَ حالهُ توقف العربة، وينزل الدليل، وننزل معهُ، أو نبقى بها على حسب مقتضيات الأحوال، ويأخذ الدليل في تبيين الأشياءِ، وتعريفنا عنها بكل إيضاح.

وإذا وصلنا محلاً يُتَفَرَّج عليهِ من الداخل نزلنا جميعاً، ودخل أمامنا هذا الدليل بعد أن يدفع هو رسم الدخول، إن كان، كما يدفع صِلاتِ (بخاشيش) الخدم عند الخروج لدخولها في الأجرة الّتي دفعناها، ونتفرَّج نحن على المحل صاغين لما يقصهُ من التفهيمات والشروح المفيدة.

وكنت قبل ذلك أطالع الدليل الذي معي عن المحلات الّتي سنراها في اليوم التالي، فكنت عند رؤيتها كأني أعرفها من قبل، فيتيسر لي شرح الإيضاحات الّتي يلقيها هذا الدليل بغاية البيان.

وأولُ مُتَفَرَّج ابتدأنا فيهِ بهذه الطريق سراي فُونْتِيْنْبْلُو، ومن شروطه أن

العربة الّتي نركبها من الفندق إلى المحطة، وأجرة السكة الحديد في الدرجة الأولى ذهاباً وإياباً، وأجرة العربات من محطة فونتنبلو إلى السراي المقصودة في الذهاب والإياب، ومن محطة پاريس في العودة إلى الفندق، وثمن أكلنا في الغداءِ بفونْتِنْبْلُو وأجرة الدليل، كلها داخلة في ضمن 23 شلناً المذكورة.

فركبنا صبيحة هذا النهار عربة أرسلها لنا بيت كوك، وقصدنا محطة لِيُون، فوجدنا الدليل في انتظارنا ومعهُ التذاكر، وقد حجز لنا ومن معنا حجرة مخصوصة، أنزلنا فيها، وسار بنا الوابور والساعة 9 وثمان دقائق من يوم الخميس 8 أغسطس سنة 1889.

وبعد مسافة مرَّ بنا على بلدة شارَنْتُونْ، وهي شهيرة بالبيمارستان المبني بقربها، فرأيناهُ على بعد، وهو مكان كبير مرتفع الطبقات تحيط بهِ البساتين والغابات، فلم نتمالك أنفسنا بمجرد النظر من التأسف على من فيهِ، وقد كانوا في حالتهم الأُولى من نوع الإنسان، فصاروا بذهاب العقل لا يمتازون عن سائر الحيوان.

واستمرَّ بنا المسير بعد ذلك ساعة وثمانية دقائق، حتى وصلنا محطة فونتنبلو بعد أن اجتزنا قسماً من غابتها اللطيفة المشهورة بالحسن والبهاءِ، فوجدنا عربات في انتظارنا، ركبناها حتى وصلنا قصر فونتنبلو بعد سير ربع ساعة.

وهذا القصر على الجنوب الشرقي من المدينة المنسوب إلى اسمها بناهُ فرانسوا الأول، ملك فرانسا، وزاد عليهِ هنري الرابع بعض زيادات.

واشتهر هذا القصر بِقِدَمهِ واتّساعهِ، وبزخرفتهِ من الداخل، وبوقوع حوادث تاريخيَّة كثيرة فيهِ، وهو لم يتغير عن أصلهِ، فإن الملوك الّذين

تعاقبوا على فرانسا بعد هنري الرابع المذكور اكتفَوْا بترميمهِ، وإصلاح كل ما تخرّب فيهِ.

ويشتمل هذا القصر من الداخل على خمس رحبات متسعة جدًّا، وهي رحبة الحِصان الأَبيض أو الوداع، ورحبة الفسقيَّة، والرحبة البيضاويَّة، ورحبة البرنسات، ورحبة هنري الرابع.

ويُدْخَلُ إلى هذا القصر من رحبة الحصان الأَبيض، وهي أكبر الرحبات فإنَّ طولها 152 متراً وعرضها 112 متراً، وقد كان فيها تمثال حصان نقل منها فيما بعد، فأضيفت إلى اسمهِ إلى أن ودَّع فيها نابليون الأول في سنة 1814 عساكر حرسهِ قبل تركهِ فرانسا، فسميت رحبةَ الوَداع.

ويسكن رئيس الجمهوريَّة في فصل الشتاءِ القسم الواقعِ على يمين الداخل في هذه الرحبة؛ ولذلك لا يُمَكَّنون من التفرج بداخلهِ.

وأهم بناءٍ في هذه الرحبة هو بناءُ الصدر، ويُصعد إليهِ بسلم من بدائع الصنائع، وأول ما تفرجنا عليهِ فيهِ كنيسة الثالوث، وهي غاية في الزخرفة، منقوش سقفها بأَحسن النقوش والصور، وقد اشتهرت بتزوج بعض الملوك فيها، وتعمّد نابيليون الثالث بها.

ثم صعِدنا في سلم متّسع، فوصلْنا إلى مسكن نابيليون الأول، وهو عبارة عن صالة للانتظار، وبها محل كتبة الأسرار، وحمام مكسوة جدرانهُ بالمرايا المزينة بالنقوشِ، وعن المحل الذي أمضى فيهِ نابيليون المشار إليهِ في يوم 11 أبريل سنة 1814 تنازلَهُ عن الإمبراطوريّة، وفي وسطهِ الطاولة الّتي أَمضى عليها التنازل المذكور قائمة إلى الآن، وعن محل كتابتهِ ومطالعاتهِ الخصوصيَّة، وقد صنع سقفهُ رينول الشهير، ومثَّل برسوماتهِ فيهِ العدل

والقانون، ثم يليهِ محل نومهِ، وفيهِ السرير الذي كان ينام عليهِ، وساعة كبيرة كان أهداها إليهِ البابا بي السابع.

ثم تفرجنا بعد ذلك على القاعة المعروفة بقاعة المجلس، وهي من مدة لويس الخامس عشر، مفروشة بالأبسطة المعمولة بمعمل بُوفِيه الشهير، ثم قاعة سرير المُلْكِ، فأعجبنا سقفها، والثريًا البلوريّة المعلقة فيها، والأخشاب المفروشة في أرضها على أجمل الهيئات وألطف الحالات.

ثم تفرجنا بعد ذلك على مساكن الملكة ماري أَنطُوَانيت، فأعجبنا منها المخدع، ثم محل النوم وجدرانهُ، وسُقُفُهُ مكسوة من الداخل بأَنفس الحرائر المهداة إليها من مدينة ليُون، ثم آنِيتيان من العاج للزينة، ووعاءان آخران من صنع معمل سيفر العديم النظير.

ثم مشينا بالكتبخانة الملوكيّة الموجودة بالقصر، فأدهشتنا كثرة الكتب بها، وأعجبنا فيها حسن ترتيبها، وانتقلنا منها إلى قاعات الاستقبال، وهي موازية لمسكن ماري أَنطُوَانِيت، ومطلة على الرحبة البيضاويّة، إحداها مغطاة جدرانها ببسط من صنع معمل جُوْبلاَنْ، وأخرى مغطاة بطنافس من صنع فلاَنْدر، ومُدفئاتها محدقة بالأَبنوس على أَحسن صنع، وأجمل وضع، ثم انتقلنا إلى القاعة الَّتي وُلِد فيها لويس الثالث عشر، فعرفت باسمهِ للآن.

وما زلنا ننتقل من مكان إلى أحسن منهُ، ومن تنظيم إلى أَرقى منهُ، حتى وصلنا إلى قاعة الاحتفالات، وقد تزينت بالرسومات والنقوش من عمل أعاظم المشتغلين بفن الزخرفة والتحسين.

وانتقلنا منها إلى المسكن الذي سكنهُ البابابي السابع حين أُتيَ بهِ أَسيراً إلى

هذا المكان (من سنة 1812 إلى سنة 1814)، وقد كان قبلهُ مُعدّاً لسكنى والدات الملوك، فتفرجنا على محلاتهِ، وعلى المحل الذي كان ينام فيهِ البابا المشار إليهِ، ثم مررنا على القاعة المعروفة بقاعة الأطباق، وسميت كذلك نظراً لما تزينت بهِ من الأطباق الصينية، المنقوش عليها صور السرايات الملوكيّة، وهي في غاية الإتقان.

ثم انتقلنا إلى حديقة القصر، وفي أثناء ذلك مررنا برحبة الفسقيّة، فتفرجنا على بحيرة عظيمة فيها، ورأينا بها بقايا الأسماك المسماة كاربْ، الشهيرة عند السياح، وقد نقلت إليها من مدة فرانسوا الأول على ما يقال، فلما دخلنا الحديقة شاهدنا ما فيها من عجائب الصنعة وغرائب الترتيبات والتنظيمات ومتقنات التحسينات ما لا يمكن أن يُحاط بوصفهِ.

وبعد ذلكَ انتقلنا إلى البلد، وتغدينا في أشهر فنادقها، ثم ذهبنا بالعربات إلى الغابة، نتفرج عليها، ونتمتع بمناظرها، ونتنقَّل فيها.

وهذه الغابة في غاية الاتّساع، فيها كثير من الطرقات المتشابهات، حتى إنهم أعدوا فيها كتابات وعلامات لتمييز بعضها عن بعض، وليهتدي بها المتفرجون، ومع هذا فإنهُ لا يحسن التفرُّج فيها بغير دليل، تفادياً من أخطار عدم الاهتداءِ إلى الطريق، فإن محيطها ثمانون ألف متر، ومسطحها سبعة عشر ألف هيكتار.

وقد دلَّنا الدليل حسب ما ساعد الوقت على أشهر مواضعها، فسلك بنا في الدرب المعروف باسم فرانْشار، حتى أوصلنا إلى صخور وثُغَرِ فرانشار.

أما صخور فرانْشار فشهرتها لكونها مركبة من أحجار صلبة بيضاءَ، ينبت فيها مع ذلك كثير من الأعشاب والأشجار، وبالقرب منها (الصخرة الباكية)،

سميت كذلك لأن الماء يرشح منها، فشبهت بالعين الباكية، وتصب مياهها في بحيرة هنالك، يبلغ محيطها فرسخاً.

وأما ثُغَر فرانشَارْ فشهرتها لأنها فوهات في الجبل ينطلق منها النظر إلى أماكن بعيدة من الغابة، وما جاورها غاية في النضارة واللطف.

وما زلنا سائرين نتفرّج على صنع الخالق في هذه الغابة، نخترق الطرقات والجداول، ونمر بالصخور والآكام حتى وصلنا المحطة من طريق غير الذي سلكناهُ بعد أن رأينا (فارامُون) (وشارْ لمنج) أقدم أشجار الغابة، فركبنا الوابور، ووصلنا باريس وقت المساءِ.

* * *

(ثامن يوم في باريس)

خرجنا صباح هذا اليوم (يوم الجمعة 9 أغسطس سنة 1889 إلى محل كوك، فركبنا العربة، وسرنا قاصدين مدينة ڤِرْسَايْ، فوصلناها في أكثر من ساعة من مسيرنا.

ومررنا من ميدان الأوبرا إلى المادلين إلى بلوار مَا لْزِرْب، وهو من الشوارع المستجدة، مبتدأً من ساحة مادلين حتى يتّصل بجهة الاستحكامات، على طول 2700 متر، تحفهُ من جانبيهِ بيوت الأغنياءِ والكبراءِ، وفي بعض جهاتهِ دكاكين متّسعة مزخرفة.

وفي وسطهِ كنيسة سانت أُوجُسْتانْ، وهي مبنيّة حديثاً في سنة 1868 لطيفة المنظر، تعلوها قبة ارتفاعها خمسون متراً.

ومن هذا الشارع وصلنا پَارْكْ مُونْسُو - بستان مونْسُو - ، وهو محاط بسور من حديد، ولهُ أربعة أبواب، يُدْخَلُ منها، فدخلنا من أحدها، ومشينا بين الخضرة والمياه، تظللنا الأشجار المرتفعة ممتعين الطرف بما يكتنفهُ من المساكن المشيدة والدور المنظمة، حتى خرجنا من بابهِ الموصل إلى أَوِينُو (طريق) هُوش، فوصلنا منهُ إلى قوس نصر الكوكب (أَرك دُولِتْوَالْ)، واستمرَّ بنا السير حتى وصلنا (بُوَاده بُولُنْي) غابة بُولُونْيه.

وهي حديقة غاية في السعة (مسطحها 873 هكتاراً)، تتصل بالاستحكامات، وقد كانت قبل إصلاحها ملجأً للشريرين وقطاع الطريق، حتى ملكتها بلديَّة باريس، أعطتها لها الحكومة بشرط أن تتكفل بالنفقات

اللازمة للصرف عليها، وبنفقات ملاحظتها، وأن تصرف عليها في أمر تحسينها مليونين من الفرنكات، (وكان ذلك سنة 1852) فقبلت ذلك البلديّة وأنجزت ما وعدت فصارت هذه الحديقة أعظم حدائق پاريس، ومتنزهاتها على هيئة الغابات الطبيعيّة، يقصدها الأغنياءُ والأمراءُ من رجال ونساءٍ للرياضة كل يوم، فيوجد فيها عدد لا يُحْصَى من العربات، كذلك يقصدها غير الأغنياءِ بواسطة عربات الأُمْنِيبُوسْ والتراموي، وصارت رأس المجتمعات بپاريس، وزادت رغبة النساءِ فيها لهذا الازدحام؛ لأن رغبتهنّ متعلقة بكثرة وجود العالم؛ ليُظْهِرنَ الجمال والدلال والملابس الحسنة، ويتباهينَ بذلك.

ومن أَحسن محلات هذه الحديقة ملتقى الطرق عند بحيرتَيْها.

وهاتان البحيرتان صناعيتان على هيئة البحيرات الطبيعيّة، إحداهما: وتسمى البحيرة المنحطة، طولها 1152 متراً، وعرضها 100 متر، والأخرى، وتسمى العالية، طولها 412 متراً فقط.

ويتفرع من أُولاهما جدولان، يجري أحدهما نحو حديقة النباتات والحيوانات، وهي تابعة لشركة قصدت بإنشائها تطبيع الحيوانات والنباتات الأجنبيّة النافعة لفرنسا بسائر أنواعها، وجعلتها مع ذلك من أَحسن متنزهات پاريس، ويجري ثاني الجدولين نحو الشلال الكبير.

وقد جُعِل في البحيرة المنحطة المذكورة جزيرتان، وترتبت باخرة مخصوصة تنقل المتفرجين إليهما في كل وقت من الأوقات، وفي إحدى الجزيرتين محل طعام وقهوة، كذلك بالبحيرة كثير من الزوارق تُؤَجر بالساعة لمن يريد التنزه والرياضة.

وبين البحيرتين محل يعرف بملتقى الشلالات، بالقرب منهُ أَكَمَةُ مُرْتماز، يمتد البصر منها إلى جهة سانْ كُلُو، وفوق الأكمة المذكورة منابر مجعولة للتفرج على سباق أُوتُوِيْ الشهير، حيث تشرف هذه الأكمة على محلهِ الذي صار إيجادهُ في هذه الجهة وأول جائزة تُعْطَى للسباق فيهِ 30 ألف فرنك، ولهُ ثلاث مسافات 2600، 3500و 4000 من الأمتار.

أما الشلال الكبير فيندفق ماؤُهُ من مغارة صناعيَّة ذات طبقتين، فَتتكَوّنُ منهُ طبقة مائيَّة، ارتفاعها عن سطح البحيرة ثمانية أمتار.

وقد صعِدنا بعد التأمل في هذا الشلال العجيب على الأكمة المرتفعة بعدهُ، فرأينا مجرى السين من جهة، ومن جهة ثانية بلدة سان كُلُو، وبالقرب منها محل سباق لُونشَانْ، ورأينا أيضاً على بعد قلعة مُونْقَاليرْيانْ الشهيرة الذكر في حرب السبعين الأخيرة.

ثم نزلنا من ذلك المرقي، واستمرَّ بنا الطريق حتى وصلنا إلى (حديقة سان كلُو)، وبقايا القصر الذي كان بها.

وسَان كلُو هذه مدينة صغيرة قائمة على الجانب الأيسر من نهر السين، كان فيها قصر أمبراطوري، غاية في العظم، تخرب وانهدم في حرب سنة 1870، ولم يبق منهُ إلاّ أطلالهُ.

أما الحديقة فباقية، يقصدها المتنزهون في سائر الأيام، ويعجبهم ما بها من الانتظام، خصوصاً الشلالات المعمولة فيه تقليداً للشلالات الطبيعية.

وبهذه الحديقة منافذ كثيرة، تتدفَّقُ منها المياه في أيام معلومة، يؤمها فيها كثير من الناس للتمتع بحسن مرآها، وقد يبلغ ارتفاع الماء من أحدها أربعين متراً، ويصير باجتماعه مع غيرِه من المياه على أشكال في غاية الإبداع.

وقد وقفنا بجوار خَرِبات القصر المنهدم على مرتفع هناك، ومن معنا من السائحين، وأخذ صورتنا بالفطوغرافيا من حضر لهذا الغرض من الرسامين، ووعدنا أن يعطينا نسخة منها في المساءِ- بالثمن-، ولكنهُ لم يف بوعده إلى الآن.

وسرنا من هنالك حتى وصلنا إلى مدينة ڤرساي، واجتزناها فبلغنا (ميدان الأسلحة)، ووصلنا السراي المقصودة من بابها المعهود، حيث يفصل رحبتها الكبيرة والفِناءِ الواقع أمامها درابزين من الحديد.

وڤِرْسايْ هذه عدد سكانها نحو الخمسين ألف نفس، والسبب في إيجادها لويس الرابع عشر، مذ أراد بناءَ هذه السراي بجهتها، ولم تتعلق إرادتهُ بهذا العمل إلاَّ مقروناً بغاية الجد والنشاط، حتى بلغ عدد العاملين في تصليح الطرقات، وتنظيم البساتين، وإعداد الحياض وغير ذلك من الأعمال في اليوم الواحد على ما يقال 36 ألف رجل، مع مساعدتهم بستة آلاف من الخيل، إلى أن تم العمل وتشيد القصر، فصار مقرًا لهذا الملك، والكثير من الملوك بعده، وصار لهذه المناسبة مرتبط الذكر بتاريخ فرنسا لوقوع كثير من الوقائع المهمة فيه، مما هو واضح في كتب التاريخ، وقد زاد في هذا القصر مَنْ خَلَفَ بانيهِ من الملوك، ولذلك كان مجموعهُ مركباً من عدة عمارات.

ووجهتهُ الغربيّة المشرفة على البستان، وطولها 415 متراً، أحسن من الشرقيّة الّتي من جهة المدينة، والبناءُ الأصلي في الوسط، وعلى يمينِه بلصقهِ كنيسة القصر، ويلي كلا هذين البناءَين أبنية من الطرفين، أخصها البناء الذي على يمين الكنيسة، وهو التياتر وقد بُني في زمن لويس الخامس عشر.

وقد هُجِرت هذه السراي من عهد الثورة، وكادت تتخرب، حتى تفكر بعضهم في بيعها تفادياً من تحمل ما يستوجبهُ ترميمها من النفقات، إلى أن تولى الملك لويس فيليب، فرأى أن يصلحها ، ويرمِّها، وينشئ فيها المتحف التاريخي الذي هو فيها الآن، وكان ذلك سنة 1832، فجمع فيها جميع الرسومات المتعلقة بالتاريخ في متحف اللُّوفر وغيرهِ من المتاحف والمحال، حتى صارت المجموعة الّتي فيها عديمة الشبيه والمثال.

هذا وبعد أن شاهدنا منظر السراي من الرحبة، وأمعنَّا النظر في هيئتها الخارجيّة، دخلناها للتفرُّج عليها وعلى المتحف الذي بها، وإذا بها متعددة المحلات كثيرة القاعات ملأى بالتماثيل والصور، فضلاً عن زخرفة محلاَّتها، وإتقانها في حد ذاتها، وهي مؤلفة من طبقة أرضيَّة، وطبقة عليا، وطبقة فوقها، ولهذه السراي جناحان: شمالي وجنوبي، وبناء متوسط بينهما.

ولا يتسير استيفاء ما بهذه المحلات من الصور والآثار، بل ولا المهم منها لكثرته، فلا يمكن توفية المرام حقهُ من التفصيل والبيان والمدح والإطراءِ، على أن هذه الآثار مدونة بتفاصيلها في كتب مخصوصة بها، ومذكور مهمها في كتب دلائل السيَّاح.

وقد اكتفينا بالدخول في هذ المحلات والتفرُّج عليها بغاية ما يمكن من الإسراع، لأن الوقت محدود، وقد مضى جزء من النهار، وعلينا زيارة البستان وما به من الأَبنية والتماثيل الحسان.

فدخلنا الطبقة الأرضيَّة من دهليز الكنيسة بعد أن تفرَّجنا على الكنيسة المذكورة، وعلى نقوشاتها البديعة، وأعجبتنا المِنَصَّة المعمولة فيها لجلوس

الملك وقت العبادة، فإذا بهذه الطبقة إحدى عشرة قاعة مشتملة على الرسومات التاريخيّة من أول مدة شارلمان إلى آخر مدة لويس السادس عشر، ويُعرف مجموع هذه القاعات (برواق تاريخ فرنسا)، وفي الواقع إنَّ الرسومات الَّتي فيهِ تُمثّل وقائع فرنسا الشهيرة في المدد المذكورة، وتُصوّر تماثيل الحروب القديمة التي انتصر فيها الفرنساويون في مدد ملوكهم السابقين.

وتجاه هذا الرِواق (رواق المقابر)، سمي بذلك لاشتماله على صور المقابر الشهيرة، حاكوا بها نفس المقابر الأصليّة بواسطة طريقة الصب والإفراغ، فتظهر مجَسّمة بالهيئة والشكل الذي عليه أصلها، فرأينا بهِ صور المقابر الشهيرة بقُرْطبة وغيرها من بلاد العالم.

وعلى يسار هذا الرواق (رواق حروب الصليب)، وهو من أعجب محال هذا الساري، وأتحفها بالنسبة للإتقان في زينته وزخرفته، ويشتمل على رسومات شعار (أزمّه) رؤساءِ حروب الصليب، وعلى رسومات وقائع تلك الحروب، وهو عبارة عن خمس قاعات مملوءة من هذه الرسومات.

هذا وإذ فرغنا من التفرج بالجناح الشمالي الشمالي أردنا التفرج بالجناح الجنوبي والقسم المتوسط بين الجناحين من الطبقة الأرضيّة أيضاً، فدخلنا (رِواق الأمبراطوريّة)، وهو مركب من إحدى عشرة قاعة، تشتمل على رسومات الوقائع والحوادث والإجراءات[1] الشهيرة الَّتي حصلت مدة الأمبراطوريّة، مثل دخول نابليون الأول في برلين، واستقبالهِ رؤساءَ مدينة ويانه، واستسلام مدريد لجيشهِ ثم تفرجنا على رواق التماثيل المجسمة بمحاذاة رواق الأمبراطورية السالف بيانه، وهو يشتمل على كثير من صور

(1) في الأصل: «والإجرآات» المحرر.

مشاهير الجمهورية والإمبراطوريّة، ثم دخلنا المحل الذي كان ينعقد بهِ مجلس النواب قبل انتقاله إلى محله بپاريس.

ثم دخلنا القسم المتوسط بين الجناحين، فتفرجنا على قاعات أمراءِ الجيوش وأمراءِ البحر والمارشالات والضباط الَّذين قُتِلوا بالحرب في خدمة الوطن، وتفرجنا على قاعات الملوك، وهي تشتمل على صور الملوك فرنسا، وعلى قاعة السرايات، وتشتمل على رسم السرايات الَّتي كانت مقامّ لملوك فرنسا قديماً، وبعد ذلك قصدنا زيارة (الطبقة الاولى) فبدأنا بالجناح الشمالي، وتفرجنا على رواق التماثيل المصنوعة من الحجر وما شابههُ، ورأينا فيه من صور الرجال الشهيرة وتماثيل بعض الوقائع العظيمة ما بلغ حد الإتقان، ومنتهى الإحكام.

وعلى يمنيهِ رواق قسنطينة، وهو يشتمل على ست قاعات، مشتملة على كثير من الرسومات المتعلقة بحرب الجزائر، مثل محاصرة قسنطينة، وأخذها عَنوة، وغير ذلك من وقائع الحرب المذكور وغيرهِ.

وبموازاة رواق التماثيل المجسمة السابق، رِواق مشابه للذي رأيناهُ في الطبقة الأرضيّة، ويسمى رواق تاريخ فرنسا الثاني، ويشتمل على عشر قاعات، تحتوي على رسومات تُمثّل بعض الوقائع التاريخية الَّتي حصلت من سنة 1797 إلى سنة 1835 بخلاف الرواق التاريخي الأول؛ فإنه يحتوي علي الوقائع لغاية حكم لويس السادس عشر فقط.

وإذ فرغنا من التفرج على هذا الرواق، وانتهينا به من رؤية ما في الجناح الشمالي من الطبقة الأُولى، دخلنا القسم المتوسط بين الجناحين في الطبقة المذكورة، ويشتمل هذا القسم على محلات المَلِك الَّتي كانت معدة

لسكناه، وعلى محلات المَلِكة وعلى قاعة السِّلم، وقاعة الحرب، وقاعة المرايا، وفي آخر هذا القسم من جهة الجنوب قاعة الرسومات المعروفة بالأكواريل، وهي المرسومة بالماءِ والبويات، بدون إدخال الزيت في تراكيب بوياتها.

ومحلات الملك عبارة عن عدة قاعات ومخادع، متقنة الزخرفة، ومنقوشة سُقُفُها بأحسن الصور، من صنع أشهر الرسامين، ومحلاة جدرانها بالتذهيب.

ومحلات الملكة عبارة عن عدة مخادع وقاعات، أخصها قاعة جلوس الملكة، وغرفة نومها، وقاعات استقبالاتها الرسميّة والخصوصيّة، وقاعة حرس الملكة؛ حيث تَسَلَّقَ منها الثائرون (سنة 1789) إلى محل الملكة، ونجت منهم بواسطة حرسها المخلصين، وقد مات ثلاثة من أبطالهم في معاناة نجاتها.

وقاعة الحرب سميت بذلك للرسومات المنقوش في سقفها؛ فانها تُمثّل فرنسا متسلحة بصاعقة الحروب، قابضة على تُرْس مرسوم عليهِ صورة لويس الرابع عشر، محاطة في هذا التمثيل بألمانيا جاثية على ركبتيها، وبهولانده مصابة بصاعقة الحروب، وبأسپانيا خائفة وَجِلة، وقد بلغ من شهرة هذه النقوش، أنها كانت على ما رواهُ أحد المؤرخين السبب في تحزب أوروبا ضد الملك لويس الرابع عشر المشار إليه.

وقاعة المرايا طولها 73 متراً وعرضها عشرة أمتار وخمسون سنتمتراً وارتفاعها 13 متراً وهي مُطلة على بساتين السراية وحياضها من سبع عشرة

نافذة، تجاه كل واحدة منها مرآة بالقاعة، موضوعة على صفة محلاة بالذهب، وسقفها منقوش بالنقوش الفاخرة، يُمثل بعض الوقائع الشهيرة.

وبمجاورة هذه القاعة قاعة نوم لويس الرابع عشر، وهي من محلات الملك السالف بيانها، مفروشة بأحسن الفرش، وبقرب وسطها سريرهُ يحجزهُ عن باقيها درابزين لم يكن لأحد أن يتخطّاه إلاّ بتصريح من الملك بذلك، وقد مات لويس الرابع عشر المشار إليهِ على هذا السرير بعد أن حكم فرنسا 72 سنة.

وبعد الفراغ من هذا القسم المتوسط بين الجناحين قصدنا الجناح الجنوبي، وتفرجنا على الأروقة الّتي بهِ. فزرنا رواق الوقائع الحربيّة، وهو في غاية الاتساع، طولهُ 120 متراً، وعرضهُ 13 متراً، وبه 88 قطعة من الرسومات العديمة النظير، تُمَثّل الوقائع الحربيّة الشهيرة، وبه ثمانون صورة من صور مشاهير البرنسات وأمراءِ البحر، وأمراءِ الجيوش والجنرالات والضباط الّذين تُوُفُّوا بميدان الحروب في سبيل الوطن.

وبموازاة رواق الحرب هذا رواق للصور المتخذة من الحجر وما شابههُ فيهِ كثير من صور المشاهير والمعتبرين. وبذلك انتهينا من زيارة الطبقة الأولى.

وصعدنا إلى (الطبقة الثانية)، وهي تشتمل على قاعات فيها ما لا يدخل تحت الحصر من صور الأشخاص صغيرة وكبيرة، شهيرة وغير شهيرة.

وإذ فرغنا من رؤية هذا القصر، وقد آن وقت الغداءِ تغدينا في فندق قريب منهُ، ثم دخلنا بستان القصر للتفرّج عليهِ، وهو متسع جدًّا، ابتداؤهُ من جهة

السراي بانحدار ينتهي بالبحيرات والأحواض الكثيرة العدد الّتي أُوجدت هناك.

والمنحدر أشبه ببساط من سندس أخضر، نقوشهُ الأزهار المختلفة الأشكال، المتعددة الألوان، كأنما رسمتها يد الرسام على قطعة من الورق، أو القماش، والحياضُ المتعددة وما حوتهُ من الصور المختلفة والأشكال البديعة مع كثرة المياه، شيء بديع المثال، لا يُحاطُ بكنهِ وصفهِ بحال والتماثيل المتقنة الصنع المحكمة الوضع بالغة حد الإتقان، رالأشجارالمرتفعة، والمَخْبآت المبتدعة غاية في البهجة والنضارة، بلغ بها الحسن منتهي الحد.

وقد جُلبت لهذه الحياض من جهات بعيدة مرتفعة، بمصاريف كثيرة، مياه تصل إلى سائر جهاتها، وإلى التماثيل والصور القائمة هناك بواسطة أنابيب من الرصاص، حتى إذا أُطلق ماؤُها ارتفع ارتفاعاً عظيماً يبلغ في بعض المواضع إلى ثلاثين مترًا، متشكلاً بأشكال غاية في البهجة والبهاءِ.

ويكون لإِطلاق هذه المياه احتفال شائق يحضرهُ كثير من الپاريسيين، ويتزاحم عليه السياح نظرًا لحسن أشكاله، وبديع إتقانها، وهو يحصل مرة في كل شهر أثناءَ الشهور الست المتوسطة من السنة، ولا تزيد مدتهُ عن ساعة، وهو مع ذلك يُصْرَفُ عليهِ في المرة الواحدة نحو العشرة آلاف فرنك.

وفي هذا البستان محال مُعَدَّةٌ لتربية الأشجار المحتاجة لحرارة أكثر من حرارة البلاد، تُعطَى له بواسطة تسخين هواء المحلات بالنار، فتكون الأشجار فيها دائمًا في درجة الحرارة الّتي تعيش بها في بلادها المجلوبة منها، ومن أشهر هذه المحال المحل المتخذ لأشجار البرتقال؛ فإنه يحتوي

على سائر أصناف هذا النوع، حديثها وقديمها، حتى قيل إن أقدمها فيهِ من سنة 1421.

وفضلاً عن ذلك أن هذا البستان يشتمل في إحدى جهاته على مسكن بناهُ لويس الرابع عشر، فيه لصاحبتِهِ مدام دُه مانْتنُونْ سمي (جْرانْ تِريانُونْ)، وفيه كثير من الصور والنقوش، ولهُ حديقة فاخرة، وبجوار هذا المسكن بنى الملك لويس الخامس عشر مسكنًا لماري أنطوانيت، سمي(پتي تريانون)، وعمل له بستانًا جعل في إحدى جهاته شبه كفر من كفور الفلاحين بقرب بركة ماء، صُنعت فيهِ مشتمل على مساكن للمزارعين، ومسكن لصاحب الكفر، ومسكن للقسيس، ومحل للأبقار، وطاحون فكانت نساءُ السراي يأْتينَ إلى هذا المكان، ويتزيين بزِيّ الفلاحات، ويعشنَ بمعيشتهنَّ للتسلي بعض الساعات من الزمان.

وبعد أَن أتممنا التفرج على هذا البستان، وأَردنا الانصراف، تفرجنا على متحف العربات الموجود بإحدى جهاته، فوجدنا فيه كثيراً من العربات المزركشة، وكانت استعملت إحداها في موكب تتويج ناپليون الأول، واستعملت أخرى في زواجه، إلى غير ذلك من العربات المزخرفة الّتي استعملت في احتفالات الملوك السابقين، وحول جدران المتحف طقوم خيول العربات القديمة من جميع الأصناف.

ثم ركبنا العربات الّتي حضرنا فيها حيث كانت في انتظارنا، وسرنا عائدين لپاريس، سالكين طريقاً غير الذي سلكناهُ في الحضور، لتغيير المناظر، ومشارفة ما لم نشارفهُ قبل من المحلات. فمررنا على قرية ڤِيرُوفْلي، ثم قرية شاڤيلْ، ثم قرية سيڤْرْ، ورأينا معاملها الشهيرة بعمل الصيني من الخارج.

وهذه المعامل ملك للحكومة منذ سنة 1756، ويصنع فيها كثير من الأدوات الصينيَّة المنقوشة بأَحسن النقوش من عمل أشهر الرسامين، تُهدى إلى الملوك والأمراءِ للزينة، فإن قيمة القطعة الواحدة منها قد تبلغ الخمسين ألف فرنك، على أن فيها ما هو ثمنهُ أقل من هذا ، وبها محلات متعددة فيها المصنوعات مُعرَّضة لمن أراد التفرج، أو الشراءَ، مكتوبة أثمانها عليها، وبها متحف الأواني الصينيَّة، وهو مفرد في بابهِ، يحتوي على جميع أنواع الصيني من كل البلاد المعمولة في سائر الأزمان.

ثم عبرنا نهر السين، وسرنا مارّين بالاستحكامات، ثم بقنطرة أُوتُوي المقامة على نحر السين لمرور القطارات الّتي تسير حول باريس، واستمر بنا السير حتى وصلنا سراي التُروكاديرو، وسرنا على رصيف نهر السين حتى وصلنا ميدان الكونكورد، وصادفنا وقت عودة المتنزهين من شانزيلزيه، ومن غابة بولونيه، فنزلنا هناك للتمتع بهذا المنظر البهيج، وكنا قرب الغروب.

وبعد أن تعشينا بالفندق توجهت إلى التياتر الفرنساوي، حيث كنت أخذت ورقة لهذه الليلة قبل ذلك بأيام فتفرجت على قطعة (رُوِي بْلاَس)، من تأليف فيكتور هُوجُو، الشاعر الشهير، وانبهرت من التأليف، ونظام المحل، وحسن الإلقاءِ.

ولا عجب في ذلك فهذا التياتر معدود من أوائل تياترات فرنسا، وهو أَعلى ما يُلعب فيه الكومذيا والتراجيذيا، تُعينهُ الحكومة كل سنة بمبلغ 240 ألف فرنك.

وما رأيتهُ في اللعب الذي كان يُلعَب من البلاغة والحِكَم والنصائح التي كانت تُستنتج من سياق عبارات التشخيص، وما شاهدتهُ من اجتماع الناس

ومؤانستهم وتعارفهم ببعضهم في أثناءِ الفصول، فضلاً عما يترتب على ذلك من التشوق إلى التأليف، ومن تعيش المؤلفين من تأليفهم، والمشخصين من تشخيصهم، وتعيش العدد الذي لا يحصى من مستخدمي التياترات مثل مدير، وموسيقا، ومشتغل بالتلبيس، وحارس، وكانس، وحاسب وكاتب، وفضلاً عما يترتب على إنشاء محل التياتر نفسهِ من تيسر حركة تجار لوازم البناءِ من أخشاب وأدوات ومشي، حال الزخرفة من تحسينات وتذهيبات، كل ذلك حداني إلى التفكر فيما إذا كان عدم وجود التياترات في عوائدنا الشرقيّة مما يؤسف عليه أو مما لا يؤسف عليهِ، وفيما إذا كانت تنبغي في بلادنا أو لا تنبغي.

وإني لما أمعنت النظر والتأَمل في هذا الأمر، بدا لي أن التياترات مدار تركيب قطعها، واللعب فيها، في التأليف والتشخيص على النساءِ، وأن التياترات من غير امرأة تلعب أو تتفرج لا يستكمل نظامها، ولا يتم التئامها، ويبدا لي من جهة ثانية أن ذلك مستدرك عندنا من جهة النساءِ اللاعبات بوجود من لا تُلزِمهُنَّ عوائدهنَّ بعدم التبرج من الشرقيّات، ومثل ذلك في المتفرجات.

وأخذ بخاطري ما يترتب على التياترات من تهذيب الأخلاق، وبث مكارم الصفات، وصارت الافكار تترقى، والطريق ينطوي، حتى وصلت الفندق، ودخلت السرير، واستغرقتُ في النوم، ولم يكن ترجحَ عندي أحدُ الأمرين على الآخر فماذا تراهُ في ذلك أيها الصاحب القارئُ أفدني بالصريح والرأْي الصحيح ولا يكون جوابك محتملاً كقول من قال:

قلتَ بيتاً ليس يُدرَى أمديحٌ أَمْ هِجاءُ
خاطَ لي عمروٌ قَباءً ليتَ عينيهِ سواءُ

(تاسع يوم في باريس)

هذا اليوم يوم السبت 10 أغسطس سنة 1889 خصصناهُ بزيارة بعض أَنحاءِ باريس، فركبنا في الصباح من ميدان الأُوپرا، ومررنا من جران بلوار حتى وصلنا كنيسة مَاذلينْ، ومن هناك قصدنا ميدان كُونكُوردْ وشاَنْزِيليزِيه، وتفرجنا فيها على پَانُورَماَ رِيزُنفِيلْ، وهي عبارة عن محل مستدير يحيط بهِ من سائر أَطرافهِ رسم واقعة رِيزُونفيل الَّتي انتصر فيها الفرنساويون في حرب السبعين، وهو مصنوع بحيث يرى الرائي الأشياء كانها حقيقية، وكأن الحرب قائمة على ساق بين قتلى وجرحى، ومنتصرين ومنهزمين، وذلك بواسطة كيفيّة توجيهِ الضوء، وكيفيةٌ جعل الرسومات على وضع مخصوص.

ثم مررنا من جهة أَرْكْ دُه ترِيوُنْف (قوس النصر)، وسرنا حتى وصلنا إلى دار العواجز، وبها كنيستها وقبر ناپليون الأول، ومتحف الاسلحة، وما يتعلق بها، فدخلناها للتفرج عليها.

ودار العواجز هذه بناها لويس الرابع عشر سنة 1671 برسم العواجز المصابين في الحروب من متقاعدي العساكر الذِّين لا أَهل لهم، أو الَّذين يُفَضلون منهم المقُام بها على الإقامة عند أَهلهم، فيقيمون فيها إلى أخر حياتهم، تجري عليهم الأرزاق، يدبر أُمورَهم جنرال من أَقدم القواد، يأْكلون، ويتفسحون في بستان الدار المتسع، ويتفرجون على متحف الطوبجيةٌ، فيذكّرهم قديمَ المجد، ويتعبّدون في الكنيسة المبنيَّة لهذا

الغرض في نفس الدار، أو يتسلّوْنَ في محل الاستراحة بقراءة صحف الأخبار والتآليف الّتي يُهديها إلى الدار مَن هو على شاكلتهم في الإصابة، ولكن حالهُ المالي أَحسنُ من حالهم.

وتشغل دار العواجز المذكورة مساحة من الأرض تبلغ نحو 127 ألف متر مسطح، وهي جِعُلت لأن تسع خمسة آلاف شخص من هؤلاءِ وإن لم يكن فيها وقت زيارتنا منهم غير 400، فإن أغلب المصابين يوثرون المعيشة في بلادهم بالمعاش الذي تُجريهِ عليهم الحكومة عن المعيشة في هذه الدار، حباً في الاستقلال.

ويمتد بين هذه الدار ونهر السين ميدان غاية في الاتساع، يعرف بساحة دار العواجز طولهُ نحو 500 متر، وعرضهُ نحو 250 متراً، كما مر، تحتاط بهِ الأشجار العالية من كل جانب، وقد أُقيم بهِ في هذه السنة بعض أقسام المعرض كما سبق.

ويُفْصلُ هذا الميدان عن رحبة الدار بحاجز من حديد، وراءَهُ خندق موضوعة عليهِ مدافع تستعمل لإِعلام المدينة إذا اطلقت بالوقائع المهمة عند اقتضاءَ الحاجة.

ورحبة الدار المذكورة جُعِلت على هيئة بستان مزدان ببعض المدافع الّتي غنمها الفرنساوين في حروبهم مع الدول العظيمة.

وهيئة الدار غاية في العِظَم؛ فإن طول وجهتها يبلغ نحو 200 متر، وهي ذات ثلاث طبقات، تعلوها صُوَرٌ ناتئة في الحجر تمثل النصر والظَفَر في وقائع الحروب.

ومتحف الأسلحة واقعٌ في الجهة الغربيّة من بناءِ هذه الدار، وهو في غاية

الاستيفاءِ والكمال، جمع جميع الأسلحة قديمها وحديثها كبيرها وصغيرها، متقنها وغير متقنها، من البلاد المتمدنة وغيرها من سائر البلاد.

وبهذا المتحف عدة أروقة بعضها مخصص بالأسلحة الّتي تُستعمل للهجوم والدفاع من ناريّة وبيضاء، وبعضها مخصص بملابس الفرسان في الحروب، وبعضها خصص ببيان هيئآت رجال الحرب من الشعوب المختلفة في الممالك البعيدة، وبعضها بهيئة رجال الحرب في الأزمان الغابرة.

فالأسلحة المستعملة للدفاع تشمل ما يلبسُ المحارب لوقاية جسمهِ من صَدَمات عدوهِ، ويوجد في جملة هذه عدة من ملابس الملوك والأمراءِ والكبراءِ.

والأسلحة المستعملة للهجوم تشمل المدافع والبندقيات والطبنجات، وسائر الأسلحة الناريةُ، كما تشمل سائر الأسلحة البيضاءَ المستعملة عند جميع الأمم، وفي سائر البلدان. ويتبع الأسلحة المذكورة عُدد الخيل، وملابس المُحارب من رأسهِ إلى قدمهِ.

ورواق هيئآت رجال الحرب من الشعوب المختلفة بهِ صور اثنين وسبعين شخصاً مجسماً، لا بين ملابس الهيئات الحربيةُ على اختلاف أنواعها، في بلاد الجزائر الأوقيانوسية، وأمريكا، وسواحل آسيا، وأفريقية.

ورواق هيئة رجال الحرب في الأزمان الغابرة مشتمل على اثنين وسبعين شخصاً أيضاً على هيئة الجلالقة واليونان والرومان والفرنساويين، من زمن شارلمان إلى آخر القرن الثامن عشر.

وبجوار هذا الرواق، رواق ليس بأَقل من السابقين أهمية مشتمل على صور صغيرة مجسمة من الأسلحة من سابق الأزمان إلى الأزمان الحاضرة.

وقد رأَينا بأَحد المحال سلسلة من الحديد طولها 180 متراً، استعملها العثمانيون لوقاية وإِمساك جسر مدُّوهُ على نهر الطونة أيامُ محاصرتهم ويانه سنة 1683.

وفي محيط بعض الأروقة من الداخل رايات فرنساويةٌ مختلفة الأصناف والأشكال والأزمان.

أما الكنيسة فتنقسم إلى قسمين ممتازين عن بعضهما: محلُّ التعبد، وقبةُ قبر ناپليون. فمحل التعبد مزين ببعض الرايات الَّتي اكتسبها الفرنساويون من أعدائهم في الحروب، منقوش على عمدهِ أسماءُ الجنرالات الّذين تولوا أمر دار العواجز هذه وأسماء القواد المدفونين في هذه الكنيسة.

وقُبَّة القبر مستقلة بحيث لها باب من الخارج، وإن كان لها باب من الداخل، وهي عبارة عن مربع ضِلَعُهُ ستون متراً، وفي وسطهِ قبر ناپليون من قطعة واحدة من الحجر طولها أربعة أمتار، وعرضها متران، وارتفاعها أربعة أمتار ونصف، وحول القبر تماثيل مصنوعة في الحجر عددها عشرة تُمثِّل الإصلاحات الَّتي أَتمها ناپليون، مثل إعادة النظام وإصلاح الإدارة والمجلس الإداري والكود، وانتشار التجارة والصناعة إلى غير ذلك، ثم يلي هذه التماثيل، الوقائع الشهيرة الَّتي حصلت في مدتهِ، منقوشة في الحجر أيضاً، وفوقها ستون راية موضوعة بوضع لطيف، بقيت بدون إحراق من الرايات الَّتي اكتسبها من أعدائهِ في المحاربات.

وفوق هذا المربع محيط مستدير ارتفاعهُ خمسون متراً، بهِ اثنتا عشرة

نافذة، لكل نافذة بجانبيها عمودان من أحسن العمد، بحيث يبلغ الجميع أربعة وعشرين عموداً، وبين النوافذ صُوَر الحواريين، وفوق هذا المحيط محيط القبة، وهي مصنوعة من الخشب محلاةٌ من داخلها بأحسن الرسوم والنقوش والتماثيل، ومغطاة من الخارج بطبقة من الرصاص مطلي قسم منها بالذهب، بحيث تُرىَ من مسافات بعيدة.

وفي القبة غير قبر نابليون على بعد منهُ قبور بعض المشاهير من أقربائهِ، مثل قبر جيروم بوناپارت، مَلِك وستفاليا، وقبر جوزيف (يوسف) بوناپارت ملك أسپانيا.

وقد نُقِلت جثّةُ ناپليون لهذا القبر من محل منفاهُ في سنة 1840، وكُتِبَ على باب قبرهِ من الداخل هذه الكلمات مترجمة من وصيتهِ «أتمنى أن أُدفن على شواطئ نهر السين بين الأُمة الفرنساويّة الّتي أحببتها كثيراً».

ثم بعد انتهائنا من زيارة دار العواجز سرنا مارين على نظارة الخارجيّة وسراي مجلس النواب، فتفرجنا عليها من الخارج لعدم انعقاد المجلس في ذلك الوقت، وهذه السراي بنتها أميرة من أمراءِ البوربون سنة 1722؛ ولذلك تسّمت سراي البوربون، ثم انتقلت بعد مدد إلى الحكومة، فجعلتها مقرًّا لمجلس الأمة ثم لمجلس النوّاب الآن، ويبلغ عدد أعضائهِ 574 عضواً ووجهة هذه السراي المتجهة إلى نهر السين بنيت في سنة 1804 تشبه كما تقدم في ثاني يوم في پاريس وِجهة كنيسة مادلين المقابلة لها على بعد، من حيث إنها مرتفعة يُصْعَدُ إليها بسلم يعلوهُ اثنا عشر عموداً.

ومن أَحسن التماثيل المنقوشة في الحجر على هذه الوجهة التمثيل

المرسوم في القطعة المثلثة الّتي تعلو العمد في مقدَّم هذا البناء، حيث مَثّل فرنسا ماسكة بيدها القانون الأساسي تحيط بها الحريّة والنظام العام والتجارة والزراعة والسّلم، وغير ذلك من الصور الناتئة في الحجر.

ثم سرنا بعد ذلك على حافة نهر السين، فمررنا بجوار قنطرة ميدان كونكورد، ومررنا بجوار سراي ليجْيُون دُونُور إلى أن وصلنا السراي الملوكيةُ (پَاليه رُوَيَّال).

وهي من أشهر مواقع باريس بناها في الأصل الكردنيال رشليُو الشهير (من سنة 1619 إلى سنة 1636)، ثم أوصى بها لويس الثالث عشر فصارت تنتقل من أمير إلى أمير، ومن ملك إلى ملك، ومن حكومة إلى حكومة، حتى ورثتها الحكومة الحالية، وهي لا تزال تسمَّى السراي الملوكيّة بعد أن كانت في أول نشأتها تسمى السراي الكرديناليّة.

وقد بنى أحد الأمراءِ الذّين ملكوها الدكاكين الّتي تحيط ببستانها، وهي تنقسم إلى قسمين ممتازين عن بعضهما: السراية الأصليّة ووجهتها واقعة على الميدان المعروف باسمها تجاه قسم سراي اللوفْر الذي يسكنهُ ديوان الماليّة، والقسم الآخر البستان مع الدكاكين الّتي تحيط بهِ.

أما السراي فبأعلاها (كونْسِيْ دِيتا) المجلس الإداري، وبأسفلها دكاكين متسعة مسقوف أمامها بِسُقُفٍ مركوزة على عمد، يسكن غالبها مشاهير بائعي الكتب، وملتزمي طبعها، وبأحدها شُوقِيهْ الشهير ببيع الفواكه والخضراوات في أوانها، وغير أوانها، حيث تُجْلَبُ إليهِ من سائر أقطار العالم.

أما الحوانيت المحدقة بالحديقة فتفْتح أبوابهَا إلى ممشى يحيط بالبستان مغطًى بِسُقُفٍ محمولة على عمد، وتُفتح أيضاً من الجهة المقابلة لأبوابها

المذكورة إلى الشوارع المحيطة بالسراي من الخارج، فلكلّ منها بابان وتُباع فيها أَصناف المجوهرات والحلي وأَدوات الزينة والزخرفة بسائر أنواعها، وفوقها في الطبقة العليا منها محالٌ للأكل بأثمان عالية وغير عالية، وأما الحديقة فطولها 230 متراً، وعرضها 100 متر، بكل جانب منها أربعة صفوف من الأشجار، وفي وسطها حوض ماءٍ تعزف بجانبهِ الموسيقا العسكريّة ثلاث مرات في الأسبوع وقت العصر حيث تتماشى حولها الرجال والشبان والنساءُ الحسان.

وفي الجانب الغربي من الجهة الشماليّة تياترو (پَالي رُويّال) السراي الملوكيّة، يُلعب فيهِ بالروايات ذات الأغاني المفرحة والتمثيلات المضحكة.

وبعد أن تفرجنا على هذه الأمكنة وتغدينا بأَحد الفنادق بها أَحسن الغداءِ ركبنا العربات ثانيةً، فتفرجنا على كنيسة سَانْت أُوسْتَاشْ الشهيرة لِقِدَمِها، وقد بنيت في أكثر من مائة سنة (من سنة 1532 إلى سنة 1637)، وكثيراً ما تقصدها السياح لزخرفتها وإتقانها.

ثم تفرجنا على (هَالْ سَانْتِرالْ) السوق المركزيّة، وقد سبق لك بيانها، فرأَينا فيها اليوم من المحاسن ما لم نرهُ في أول مرّة، وهكذا مثل هذه المحلات المتسعة، كلما تردد عليها الإنسان رأى فيها ما لم يرهُ أولاً، وزاد إعجابهُ بها، ومن جملة ما رأَيناهُ اليوم أن الأسماك بها تُحفظ، وفيها الحياة في حياض مياهها دائماً متجددة بواسطة مواسير تمدها بالمياه على الدوام، فالبائع يفرّج الشاري على السمك فيأْخذهُ لو أعجبهُ، وإن لم يعجبهُ أعادهُ صاحبهُ إلى الماءِ فيبقى بدون خطر عليهِ مهما طال الزمان.

ثم مررنا من هنالك على بلوار سواستابول، وهو من أحاسن بلورات

باريس، بعد البلوارات الكبيرة، ومنهُ سرنا إلى ساحة الجمهورية، ومنها إلى ساحة الباستيل المعلومتين لنا من تفرُّج سابق.

ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي سالكين من سكة لارُوكيت قاصدين التفرج على مدفن (پيرْلاَشِيزْ)، مارّين قبل الوصول إليهِ بجوار حبس (لارُوكيِتْ)، وهو مختص بحبس المحكوم عليهم بالنفي أو القتل، وأمامهُ الحبس المعروف بحبس الشبان، وكلاهما على شكل القلاع أسود الوجهة، محزن المنظر، وبينهما ميدان يعرف بميدان التنفيذ؛ لأن أحكام الإعدام تُنفَّذُ فيهِ، فتُنصب آلة الجِيلْيوتينْ (نسبة إلى مخترعها الدكتور جيلْيُوتَانْ) في وسطهِ.

وحاصل ما يكون في أمر الإعدام أن كل من يحكم عليهِ بهِ ينُقل إلى ذلك الحبس، ويوضع في غرفة بانفرادهِ، يلاحظ فيها بكيفيَّة مخصوصة لا تُمكنهُ من قتل نفسهِ قبل تنفيذ حكم القتل العلني عليهِ، ويبقى في ذلك الحبس ينتظر الحكم من محكمة النقض والإبرام بسبب تظلمهِ إليها، فإن كان حكمها برفض تظلمه لا يُعلن إليهِ ذلك الحكم إلا قبل التنفيذ بساعات، ليعيش المدة الباقية من عمرهِ في الأمل والرجاءِ، فإذا جاءَ وقت التنفيذ وصدر أمر النائب العمومي بهِ جاءَ إلى ذلك الحبس قبل شروق الشمس بنحو ساعة كاتبٌ من المحكمة، ورئيس الحبس، فيدخلان على المحبوس، وينُبهّانِه من نومهِ، ويتلو عليهِ الكاتب رفض تظلمه الذي رفعهُ إلى محكمة النقض والإبرام، ويسأَلهُ مأمور الحبس عما يرغبهُ من مأْكل ومشرب وغيرهِ، ويدعوهُ إلى تغيير الثياب، وحينذاك يحضر حلاق الحبس فيحلق له شعرهُ من جهة القفا لسهولة مشي السكّين، ويختلي به قسيس الحبس ليعترف لهُ بذنبهِ، ويتوب على يدهِ إن إراد، ثم يساق إلى حيث نصبت آلة العذاب، ومعهُ القسيس فيرقي سلمها، ويستلمهُ معاونا مأمور التنفيذ، وهو مكتوف

الأيدي، فيُميلانهِ إلى الأمام ويحجزانهِ عن الاعتدال بقطعة من الخشب ثقيلة تنطبق عليهِ، والناس وقوف حول هذا المحل، تمنعهم العسكر بالسلاح من زيادة التقربِ إليهِ، والمحكوم عليهِ يكون تارةً في حالة تجلدٍ، وتارة بعكس ذلك، كل هذا قبل شروق الشمس، فإذا أشرقت وسطع نورها كأنها تشير إلى إحقاق الحق، وظهورهِ، قطع مأمور التنفيذ الخيط المعلق بهِ سكين الآلة (وهي شبيهة بِمفْرَمة الدخان) المثقلة بالرصاص فتنقض على قفا المجرم، فتسقط رأسهُ في سبت مملوءٍ من الردّة، وما يلبث إلّا أن تؤخذ رأسهُ مع جثتهِ في عربة مغطاة تسير بها إلى المقبرة فيدفن فيها المقتول ظاهراً، ويحرر المحضر بذلك، وفي الحقيقة أنهُ يُسلمُ إلى مدرسة الطب لتُجري فيهِ عمليات التشريح في غالب الأحيان فلما وصلنا إلى (مقبرة پيرْلاشيز) تفرجنا عليها، وهي أهم مقابر پاريس بجهة الشرق منها، وبها مقبرتان غيرها إحداهما مقبرة مُونْمارْتر في جهة الشمال، وثانيتهما مقبرة مُونْبَارْنَاس في جهة الجنوب.

وسميت بمقبرة پيرلاَشِيزْ نسبَةً لاسم قسيس لويس الرابع عشر، كانت لهُ دار بموضع الكنيسة الّتي في المقبرة اشترتها منهُ المدينة، وجعُلت في محلها الكنيسة المذكورة، واشترت بعض محلات حولها، وصارت تتسع المقبرة إلى أن صارت الآن أشبه بمدينة مسطحها 44 هيكتاراً، تُدفن فيها سائر أصناف العالم، وترغبها الأغنياء من الناس.

وطرق الدفن في مقابر پاريس ثلاث: أولها طريقة دفن الفقراءِ، وثانيها طريقة الدفن المؤقت، وثالثها الدفن الدائم، أما دفن الفقراءِ فإنهم يدفنون مجاناً في (الحفر العموميّة)، الواحدة منها تسع نحو الخمسين، وتُردم عليهم، ويدفن في غيرها حتى يمضي وقت تذوب فيهِ الأموات فتفُتح

حينذاك، وتنقل عظامهم منها أو تُحرق، ويدُفن فيها غيرها وهكذا، وأما الدفن المؤقت أو الدائم، فيكون بشراء قطعه من الأرض من البلديّة للدفن فيها لمدة أو إلى الأبد، وأصغر قطعة تلزم لدفن شخص واحد متران مربعان من الأرض، وثمنها في الشراءِ الدائم سبعمائة فرنك ولمدة ثلاثين سنة 300 فرنك، ولمدة خمس سنوات 50 فرنكاً، وإذا زاد العدد عن مترين كان ثمن كل متر يزيد ألف فرنك إلى ستة أمتار، فإذا زاد عن الستة كان ثمن كل متر يزيد عنها ألفي فرنك.

وتُدفن الأموات في پاريس بمعرفة شركة مخصوصة تَدفن الفقراء مجاناً، وتدفن غيرهم بحسب الدرجة الَّتي يرغبها أهلوهم ، ولها تعريفة بها تسع درجات معمولة بتصديق البوليس، أدنى درجة فيها 12 فرنكاً، و75 سنتيماً، وأعلاها 7144 فرنكاً، ولا يدخل في ذلك ثمن الأرض الَّتي تُشترى في المقبرة، ولا ما يعطى في الكنائس نظير الصلوات والدعوات.

وتُفتح هذه المَقبرة وغيرها من الصباح والمساءِ، فتخرج منه الناس حينئذٍ، ولا يجوز لهم أخذ أي شيءٍ معهم منها حتى من الزهور إلّا بإذن أصحاب الإدارة فيها، وكلها مقسمة إلى سكك وشوارع تُعرف بأسماء لها وهي غاية في الانتظام، تكتنفها الأبنية العالية المزخرفة بالتماثيل والنقوش والصور، ولكن قلما تكون هذه القبور المزخرفة لمشاهير الوطنين والعلماء، إلّا أن الخلف قد تكفّلوا مع ذلك بأن يَشيدوا لبعض هؤلاءِ من الآثار الحجريّة ما يجعلهم لا يخجلون ممن بجوارهم من الأغنياءِ لو كانوا أحياء، وإن كانت تآليفهم وأعمالهم النافعة لوطنهم وللجنس البشري تُغنيهم عن جميع ذلك.

والطرق الكبيرة منها مظللة بالأشجار تجري بجوانبها المياه المخصصة

بري الحشائش النباتيّة في سائر أنحاءِ المقبرة، حتى صيّرتها على اتساعها كبساط سندس أخضر، غاية في اللطف والبهاءِ، فيقصدها كثير من الناس لاسيّما في بعض أيام من السنة للتفسح وزيارة الأموات، حتى يبلغ عدد الزائرين فيها في اليوم الواحد نحو المائة ألف نفس في ذلك الأوان.

وبإحدى جهات هذه المقبرة فرن مجعول لإحراق الأموات على طريقة القائلين بعدم الدفن في الأرض، خشية أن تؤثر في الأموات عواملُ الرطوبة، فتمتص الأرض منها مواد العفونة فتبعثها إلى المياه الّتي تمد الأنهار، فتشرب منها أصناف المخلوقات، فتضر بالصحة العموميّة، ولهذا رأى هؤلاءِ القوم أن تُحرق أمواتهم، ويحُفظ ترابها عند الأقرباءِ، فَبُنيَ هذا المحل لهم في هذه المقبرة من باريس، وابتدئَ في إحراق من يوصون لأنفسهم بهِ أو من يرغب أهلوهم فيهِ يوم 30 يناير سنة 1889. حيث أُحْرِق فيهِ شخص أوصى قبل موتهِ بذلك.

وهذا المحل عبارة عن قاعة ينتظر فيها الأحباب والأقرباءُ، ويُدخل بجثة الميت إلى محل بها فيهِ تنور، يوقد بالخشب من سائر أكنافهِ، ويُوضع الميت على معدن في وسطهِ غير قابلٍ للاحتراق، ويستمر الإيقاد. حتى تبلغ درجة الحرارة نحو 800 درجة والجسم لم تمسهُ مع ذلك كلهِ النار، بل يذوب من شدة الحرارة وانعكاس أشعتها فيهِ بدون أن يسمع نشيش أو فرقعة أعضاءٍ منهُ، فإن الغازات الّتي تتكوّن من الحريق تنصرف في مسالك عُملتْ لها، وتُستهلك بها بحرارة ثانية تتسلط عليها فيها، فلا يمضي نحو ساعة ونصف، أو ساعتين بالأكثر من وقت وضع الجثة بذلك المحل إلّا وقد احترقت، وصارت رماداً، وزنهُ بقدر جزءٍ من اثني عشر من زنة الجسم قبل الاحتراق، فتستلم أهل الميت الرماد، وتذهب بهِ إلى حيث تشاء، وقد هلك كل شيءٍ منهُ حلّتهُ الحياة.

وبعد أن فارقنا مقبرة پيرلاَشيز سرنا من البلّورات الخارجيّة، ومررنا من بلوارمِيلينمُونْتان وبلوار بلِڤيلْ حتى وصلنا متنزه بُوتْ شُومُونْ، وجدير بنا التنزه بِهِ بعد رؤْية مكان التنفيذ ومقبرة الأَموات.

وهذا المتنزه أنشئ على قطعة كبيرة من الأَرض، أصلها مرتفع، استُخْرِجَ منهُ كثير من الأحجار، فصار كثير الأَنجاد والأَغوار، كان قبل جعلهِ متنزهاً تأْوي إليهِ الأشقياءُ وتودع فيه الأقذار، إلى أن صار تنظيمهُ بالحالة الَّتي هو عليها الآن، وصار الانتفاع في ذلك التنظيم بمحلاتهِ العالية حيث أُقيمت فيها الكهوف الصناعيّة الشبيهة بالكهوف الطبيعيّة الَّتي بالجبال، يخترقها نهر ينصب منها على ارتفاع عشرين متراً في بحيرة صناعيّة متسعة، تُحدق بهذه الكهوف، وقد صار توصيل واحد من هذه الكهوف لآخر منها بكوبري من الحديد جعل بينهما على طول ثلاثة وستين متراً، مرتفع عن سطح الماءِ بأكثر من ثلاثين متراً، يتمتع فوقهُ الناظر بمنظر بهيج باهر، فإذا صعد إلى كهف أَعلى انكشف أَمامهُ منظر جزءٍ عظيم من المدينة فإذا علا منهُ إلى الصخرة الَّتي بعدهُ بواسطة كوبري أُقيم بينهما من الحجر انكشفت لهُ المدينة بتمامها، ونعم المنظر الحسن.

والحاصل أن هذا المتنزه جعل ذلك المحل الخرب الذي أُقيم فيهِ من أبهج المحلات، وحَسَّنَ قيمة جميع الأرض المجاورة لهُ، وقد كانت قبلهُ مهملة لا تُباع ولا تشرى، فصارت بمجاورتهِ مقرًّا للمعامل المعتبرة والمصانع العظيمة كما قيل:

يلومونني أن بعت بِالْرّخص منزلي ... ولم يعلموا جاراً هناك يُنَغِّصُ

فقلت لهم كُفّوا الملامَ فإنما ... بجيرانها تغلو الديار وترخُصُ

وصار يسكن ما جاور هذه المعامل من المساكن من يشتغل بإدارتها من العمال، وربحت الحكومة الّتي قامت بهذا العمل من أثمان تلك الأرض المجاورة ما عَوَّضها الذي صرفتهُ في سبيل هذا الإصلاح من المال، فهي زيادة عن أنها لم تخسر شيئاً في هذا العمل قد أكسبت المدينة متنزهاً من أحسن المتنزهات يبلغ مسطحهُ أكثر من 22 هيكتاراً.

هذا وإنني بعد أن طالعت من كتاب الدليل في خصوص هذا المتنزه ما تقدم معناهُ، وأعقبت ذلك بالمشاهدة يصحبها الإعجاب والاستحسان انصرفْ خاطري في الحال، وأنا على ذلك المرتفع، إلى الوطن العزيز ومصرهِ، فتذكرت ما ترتب على تنظيم الشوارع بجهة التوفيقية من ارتفاع قيمة الأرض بها بعد أن كانت بدون القيمة، وتمنيت أن لو استمر الإصلاح في طرق القاهرة، وصار توسيع الضيق منها بشوارع متّسعة معتدلة منتظمة لتبثَّ، وتنتشر بداخل البلد، ومساكن الوطنيين فيهِ موجبات الصحة من طيب الهواءِ وتجديدهِ، وانتشار الشمس بالأماكن وزوال الرطوبة منها، ولا تَصْرِفُ الحكومة في هذا الإصلاح إلّا القليل في ابتداءِ الأمر لانتفاعها بعلو قيمة ما يبقى من المحلات الّتي تشتريها لمرور الشوارع منها، وهي تأْخذها نظراً لحالتها الأولى بأبخس الأثمان، فهي لا شك تربح أكثر مما صرفتهُ أوّلاً، وهب أنها خصصت بذلك في الميزانيّة مبلغاً سنويًا من المال تصرفهُ من غير أن يعود عليها عِوضَهُ، فلا ريب أنها تُحمد على ذلك، وتكون قامت بالواجب نحو عاصمة البلاد، وأدَّت ما ينبغي عليها من الإصلاح فيها ومرضاة أهليها بوسائل التحفُّظ على صحتهم المقدمة على المال.

وإذ وصلت إلى هذا الحد من التأمل، أخذ الدليل يصحبنا، يشير إلينا بالنزول من المرتفع لنسير إلى التفرُّج على ما بقي من الآثار في هذا النهار،

فتبعناهُ وخرجنا سائرين في شارع لَافَاييتْ، ثم شوارع پوُرث سانْ مارْتَانْ وسَانْ دنِيسْ وما بعدها من البلورات، حتى وصلنا إلى محل كوكْ، ثم منهُ إلى الفندق آخر النهارْ.

وتوجهت في الليل مع صاحب لي من الفرنساويين صحبتهُ في مدة دراستي، وقد ساقتهُ المصادفة بطريقي في هذا المساءِ إلى تياتر (پالي رُوَيَّال) الذي سبقَ القول فيهِ بأنهُ مخصص بالتمثيلات الأضحوكيَّة، والروايات ذات الأغاني الهزليّة، فتفرجنا، وتحصلنا على ما لم يكن يخطر لنا من السرور والأُنس والانبساط على بال، حتى بعد نصف الليل، فافترقنا بعد أن استودعت صاحبي لسفرهِ في صباح اليوم التالي إلى جهة أعمالهِ وتوجهت إلى الفندق، فنمت إلى الصباح.

* * *

(عاشر يوم في باريس)

كنا خصصنا هذا النهار وهو يوم الأحد 11 أغسطس سنة 1889 بالاستراحة من التنقل في جهات باريس، وعزمنا على زيارة مُوجيل بك رئيس الإرساليَّة المصريَّة بفرانسا، حيث ابتدأنا هو بالزيارة، وصحبنا لزيارة بعض المدارس كما قدّمنا ذلك.

فتوجهنا إلى منزلهِ في طريق رِينْ راكبين عربة، فصادفنا عندهُ جيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع بمصر وقت ذاك، لكنهُ كان بباريس حينئذٍ بإجازة، فألحَّ على سيدي الوالد العزيز أن نذهب معهُ للتفرُّج على دار الصنائع والفنون (كُنسِرْ واتْوَارِدِيزَارْ زِيمتْيِهْ) بها قائلاً: إن فيها من الأشياء المفيدة والأدوات المهمة ما يسر سيدي لرؤيتهِ ولما لم نجد بُدًّا من التخلص، صحبناهُ وركبنا عربة سرنا بها حتى وصلنا بلوار سباستاپول، ووجدنا على اليمين منهُ الميدان المنسوب إلى اسم هذه الدار، فدخلناهُ، ودخلناها من بابها المدخول لهُ من هذا الميدان.

وتشتمل هذه الدار على متحف للصنائع والفنون، وعلى محلات معدة للتدريس، وقد صدر الأمر بإنشائها في سنة 1794، وإن كانت فكرة إيجاد متحف للآلات موجودة قبل هذا التاريخ.

وأول من أخذ في جمعها ڤوكانْسُونْ الميكانيكي الشهير، حيث أوصى للحكومة بمجموعتهِ الَّتي صرف في جمعها نفيس العمر والمال من سنة 1775 إلى سنة 1783، فكانت أساس هذا المتحف العظيم.

فإذا دخل الإنسان من الباب وجد رحبةً على اليمين منها كتبخانةٌ، تشتمل على 25 ألف كتاب، ووراء الكتبخانة متسع تحيط بهِ محال تدريس ثلاثة، ومحال معامل عن يمينها قاعة الآلات، وعلى اليسار من هذه الرحبة محالُ بعضها للإدارة وبعضها لبعض آلات المتحف، والجزء المهم من هذا المتحف مواجه لمدخل رحبة الدار.

ويُصعَدُ إليهِ بسلم متقن الصنع، عظيم الارتفاع، على يمينهِ تمثال پَاپَانْ مخترع الماكينات الَّتي تدور بِالبخار (ولد سنة 1647 وتوفي سنة 1714)، وعلى يسارهِ تمثال لُو بْلاَنْ (ولد سنة 1742 وتوفي سنة 1806) وهو أول من استخرج من الملح الصودا العظيمة النفع في الكيمياءِ الصناعيَّة.

وينقسم ما جُمع في هذا المتحف إلى أربعة وعشرين قسماً، كل قسم منها ينقسم في حد ذاتهِ إلى عدة أقسام، وقد بلغ فهرست ما دخل تحت هذه الأقسام في سنة 1882 إلى 9925.

وقد بذل كمال الاعتناءِ في جعل ترتيب الآلات بحسب تاريخ اختراعها من أول نشأتها حتى وصلت إلى الحالة الَّتي هي عليها الآن، فآلات النسيج مثلاً رأيناها على حالتها الأولى من السذاجة، ثم تقدمت تدريجيًا حتى وصلت إلى ما هي عليهِ الآن، والقناطر رأينا كيف كانت تُصنع في أول الأعصار، ثم كيف تقدم عملها بالتدريج، ومثل ذلك السفن الحربيَّة، وبعدها البخاريَّة ممثلة بأشكال صغيرة غاية في الدقة والاستيفاءِ، ثم آلات الكهرباءِ، ثم غير ذلك من جميع الالآت الَّتي تدار باليد، وبالبخار، حتى وجدنا أدوات رفع المياه، أولها شبه تابوت من خشب كالمستعمل عندنا، عثروا على قطعة منهُ نحو الربع في بلاد الأندلس، حيث كان يُستعمل لرفع المياه فيها قبل الآن بستمائة سنة،

فجلبوا هذه القطعة إلى هذا المتحف، واستمرت بعد ذلك الآلات في التقدم حتى وصلت إلى ما هي عليهِ من الإتقان.

فتفرجنا على جميع القاعات بالطبقة الأرضية والعلويّة، ومعنا جيجون بيك، وأمين المتحف الذي هو صاحبهُ ورفيقهُ من وقت التعليم بالمدرسة يُفَهِّمانِنَا خصائص جميع الأشياء.

فأول قاعة دخلناها بعد الدهليز القاعة المعروفة بقاعة الصوت، سُميت بذلك لأنها مبنية بهيئة هندسيَّة من مقتضاها أنهُ إذا أوقف إنسان بركنٍ من أركانها، ووقف آخر في الركن المقابل لهُ، وتكلم أحدهما بصوت غاية في الانخفاض فإنهُ يسمعهُ الآخر لا محالة، كما شاهدْنا ذلك، ورأينا فيها من التحف معادن حديديَّة على هيئتها الأصليَّة، وعلى هيئتها الَّتي استعملت فيها بعد ذلك بالسفن وأدواتها.

وتفرجنا في غير هذه القاعة على المقاييس والمكاييل، فرنساويةٌ وأجنبيَّة، وعلى الآلات المتعلقة بعلم هيئة الأرض ومساحتها، وبالفلك، والمتعلقة بالساعات وبمقياس الهواءِ، باصطناعِ تروس الساعات، وبالآلات الهندسيَّة.

وفي غيرها على متعلقات العمارات المدنية من حدائد، وأقفال، ومرمر وأخشاب، وفي غيرها على كيفيات قَطْع الأحجار وآلاتها.

ثم في أخرى على الآلات والأدوات المتعلقة بالمياه، وأخصها القناطر والجسور، وفي أخرى على الآلات المتعلقة بالإنارة والتدفئة وتهوية الأماكن.

وفي قاعة على آلات استخراج المعادن من محالها وتنقيتها وكيفيَّة تطريق الحدائد واصطناعها.

وفي قاعة على آلات وأبنية الزراعة بجميع، أجناسها وأصنافها.

وفي قاعة على آلات شتى منها طاحون هواءٍ، ثم سفينة شراع، ثم آلات تدور بالخيل، ثم آلات تدور بقوة الماءِ، ثم آلات تدور بالبخار على اختلاف أَصنافها وأَشكالها، ثم آلات تدار باليد مستعملة في كل الصنائع والحِرَف، ثم آلات السكك الحديديّة ووابوراتها، والآلات المستعملة في الكيماءِ الصناعيّة، والمستعملة في المأكولات والمشروبات والأعمال المنزليّة.

وفي قاعة على آلات الغزل والنسيج وأدواتهِ بأَصنافها وحولها جميع المنسوجات من حرير وقطن وصوف، حتى رأَينا من أَبسطة جُوبْلاَنْ وبُوفْيه الشهيرين.

وفي قاعة على الآلات المتعلقة بالفنون الكيماويّة، مثل فن النقش والتصوير على الأقمشة، وفن صنعة الورق، وما يتركب منهُ من المواد، وفن الطبع بالحروف والحجر والنقوش والصور ذات الألوان وآلات الكتابة، ثم آلات الفطوغرافيا.

وفي قاعة على آلات الصباغة وآلات صنع أواني الفخار والصيني وأواني الزجاج والبلور، ومواد تركيب ذلك، وكيفيات عملهِ.

وفي قاعة على مصنوعات البلور والزجاج بما فيها من تقليد حجارة الألماس الثمينة، وبجوارها قاعة هذه المصنوعات من بلاد الأجانب، ثم قاعة الماكينات الحسّابة والعدّادة، وغيرها من مماثلاتها من الماكينات.

هذا من حيث الآلات، وأما من حيث التعليم فيها فأهميتهُ بالنسبة للصنائع والفنون كأهمية التعليم بمدرسة سُوْربون الجامعة الشهيرة بالنسبة للعلوم والآداب.

وهو عمومي مجاني ليلي علمي، عهدت بهِ الحكومة إلى أشهر العلماءِ، يقصدهُ من لا يُحصى عددهم من النّاس، فيزيدون في الدرس الواحد عن 600، ولا ينقص متوسطهم عن 250 أو 300، يقعدون على مدرج مُنَوَّر مُدَفَّأ مُغَيِّرٍ هواؤهُ على حسب الفصول. فتدرس بهِ الهندسة والمكانيكا والطبيعة المتعلقات بالصنائع، والهندسة الوصفيّة، والعمارات المدنيّة، والكيمياءُ من حيث تعلقاتها بالصنائع على العموم، بأعمال الصباغة، وأواني الفخار والصيني والزجاج على الخصوص، والكيماءُ الزراعيّة، وعلم الزراعة ، والمباني الزراعيّة، والتدبيرُ الصناعي، وعلمُ الغزل والنسيج والتدبيرُ السياسي، والقوانينُ المتعلقة بالصناعة، والتدبيرُ الصناعي، وعلمُ الإحصاءِ، والقانونُ التجاري.

ويلي محلات التعليم معامل كيماويّة للتعليم العلمي، ثم قاعة الآلات البخاريّة يديرها البخار، فتدير الآلات، تصنع سائر المصنوعات، وكانت تشتغل أيام الآحاد قبل أن يتقرر إيقافها حتى تنقل إلى محل جديد لعدم متانة المحل الذي هي به الآن.

وفي قاعة الآلات البخاريّة هذه تُخْتَبَرُ المخترعات، فيحرر المكلفون باختبارها تقريراً يخبرون فيهِ بالنتيجة الّتي صار حصولها من تشغيل الشيءِ المخترع بدون مدح ولا إطراءٍ، مقتصرين على ذكر الواقع ليس إلّا وفيهِ الكفاية.

ولم نفرغ من زيارة هذه الدار إلّا قرب انتهاءِ النهار، وقد شغلتنا عن الأكل بدائعها ونفائسها وإتقاناتها وتحسيناتها، وما يستدل بهِ فيها على اتساع معارف الإنسان وترقياتهِ التدريجيّة إلى أوج الكمال، وعلى ما جاءَ بهِ العلماءُ من خدمة النوع البشري ببديع اختراعاتهم الّتي اهتدوا إليها بأنوار

العلم والعرفان، وكنا مع كثرة المشي وطول مدتهِ لم نكَد نستشعر بهِ لاشتغال جميع حواسنا بهذه المشاهدات.

وشكرنا صاحبنا الذي كان الأصلَ في هذه الزيارة، وصاحِبَهُ الذي تكرم علينا بالتعريفات والإيضاحات وانصرفنا.

وقد وجدت في نفسي بعد الأكل والاستراحة لَمَّا أتى الليل القدرة على التوجه للأوپرا، حيث كنت تحصلت على تذكرة لها من مدة أيام، وكنت أنتظر هذه الليلة كل الانتظار، فوجدت فيها من انشراح الصدر وفي بنائها من الإحكام والإتقان ما تقدم الإلماع بشيءٍ منهُ عند ذكر وصف هذا التياتر في فسحه ثاني يوم بپاريس.

* * *

(اليوم الحادي عشر في باريس)

خصصنا هذا اليوم (الموافق يوم الاثنين 12 أغسطس سنة 1889) باستكمال زيارة باريس، فركبنا عربة من عربات كوك، وكان الدليل بها من أهالي سوريا العارفين بأحوال مصر بواسطة تردده عليها مع سُياح كوك في فصل الشتاءِ، فصار يترجم عن الآثار والمشاهدات لرفاقي بالعربي، ثم بعدهم يترجم بالإنجليزي لغيرهم من الرفقاءِ الإنكليز.

فمررنا أولاً بعمود واندُوم، وهو على القرب من الفندق الذي كنا نسكنهُ ببعض خطوات كما سبق في غير هذا المحل، قائم في وسط رحبة تعرف باسم ميدان واندوم.

وقد أقام هذا العمود ناپليون الأول من (سنة 1806 إلى سنة 1810) تخليداً لذكر جيشهِ الذي ظفر بهِ على النمساويين والروسيين في سنة 1805، وبأعلاهُ صورتهُ مجسمة، وارتفاعهُ 43 متراً و50 سنتمتراً، وقطرهُ يبلغ نحو أربعة أمتار، وهو وإن كان هدمهُ رجال الكومون سنة 1871 إلّا إنَّهُ بُنِيَ بعد ذلك كما كان.

وهو مبني من الداخل مُغطًى من الخارج بطبقة سميكة من البرونز، تحيط بهِ على شكل حلزوني، بحيث يبلغ ما يغطي ساقهُ من هذه الطبقة 273 متراً، وكلها منقوشة بالتصاوير الناتئة فيها، تمثل أشهر وقائع جيش ناپليون المعروف بالجيش الكبير في سنة 1805، أما هذا البرونز الذي عُملت منهُ هذه الطبقة وتمثال ناپليون الأول الذي يعلو العمود فمأخوذ من 1200 مدفع من المدافع

الّتي اغتنمها الفرنساويون في حرب السنة المذكورة من النمساويين والروسيين، ويصعد بهذا العمود من الداخل إلى قاعدة التمثال السالف ذكرهُ، فيجد عندها الصاعد متّسعاً محاطاً بدرابزين من حديد يُطل على أحسن مواقع پاريس.

وانتقلنا من هذا الميدان إلى سكة كاسْتِجْلِيُون، حيث الفندق الذي نحن بهِ، ومنها إلى سكة ريڤولي، فوصلنا سراي اللوڤر.

(سراي لُوڤْر) هذه السراي واقعة بين سكة رِيڤُولي السالف ذكرها ونهر السين، وهي أهم عمارات پاريس بالنسبة لبنائها، وما تشتمل عليهِ من نفيس الآثار، كما أنها أعظم عمارات پاريس من حيث السعة والشهرة، بل هي من أشهر عمارات أوروبا بأجمعها.

وهي من أقدم العمارات الملوكيّة بپاريس، كان في مكانها سابقاً حصن بناهُ أحد الملوك بجانب سور المدينة، وتلاهُ آخر فبنى بجوارهِ قصراً لإقامتهِ إلى أن أتى فرنسوا الأول (سنة 1541)، فهدم القصر والحصن، وشرع في بناءِ هذه السراي مكانهما، واستمر في البناءِ والتوسيع كل من أتى بعدهُ من الملوك، حتى صارت سراي اللوڤر على ما هي عليهِ الآن، فهي من عمل فَرَنْسُوَا الأول وجميع الملوك الّذين أتوا بعدهُ، حتى أتمها ناپليون الثالث الأمبراطور، فأوصل ضلعيها الشمالي والجنوبي بضلعي سراي تُويلِري الّتي جعلها مقرًا لهُ، ومركزاً لأمبراطوريتهِ.

وتنقسم هذه السراي إلى قسمين: اللوڤر العتيق، واللوڤر الحديث، فالعتيق عبارة عن البناءَ المربع بجهة الشرق المحيط بالرحبة الداخلةِ فيه، والحديث عبارة عن الجناحين الشمالي والجنوبي المتصلين بضلعي هذا

المربع الشمالي والجنوبي، الممتد كُلٌّ من هذين الجناحين من الشرق إلى الغرب بموازاة بعضهما، وسكة ريفولي ونهر السين حتى يتصلا بضلعي سراي تُويلرِي الَّتي جعل مكانها الآن حديقة منذ أحرقها أهل الكومُون سنة 1871، وكانت على شكل مستطيل يتجهُ من الشمال إلى الجنوب، فيكوِّن الضلعُ الرابع شكلاً آخرَ مستطيلاً ضلعهُ الشرقي الضلع الغربي من سراي اللوفْر العتيق، وضلعاهُ الشمالي والجنوبي جناحا اللوفْر الحديث، وضلعهُ الغربي سراي التويلري المذكور.

ولو نظرتَ في خريطة من خرائط باريس الآن لوجدتَ السين من جهة الجنوب، وسكة ريفُولي من جهة الشمال، وبينهما سراي اللوفْر العتيقة، (على شكلها المربع المحيط بالرحبة بهِ كما عرفت)، ويليها الضلعان الممتدان بموازاة نهر السين، والسكة المذكورة، وهما سراي اللوفْر الحديث، فينتهيان إلى ضلعي سراي التويلري الممتدة بامتدادهما، حتى يصلا إلى الحديقة التي أنشئت محل خَرِبات التويلري، ويليها طريق يسمى طريق التويلري، استحدث بعد إيجاد هذه الحديقة يوصل ساحل السين بطريق ريفولي، ويفصل الحديقة الَّتي قلنا بإنشائها محل السراي المُحْرَقَة عن حديقة التويلري الشهيرة الممتدة من الشرق إلى الغرب بموازاة النهر، وطريق ريفولي حتى تصل إلى ميدان الكونكورد المشهور، وقد سبق أن هذا الميدان متصل بمتنزه شَانزِيلزيه العديم المثال.

فبعد أن شاهدنا رحبة سراي اللوفْر العتيق، وتأَمَّلنا البناءَ العظيم المحيط بها وما فيهِ من الإِبداع، وحسن النظام، ومتعنا النظر بوجهته اليمنى من جهة السين، وهي من عمل لُسْكُوث من أشهر المهندسين المعماريين، وتمتعنا برؤيةِ الوجهة الغربيَّة ذات الثلاث الطبقات المعدودة من أحاسن أبنية زمن

فَرنْسُوَا الأول، بما عليها وعلى غيرها من القباب الَّتي كانت تتخذ في عمارات تلك الأوقات، عاينَّا البناءَ من الخارج، فإذا هو أكمل جمالاً، وأزيد بهاءً وكمالاً، لاسيما الوجهة الشرقيَّة منهُ الَّتي طولها نحوها 174 متراً على ارتفاع نحو 28 متراً، مزينة بالعُمد المتخذة على أحسن الأشكال وأجمل الهيئآت.

وانصرفنا بعد هذا إلى مشاهدة اللوفْر الحديث، وهو أكبر من الأول سعةً وامتداداً، تعلوهُ القِباب، وتحيط بنوافذِهِ العمد المتقنة الَّتي تأخذ بالألباب مزيناً بست وثمانين صورة مجسمة من صور مشاهير الرجال، وبثلاث وستين من مجموعات الصور المقصود بها تمثيل الوقائع التاريخيَّة الجديرة بالتخليد.

أما عَدُّ التصاوير والرسومات وحصر الأشكال والهيئآت الَّتي زُيِّنَ بها سراي اللوفْر العتيق والحديث من الداخل والخارج، وإيفاءُ هذا البناءَ حقهُ من الوصف والإطراءِ فلا يكاد يحيط بهِ البيان، كيف وهذه السراي أوسع وأفخر سرايات باريس كما أشرنا إليهِ، حتى قيل: إنها أوسع سرايات الدنيا بأسرها، فقد بلغت مساحتها مع مساحة تُويلري وقت أن كان 195000 متر مربع، فضلاً عن كونها معدودة عند أرباب الفن أحسن العمارات الفرنساويَّة من حيث فن العمارة والبناءِ.

هذا، ومحلات اللوفْر العتيق متخذة متاحف لأَنفس الآثار، وكذلك بعض محلات اللوفْر الحديث من جهة الجنوب، أما من جهة الشمال فتسكنهُ نظارة الماليَّة.

– ونتكلم الآن على متاحف اللوفْر العديمة المثال، فإن لها مقاماً يَستلْزِمهُ الحال.

– (متاحف لُوفْر) لم تجتمع الذخائر الموجودة في هذه المتاحف من أول

وهلة، وفي وقت واحد، بل جدّت في جمعها الملوك، وساعدت فيهِ الجيوش المظفرة، حيث اغتنمت ما طاب لها من بلاد أعدائها، ولا زالت هذه الذخائر والكنوز تتجمع شيئاً فشيئاً، وحذت الأمراءُ حذو الملوك في هذا الأَرب، واقتفى أثرهم آحاد الأغنياء والموسرين.

وأول من أخذ في جمع الآثار فرنْسُوا الأول، ونحا نحوهُ كما سبق الأمراء والآحاد حتى أَتت الثورة الفرنساويّة، فجمعت كل ما كان[1] متفرقاً في مساكن الملوك المنتشرة في سائر الأنحاءِ، وضمت المتفرق منها في سائر البلاد لهذا المحل الذي تأَسس سنة 1792.

ولما عادت الجيوش الفرنساويّة من إيطاليا وألمانيا وما جاورهما استصحبت معها برسم هذا المحل ما استحسنتهُ في هذه البلاد من الآثار، حتى صار متحفاً عموميًّا لسائر الديار.

والقاعات الحاوية لهذا المتحف كثيرة العدد، عظيمة الاتساع، حتى يلزم لاجتيازها بأَجمعها ومجرد المرور فيها ساعتان لِلْمجِدِ في السير، الماشي بلا توانٍ؛ ومن هذا يتضح تعسر التفرج عل كل هذه القاعات، وبالأَولى وصف ما بجميع هذه المتاحف من النفائس الحسان.

وها نحن سنسير بكَ الطريق الذي سلكناهُ، مستلفتين نظرك إلى بعض ما رأَيناهُ، وما عليك إلّا أن تستعد للسير وتُعوّد نفسك الإسراع، فالطريق طويل والوقت قصير، ولا بد أن نخرج من هنا وقت الظهر أَو بعدهُ بقليل لتعاطي الطعام.

فاعلم أن الطبقة الأرضية تشتمل على المتاحف المخصصة بأَعمال الحفر

---

(1) في الأصل: «كلما» المحرر.

في الحجر والمعادن (سْكُلْتُور) والنقش (جْرَافُور)، ومتحف الآثار القديمة المصريّة، والطبقة الّتي فوقها تحتوي على ما يتعلق بالتصوير (بَانْتُور)، وعلى الآثار القديمة الصغيرة الحجم المخلّفة من الأزمان الوسطى، والّتي بعدها، وعلى ما يتعلق بالرسم (دسَّانْ)، وغير ذلك، والطبقة الثالثة تحتوي على متحف البحريّة، وعلى قاعات متعلقة بالتصوير أيضاً، وعلى متحف علم خصوصيات الشعوب (اتْنُجْرَافيك)، وبعض قاعات متعلقة بالرسم أيضاً، وعلي المتحف الصيني - وها نحن نبدأُ:

- (**متحف الآثار القديمة المصريةُ**) هذا المتحف يشتمل على آثار مصريّة عديمة المثال لا تكاد توجد بغيرهِ من متاحف الآثار المصريّة، وقد جمع ما يتعلق بديانة قدماءِ المصريين وعوائدهم وفنونهم وصنائعهم، ويشتمل على عدة قاعات، منها المسماة بقاعة هنري الرابع، وتحتوي على كثير من الأشياءِ الكبيرة الجِرْم، مثل تماثيل أبي الهول الّتي كانت توضع مثّناة على أبواب الهياكل، وهي كما لا يخفى على هيئة حيوان تخيليّ جسمهُ جسم الأسد، ورأسهُ رأس الإنسان، وتحتوي هذه القاعة أيضاً على كثير من المسلات المنقوشة بالنقوش المتنوعة، وكانت تقام كما هو معلوم تخليداً لذكر عظماءِ الأموات عندهم، وتحتوي على كثير من الصور الْمُجَسَّمة الّتي استخرجت من المقابر، وعلى كثير من التوابيت.

وقاعة إيبِسْ، وسميت بذلك نسبة لتمثال العجل إيبِسْ أحد معبودات المصريين الموجود بها، وهو من أعمال العائلة الثلاثين في القرن الرابع قبل المسيح، وبجوار جدران هذه القاعة من الداخل كثير من المسلات الصغيرة المتخذة من الحجر الصّوان، وكان قدماءُ المصريين يضعونها في

قبر أبيس بعد نقش التاريخ، واسم الملك الحاكم عليها فهي، لذلك من أعظم النافعات بالنسبة لتاريخ مصر.

وبمجاورة هذه القاعة محل صغير بهِ جانباً باب مدخل سِيرَابِيُومْ الواقع بقرب سقاره بمصر، وعليهما كتابات من أول مدة عائلة البطالسة.

وإذ صعدنا في السلم للوصول إلى الطبقة العلويّة لمشاهدة باقي الآثار المصريّة وجدنا هذا السلم مغطاة جدرانهُ بأوراق معمولة من البَرْدِيّ، عليها أقدم الكتابات المنسوبة لليونان والقبط، وفي جملتها قطعة مأخوذة من هيكل الكرنك مكتوب عليها بالخط القديم ذكر واقعة من غزوات طوطميس الثالث من العائلة 38، وهو أكبر ملوك مصر الأقدمين.

ويوجد في أعلى هذا السلم كثير من التوابيت المصنوعة على شكل المومياءِ، وعليها كثير من النقوش والتصاوير، وهي مع قدمها للغاية (بعضها منسوب للعائلة الرابعة أو الثالثة)، تدل على تقدم المصريين في تلك الأزمان تقدماً تحار فيهِ الأذهان.

وأول قاعة يدخل فيها الزائر بعد ذلك يجد فيها صور بعض الملوك مجسمة مُفْرَغة في قوالب مأخوذة من الصور الأصليّة، مثل صورة شِفْرِين باني الهرم الكبير (من العائلة الرابعة)، وصورة أَمِينيرِيتيس امرأة پسَّامِيتِيكْ الأول (من العائلة السادسة والعشرين).

ويتوصل الإنسان من هذه القاعة إلى قاعات الأنتيكات الصغيرة الحجم، **أولاها القاعة التاريخيّة**؛ سميت بذلك لاشتمالها على كثير من الأشياءِ ذات القيمة التاريخيّة، بها صورة پساميتيك الثاني مُجَسَّمة من الحجر الأخضر، وبها كثير من الدواليب المغطاة بالزجاج، مشتملة على صور متعلقة

بالأموات، وجعارين، وعلى أشياء مصنوعة من الذهب مثل أواني الشرب والسلاسل، وكثير من أدوات الحلي والمصوغات العالية القيمة، فإن الصور الثلاث[1] الصغيرة الموضوعة بالدولاب الواقع على اليسار وهي صورة أوزيريس وإيزيس وهوروش مصنوعة من الذهب اشتريت بملغ 25000 فرنك.

وثانيتها القاعة المدنيّة لاشتمالها على أشياء متعلقة بمعيشة أهل المُدُن، وفيها من الحلي ما هو مصنوع من الذهب أو غيرِهِ من المعادن، وكثيرٌ من أدوات الزينة المتخذة من الأخشاب والعظم والعاج، وكثيرٌ من الصور المجسمة الصغيرة، وأشكال المساكن مجسمة، والكراسي والحصر وقطع من المفروشات، وكثيرٌ من المنسوجات البديعة الصنع، وفي الدواليب غير ذلك كثيرٌ من الادوات المصنوعة من البرونز والصيني والزجاج والفخار، وفيها كذلك الأشياءُ المصنوعة من الحلفاءَ على اختلاف أشكالها ومنافعها، وبها كثيرٌ من الأحذية والنعال، وبها أصناف الفواكه والحبوب وأدوات الزراعة والحراثة وهيئة استعمالها، وبها الأسلحة وأدوات الموسيقا، وبها حُتى يشتمل على أدوات اللعب باختلافها، حتى إنّ بها سفناً صغيرة على شكل الّتي كانت تستعمل في النيل من صُنْعِ الأزمان السالفة.

وثالثتها قاعة مُتعلقات الأموات، وهي مهمة بالنسبة لمعرفة كيفيّة اعتبار الأموات عند قدماءِ المصريين، وقد كانوا يعتقدون خلود الرُوح، وعدم فنائها، ولذلك كانوا يفرغون الوسع في حفظ الأجساد وتصبيرها، والتحفُّظ على عدم فنائها، ويبذلون المال الكثير في سبيلِ بناءِ القبور المشيدة، وقد علمت معتقداتهم في الأموات من كتاب كانوا يضعونهُ أو بعضاً منهُ مع الأموات محتوٍ على الصلوات والإجراءات الّتي يجب على الروح أن تسير

(1) في الأصل: «الثلاثة» المحرر.

بمقتضاها في الآخرة، وعلى الأجوبة الّتي تجيب بها عن الأسئلة الّتي تُلقي عليها إلى غير ذلك.

وقد رأينا في هذه القاعة كثيراً من أوراق البَرْدِي، مشتملة على بعض هذه الكتب، كما رأينا في الدواليب الموجودة بها كثيراً من التوابيت المعمولة على شكل الأموات، منقوشة بأحسن النقوش، مُذَهَّبة بأحسن التذهيب، وكثيراً من الجعارين والموميات، وكثيراً من الكتابات الهيروجليفيّة متعلقة بالأموات.

ورابعتها قاعة الآلهة، وتشتمل على كثير من صور الآلهة والمعبودات المصنوع أغلبها من البرونز، ففيها صور هبس وسخت وأمون أوزيريس وإيزيس يُرْضِعُون هُوروس، وفي الوسط صورة من صور الإلٰهة[1] أونُوت، وهي من الآلهة الشمسيَّة رأسها على شكل رأس اللبؤة، إلى غير ذلك من الجعارين والصور المصنوعة من الخشب أو من مواد غيره محلاة بالذهب.

وخامستها قاعة العمد، وفيها الأشياء الّتي لم تسعها القاعات الّتي قبلها، ومن جميع الأصناف الموجودة في تلك، وقد رأينا فيها توابيت غاية في الإتقان والزينة، لو رأيتها لقلتَ فرغ منها الصانع الآن، ورأينا في وسطها صورة نيساهور مُجَسَّمة، وهو من أصحاب الوظائف في مصر مدة العائلة السادسة والعشرين، ورأينا في الدواليب الزجاجيَّة المرايا والأسلحة المصنوعة من البرونز، وبعض آلهة أيضاً، ثم رأينا كثيراً من الأدوات المنزليَّة، ومن أهم ما في هذه القاعة الورقة البَرْدِيَّةُ الملوكيّة، وهي كتاب الأموات السالف ذكرهُ، مكتوب بالهيروجليفيَّة طولهُ ثمانية أمتار، لم يؤثر عليهِ مرور الأيام بشيءٍ، وإن كان لهُ أكثر من ثلاثة آلاف سنة في عالم الوجود.

وها نحن فرغنا من وصف متحف الآثار المصريَّة فلنصف لك:

---

(1) في الأصل: «الإلاهة» المحرر.

(متحف الآثار القديمة الآسيوئة):

ومدخلهُ مقابل مدخل المتحف المصري الذي سبق، وهو يشتمل على قسم من الموجودات الّتي عِثُر عليها بواسطة الاكتشافات الّتي أُجْرِيت في موضع مدينتي أَشُوز ونينوى القديمتين، ويشتمل فضلاً عما ذكر على ما استحضرتهُ الإرساليات العلميّة الّتي ساحت في بلاد آسيا لهذا الغرض، وعلى ما استحضرتهُ آحاد الناس من السائحين وأهدتهُ إلى هذا المتحف، ويشتمل هذا المتحف على سبع قاعات.

القاعة الأولى والثانية منها مخصوصتان بأَشوريا، وهي بلاد النمرود المذكورة في التوراة، وكانت ممتدة على الشاطئ الأيسر من نهر الدجلة، وتختها نينوى، ثم انتقل إلى أَشور، وهي الّتي تغلبت سنة 1250 قبل الميلاد على مملكة بابل، وامتد سلطانها على البلاد حتى آسيا الصغرى، وقد عثر الباحثون في خَرِبات هاتين المدينتين على قصور غاية من السعة، وُجدت بجدران قاعاتها جملة رسوم ناتئة في الحجر، تُمثّل معيشة الملوك الّذين حكموها وحالهم وملابسهم ونظامهم، وكل أُمورهم بطريقة أوضح، وإشارات أفصح من النقوش والرسومات الّتي استدل منها في برابي مصر على تاريخ المصريين، هذا فضلاً عن الكتابات الّتي وُجدت بهذه القاعات مكتوبة بكيفيّة مخصوصة، قد أسعد الحظ بالوصول إلى مَعرفتها وحل رموزها وقراءتها منذ زمن قريب جدًا، وأغلب الصور الموجودة في هاتين القاعتين استُخرج من قصر خورسابار الذي وُجد في القرن الثامن قبل الميلاد، ومن قصر النمرود، وقد وجد في القرن العاشر قبلهُ، ومن قصر سردناپال الخامس بنينوى، وقد حكم في القرن السابع قبل الميلاد.

والقاعة الثالثة والرابعة مختصتان بالتوابيت الفينيقية مصنوعة من الرخام

الأسود والأبيض، وهي ما بقي من آثار الصنائع المأثورة عن الفينيقيين، وكانوا أمّة سكنوا سواحل آسيا بجهات سوريا، يستمدون من معارف المصريين والآشوريين، فاستعمروا مستعمرات عدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، كانت واسطة العلائق بين أهل الشرق والغرب، هذا وأهم هذه التوابيت تابوت اسمونازار ملك سيدون، فإن عليهِ أطول كتابة فينيقيّة عُلِمت حتى الآن.

والقاعة الخامسة مخصوصة ببعض أنتيكات فينيقيّة، وببعض أنتيكات عُثر عليها ببلاد سوريا، وبقبرص، وأهمها إناءٌ أماتُنت المستحضر من قبرص مصنوع من قطعة واحدة من الحجر قطرهُ ثلاثة أمتار وسبعون سنتمتر.

والقاعة السادسة والسابعة[1] مشتملتان على صور مُجَسّمة من صنع بعض البلاد القديمة بآسيا الصغرى.

ولنذكر لك بعد هذا: (متحف الرخام العتيق) وهو يشتمل على قاعات شتى ملأى بصور مجسمة من الرخام قديمة العهد، ينقص من بعضها الأعضاءِ، وفيها كثير من متقنات الصنع، دالة على تقدم فن التصوير بالرخام في القرون الخالية.

وإني لا يمكنني أن أُوَفي هذا الباب حقهُ من الوصف؛ فإني لست من أرباب هذا الفن، وإنما أقتصر على ما أثرَّ في مخيلتي من هذه الصور أكثر من غيرهِ، مع أن ذلك لا يدل على أنها أحسنُ ممّا سواها، وذلك أننا بعد أن اجتزنا عدة قاعات، وصلنا القاعة المعروفة بقاعة سِپتِيم سِقِير، فرأينا فيها صور الأمبراطورين والأمبراطورات الرومانيين مرسوماً تصفها الأعلى فقط من مازك أرويلْ إلى كازكلّا ، ولعل استحساني لهؤلاءِ دون غيرهم

(1) في الأصل: «السابقة» المحرر.

بسبب معرفتي بأسمائهم وتكرارهم في مطالعة القوانين الرومانيّة مدة الدراسة.

ثم انتقلنا إلى قاعة بعدها، وبها صور تْرَاجَانْ، وأَدرِيَان، وأَنْطُونان، ومَارْكْ أُوريلْ، وكُومُودْ، وإِيلْيُوس فيرُوسْ، وليسْيُوس فيرُوس، ثم إلى قاعة أُوجُوسْتْ، ومن أَحاسن صور الأمبراطورين الأُوَل بها صورة أَنطِينْيُوسْ، وهو الذي اتخذوهُ إِلَـٰهاً بعد أن مات غريقاً في النيل، فتمثالهُ في غاية الإِحكَام والإتقان، حتى يخال الرائي أن شَعرهُ شَعْرٌ حقيقي، يمكن عدّهُ بالواحدة ويقال: إن عينيهِ كانتا معمولتين من الأحجار الثمينة، ثم إلى **(قاعة الزهرة)** سميت بذلك لوجود زُهرة مِيلُو بها، وهي أشهر صور اللوفر، وجديرة بالأشهريَّة فإن الإنسان يتخيل أن بها الرُّوحَ لانتظام أعضائها، واعتدال قوامها، وانسجام هيئتها، وأنها تتكلم من وجاهة وجهها وصباحتهِ، وحسن تركيبهِ وملاحتهِ، وقد كانت في هيكل صغير بجزيرة مِيلُو في مدخل جزر الأرخبيل، اكتشفها أحد الفلاحين في بناءٍ تحت الأرض سنة 1820، فاشترتها منهُ حكومة فرنسا بمبلغ 6000 فرنك ليس إلّا.

ثم بعد أن تفرجنا في إحدى القاعات على صورة إسكندر الأكبر انتقلنا إلى **(متحف الصور المجسمة في القرون الوسطى)** وهو يشتمل على قاعات كثيرة العدد غاية في الاتساع كلها، مملوءةٌ بالأشياءِ المجسمة المنحوتة في الحجر وفي غيرهِ من التماثيل والصور الدينيّة وغير الدينيّة.

ثم إلى **(متحف الصور المجسمة في القرون المتأخرة)** وهو تكملة المتحف السابق عليهِ ولا ينقص عنهُ في الاتساع والإتقان والأهميَّة، وكثير من غرفهِ منسوب لأسماءِ رؤساءِ الحفَّارين، المعروضة مصنوعاتهم ومصنوعات من نحا نحوهم فيها.

ثم انتقلنا من هذا إلى: (متحف النقش والتصوير) وهو أكبر المتاحف السراي اتساعاً وأحسنها بهجة، فإن طول القاعات بهِ نحو كيلومتر، وعدد الرسومات والصور المنتخبة فيهِ تبلغ الألفين من سائر المذاهب في فن النقش والرسم والتصوير.

فالإيطاليون لهم فيهِ رسمومات من صنع الأساتذة من قدمائهم، ومن صنع الذين أتوا بعدهم.

أما الأساتذة القدماء أشهرهم أساتذة فلورنسا، ومن بينهم فْرَا أَنْجِيليكو لهُ رسم السيدة العذراءِ، وفيلِبُو ليبيّ لهُ رسم السيدة العذراءِ، ومعها سيدنا عيسى المسيح عليهما السلام، تُحيط بهما الملائكة، وبِيرُجَانْ لهُ رسم السيدة العذراءِ، ومعها سانت «القدّيسة» رُوزُوسانت «القدّيسة» كاترِينْ، ولهُ رسم مَثَّلَ بهِ محاربة الحب والغرام مع العفاف، وأَنْدِري مُونتينا لهُ رسم مَثَّلَ بهِ المواعظ والحكمة متغلبتين على الدنايا.

هذا ولأشهر الأساتذة الإيطاليين لِيُونَازدِي ڤِنْسِي ورَفَاييل وتِشْيانْ آثارٌ مشهورة، يَحْسَدُ هذا المتحفَ عليها غيرُهُ من المتاحف، جديرة باستلفات كمال النظر إليها.

فأشهر آثار لِيُونازدِي ڤِنسي هو الرسّام المعروف برسم - جُوكُونْد - ، وقد اشتغل بهِ أربع سنين، ولم يُتِمَّهُ مع هذا، ولكن من سوءِ الحظ تغيرت ألوانه، وليس الحال كذلك في صورة ثانية هي امرأة حسناءَ مفرطة في الجمال، فإن ألوانها لم تتغير، ولا تزال على حالها من البهاءِ.

أَما رَفَاييل وما أَدراك ما رَفَاييل، فليس ثمة في أُوروپا بأسرها متحف فيهِ من آثار هذا الأستاذ بهذا المتحف منها، حيث جمع آثار هذا الشهير، وأعمالهُ

في النقش والتصوير من أول نشأتهِ إلى آخر أيامهِ صغيرها وكبيرها، فلهُ فيهِ كثير من صور السيدة العذراءِ على اختلاف أحوالها في الحياة، وكثير من صور القديسين والشهيرين والوقائع التاريخيَّة، مما يُذهِش منظرُهُ الناظرين من شدة ما بالغ فيهِ من الإتقان، ومن زيادة ما وصل فيهِ من الإحسان والضبط في تركيب الألوان وهيئآتها، حتى كأن الصور أشخاص ناطقة حَسْب الحالة الَّتي أراد أن يظهرها بها هذا الشهير إلى العيان.

وأما تِيسْيَانْ فآثارهُ الباهرة وتصاويرهُ الزاهرة من رسم أشخاص وحوادث وتمثيل أَحوال وأهوال فقد بلغت في الكمال منتهاه، وفي إتقان الصنع أقصاهُ.

وآثار الألمانيين بهذا المتحف معدودة من أَحسن الآثار.

ثم آثار رُوبَنْس أشهر أساتذة المدرسة الفلاماندِيَّة بهذا المتحف لا تدخل تحت الحصر، وأعظمها أحد وعشرون رسماً كبيرة تمثّل أحوال الملكة ماري دِي مِيدِيسِيس، وإن جميع آثار هذا الشهير وما فيها من روح الحياة، وزَهُوّ الألوان وبهجتها، وإتقان المُشخَّصات، وحسن التمثيل والتصوير، لمن مدهشات العقل ومحيرّات اللب.

والهولنديون في القرن السابع عشر آثارهم بهذا المتحف مع عدم كثرتها، تدل على علو مقامهم، وشدة اعتبارهم بين العارفين بدقائق الرسم والتصوير، فهذه صورة (المرأة في الحَمام) من صنع الأستاذ رامبْرَانْدْ، (والعسكري الذي يعطي إحدى النساءِ قطع ذَهب) من صنع الشهير يتربورج، و (مُعَلّم المكتب) من صنع أُوسْتَاذ، وغيرها من الصور، للطافة ألوانها وانتظام أشكالها وهيئآتها وظهور الحياة في أطوارها وحالاتها، تبْهر من لا يعرف دقائق هذا الفن،

وتورثهُ الحَيرَةَ في صنعها وتصويرها، وكيفيّة إيجادها، فما بالك بمن لهُ خبرة بهِ ومعرفة تامة بصناعتهِ وأحوالهِ.

والأسبانيون لهم كذلك بهذا المتحف من الآثار ما يقدرهُ العارفون حق قدرهِ من الاعتبار.

أما الفرنساويون فلهم كثير من الآثار بهذا المتحف، وإن لم يحتوِ على جميع نفائس صنعهم، وذلك لتفرقها بين هذا ومتاحف غيرهِ، ولوجود كثير منها في الأماكن المنتشرة بأنحاءِ البلاد.

وأقدم الفرنساويين المصوّرين الموجودة آثارهم بهذا المتحف كلوى (المتوفّى 1572)، فلهُ فيهِ بعض صور أشخاص تتميز بحسن التلوين والحكمة في وضع الظلال، كصورة اليصابات امرأة الملك كارلوس التاسع.

ثم يليهِ في الْقِدَم جاَنْ كُوزَانْ، وأشهر رسوماتهِ (تمثيل يوم العرض والحساب) هذا، فضلاً عما لهُ من الرسومات المنقوشة على الزجاج.

ثم يليهِ في القدم نِقُولاَ پُوسّان (1594 – 1665)، وهو من أَشهر الرسامين الفرنساويين، وإن سكن رومه بعد الثلاثين من عمرهِ، وقد اعتنى بتصوير البقاع والأماكن والمناظر أكثر من اعتنائهِ بوقائع التاريخ، ولكن تصاويرهُ أَثَّر عليها مرور الأزمان فأذهب بعض بهائها.

ثم يليهِ كُلُودْ لُورَّانْ وقد اشتهر برسم الأضواءِ وإيقاعها على حالتها الطبيعيّة من البهجة والازدهاءِ إلى ما لا تصل إليهِ يد المقلدين، (فالاحتفال في القرية) (ومنظر الميناءِ حين غروب الشمس) هما من أَعظم آثاره.

ثم يليهِ فيلْيپ دُوشاتِيْنِي، وهو وإن كان بلجيقي الأصل إلّا أنهُ توطن بپاريس، واشتغل لمارِي دِي ميديسيس، ورِيشلِيُو، ولويس الثالث عشر، ومما ينبغي الالتفات إليهِ من آثارهِ رسم (موت عيسى عليهِ السلام)، وصورة ريشليو.

ثم يليهِ مشاهير زمن لويس الرابع عشر، ومن أتى بعدهم إلى آخر القرن السابع عشر.

ولكن يرى الخبير بفن الرسم والتصوير أنهُ أخذ تدريجيًا في الانحطاط من أواسط هذا القرن، ولولا امتياز بعض الأساتذة في عمل صور الأشخاص، ولولا أن نبغ فيهِ من أعاد لهُ سالف المجد، واشتغل في رفعته بكل جهد، فعاد إلى أحسن ممّا كان عليهِ بل زاد.

وإنّا نختم لك ذكر هذه الآثار بأثر پرُودُنْ النفيس، وقد مثّل بهِ العدالة والانتقام، يقتفيان أثر الجناية، فيقتصّان من الجاني على ما جنت يداهُ من ذميم الخصال.

هذا ولا نريد أن نُثقِل عليك بالاستمرار في ذكر المشاهدات، فإن ذلك شرحهُ يطول، إذ لو أردنا ذلك لكان ينبغي أن نذكر تقلبات هذا الفن، وخروج بعض أساتذتهِ عن المعتاد فيه إلى طريق جديد بعد الثورة الفرنساويّة سنة 1789، وعودَ بعضهم إلى الإعتدال والطريق القويم، وتنويع البعض في الطريق الجديد، وأن نذكر أحسن أساتذة تلك المدد، وأنفسَ آثارهم كما نذكر من أتى بعدهم، وأحسن أعمالهِ ومشهور تصاويرهِ وآثارهِ.

ولا خفاءَ أن هذا يجر إلى استيفاءِ تاريخ فن الرسم والتصوير من مبدئه إلى اليوم، ويقضي بمعرفة هذا الفن، فإن متحف اللوفر لم يقتصر على آثار

المتقدّمين بل وُجِدَتْ فيهِ قاعات للمتأخرين، حتى أُحْدِثَت فيهِ للمعاصرين، والمتحفُ الذي صار إيجادهُ بحديقة لُكْسَمْبُوْرغ تكفّل بأعمال الأساتذة الموجودين على قيد الحياة.

وكذلك التعرض لجميع ما اشتملت عليهِ القاعات بالتفصيل والترتيب من الآثار الشهورة وغير المشهورة، أمر لا يتيسر الخوض فيهِ إلّا لأربابهِ العارفين بأساليبهِ وأحوالهِ، المتمكنّين من معرفة ظرائفهِ ولطائفهِ، العارفين بهِ حق معرفتهِ، فهؤلاءِ لو أرادوا الدخول في هذا الباب، وكلّفوا أنفسهم بهذه المشاق والأتعاب لربما توصلوا بعد الجهد الجهيد والعناءِ الشديد إلى تفهيم المطلوب على أحسن أسلوب.

أما نحن أيها القارئ العزيز فلنا اشتغال بغير هذا الوصف الآن؛ إذ علينا تكملة التفرج بهذا المتحف، فننظر نظرة في (**قاعة الحليّ والمجوهرات**) نتمتع بمشاهدة ما تحتوي عليهِ من الأشياءِ العتيقة المصنوعة من الذهب والفضة، البالغة في النقش والرسم والتصوير حد النهاية في الإتقان.

ثم ننظر نظرة في (**متحف الرسم المسمّى دِسّان**) لإنهُ من أهم المتاحف في هذا النوع، وهو يشتمل على 37000 رسم، منها 18200 لأساتذةٍ إيطاليين و87 للإسپانيوليين، و800 للألمانيين، و3150 للفلاماندِيين، و1070 للهولانديين و11800 للفرنساويين.

ثم ننظر نظرة في (**مجموعة دِيُولاَفُوا**) وهي عبارة عن قاعتين تشتمل أولاهما على الأنتيكات المستحضرة من سوزيان من بلاد العجم، وثانيتهما على الأنتيكات المستحضرة من بلاد الكلدانيين.

ثم ننظر نظرة في (متحف الأنتيكات اليونانيّة) ونشاهد بعض تلك الآثار الدالة على ما كان للقوم في القديم من علو الهمة والمنزلة.

ثم ننظر نظرة في (متحف البحريّة)، فنشاهد بعض ما يحتوي عليهِ من الأشياءِ المتعلقة بعمارات السفن وفن الملاحة، وأنموذجات السفن وماكيناتها وأدواتها، وما فيهِ من أشكال الميناءِ المعمولة بالرسومات الْمَجَسَّمة، وما بهِ من رسومات الأسلحة وغيرها من الأشياءِ التاريخيّة، وهو يحتوي على ست عشرة قاعة، ورواقين، وأغلب الأشياءِ المعروضة فيهِ تصحبها كتابات غاية في الإيضاح والبيان، يُتَعَرَّفُ منها حالُها.

ثم ننظر نظرة في (متحف علم خصوصيات الشعوب - اتنوجرافي) وقد استحضرت الأشياءُ المشتمل عليها بواسطة السياح الفرنساويين، أو بسبب الحروب من بلاد بعيدة كالهند والصين واليابان وغيرها، ففيهِ من الأواني والأدوات المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والفخار والخشب، ومن تماثيل آلهة ومعبودات الهنود، ومن رسومات وأسلحة، ومن صور مُجَسّمة وأَقمشة منسوجة وألبسة وهيئآت رجال الحرب في تلك البلاد وأسلحتهم، ما تلذ رؤْيتهُ لمريد الاستطلاع على أحوال تلك البلاد القاصية الغريبة، كما أن بهذا المتحف سفينتين من مستعملات البلاد المتوحشة، جُعِلَتا من قطع خشب محفورة على طبيعتها مُتْقَنَتَيْ الصنع مع بداوتهما.

ثم ننظر نظرة في (متحف الصين) وهو يشتمل على ثلاث قاعات، وعلى جزءٍ من الرابعة المعروفة باسم (قاعة ده لسپس)، وتشتمل الأولى منها على تصاوير ورسومات وأسلحة ومفروشات وآلات طرب وموسيقا وسفن صغيرة مصنوعة من سن الفيل، غاية في الدقة واللطافة، وتشتمل القاعة الثانية على

أواني صينيّة حقيقّة محلاة بأبهج النقوش، كما تشتمل على سائر أشكال المفروشات والكتب، وتشتمل الثالثة على الأشياءِ المصنوعة من العاج، مما يطول شرحهُ من حيث الدقة والإتقان، وفي ضمنها كرة صغيرة من العاج تشتمل على ستة كرات أو سبع بداخلها، منفصل كلٌ منها عن الأخرى كل الانفصال.

ويوجد بهذه القاعة أيضاً كثير من الصور المجسمة مصنوعة من العاج ومن الخيزران، وكثير من الأواني المزينة بالميناءِ، ومن الصور المصنوعة من الأحجار النفيسة، وكثير من الأواني البلوريّة والأقمشة والمداسات الصغيرة جدًا لمناسبة حبس[1] أرجل الصينيات في الصغر كما سبق وعَدّهنّ ذلك من صنوف الجمال، وتشتمل الرابعة على تماثيل آلهةِ من معبودات الصين، وعلى بعض ملابسهم وحُليِهم، وفي وسطها رسم قنال السويس مجسّماً بما على جانبيهِ من المدن المستحدثة، وكيفيّة الأعمال الّتي استعملت في إظهارهِ في عالم الوجود بالحالة الّتي هو عليها الآن.

وقد كانت هذه النظرات مبتدئين فيها بقاعة الحليّ والمجوهرات، مختتمين بقاعة ده لسبس الّتي بها قنال السويس، فكانت زيارتنا لجميع متاحف اللوفر مبتدأة بآثار المصريين، كما سبق، مختتمة ببعضها، وهو كنال السويس.

ثم خرجنا من هذه السراي إلى البستان المقابل لها:

(بستان تُويلرِي) وهو باقٍ على الهيئة الّتي نُظّمَ عليها منذ أنشِئ في عهد لويس الرابع عشر ما خلا بعض تحسينات تجددت فيه.

وتتوسطهُ طريق تخترقهُ من الشرق إلى الغرب، يرى الناظر منها ميدان

(1) في الأصل: «حسن» المحرر.

الكونكورد ومسلة الأقصر التي بوسطهِ ، ويمتد النظر من هذا الميدان إلى أن ينتهي بقوس نصر الكوكب.

وهذه الطريق تُظِلها الظلال الوارفة وتحيط بها من جانبيها المرتفعات والمتنزهات والأشجار المشابهة لأشجار الغابات، وتتردد عليها العالم المختلفة الصنوف والأشكال، خصوصاً المربيّات بمن معهنّ من الصّبْيَةِ والبنات مما يزيد بها الحركة والبهاء، ويجلب لها الفرج والهناء بوجود هؤلاءِ الأطفال ولعبهم وائتناسهم بمن هو في سنّهم وعلى شاكلتهم، وقد ينتهز أصحاب المربيات فرصة اشتغال الأطفال باللعب فيتحدثون ويتآنسون معهنّ مع عدم الخروج عن حد الأَدب والكمال.

وترى هذه الحديقة عند اعتدال الزمنِ وحرارة الجو ملأى بأشجار البرتقان، تُنقل إليها بصناديقها من محلها المجعول لحفظها الموصل إلى بقائها بهذه البلاد الباردة، فتتفرق في أطراف هذه الحديقة، وذلك مما يزيد في بهجتها ونضرتها، وإذا علم المتفرج أن إحدى وأربعين من هذه الأشجار باقية من زَمنِ الملك فرنسوا الأول البعيد العهد من هذا الأَوان قضى العجب كل العجب من ذلك، لاسيما أن هذه الديار ليست مما يُغرس فيها هذا الصنف منِ الأشجار، وهذا فضلاً عما تزينت بهِ هذه الحديقة من الصور المنحوتة في الحجر والرخام، وما في جهتها الغربيّة من الفسقيّة المثمنة الأضلاع المعدة للماءِ، ومحيطُها يبلغ ثلاثمائة متر، يخرج من وسطها الماءُ مقذوفاً إلى الجو، حتى يكاد يصل إلى عنان السماءِ.

فإذا صادفتَ يوم تصدح الموسيقا العسكريّة بهذا البستان، ورأَيتَ حولها الجموع المجتمعة والأمم المستمعة، وأضفتَ إلى ذلك جَوْدة الوقت وصفو

الهواءِ، وكنت ذا خبرة بمعرفة الموسيقا طروباً بنغماتها وألحانها، فإنك لا تنسى ذلك مدى الأيام.

ثم خرجنا من هذا البستان، وقد آن وقت الطعام، وساعد على طلبهِ والتأكيد فيهِ كثرة السير في هذا النهار، فدعني أركب عربة كوك مع رفاقي حيث تنتظرنا من وقت دخولنا من الباب، واتركني أتعاطى طعام الغداءِ واسمع مني في الأثناءِ حديثَ بعض محلات تفرجت عليها اليوم بين خروجي من محل كوك ووصولي المتحف، فقد كان أنساني ذكرها شغفي بتوقيفك على محاسن هذا المكان الوحيد في بابهِ العديم المثال.

وذلك أننا لما خرجنا من محل كوك مررنا بميدان وَانْدُوم وبشارع كَاسْتجلِيُونْ جهة الفندق الذي نحن نازلون بهِ، فوصلنا سراي اللوفْر كما سبق، ولكن لم ندخلها في الحال، بل أخذنا نسير من طريق تُويلْري الفاصل بين حديقتها والحديقة الَّتي عرفتَ أنها استحدثت مكان السراي المحْرَقة، فوصلنا نهر السين، وسرنا على اليسار حتى وصلنا إلى سراي المحاكم، فتفرجنا عليها وعلى كنيستها، وانثنينا من هناك عائدين صوب سراي اللوفْر من جهتها المقابلة لجهة ابتدائنا، فدخلناها، وتفرجنا على المتحف الذي ذكرنا لك منهُ بعض ما مكننا من ذكرهِ المقام.

(سراي المحاكم) هي السراي المخصصة بإقامة محكمة السين الابتدائيّة بملحقاتها، ومحكمة استئناف باريس، ومحكمة النقض، والإبرام والتمييز.

وقد كانت هذه السراي في الأصل مقرّاً لملوك فرنسا إلى أن تنازل عنها، أحدهم، شارل السابع سنة 1431، لجعلها مقرًا للمحكمة العليا في فرنسا إلّا

أنها تسلط عليها حريق في سنة 1618، وسنة 1776 أتى على آخرها، بحيث لم يبقَ منها إلّا الأبراج والكنيسة ومطابخ سان لويس.

والساعة الدقّاقة القائمة والحالة هذه بإحدى زوايا هذه السراي، هي أقدم الساعات العموميّة الّتي أوجدت بفرنسا؛ لأنها أُوجدت سنة 1370، وتجددت سنة 1685، وسنة 1852.

ومدخل هذه السراي واقع على الطريق المسمى دُوبَالِيه، نسبةً إلى اسمها، يحجزهُ عنها سور قليل الارتفاع يعلوهُ مُصَبَّعٌ من حديد، فإذا دخلها الإنسان وجد تجاههُ سلماً عظيم الصنع، يُصعَد منهُ إلى متسع، على يمين الداخل فيهِ إيوان السراي، وهو عبارة عن قاعة متسعة جداً من أكبر القاعات الّتي من هذا القبيل، طولها 78 متراً، وعرضها 28 متراً، وارتفاعها عشرة أمتار، مقنطرة السقف تقسمها إلى شطرين عمد يعلوها قناطر، وتحيط بهذا الإيوان قاعات الجلسات، وهو محل انتظار العموم وتردّدهم، فلا يخلو من حركة الناس مادامت الأعمال بالسراي.

وبالجهة اليمنى من هذا الإيوان تمثالُ مَالْزِيزِبْ، المحامي الشهير الذي دافع عن لويس السادس عشر أمام المحكمة الثوريّة، وقُتل بعد ذلك سنة 1794، وبمقابلتهِ من الجهة الثانية تمثال بِيرالّي المحامي الخطير.

وبجوار هذا الإيوان متسع آخر تحيط بهِ قاعات جلسات محكمة النقض والإبرام والتمييز.

أما الكنيسة فهي معبد السراي القديم، وقد بُنيت من سنة 1245 إلى سنة 1248 مدة سان لويس، أعدّها ليُدْفَن بها أعاظم من توفوا في حرب الصليب،

ولـم تُصب بضرر مدة اختلال السبعين، وإن أحرق رجال الكومون ما بجوارها.

وهي وإن كانت صغيرة الحجم إلاّ أنها من ألطف وأتقن كنائس باريس، وطولها كارتفاعها 35 متراً، وعرضها 11 متراً فقط.

وارتفاع قبتها بمناسبة باقي أضلاعها وبجدرانها خمسة عشر شبّاكاً، ارتفاع الواحد منها خمسة عشر متراً، وعرضهُ أربعة أمتار.

وهذه النوافذ مغطاة بالزجاج الملون المرسوم بالرسومات الفاخرة، والألوان الزاهية الزاهرة، صُنع لها بمدة سان لويس، وأُصلح على ما كان عليه في الأيام الحاضرة، وقد صُوّر فيهِ كثير من الوقائع المذكورة في الكتب المقدسة، وجدران الكنيسة مكسوة بالرسومات الكثيرة الألوان، المتناسبة مع صور الزجاج والعمد، منحوت فيها صور الحواريين والقديسين، وذلك كلهُ جعل هذه الكنيسة تحفة من تحف البناءِ، وجوهرة من جواهر حسن السبك والاعتناءِ.

هذا وقد انتهينا بذكر هذين الأثرين من تعاطي الطعام، فركبنا العربات، وسرنا قاصدين باقي الأماكن المخصصة بهذا النهار، فقصدنا مدرسة الفنون المستظرفة (بُوزَارْ) المنشأة سنة 1648، بقصد تعليم الحفر والتصوير (سْكُلْتُوز)، والرسم (بِنْتُوز)، وفن العمارات (أَرْشتيكْتُوز)، وصناعة النقش والنقارة (جْراڤوز)، وتُرسل الحكومةُ التلامذة الَّذين يتحصلون في هذه المدرسة على أول مكافأة إلى رومة، وتصرف عليهم من لدنها مدة أربع سنين، وفي أثنائها تَعْرِضُ بهذه المدرسة التلامذةُ المرسلون ما عملوهُ هناك.

وما احتوت عليهِ هذه المدرسة من جليل الآثار المتعلقة بالفنون المخصصة بتعليمها، وما اشتملت عليهِ من التسهيلات والاستعدادات

لتحصيلها، وما صرفتهُ الحكومة على ما تتعلم منهُ التلامذة وتستفيد، وما أنفقتهُ في بناءِ المدرسة وتشيدها على حالة جعلتها أنموذجاً للتعلُّم فيها والنقل عنها، يغنيني كل ذلك عن مؤنة التفصيل والإطراءِ بالإطناب في وصفها، ويكفي أن فيها من الأساتذة خمسين معلّماً، ومن التلامذة أكثر من 1100 تلميذٍ من جميع الأمم، ثلاثة أرباعهم داخليّة يبيتون في المدرسة، ملتفتين إلى التحصيل ليس إلاّ شاغلين جميع أوقاتهم بهِ.

ثم سرنا بعد مفارقة هذه المدرسة حتى وصلنا إلى سكة باكْ، وسكة سِيفرْ حيث محل (بُونْ مَارْشِيه). وهو أحد المحلات المتسعة الّتي تبيع كثيراً من الأشياء فلا يكاد يوجد صنف إلّا وهو فيها، حتى حُكي أن أحد السياح الأغنياءِ أراد تعجيز مدير أحد مماثلات هذه المحلات بلوندره، فاقترح عليهِ شيئاً يظنُّ أن محلهُ خال منهُ، وذكر لهُ قبل بيانهِ أنهُ يخاف أن تضيع بسبب عدم وجودهِ شهرة المحل لعجزهِ عن القيام بهِ، فألحَّ عليهِ المدير بالبيان فأخبرهُ أنهُ يُريد من هذا المحل شابة عذراءِ يتزوّج بها تكون في غاية الحسن والجمال، جامعة لمحاسن الخلال، فأخذهُ المدير بيدهِ في الحال، وصعد بهِ إلى قاعة فسيحة، وإذا فيها نحو مائة شابة عذارى مشتغلات بإعداد ما يتعلق بالسيدات من الملابس، فانبهر ذلك المقترح، وأخذ يطوف حول هؤلاءِ العذاري متحيّراً في من يختارهُ، لأن كلاً منهنَّ مفرطة[1] في الجمال، غاية في رشاقة القدّ والاعتدال، نهاية في الحسن والكمال، إلى أن انحط رأيهُ ووقع اختيارهُ على واحدة اجتذبت فؤادهُ دونهنَّ، فأشار إليها، وطلب من المدير أن يتمم أمر اقترانه بها، فشاورها في ذلك، ولمّا علمت منهُ حال هذا الطالب في الثروة ومكانهُ في الغنى، وأعجبها لطف شمائلهِ، قبلت ورغب الطالب أن يكون زواجهُ في نفس المحل، فاستحضر مديرهُ لوقتهِ

(1) في الأصل: «مفرط» المحرر.

قسيساً، وتزينت الفتاة وكثير من صواحباتها بالزِي الأبيض المعتاد في احتفالات الزواج وصار العقد لهُ عليها بين أنفس مبتهجة، وصدور منشرحة، واشترى من هذا المحل جميع ما يلزم مما يليق بهما من مصوغات وجواهر وملابس وأثاثات، وانصرف معها شاكراً معترفاً بأن لا شيءَ تخلو عنه هذه المحلات.

ومحل بُون مَارْشيه هذا من أشهر المحلات الّتي من هذا القبيل بباريس، ويعادله آخر اسمهُ (مَجَزَانْ دُولُوڤْر) أمام سراي اللوڤر، وبعدهما (پرَانْتَانْ) و(بِيل جَارْدِينْيِير) وَ (پِتي سَنْ تومَا) و (جانْي پِتي)، و (لاَڤِيل سَان دِني).

وأصل محل بُونْ مارشيه دكان صغيرة أنشأها بهذا الاسم (ومعناهُ هلموا إلى الثمن الرخيص) المسيوبوسيكو بالاشتراك مع آخر في هذا الموضع سنة 1852، وأعدّاها لبيع المنسوجات والملبوسات والأقمشة.

وكانت مساحتها عشرين متراً مربعاً، وما لبث أن تكاثرت أعمالهُ، وانتشر صيتهُ نظراً؛ لأمانة بوسيكو، وانتقائهِ أحسن الأصناف وأجودها، وبيعها مع ربح قليل، وتخيير الشاري في إعادتها واسترداد ما نقدهُ فيها أو أخذ غيرها بدلاً منها في أي وقت أراد، حتى استلزم الحال توسيع المحل أولاً وثانياً وثالثاً بمناسبة امتداد أعمالهِ واتساعها، وقد اشترى نصيبَ شريكهِ فيهِ سنة 1963، فصار مالكاً لأجمعهِ، ولمّا استمر متجرهُ في الاتساع أخذ في تشييد محل متسع وافٍ بجميع احتياجاتهِ، فوضع أول حجر في أساسهِ في 9 سبتمبر سنة 1869، وصار إتمام البناءِ وفتحهُ للعموم في 2 أبريل سنة 1872.

وبعد أن كان البناءُ الأصلي قائماً على أرض مسطحها عشرون متراً كما تقدم صار الآن قائماً على عشرة آلاف متر مربع، وبعد أن كانت عملياتهُ

التجارية في سنة 1852، 450000 فرنك وصلت في سنة 1888 إلى 123 مليوناً من الفرنكات.

وينبغي ملاحظة ان العشرة الالاف متر مربع الّتي قلنا إنها مسطح هذا المحل، هي ما يشغلهُ البناءُ المعد للبيع والشراءِ ليس إلا، وارتفاعهُ خمسة وعشرون متراً، منقسم إلى عدة طبقات سوى طبقتين تحت الأرض، وكل طبقة تشتمل على قاعات كثيرة.

ولا يدخل في هذا المسطح المحلات المعدة للخيول الّتي تخصصت بنقل الأشياءِ من هذا المحل إلى محلات المشترين في عربات مخصوصة، ولا تدخل فيه المصانع والمعامل الّتي تُعمل فيها الأشياءُ من أبسطة وألبسة وغيرهما، ولا المخازن الّتي تُخزن فيها البضائع، ولا مساكن المستخدمين الّذين تكفل المحل بسكناهم، وإن كان غالب ما ذكر بجوار هذا المحل.

والمشتغلون بأمور هذا المحل وتوابعهِ يعلم عددهم من عرف أنَّ المتكفل هذا المحل بأكلهم من المستخدمين 3500 شخص

ولا يخفى ما يستلزمهُ هذا العمل المهم، وهؤلاءِ المستخدمون الكثيرون من الملاحظة والترتيب، ولم يجد المسيو بُوسيكو مؤسس هذا المحل ضمانة لنجاح محلهِ أكبر من جعل نصيب للمستخدمين المكلفين بالبيع في أرباح ما يبيعونهُ، فكان ذلك من دواعي عمار هذا المحل وتقدمهِ السريع.

ثم إنهُ تفكر في طريقة نفع للمستخدمين الّذين لا يباشرون البيع، فجعل لهم صندوق احتياط صار يدفع إليهِ سنوياً جزءاً من الأرباح الّتي تخصهُ، حتى توصل بذلك إلى أن جعل للواحد منهم نصيباً في رأس مال المتجر بعد خدمة

عشر سنين، كما أنّهُ كان يعطي من هذا الصندوق مهور الفتيات اللاّتي يخرجنَ من المحل إلى الزواج.

كذلك أوجدت امرأة هذا الرجل الخيّر بعدهُ صندوق تقاعد جعلت فيهِ من مالها الخاص خمسة بلايين من الفرنكات، حتى صار المستخدم في هذا المحل متى بلغ خمسين سنة من عمرهِ إن كان من الذكور، وخمساً وأربعين سنة إن كان من الإناث يترتب لهُ (بدون سبق خصم شيءٍ مطلقاً من مرتبهِ طول خدامتهِ) معاش تقاعد من ستماتة فرنك إلى 1500 فرنك في السنة.

وسارت هذه المرأة الفاضلة على ما سار عليهِ زوجها من اتباع الطريقة الّتي تأسست لتقدم المستخدمين ولترقيهم، بحيث يكون الواحد منهم آمناً على مستقبلهِ أكثر من أمنهِ عليهِ في كثير من الحكومات.

ونُتج من هذه الإجراءات[1] أن هؤلاءِ المستخدمين الكثيري العدد صاروا باتحاد الصالح رجلاً واحداً، وقلباً فرداً في نجاح المحل وعمارهِ وزيادة ثروتهِ واتساعهِ.

ولم تقتصر هذه الخيّرة على هذا الإحسان بل أعطت ثلثمائة من أكبر مستخدمي المحل حقّاً في رأس مالهِ، ولم تكتفِ بذلك، بل أوصت بعد مماتها الذي وقع في سنة 1887 بجميع ملك المحل لهؤلاءِ المستخدمين الثلثمائة، وقد قُدّرت قيمة هذه الهبة بستين مليوناً من الفرنكات، بحيث لم يبقَ من المحل وملكهِ بعد هذه العطيّة إلّا ما أوصت بهِ لفقراءِ باريس، ولبعض الشركات الخيريّة.

فانظر إلى هذا الرجل، وقد كان في أول أمرهِ فقيراً يبيع بضائع غيرهِ

(1) في الأصل: الاجراآت. المحرر.

بالأجرة في الموالد والأسواق، كيف وصل بالأمانة والصداقة وحسن التدبير إلى هذا الغنى والثروة الواسعة، وكيف استعمل هذه الثروة وهذا المال في فعل الخير ما استطاع، حتى إنهُ وقت حصار پاريس زيادة عن دخولهِ في جمعيّة مساعدة الجرحى بمبالغ هائلة اشترك مع تاجرين آخرين، وصرفوا من عندهم مؤنة لأهالي پاريس أجمعهم، وهم محاصرون مدة أسبوع (من 17 إلى 23 فبراير سنة 1871)، ودخل بعد هذا في الاكتتاب الذي حصل لإخلاءِ الديار الفرنساويّة من العدو إلى غير ذلك من الأعمال الخيريّة.

وانظر إلى امرأتهِ الّتي حذت حذوهُ في استعمال هذا المال في فعل الخير، فإنها فضلاً عما فعلت في صالح مستخدمي محلها كما سبق بيانهُ، لم تتأخر عن المساعدات في المشروعات الخيريّة بعد الممات كما مرّ، وقبلهُ بالتبرعات العديدة الّتي بذلتها في وجوه الخير اختصر منها على اكتتابها 150 ألف فرنك للاشتراك في تأسيس مستشفى باسْتُور الذي شيّد لمداواة مرض الكَلب، واترك الباقي فإنهُ يطول شرحهُ.

وإن هذا الرجل وزوجتهُ لخير من ألوف سواهم ممن يبخلون لما آتاهم اللّه من فضلهِ، ويأمرون الناس بالبخل، ويقتصرون على نماءِ أموالهم ليس إلاّ وإن حقاً على أهل پاريس بالنسبة لهذا الرجل وامرأتهِ وأمثالهما أن يكتبوا فيهما الكتب العديدة والرسائل المفيدة، وينشروا ذكرهما ليحملوا الناس على أن يعملوا مثل عملهما، فلعل اللّه يهدي بعض الناس إلى سلوك ما سلكاهُ في سبيل الخير العام لنفع بلادهما ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213].

وإني أرى أن الخطباءَ والشعراءَ والكتاب لو استعملوا طريق الإسهاب والإطناب في تشييد ذكر مثل هذا الرجل وامرأتهِ لأدّوا بعض ما ينبغي، من

صرفهم بعض ما وُهِبَ من نتائج الأفكار في ترغيب الناس، وحثهم على فعل الخير، حيث يتأثر السامع والقارئ من كلامهم وتستيقظ الأغنياء، وتنصرف أفكارهم إلى فعل الخير بعائلتهم أو بلدهم أو إقليمهم أو مملكتهم أو عامة الناس، كل على قدر طاقتهِ، وما أعطاهُ الله ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

أما ما يجدهُ الإنسان في هذا المحل من الانتظام والإتقان فلا يحتاج إلى بيان، وقد تقدم لك أن من أصولهِ المقررة؛ البيع بمكسب قليل مع جودة الأصناف والخيار للمشتري في الرجوع عن البيع متى أراد، أما أثمانهُ فمحدودة يدفعها المشتري وقت الشراءِ، ويستلم الشيءَ أو يتركهُ فيرسل إليه بمحلهِ، وهناك يدفع الثمن.

هذا وإذا أراد الإنسان شراءَ شيءٍ دخل من أي باب شاءَ، وسأل ممن يقف بهِ عما يريدهُ، فيدلهُ عليهِ، فيذهب إليهِ، ويصعد أو ينزل بالسلّم أو بالمُرْقِي، فإذا أتمَّ الشراءَ توجه معهُ المستخدم إلى محل دفع الثمن، وفي المحل حاسبون أضعاف عدد الأبواب، فيدفع الثمن، ويستلم ما اشترى أو لا يدفعهُ، ويعرّف محلهُ لتوصيلهِ إليهِ فيهِ وينصرف.

ولا يجبر الداخل بهذا المحل على الشراءِ ولا يخاطبهُ أحد في ذلك، بل يدخلهُ كثير بقصد التفرج أو التسلية، فيجدون في إحدى الطبقات محلاً معداً للمطالعة، فيهِ كل ما يتسلى بهِ من كتب وجرائد مشهورة من سائر أنحاءِ العالم، وأدوات الكتابة، مفروشاً بأحسن الفرش، مخدوماً بأحسن الخدم، فيقرأون ما يشاؤون، ويكتبون ما يريدون من مكاتيب وغيرها في ورق من

ورق المحل مجاناً، ويجدون على باب القاعة صندوق بوستة، فإن تطلبت نفس الزائر شيئاً من الشراب للترطيب خصوصاً في وقت الحر، توجه لجانب قاعة المطالعة، فيجد قاعة متسعة في صدرها طاولة كالتي في أَحسن القهاوي، واقفاً عندها كثير من الخدم، بأَيديهم قناني أصناف الشراب، وأمامهم الكوبات النظيفة، فيطلب مثلاً من شراب الرمان يعطيهِ الخادم، ويضيف عليهِ لهُ الماءَ فيتعاطاهُ.

ويرى الإنسان محل هذا الشراب في ازدحام دائم، فيضطر في الوصول لحاملي الشراب إلى أن ينتظر انصراف من دخل قبلهُ من باب غير الباب الذي دخل منهُ وربما بلغوا عشر صفوف، وما ذلك إلّا لأن ما يُشرَب لا يُدْفَعُ لهُ ثمن، بل يحتسب من مصاريف المحل العموميّة ابتغاء مرضاة الزائرين «والمنهل العذب كثير الزحام».

فمؤسس هذا المحل وزوجتهُ ينبغي أن تكتب مآثرهما على مآقي العيون، ويقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: 61]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

ثم انتقلنا من هذا المحل مارين أمام كنيسة سَانْ سُوليس، ثم في بُلوازْ سان مِيشيلْ حتى وصلنا إلى (الرصدخانة) الشهيرة وقد تأسست سنة 1672، وصار توسيعها مرات واحدة بعد الأخرى، ويمر من وسطها خط نصف نهار باريس، كما أن الوجهة الجنوبيّة منها تتحد مع خط عرض باريس، وقبتها المعدة للأرصاد كبيرة، بنيت سنة 1850، وقطرها 13 متراً، وجميعها من النحاس، تدور على محورها ليتمكن الراصد من توجيهِ النظارة المعظمة الموجودة تحتها أينما شاءَ، وقطر هذه النظارة 38 سنتيمتراً وطولها 9 أمتار.

وبها غير ذلك من آلات الرصد وأدواتهِ ولوازمهِ ومعداتهِ، وما جعلها من أَحسن الرصدخانات، وبها فضلاً عن هذا متحف فلكي يقصدهُ المشتغلون بعلم النجوم من سائر الجهات.

وتفرجنا حال توجهنا إلى الرصدخانة على (فسقيّة الرصدخانة)، بالقرب منها، وقد بنيت سنة 1878، وهي مزينة بأَربع صور مجسمة من البرونز، تمثّل أَربعة أقسام الدنيا حاملة لكرة فلكيّة محمولة جميعها على قاعدة تحيط بها صور ثمانية خيول من خيول البحر، وصور كثير من وحوشهِ، فتتقذف من الصور مياه تتكوّن منها حال نزولها أشكال غاية في الجمال.

ثم قصدنا بعد ذلك (معمل جُوبْلاَن) وهو تابع للحكومة، تُصنَعُ فيهِ البُسُطُ المعروفة بهذا الاسم، بحيث إذا قيل جوبلان فقط فهم من ذلك البِساط العديم المثال، المعمول بهذا المكان.

وقد أَسس هذا المحل في سنة 1450 رجل يسمَّى جُوبْلاَنْ، وقد ذاع صيتهُ، حتى اشترتهُ الحكومة سنة 1662، ولا يزال ملكها، ويُدار بواسطتها إلى الآن.

فدخلناهُ، وتفرجنا على أنوال النسج فيهِ، والمشتغلين بها، فيشتغل الواحد منهم بالعمل ناقلاً إلى البساط رسم صورة أو هيئة مرسومة من قبل، موضوعة أمامهُ، وكان قد خَطَّ بالقلم الرصاص حدود هذه الصورة على اللُّحمة المنصوبة قدامهُ، وهو جالس خلفه وجه البساط الذي يعمل فيهِ، أي: أنهُ غير مواجه للجهة الَّتي بها النقش.

وأكثر صعوبة هذا العمل إنما هو من جهة انتقاءِ الألوان المختلفة الَّتي أَمام الصانع، فإن الصوف مصنوع بألوان مختلفة لتتركب منها ألوان الصور الَّتي

تكون على البساط، كل لون منها يشتمل على أربعة وعشرين صنفاً من هذا اللون، متمايزة عن بعضها، فلابد للصانع من مهارة عظيمة وتدرب عجيب في انتقاءِ هذه الألوان وتمييزها عن بعضها، وأخذ اللازم منها أولاً فأولاً، ولابد لهُ من صبر وتجلد عظيمين، ولذلك لا يتأتى لأمهر صانع أن يصنع أكثر من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين سنتيمتر مربع في النهار من هذه البسط، بحيث يستغرق عمل البساط الكبير خمس سنين، أو عشر سنين، فلا يستغرب حينئذ أن ثمنهُ من خمسين ألف فرنك إلى 150000 فرنك، بحسب تفاوته في الكبر والصغر. . .

والرسومات التي تنقش على هذه البسط بهذه الألوان عبارة عن هيئات وقائع أو صور أشخاص، على حسب ما يقتضيهِ الحال، وفي الغالب ينقل إليها أحسن صور الرسامين، فتجيء هذه الصور مطابقة للأصل كل المطابقة، متشابهة لهُ كل المشابهة.

وهذه البسط تُوْضَعُ على الجدران وضع التصاوير والرسومات للزينة والرونق، ولكن من يرى القديم منها في قصور حكام فرنسا القديمة يجد ألوانها ليست على ما يجب من الرونق والازدهاءِ، فيظن أن اللون فيها لا يكون إلاّ بهذا المقدار، وما يدري أن ذلك ناشيءٌ من القدم ومرور الأزمان، فإن الجديد فيها الجاري عملهُ بهذا المحل ألوان الرسم فيهِ فوق ما يتصورهُ الإنسان.

هذا وجميع هذه البسط مصنوعة من الصوف، فإن ألوانهُ أثبت الألوان في الصّبغ، وإنما يستعمل الحرير فيها لرسم الأزهار والفواكه أو لرسم المعادن.

ومما يزيد في قدر بسط جُوبْلاَن كونها ليست في التجارة، فلا تباع، وإنما

يخصص ما يعمل منها بتزيين مساكن رؤساءِ الحكومة والدواوين العموميّة، ويُهْدَى منهُ إلى ملوك الدول المتحابة وأمرائها والعظماءِ، وبالمحل متحف جمعَ ما رقّ وراق من نفيس الأشكال، من حيث إتقانُ الصنع، وحسن الرسم والتصوير في البسط من قديم العهد إلى هذا الزمان.

ثم بعد التفرُّج على عمل البسط بالكيفيّة المتقدمة، والتفرُّج على هذا المتحف انثنينا راجعين إلى:

(پانْتِيُونْ) وهو بناءٌ قائم على أعلى محل في الشاطىءِ الغربي من السين، (بدىءَ فيهِ سنة 1764، وانتهى سنة 1790)، وبناؤُهُ أولاً كان كنيسة برسم القديسة سَانْت جنفيڤ، ثم تسمى پانْتيُون سنة 1791، وخصص بدفن أعاظم الرجال، ثم أُعيد كنيسة، وجعل أخيراً مقبرة للعظماءِ في سنة 1885 بمناسبة دفن وكْتُوز هُوجُو الشاعر الشهير فيهِ.

وهو عظيم الاتساع طولهُ 112 متراً، وعرضهُ 84 متراً، ويعلو وسطَهُ قبة ارتفاعها 83 متراً، وقطرها 23 متراً، وهذه القبة نفسها مرتكزة على مستدير ذي عمد، وبأعلاها برج فوقهُ قبة صغيرة، ينتهي بها ارتفاع هذا البناء.

والوجهة يتقدمها ممشى متسعة، يحفها اثنان وعشرون عموداً، ارتفاع كلّ منها 25 متراً، معمولة على شكل وجهة پانتيون رومه بالتمام.

ويعلو هذه العمد مثلث، عرضهُ 36 متراً، وارتفاعهُ سبعة أمتار، مرسوم عليهِ صور ناتئة في الحجر، أكبر ما فيها ارتفاعهُ خمسة أمتار، يمثّل فرنسا توزع تيجان الْفَخَار على أولادها العظماءِ.

ويدخل هذا البناءُ من ثلاثة أبواب متسعة في ممشى الوجهة فيجد الداخل صحن المكان تحيط بهِ عُمُدٌ كبيرة، فوقها محلات للزائرين، وفوقهُ القبة

المذكورة الكبيرة الارتفاع، مكونة من ثلاث طبقات، يعلو بعضها بعضاً، يمكن الصعود إلى أعلاها بواسطة 425 درجة، يرى الصاعد في أثنائها النقوش الّتي بهذه الطبقات، ويفهم حسن انتظامها وجسامتها، خصوصاً الّتي بالطبقة الثانية، منها البالغ مسطح رسوماتها وحدها 320 متراً مربعاً.

ويوجد بهذا البناءِ قبور بعض أكابر القوم تعظيماً لهم، واحتفالاً بهم، مثل قبر وكتّوز هُوجُو الشاعر السالف بيانهُ، وقبرين لُروسُو، وڤُولْتير الفيلسوفين الشهيرين، وإن كانا ليسا مدفونين فيهِ بالفعل، وغيرهم من الأكابر؛ إذ لا يُدْفَنُ بهذا المحل إلّا من يُقر مجلس النواب على دفنهِ فيهِ.

ومن هذا البناءِ نزلنا بسكة (صُوفْلُو) المنسوبة إلى اسم المهندس الذي شيد هذا المكان، فوصلنا إلى (حديقة لكْسَمبورْغ).

وهي من أحسن بساتين باريس، ومتنزهاتها في وسطها حوض متسع للغاية على شكل مثمن الأضلاع، تحيط بهِ الصور المُجَسَّمة، كما يوجد منها كثير في أطرافها، خصوصاً صور مشاهير النساءِ، ويجتمع إليها في أوقات الفراغ من الأعمال خلق كثير، لا سيما حين توجد فيها الموسيقا العسكريّة يوم الأحد والثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، هذا وبهذه الحديقة (سراي لكْسَمْبُورغ).

وهي أيضاً سراي من أحسن السرايات، وأتقنها وأنظمها، بنيت من سنة 1615 إلى سنة 1620، وأُدخل عليها كثير من التغييرات في أزمان مختلفة، وسكنها كثير من الأمراءِ والأميرات من العائلات الملوكيّة، ثم جعلت حبساً في مدة الاحتلال، ثم اتخذها كثير من الحكومات مركزاً لها بعد ذلك إلى أن صارت مقرّاً للسناتو من سنة 1878 وهي لا تزال كذلك إلى الآن، وبداخلها من

بديع الرسم والنقوش والتذهيب والتصوير ما صنعهُ أحسن النقاشين، وأشهر المصورين، كما أن عمارتها في حد ذاتها من أجمل العمارات وأبهاها، هذا ومنها انتقلنا إلى:

- (متحف لكسمبورغ) وهو كما سبق الإلماع إليهِ في غير هذا المحل، مخصص بعرض رسومات الرسامين الموجودين في عالم الوجود، ومن شروطهِ أن تنقل الرسومات منهُ إلى متحف اللوفر، أو إلى المتاحف الموجودة في داخليّة فرنسا بعد موت صانعها بعشر سنين، ومنهُ انتقلنا إلى السين، فجزناهُ ووصلنا إلى

- (كنيسَة نُوتْرْدَامْ الكاتِدْرَائِيَّة) وهي أول كنائس باريس اعتباراً، تأَسست سنة 1163 موضع كنيسة أصلية أنشئت في القرن الرابع، وهذه وإن حصلت فيها عدة ترميمات وتصليحات وتغييرات فإنها[1] حُوفِظ على هيئتها الأصليّة حسْب الإمكان، واعتنى بذلك خصوصاً في الترميم الذي حصل فيها أخيراً سنة 1845، وقد صدر الأمر بهدمها مدة الثورة إلّا أنهُ أُلغِي قبل أن ينفذ، واتخذها الثورويون هيكلاً لتعظيم الرشد والصواب، واستعاضوا عن تمثال السيدة العذراءِ فيها بتمثال الحريّة، واستبدلت الصلوات التعبديّة بالأناشيد الوطنيّة، وأُسرج بمحرابها سراج الحقيقة، يعلوهُ تمثال الفلسفة، وبجانبه صورتا فُولْتِير ورُوسُّو الفيلسوفين، ولكنها ما لبثت أَن أُغلقت، ولم تفتح إلّا بعد إخماد الثورة.

وأَحسن ما في هذه الكنيسة وجهتها؛ فإنها غاية في اللطف وحسن البناءِ، منتشر عليها الصور المجسمة الحسناءُ، وهي مركبة من ثلاث طبقات، يعلوها برجان تنكشف لمن يصعد عليهما باريس أَجمع، وارتفاع كل 68 متراً عن سطح الأرض، ويُصْعَد إليهما بدرجات عددها 378، وفي الجنوبي

(1) في الأصل: «إلا أنها» المحرر.

منهما ناقوس من أكبر نواقيس العالم، زنتهُ 12500 كيلو جرام، وناقوس آخر استحضر من سباستابول.

وداخلها في غاية الزينة والرونق والاتساع، محلىً بأجمل الرسومات، والصور، منقوش بأحلى النقوش والزجاج المغطاة بهِ نوافذها أيضاً، منقوش بأبهج النقوش.

أما طولها فيبلغ 127 متراً، وعرضها 48 متراً، وارتفاعها 34 متراً، ثم منها قصدنا:

- (أُوتيل دِيُو) مستشفى قديم صار تجديدهُ من سنة 1868 إلى سنة 1878، وهو أقدم مستشفيات باريس، بل أوروبا لأن أول إنشائِه سنة 660 في عهد كلويس الثاني، وهو بالهيئة الّتي تجدد بها غاية في المتانة والحسن والاستعداد، بهِ 559 سريراً، ولا عيب فيهِ سوى أن الأماكن الّتي لزمت لتوسيعهِ اشتريت بمبلغ 22 مليوناً من الفرنكات، وأن مصاريف بنائِه بلغت 23 مليوناً من الفرنكات.

وهو تابع في المصرف لإدارة مساعدة الفقراء بباريس، ويتبعها غيرهُ خمسة عشر مستشفى كباراً[1] يسع جميعها 8753 سريراً للمرضى، غير الأَسِرّة الّتي يمكن استخدامها عند الضرورة.

ويخرج منها بعد المعالجة كل سنة 45 ألف رجل إلى 50 ألفاً، و 36 ألف امرأة إلى أربعين ألفاً، و 16 ألف طفل إلى 18 ألفاً، ومتوسط عدد الوفيات فيها في السنة 7 آلاف رجل، و 5 آلاف امرأة، وثلاثة آلاف طفل. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى:

- (لاَمُورْج) وهو بناءٌ واقع على شاطيءِ نهر السين، الداخلُ إليهِ يجد في

(1) في الأصل: «كبار» المحرر.

الحائط المقابلة لمحل الدخول منافذ مغطاة بالزجاج، مطلة على باقي المحل، ويداخلها أسِرَّة من خشب عليها الأموات الَّذين يوجدون غرقى في النهر، أو مقتولين بأسباب جنائيَّة، أو غير جنائيّة في الطرق العامة، ولا تعرف أسماؤهم، فيعرضون بهذا المحل مدة من الزمن إلى ثلاثة أشهر، لتتعرفهم أقاربهم أو معارفهم، فيأخذوهم لدفنهم بعد إثبات حالتهم، وكيفيَّة حفظ هذه الأجساد وبقائها بحالتها الأصليّة بدون حصول تعفّن فيها ولا تغيّر في ألوانها مدة ثلاثة شهور، هي أن توضع في آلة مُبَرِّدَة، فتتجمد لدرجة 14 أو 15 تحت الصفر، ثم توضع في القاعة المعروضة فيها، وحرارتها لا تزيد دائماً في كل الأوقات عن أربع درجات تحت الصفر.

ويُعْرض في هذا المكان في السنة الواحدة نحو 800 جثة، سُبْعها تقريباً من النساءِ.

ثم اجتزنا نهر السين فمررنا على (أُوتيل دُه فِيلْ) وميدان (شَاتْلِيه) وسكة الأوپرا، حيث ابتدأنا، وكان الوقت وقت الغروب.

فعدنا إلى الفندق ومنهُ قصدنا محل وطنينا حضرة أحمد شفيق بيك أحد موظفي السكرتاريَة الخديويّة وقتئذٍ، وكان بپاريس يدرس علم الحقوق، وقد دعانا إلى منزلهِ لتناول الطعام عندهُ فأجبناهُ، ونعم ما فعلنا، فقد وجدنا من إنسانيّة هذا الصاحب وما أعدَّهُ من المآكل الوطنيّة، وكانت غابت عنا منذ بدءِ سفرنا، ما أوجب سرورنا، وانشراح صدورنا، وبقينا هنالك بعد الأكلِ وهناً من الليل نتجاذب فيهِ أطراف الحديث حتى آن وقت الانصراف.

* * *

(اليوم الثاني عشر في باريس)

رابع يوم في المعرض

خصصنا هذا اليوم بزيارة قسم المعرض المخصوص بالفنون المستظرفة (بُوزاز)، وقد أقيم هذا القسم في سراي فسيحة بنيت لهُ من الآجُرّ والحديد، تعلوها قبة كبيرة، يغلب على نقوشها اللون السماوي مع ما يتخللها من الزخارف والتذاهيب.

وهذه السراي يقابلها سراي مماثلة لها في الهيئة والجسامة، ومشابهة لها في الوضع والإتقان خصصت بالفنون العقليّة وتاريخ عمل الإنسان، وكأَنها هي والمقابلةُ لها مع البناءِ الممتد من كلٍّ منهما إلى سراي الصناعات المتنوعة جناحان لها، وقد بلغت مصاريف تشييد هذين القصرين سبعة ملايين من الفرنكات.

وبين الجناحين المذكورين بستان فسيح نضير، أَبدع في إتقانهِ وتنظيمهِ وتحسينهِ وإحكامهِ أَعظم البستانيين الفرنساويين، فجاءَ روضة غناء، وحديقة فيحاءَ، نظمت فيهِ الطرقات والمزروعات والأزهار، كأنهُ أُنشئ من مائة عام لما فيهِ من حسن النظام، فضلاً عما يتخللهُ من فساقي المياه وحياضها، لا سيما الفسقيّة المضاءَة بالكهرباءِ الّتي ينصب فيها الماءُ مكتسياً بواسطة مرورهِ على ألواح من الزجاج، تتسلط عليها أَشعة النور الكهربائي من جميع جهاتها ألواناً مختلفة متشكلة بأشكال بديعة، وهيآت جميلة تروق الأنظار وتَبْهَرُ العقول، وتُحيّر الألباب، وتقضي بالاستغراب.

وبهذا البستان بين الجناحين قصران صغيران خُصّصا بمدينة باريس ومعروضات أعمالها الخصوصيّة، وتجاه الداخل بالبستان مدخل سراي الصناعات المتنوعة، وهو مدخل عظيم جدّاً تحت القبة المركزيّة الكبيرة الّتي سيأتي الكلام عليها.

وإذ خصصنا هذا النهار بزيارة قسم معرض الفنون المستظرفة كما تقدم، فلنصف بعض هيئتهِ الداخليّة، فنذكر ما فيهِ من التصاوير والرسوم وبدائع النقوش وغرائب الأشكال على سبيل الإجمال، فإن القيام بحق تفصيل ما في هذا المحل من التحف ونفائس الصنائع، لا يكون بمجرد الوصف من مثلي بالاستحسان، بل يلزم لهُ معرفة هذه الفنون المستظرفة والصنائع النفيسة معرفة تامة، والوقوف على دقائقها وتفاصيلها من كل الوجوه، حتى يتمكن من بيان الحَسَن ووجه الاستحسان، وبيان ضِدّهِ إن كان منهُ شيءٌ في مثل هذا المكان، ولست من أَهل هذه الفنون مع أسفي على ذلك، على أن قيام العارف بهذا الأمر، يستلزم المدد الطوال وكتابة أسفار.

ولندخل هذه السراي من حيث اعتاد الناس الدخول وإن تعددت فيها المداخل والأَبواب، ولنبدأ بمدخل رواق راپ.

– وهو رواق متسع عرضهُ قدر عرض السراي المذكورة، وطولهُ بنسبة هذا العرض، قد خصص بعرض الصور المجسمة (سكُولْتُور)، فجعل قسم عظيم منهُ للمصنوعات الفرنساويّة، وباقيهِ للأَجنبيّة، مع أنهُ على اتساعهِ وكبرهِ ما كفى هذه المعروضات، بل اضطر القائمون بأَمرها أَن يضعوا بعضها في جهات أُخر من سرايات المعرض ودهاليزهِ، وبعضها في البستان، وما أَعجب من قاموا بأَمر هذه التماثيل من الحجر والبرونز والرخام، فقد اتقنوها وأكسبوها صبغة من الحياة؛ لأنها إن رُمز بها إلى وقائع تاريخيّة أو

حكميَّة أو غراميَّة كانت كأنما تنطق ببيان ما أُريد منها، وإن أُريد بها تصوير بعض مشاهير الأشخاص دلت على الشخص وهيئتهِ، وحافظت على ملابسهِ وحالتهِ حتى إنها جعلتهُ تجاه الناظر على الحالة الَّتي يعرفهُ بها الناس من وقفتهِ الَّتي كان يألفها، وانحناءِ الرأس واعتدالها، ووضع اليد أو الإشارة بها، إلى غير ذلك من المميّزات.

وإذ تفرجنا بهذا الرواق انثنينا منهُ إلى اليمين، فدخلنا السراي مارّين فيها من الجنوب إلى الشمال، وصار هذا الرواق الذي تركناهُ بمثابة دهليز لها يدخل منهُ إليها. وفي هذه السراي الرسومات والنقوش بأنواعها (بَانْتُوز)، والأشكال المتعلقة بالعمارات (أَرْشِتِيكْتُوز).

ويقسمها ممشى كبير إلى قسمين جعلت في كلٍّ منهما غرف ذات اليمين وذات اليسار مختلفات في الهيئة والاتساع، وفي وسط هذا الممشى متسع تعلوهُ قبة عالية، تحتها سُلَّم يُصْعَد منهُ إلى الطبقة العليا من السراي، ومحلاتها مغطاة أغلبها بالزجاج، مجلوب لها الضوءُ بمقدار معلوم، وبكيفيَّة مخصوصة، رغبة في تحسين الرسومات، وتبيين جمالها وحسنها وبهائها. وقد خُصِّص قسم من هذه السراي بالمعروضات الفرنساويَّة، والثاني بالمعروضات الأجنبيَّة.

أما المعروضات الفرنساويّة فتشغل الجزء الموصل من رواق راپ إلى المتسع الوسطي، وقد خصص هذا الجزء بمصنوعات العشر السنين الأخيرة من سنة 1878 إلى سنة 1889، وخُصِّص ما يكتنف المتسع الوسطي من القاعات بعرض منتخبات أعمال الرسامين والمصورين الفرنساويين من سنة 1789 إلى سنة 1878، فصار هذا القسم الفرنساوي بجزأيه[1] عبارةً عن

---

(1) في الأصل: «بجزئيه» المحرر.

منتخبات الأعمال الفرنساويّة في فنون الرسم والنقش والتصوير مدة مائة عام، من سنة 1789 إلى سنة 1889، ولذلك سُمّي بالمعرض المئيني ويحتوي على نحو ألفي قطعة من لوحات الرسم.

وإذا علمت ما تقدم ثم عرفت أنّ الّذين انتخبوا هذه التحف واختاروها من بين الآثار الموجودة بالمتاحف، وعند معتبري الآحاد لجانٌ مؤلفة من أشهر الأساتذة في هذه الفنون، وأضفتَ إلى ذلك أنّ المحلات المخصصة بمعروضات العشر السنين الأخيرة لم تُقبل فيها هذه المعروضات إلّا بعد عرضها على لجنة مؤلفة من أعاظم الأساتذة، وشهادتهم باستحسانها وضممتَ إلى مَا ذُكر أن هذه الرسومات جميعها اشتغل بوضعها في محلاتها الّتي هي فيها وتنظيمها وتنسيقها وتصويب الضوء إليها، كما رأيناها، لجانٌ من كبار العارفين، وزدت على هذا كلهِ أنهُ روعي في وضعها جعل أعمال كل أستاذ من الأساتذة القدماء أو المحدثاء منضمةً إلى بعضها كأنما هذا المعرض عبارةٌ عن معارض كثيرة خصوصيّة بقدر عدد الأساتذة المعروضة أعمالهم، أيقنت أن هذا القسم من هذا القصر جدير بأن يحار فيهِ من شاهد مرآهُ، ويتعجب من بدائع صنعهِ من رآهُ، وأن يعدهُ من أحاسن المحاسن ومحاسن الأحاسن، ويجزم بأنّهُ يقصر عن وصفهِ الفضلاءُ، ويعجز عن بيان كنههِ النبلاءُ.

والمعروضات الأجنبيّة الّتي تشغل باقي أقسام هذه السراي النفيسة، قد جُلبت إليها من سائر الأقطار، فهذه قاعات إيطاليا وأسبانيا وإنجلتره وألمانيا والروسيا وأوستريا وهنكاريا وضعت في الطبقة الأرضيّة، وهذه قاعات بلجيكا

وسويسره واليونان والممالك المتحدة بأميركا والدانمرك والنرويج والسويد وهولانده وسربيا ورومانيا وضعت في الطبقة العليا، وذلك كلهُ غير قاعة خُصّصت بالأمم المختلفة الّتي لم تكن مصنوعاتها تستلزم قاعة خصوصيّة.

وقد قَدَّر بعضهم المسافة الّتي تشغلها الصور المعروضة بهذا القصر لو وضعت بجوار بعضها متلاصقة على خط مستقيم بفرسخ وربع فرسخ لفرنسا، من ذلك 2810 أمتار، وللبلاد الأجنبيّة 2123 متراً، والباقي للمعروضات المصنوعة من سنة 1789 إلى سنة 1878، وفي ذلك دلالة كافية على عظم ما أنتجته القريحة البشريّة، من غرائب البدائع وبدائع المنتخبات في هذا الفن.

وها أنا قد بيَّنتُ في هذا الباب ما أمكنني بيانهُ حسب طاقتي، وإلّا ففي الجنان ما لا يستطيع بيانهُ اليراع واللسان، وقد كنت أودُّ أن أوضح ما في نفسي من حقائق هذه المصنوعات، وأن أمتع القارئَ بدقائق ما تمتعت بهِ، وسيدي الوالد العزيز في هذا النهار من المَرْئيّات، وأُطلِعَهُ على ما عاينتهُ في انتقالي من غرفة إلى أُخرى، ومن صورة إلى غيرها يتراءى لمن شاهدها، أنها ناطقة تُشَخِّص في عالم الحياة، ما أراد موجدها إظهارهُ بها من عالم الخيال إلى عالم العيان، وهذه القاعات خصوصاً المتعلقة بالقديم منها من سنة 1789 إلى سنة 1878، كأنما هي كتب تاريخ واضحة العبارة مكتوبة صحائفها بخط جليّ تنادي بالأشخاص وأعمالها والملوك وأفعالها، والحروب وأهوالها، من انتصارات وانكسارات، ومكافحات ومناضلات، وأفراح وأتراح، أو أسفارُ أخلاق تنبيءُ عن الملابس والعوائد والمساكن والموائد،

أو محالُ اجتماعٍ للتعارف يجتمع الزائر فيها مع مشاهير الرجال المنسوبة إليهم أعاظم الأعمال في فنون المعارف والآداب.

ولا غروَ أن فن التصوير يشابه فن الشعر، من حيث إن مبنى كل منهما التخيل، وهما متحدان في المُؤَدّى، مختلفان في كيفيَّة التأدية وما يؤديان إليهِ فالشاعر يُؤَدّي إلى السمع ما تخيلهُ بألفاظ ينظمها ويحسنها حسبما هو عليهِ من القوة في التأدية، والمصَوِّر يُؤَدي إلى البصر ما تخيلهُ بصور يصورها وتماثيل يمثلها يجعلها ناطقة بلسان حالها عما في ضميرهِ من المعاني الَّتي أرادها، يفهم المقصود منها من رآها وتأملها، كما يفهم المقصود من الشعر من سمعهُ وتأملهُ، ولا يخفي ما في ذلك من المهارة والدقة ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

هذا وبعد أن متَّعنا الطرف بهذه المحاسن طول النهار، واغتنمنا هذا الأنس، وتعاطينا طعام العشاءِ في أحد محلات الأكل الملاصقة للسراي أَردنا الانصراف إلى الفندق، فصادفنا نوراً عظيماً استلفت منا النظر، فقصدنا نحوهُ وإذا هو ملعب الإِبْدُرُومْ لا يبعد كثيراً عن المعرض، فقضينا بهِ طائفة من الليل نتفرّج على ما فيهِ من ألعاب الفروسيَّة وغرائب الحركات الجسمانيَّة، ممَّا يدهش العقل، وَيُحَيِّر اللُّب لما يراهُ الناظر من الخروج عن العادة المألوفة، من جهة اقتدار اللاعبين وقوتهم وتمرنهم وسرعة حركتهم، على كبرهم، وصغرهم، نساءً ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً، فيمشون على الحبال المرتفعة مع دقتها، ويشتغلون فوقها بأنواعِ الألعاب، كأنما هم على أرض قارة، هذا فضلاً عن ألعابهم على الأرض، وفوق أظهر الخيل، مع ما بهم من عظم الوثبات الدالة على غاية الخفة والنشاط إلى غير ذلك.

ولا شك أن هذه الألعاب مع كونها من موجبات التسلي والاستغراب هي من موجبات التنشيط للحركة، والتحبيب في الشجاعة والفروسيّة، وتقويَةِ النفس على اقتحام الأخطار، وعدم المبالاة بها، فإذا خرج الإنسان بعد تفرجهِ وجد في نفسهِ نشاطاً في المشي، وخفة في الحركة، وجسارة في النفس؛ لأنهُ مهما عمل في ذلك لا يصل إلى أدنى درجة هؤُلاءِ من التعرض إلى المضار، وارتكاب الأَخطار.

* * *

(اليوم الثالث عشر في باريس)

خامس يوم في المعرض

خَصّصنا هذا اليوم (يوم الأربعاء 14 أغسطس سنة 1889) بزيارة سراي الفنون العقليّة (آزلِيبيرُو)، وتاريخ عمل الإنسان، سمّيت بذلك لأن ما بها للعقل فيهِ الجانب الأكبر والحظ الأوفر، ولأن أَعمال الإنسان من قديم الزمان إلى الآن معروضةٌ فيها وهي السراي المقابلة لسراي الفنون المستظرفة الّتي كُنّا بها أَمس.

والغرض من ذلك جمع حاصلات عمل الإنسان من الأزمنة المتقدمة إلى الوقت الحاضر في مكان واحد، وكيف كان، وكانت في مبدأ الأَمر مع ترتيبها بحسب تواريخها، وبكيفيّة يستنتج منها حال التقدم فيها، وكيف تحولت من حالتها الأصليّة إلى حالتها الحاضرة المحسَّنَة، ومن هذا تستفيد الناس معرفة كيفيّة الأعمال الإنسانيّة، وكيف ترقت شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى حالتها الحاليّة.

ومن البديهي أنهُ لم يكن من الممكن دائماً عرض جميع الحاصلات القديمة نفسها، فهذه الماكينات البخاريّة لم يتيسر الحصول على أول ماكينة اخترعها سِتْفَانْسُونْ الإنجليزي مخترع الوابورات البخاريّة الّتي تسير بقطارات السكك الحديديّة لأجل مقارنتها بآخر ماكينة من هذا القبيل، عُملت في أَحسن الفاربريقات الفرنساويّة أو الإنجليزية، وهذه النظّارة المعظمة الّتي كان يستعملها جَالِيلِيه الفلكي الشهير ما أمكن إحضارها لمقارنتها بأحسن النظارات الفلكيّة المستعملة في هذا الوقت، وذلك لأن

(1) في الأصل: «في بدإ» المحرر.

الماكينة البخاريّة الأولى محفوظة في متحف لندره، والنظارة الابتدائيّة من مملوكات مدينة وينيسيا (البندقية)، ولهاتين المدينتين الحق في عدم تفريطهما في مثل هذين الكنزين الثمينين.

ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ، والأشياءُ الّتي لم يتيسر إحضارها بنفسها عُرِضَتْ بصورها الفطوغرافيّة، أو بصور مجسمة منقولة منها، أو بأقرب الأصول لها، فهذه الماكينة البخاريّة الحديديّة الّتي لم يتيسر إحضار الأولى منها، استحضر بدلاً عنها ثاني وابور حديدي عملهُ الإنجليز بعد الأول.

وهذه السراي وإن شابهت السراي الذي كنا بها أَمس فإنها[1] تمتاز عنها بصفاءِ ألوان الآجُرّ والحديد فيها، وبداخلها رحبة عظيمة الاتساع، تعلوها قبة شاهقة في الارتفاع، وحولها تحت القبة المذكورة أَربعة قصور مستقلة في ذاتها منفصل بعضها عن بعض. وكل واحد من هذه القصور الأربعة بوسطهِ رحبة متسعة فيها الأشياء المعروضة، يحيط بها ممشى تحمل سقفها عُمُدٌ، وبالزوايا الأربع قاعات أَربعة في كل زاوية واحدة.

وأَما دائر السراي فممشى كبير متقن الوضع عُرِضَ فيهِ كثير من الأشياءِ، وتنقسم المعروضات بهذه السراي إلى أربعة أَقسام، الأول في الإنسان وتاريخهِ الطبيعي (أَنترُوپُولُوجِيا)، وعلم خصوصيات الشعوب (إِتْنوجْرَافِيا)، الثاني في الفنون العقليّة (آزلييرُو)، الثالث في الفنون والصنائع، الرابع في وسائط النقل وَجرّ الأثقال.

بقي قسم خامس متعلق بتاريخ عمل الإنسان، وضع في سراي مخصوصة بنيت لهُ في قسم أنفاليد من المعرض، وهو قسم الفنون الحربيّة.

---

(1) في الأصل: «إلا أنها» المحرر.

وقد أنتخبت لجان لملاحظة هذه الأقسام، وترتيبها مؤلفة من كبار العلماءِ بهذه الخصوصيات، وتألّفت لجنة عالية ترأس هذه اللجان تحت رياسة المسيو جُولْ سِيمُونْ الفيلسوف الشهير، وكفى ذلك دليلاً على حسن نظام هذه المعارض الخصوصيّة. وَإِنَّ لحظةً يقضيها المتفرج في قسم من هذه الأقسام يَتَتَبَّعُ الأشياء، ويقرأُ ما عليها من التعاليق الكتابيّة، لأفيد لهُ من سنين طويلة يمضيها في دراسة الكتب، الّتي ربما لا توصلهُ في أَغلب الأحيان إلى النتيجة الّتي يستفيدها في بعض دقائق، فإنها زبدة أَفكار العلماءِ، ولم يحصلوا عليها إلّا بعد مدةٍ متطاولة وسنين متعددة مضت في البحث والمناقشة، والتنقير في كتب ومظان لهُ لم تخطر ببال لهُ.

وكل قصر من القصور الأربعة مخصص بقسم من الأقسام إلّا أن القسم الثاني ضُمّ إليهِ الرحبة الّتي تحت القبة.

فالقصر الأول من جهة النهر خصص بالقسم الأول المتعلق بالإنسان وحالاتهِ وخصوصيات الشعوب، وذلك أن صورت صور كثيرة من الشمع بقدر الإنسان الطبيعي، ووضعت في وسط الرحبة جماعاتٍ كل ثلاثةٍ وأربعةٍ منها مع بعضها منفصلةً عن باقيها تُمثّل حالة مخصوصة من حالات الإنسان، فأول جماعة مؤلفة من ثلاثة أشخاص على حالة الإنسان الأولى مجتمعين حول شجرة أوقعوها لأخذ أخشابها، وصنعها للمصالح الّتي كانوا يستعملونها فيها بالأيام الخالية، وهم على هيئة اشتغالهم بذلك وقتذاك، والجماعة الثانية مركبة من أشخاص على الفطرة الأولى، يشتغلون بتحديد أحجار الصوان، وسنها بواسطة احتكاكها بأحجار غيرها، حتى تكون حادّة فيستعملوها أسلحة للدفاع والهجوم على العدوّ من إنسان وحيوان، أو في قطع الأشياءِ اللازمة للمعاش، إلى غير ذلك مما وصلوا

إليهِ بواسطتها من الصنائع، وترى هٰذه الأشخاص كأنها مشتغلة أمامك بهذه الأعمال، والجماعة الثالثة أرقى من الأوليَيْنِ وهي عبارة عن عائلة تأوي إلى فُسْطاط حضر كبيرها من الخارج راكباً مركبة يجرها حيوان من حيوانات تلك الأزمان، ويظهر على هذه الجماعة نوع من الترقي لانتظامها، وتوافر الأدوات عندها أكثر من اللتين قبلها، والرابعة جماعة ألَّفت لها مسكناً من الأحجار على الحالة الأصليَّة، ثم جماعة بعدها حسَّنت هذه الأحجار بعض التحسين، كأنها نحتتها بتلك الآلات الَّتي ذكرناها ونظَّمتها بعض تنظيم، كل ذلك والجماعات يتبيَّن لنا منها كيف كان الإنسان يلبس ويتغذى في تلك العصور السابقة على الأزمنةِ المعروفة بالتاريخ.

وفي دائر رحبة القصر صُفَّت جماجم متعددة عثر عليها في نقط مختلفة من المعمورة، ووضعت معها أشياءُ كثيرة من مجموعات عظام الإنسان وهيكلهِ مجلوبةً من سائر الأنحاءِ، مرتبةً كالتي قبلها بحسب الجهات والأصناف، فمنها الزنجي وساكن أميركا الأصلي والصيني والأوقيانوسي والهندي وغير ذلك.

وبإحدى جهات الرحبة جماعة على هيئة الصينيين، يصنعون أواني الخَزَفِ الصيني فيمثّلون سائر عملياتها من المبدأ إلى أن وصلت إلى الحالة الَّتي هي عليها، من الحسن والرونق بعد أن كانت في أول أمرها لا يُعْتَدُّ بها، ولا يعتنى بشأنها، ولا بالنظر إليها، وقد استحضروا أشياء من تلك المصنوعات بحالتها الهمجيَّة، وأشياءَ بحالة الحضارة الحالية، وهكذا صنعوا في تمثيل كيفيّة صنع الأواني الصغيرة والتحف اللطيفة الَّتي تتخذ من الأخشاب والأوراق حتى انتهوا فيها إلى أحسن ما وصلت إليهِ، واستجلبوا الآلات الَّتي كانت تستعمل في السابق عند هؤلاءِ الأقوام،

والآلات الَّتي يستعملونها في أعمالهم الآن من أعظم المتاحف، ومن كبار الآحاد الَّذين اقتنوا هذه الأشياء، وصرفوا في تحصيلها الألوف المؤلفة من الأموال، فيرى الرائي في هذا القسم ما لا يتيسر لهُ رؤيتُهُ مجموعاً بهذا الوصف في غير هذا المحل في أي زمان.

والقصر الثاني خصص هو والرحبة الَّتي تحت القبة بالفنون العقليَّة (آزليبيرُو)، وهي الَّتي نُسبت إليها السراي الَّتي نحن بها اليوم كما بيّنا ذلك أول الفصل، وقد انقسم ما بهما إلى عدة أقسام على حسب ما فيهما من الفنون.

فالرسم (لاَبَانْتُوز) جُعِل لهُ فيهِ قسم على حدتهِ، يبتدئ المتفرج فيهِ بأَوائل هذا الفن على ما بها من عدم التحسين، ثم يستمر فيرى المصور قد تمكن من استعمال الأَلوان على حسب ما استخرجها من الأَحجار، ثم ترقّى، فيراهُ استعمل الأَلوان على الجدران المطلوة بالجبس والجير، ثم زاد في الترقي فيراهُ استعمل الرسم بالبوية بالزيت أو الماءِ، والرسم بقلم الفحم أو الرصاص، إلى أن وصل إلى درجة التفنن والإتقان الَّتي عليها الفن الآن، كل ذلك بواسطة أشخاص مجسمة من الشمع، لابسة ألبسة توافق حالة الأَوقات المنسوبة إليها، تحيط بها جميع الأَدوات والآلات والبويات مما كانت تُستعمل في أي وقت من الأَوقات.

ثم التصويرُ بالتجسيم (سْكُولْتُوز) جُعِل لهُ قسم أيضاً، يرى المتفرج فيهِ أَشكالَهُ من الصور الْمُجسّمة من الخشب والرخام والحجر والبرونز والشمع والعاج والمواد الصُلْبَة وغيرها على حالاتها المختلفة، كيف كانت في الأَول، وكيف ترقَّت بعد ذلك، وكيف كانت تُصنع فيما سبق، وبأَيّ آلات، وكيف تُصْنَع الآن، والآلات الَّتي يُستعان بها في إيجادها.

ثم قسمُ الموسيقا بسائر آلاتِه القديمة والحديثة وكيفيات تقدمها، مبتدأة بالعود المصري وغيرِهِ من الأدوات الَّتي كانت توجد عند المصريين الأقدمين، وموسيقا الفينيقيين، منتهية هذه الآلات بأحسن ما يوجد منها الآن، فاجتمع في هذا القسم من آلات الموسيقا على اختلاف أصنافها وحجمها ما ينبهر منهُ الإنسان.

ثم قسم العمارة وتاريخها، وهذا استعمل فيهِ الرسومات، أما من أراد نفس البناءِ فعليهِ بالتوجه إلى طريق تاريخ السكنى، وقد سبق تفرجُنا عليهِ.

ثم قسمُ التياتر وتاريخهُ العجيب (وهو في الرحبة الَّتي تحت القبة)، وهناك رأينا كيف كانت تُعمل التياترات أولاً، وكيف وصلت إلى حالها اليوم، وكيف يكون محل اللعب، ومحلات استراحة اللاعبين، ولبسهم ملابس اللعب، وكيف تكون الأضواءُ في محل اللعب وخارجهِ، وكيف تكون الأستار والأشكال، وما كانت تلبس اللاعبون في أول الأمر حتى وصلت إلى ملابس اليوم الَّتي رُوعي فيها التاريخ، ومناسبة وقتهِ، وكيف كان يُسْتَصبَحُ في التياترات بالشمع في أول الأمر، وكيف يُستصبح فيها بغيرِهِ الآن، ثم بجوار هذا المحل محل عُرضت فيهِ من كتبخانة الأوپرا الأهلية أشياءُ كثيرة متعلقة بتاريخ التياتر لتزيين محال اللعب وتهيئتها للغرض المقصود، وكيف كان ذلك أولاً، ثم كيف ترقى تدريجاً في الأزمان إلى الآن مع ما يتعلق بالتياتر من الكتابات والإعلانات والپروجرامات.

والقصر الثالث خصص بقسم وسائط النقل وجر الأثقال، جُمعت فيهِ سائر الآلات الَّتي أمكن جمعها، وأُضيف إلى ذلك نحو خمسة آلاف رسم عوضاً عن الَّتي لم يتيسر جمعها، فجاءَ في غاية الاستيفاءِ مشتملاً على سائر آلات النقل وجر الأثقال من قبل المسيح بعشرين قرناً، إلى ما بعدهُ

حتى الآن، فيتبين منهُ لمن أَمعن النظر فيهِ فوائد شتى ومعارف كثيرة، وكيف كان الأوّلون في أوائل درجات التمدُّن يتقلون في محامل تحملها الأعناق، وكيف كان الحال بعد ذلك حتى وصل إلى النقل بالآلات البخاريّة، وإذا تأَمل في وسائط النقل بالبخار نفسها وجد فيها التقدم الموجب للاستغراب، عند ما يقابل بين أول عربة صنعت لركوبة الدوك دُه وَلنجِتُونْ في السكة الحديد، وبين العربات المزخرفة الَّتي تصنع اليوم للملوك والكبراءِ.

والقصر الرابع خُصِّص بالفنون والصنائع، وقد احتوى على جميع ما يُهِمُّ المهندسَ معرفتهُ، ويلزم صاحب الفن الوقوف عليهِ في فنهِ، وما يتعين على الصانع التدقيق فيهِ مهما تنوَّعت صناعتهُ، ففيهِ ما يلزم لكل صناعة، وما عُمل فيها في كل زمن فصناعة الزجاج والبلور مثلاً هيئت فيهِ بكيفياتها في الأزمنة سابقاً ولاحقاً، وصناعة الأسلحة بأَصنافها ونقوشها في الماضي والحال، وبهِ معامل تصنعُ هذه الأشياءَ على الطريقة القديمة ومعاملُ جديدة تصنعها على الطريقة الجارية الآن ليظهر الفرق ويتَّضح، واستحضرت آلات طباعة من القديمة الَّتي كانت أول ما استعمل في الطبع والآلات الَّتي تجددت بعدُ حتى وصلت إلى الموجودة الآن، ومعها ما تَطْبعُ من كتابة ونقوش ورسومات سوداءَ أو مُلوَّنة بالألوان لمقارنتها بالمطبوعات أول الاختراع، وعدة نسخ من الإعلانات الَّتي تلصق على الجدران لشهرة ما يُراد للمقارنة بين القديم منها والحديث، وكيف وصلت هذه بشكلها وإتقانها إلى استجلاب الأنظار، وأُحضرت فيهِ ملابس عديدة لبيان ما كان يلبسهُ الصناع في القديم والحديث، كأَنما أُريد تدوين تاريخ لملابس الصناع من الأول إلى الآن.

هذا وفوق كثير من المحلات الَّتي ذكرناها محلات تعلوها فيها بقيَّة ما

تحتها، وقد خصص أحد هذه المحلات العلويّة بحال القِباب الطيارة، فوضعت فيهِ واحدة بزورقها المعلق بها، وجُمِع تحتها جميع ما يتعلق بهذهِ القباب وتاريخها، وكيف ابتدئت، وكيف صارت الآن.

وقبل الخروج من هذه السراي دخلنا إلى المحل الذي تخصص بها للتعليم الصناعي، وقد أخذ في الانتشار بما استُعْمِل فيهِ من التسهيلات، وفي تحصيلهِ من المساعدات.

ثم زرنا المحل المختص بالمعروضات الجغرافية والقسموغرافية، وفيهِ كثير من الخرائط والكرات أرضية وسماويّة، والإحصائيات بأصنافها، ثم الرسومات المختصة بالأشغال العموميّة بجميع أشكالها كالقناطر والجسور والترع وأحواض مرور السفن (هويس)، ثم رسومات العمارات العموميّة والمباني الأثريّة، وغير ذلك من المباني والمساكن والفنادق، وأماكن سكنى الصناع والفعلة ورسومات المحطات ومخازن السكك الحديديّة.

ثم رأينا المحل الذي اختصت بهِ نظارة الداخليّة من هذا السراي، فجعلتهُ للسجون وأشكالها، وكيف كان حالها في الماضي من حيث التعذيب والإضرار بالصحة، وكيف صارت الآن من جهة مراعاة الصحة مع ما في ذلك من سجون الانفراد وغير الانفراد، والمخصص منها بالمحكوم عليهم بمدد قصيرة أو طويلة والمجعول منها للأشغال الشاقة، وكيف يكون فيهِ الحال.

ثم مررنا بالمحل الذي تخصص بآلات الطب والجراحة، وهو محتوٍ على العجائب والغرائب، من حيث الآلات ودقتها وإتقانها مع خفتها وتعددها وكثرتها، كل ذلك دلَّ على عظيم التقدم في هذا الباب.

ثم تفرجنا على المحل الذي خصص بالآلات الدقيقة المجعولة لضبط الأوقات والمسافات، وعلى الماكينات المجعولة للحساب والبُصلِ والبارومترات وآلات المقاسات، وغير ذلك من الآلات والأدوات المجعولة للرصد خانات، والمعامل، فضلاً عن وجود المقاييس والمكاييل والنقود والميداليات الخاصة بكل البلاد في هذا المحل.

ثم على المحل المعدود لعرض أَدوات الكتابة من الأوراق بأَشكالها والحبر بأَصنافهِ والظروف والمحابر والمحافظ وأدوات الرسم والألوان، وغير ذلك من اللطائف.

ثم على المحل الذي خُصّص بعرض الأعمال الفطوغرافية فرأينا التقدم العظيم الذي حصل في هذا الفن على حداثتهِ مما يُنبِئ عن زيادة حسن مستقبلهِ، وكان الرسّامُون كرهوهُ في أول أمرهِ لما ظنوهُ من أنهُ يكون مُعطّلاً لأعمالهم، ثم رجعوا إليهِ مذ رأوْهُ عضُداً لهم، فإنهم تمكنوا بواسطتهِ من الحصول على أشكال كانت تعجز عنها أبصارهم، ويستحيل الإتيان بها على حقيقتها بدونهِ كرسم هيئة الحيوان بالضبط، وهو يركض، أو الطير حال طيرانهِ إلى غير ذلك، هذا والأمل أكيد، والرجاء وطيد في أن يصل هذا الفن إلى رسم جميع الألوان على حقائقها مادام مستمرّاً على هذا التقدم آخذاً في سبيل هذا النجاح.

أما محلات المطبوعات والكتب والتجليد المحتوية من بديع الآثار على ما تحار لهُ الأفكار، فقد تَفَرّجنا عليها وتفرجنا بعد كل محل منها على تكملتهِ من معروضات الأجانب الّتي في نوعهِ، للمقارنة بين ما بها وبهِ، فرأَينا معروضات إيطاليا والروسيا وسويسره وبلجيكا وأسپانيا وإنكلتره وأمريكا

الشمالية والبرتغال في آلات الحكمة والجراحة، وفي الجغرافية وفي الموسيقا، والآلات الدقيقة، والأوراق والمطابع والفطوغرافية.

ثم تفرجنا بعد هذا على المحل الذي خصصتهُ نظارة المعارف في هذه السراي بالتعليم بأنواعهِ في سائر مدن فرنسا، ولا غرو، فهذا مكانهُ؛ لأن التعليم يتعلق بالفنون العقليّة وبتاريخ عمل الإنسان لا محالة.

وينقسم التعليم فيهِ بحسب درجاتهِ إلى ثلاثة أقسام: أحدها للتعليم الابتدائي، والثاني للتعليم الثانوي، والثالث للتعليم العالي.

أما محل التعليم الابتدائي فقد دل على عظيم الرعاية في هذه البلاد بأمرهِ، ومزيد الاعتناءِ بشأنهِ، فاحتوى على نموذجات مُجَسَّمة كثيرة من أمكنة مدارس التعليم الابتدائي ومكاتبهِ على اختلاف درجاتها مخصصة بالأطفال الصغار، وأكبر منهم، وبالبنات وبالأيتام في المدن والقرى، ومن أمكنة المكاتب الْمُعَدَّة للتدريس للكبار وللتعليم الصناعي، ثم على نموذجات من لوازم هذه المدارس على اختلاف أشكالها من الفُرُش وأدوات التعليم، وأدوات الأكل والنوم، ثم على نموذجات مما أُعِدّ بهاتهِ المكاتب من موجبات تقوية الأجسام ورياضتها، وتثقيف العقول وتهذيبها على حسب درجات التعليم وسن التلميذ، ثم على نموذجات من أدوات التعليم المعدة للخرس والعميان، ولم يكتفِ بهذه الأنموذجات على كثرتها وتعداد أصنافها بل أراد منظم هذا المحل أن يرى الناظر بعيني رأسهِ نتيجة هذه التعاليم، وأثرها في المتعلم، فاستحضر كراريس من أعمال التلامذة مبيِّناً فيها ما عملهُ الواحد منهم في سنتهِ بالكتابة، ومذكوراً فيها سِنُّهُ وتاريخ دخولهِ إلى المدرسة، فيظهر للمطلع عليها حالةُ تعليمهِ عند دخولهِ، وكيف أخذت في

النموّ والارتقاءِ بعد ذلك، والزمن الذي لزم لهذا، ولا شك أن هذه الكراريس تَدُل دلالة واضحة على حسن نتيجة طريقة التعليم المتبعة في هذه البلاد.

ومحل التعليم الثانوي يحتوي أيضاً على كثير من النموذجات اللازمة لهُ، وكذلك محل التعليم العالي اشتمل على نموذجات أَرقى، وأَعلى، وعلى تقارير مطولة حررها المفتشون على التعليم لناظر المعارف، يستنتج منها من أَراد الوقوف على حالة التعليم في كل فرع من الفروع.

ثم خرجنا من هذه السراي والنفس في غاية الانشراح مما رأَيناهُ، وبعد الاستراحة وجدنا في الوقت اتساعاً، فقصدنا قصري مدينة باريس، وقد جُعِلا كما ذكرناهُ سابقاً بين الجناحين اللذين خرجنا من أحدهما الآن، وشيدا من الحديد ملوناً بالخضرة.

وقد عُرض في أحدهما مناظر مدينة باريس رُسمت في خرائط لمقارنة حالتها الَّتي كانت عليها في سنة 1789 بحالتها الَّتي هي عليها في سنة 1889، وعُرِضت فيهِ إدارة المدينة جميع ما يتعلق بتبليط الشوارع وتحجيرها وإِصلاحها، ونموذجات من محاجرها، والآلات الَّتي تستخرج بها الأحجار، منها قديمة وحديثة، للمقارنة بينهما فإِنها تمتلك محاجر عظيمة يشتغل فيها على ذمتها دائماً أبداً 250 عاملاً، لاستخراج أحجار التبليط، وبناءِ التُّرُنْوَارَات والبواليع اللازمة للمدينة.

وكان في القديم يمكث ثلاثة رجال ساعة من الزمن لحفر حفرة عمقها متر واحد، أما الآن وقد وجدت آلات التسهيل الَّتي تدور بضغط الهواءِ والبخار أو الكهرباءِ فيتمكن بواسطتها أحد العملة من حفر تلك الحفرة في مسافة دقائق

قليلة، ويستخرج من هذه المحاجر على ذمة أعمال المدينة في السنة 750000 حجر للتبليط، و 200 ألف طونولاطه للبناءِ، وقد عرضت في هذا المحل أيضاً آلات تنظيف الطرقات ورشها.

وعرض في الثاني نموذجات من بواليع باريس عن سنة 1660، وسنة 1740 وسنة 1789، وسنة 1837، وسنة 1854، وسنة 1878، وسنة 1889 للمقارنة، ولا خفاءَ أن البواليع في المدينة من أهم الأعمال الصحيَّة اللازمة لصرف المياه القذرة، واستبعاد الأقذار، وتصريف الأمطار خصوصاً في زمن الشتاءِ، فإن بقاءَ ذلك لا شك أنه مضر بالصحة كما تدل على ذلك حالة القاهرة زمن الأمطار في الشتاء فإنها لا بواليع فيها.

ثم في هذا المحل رسومات كثيرة تدل على طرق متعددة لتطهير المساكن وتنقيتها، ونموذجات مساكن طيّبة الهواءِ وغيرها بخلافها، ليست طيّبة الهواءِ، ولا صالحة للسكنى.

ثم نموذجات طرق استعلمت لتنقية مياه البواليع وتنظيفها من الأقذار، وجعلها يُنتفَع بها، وهي غير طرق استعمالها في تسميد المزارع.

ويشتمل هذا القصر غير ذلك على نموذجات التعليم الابتدائي وكيفياتِه في باريس وطرق التعليم الصناعي فيها، وقد تقدم الكلام عليهِ في سادس يوم من باريس.

وقد جمع هذا القصر أيضاً لوازم الأَمن في المدينة مثل مُطْفِئات الحرائق (طلومبات) ولوازمها من سلم وغيرهِ.

ومن أَهم ما فيهِ نموذج المعمل الكيماوي الذي جعلتهُ المدينة للكشف

على المأكولات والمشروبات، لمعرفة النافع من المضر بالصحة منها، محافظة عليها، وقد خصص مستخدمون بامتحان جميع المواد الغذائيّة بهذا النموذج أمام المتفرجين، وتفهيمهم الطيب منها والرديءَ، بمرأى العين؛ ليتبين لهم أنهم في أَمن تام من حيث المأكول والمشروب.

وخرجنا من هذا المحل مذعنين بأنهُ ليس بالعمل السهل إدارة مدينة عظيمة كپاريس، وأن ذلك النظام يحتاج إلى صرف الكثير من المال.

* * *

(اليوم الرابع عشر في باريس)

سادس يوم في المعرض

قد خَصّصنا هذا اليوم (يوم الخميس 15 أُغسطس سنة 1889) بزيارة سراي **الصناعات المتنوعة**، وهي تشتمل على معارض المصنوعات الفرنساويَّة، وقد تقدم أَن جناحيها سراي الفنون العقليّة على يمين الداخل من جهة البرج، وسراي الفنون المستظرفة على يساره، وأَن بناءً يمتد من كلٍ من السرايين المذكورين إلى سراي الصناعات المتنوعة يُعَدُّ باقي الجناحين لهذه السراي، تُعرض فيهِ الصناعات الأجنبيَّة، وسنتفرج على ما في هذين البناءين غداً، إذ إن يوماً واحداً لا يكفي في التفرج على جميع ما في هذه السراي والبناءين البالغ مساحة جميعهنَّ 110000 متر مربع.

فدخلنا هذه السراي من بابها الوَسَطِيّ، وهو المدخول له من بين الجناحين تحت قبتها المركزيّة، وهذا الباب، وهذه القبة قد شاع في الآفاق ذكرهما، وانتشر في الخافقين صيتهما، وهما مصنوعان من الحديد وبعض الآجُرّ، مع تخلُّلِ قليل من الخشب والتزيّن بالمصنوعات الخزفيّة والقيشانيّة.

ولم يكن استعمال الآجُرّ في العمارات العظيمة بمستحدث فهذه المباني الأَثريَّة القديمة بنينَوَى، ومصر تشهد باستعمالهِ فيها بالأعصر الخالية على أَحسن كيفيّة، والمتأَخرون وإن استعاضوا عنهُ الحجر في الأزمان المتأَخرة لما ظنوهُ فيهِ من المتانة والمهابة لكن وضعهُ في هذين على الكيفيَّة

المجعول بها أثبت أنهُ لا يقل عن الحجر فيما ذكر، بل يزيد عنهُ زخرفة ورونقاً وبهاءً وحسن منظر.

(القبة المركزية) قطر دائرة هذه القبة ثلاثون متراً، وارتفاعها من الداخل 55 متراً، ومن الخارج إلى منتهى تمثال فرنسا الموضوع بأعلاها 75 متراً، وأصل بنائها من الحديد مرتبطاً بعضهُ ببعض بحديد، وهي مغطاةٌ من الخارج بطبقة من الآجُرْ، تعلوها طبقة من الزنك منعاً لتسلط الأمطار على ما تحتها، ومحشوةٌ تلك القبة بين حدائدها من الداخل بخشب ليسهل طلاؤهُ بالجير مزينةٌ بالميناءِ داخلاً وخارجاً، تتخللها اثنتا عشرة نافذة زجاجيةٌ تحت ذروتها تُوصّلُ النور إلى ما تحتها.

وقد جُعل فوق القبة كثير من الرسومات الْمَجَسَّمة، ففي الذروة صورة تُمثّلُ فرنسا قائمة توزع مكافأة على المستحقين في خدمة الإنسانيّة، ثم على البنية المثلثة المجعولة فوق فتحة الباب الموصل إليها تمثالاً السّلم والاتحاد، وفي طرفيها تمثالان آخران يُمثّلان العلم والتقدم، وبأحد جانبي الباب تمثال التجارة، وبالآخر تمثال الصناعة، وفي منتهى فتحتهِ من الأعلى في جهةٍ تمثالُ المشرق، وفي أُخرى تمثال المغرب، ومنظر القبة من الخارج والداخل في غاية البهجة والحسن، وقد نُقشت رسومات الداخل من أشخاص وغيرها على قطع من القماش، نقشتها أَعاظم أرباب فن التصوير، وهم بأي مكان كانوا، ثم أُلصت بالبناءِ حيث هي الآن فيظن الرائي أنها نُقشت في محلها الذي رآها بهِ كالمعتاد، ولا شك في أن هذه الطريقة أقلُّ مشقة وأسرع عملاً، وأدنى مصاريف من طريقة النقش المعتادة، أعني أن يكون النقش من أول الأمر في نفس البناءِ بالغاً ما بلغ ارتفاعهُ؛ إذ في هذه من المشقة والبطءِ وكثرة المصاريف ما لا يخفى.

ويداخل القبة على ارتفاع عشرة أمتار من الأرض ممشى من الحديد بقدر محيط القبة، ذو درابزين من الداخل، ولهُ منافذُ مطلة على ساحة شَان دُه مَارْس من جهة، وعلى داخل سراي الصناعات المذكورة من جهة أُخرى، وبكل زاوية من زوايا القبة سُلّم يُصعَدُ منهُ إلى هذا الممشى، فيرى من بهِ إذا توجه جهة الباب جميع قسم شَان دُهْ مَارسْ، وإذا توجه جهة الباب المقابل لهُ الذي يُدخلُ منهُ إلى داخل سراي الصناعات المتنوعة رأى ممشاها العظيم الذي يقسمها إلى شطرين، ويُوصلُ إلى قاعات الماكينات كما سيأْتي الكلام على ذلك، وإذا قصر النظر على داخل القبة يرى فوقهُ الزخارف الرائقة والنقوش الفائقة على عظم ارتفاعها، وكبر اتساعها، ويرى تحتهُ الناس يدخلون أفواجاً أفواجاً وألوفاً مؤلفة، ليُمتعوا الأنظار بما حوته هذه القبة العظيمة من الرسوم الفخيمة، ويشاهدوا ما بالسراي من الآثار الغريبة والصنائع البديعة العجيبة، ويرى بعض هؤلاءِ صاعدين إلى حيث هو، فيشاركونهُ في الابتهاج والإعجاب بما يظهر على وجوههم وألفاظهم من سمة الاستحسان، ولا غروَ فإن هذا الحسن لا يختلف فيهِ اثنان.

وكل سُلّم مما ذكر يُوَصل إلى محلات ذات اليمين وذات اليسار، جعلت في الأصل للاستراحة، واستعملت بعد ذلك لعرض مصنوعات بعض معامل الحكومة نظراً لكثرة المعروضات والازدحام في هذا المعرض، فعُرِض فيها من مصنوعات جُوبلان ثلاثة وثلاثون بساطاً، حَوَت من محاسن الصناعة وأحاسن الرسم ما لم يسبق عرضهُ، وعُرض فيها غرائب من الأواني الخزفيّة والصينيّة الّتي تصنع بمعمل سيفر مما لا يباع بل يهدى إلى الملوك العظام، وعُرِض فيها بدائع من الأبسطة المعمولة في معمل بوفيه الظريفة الأشكال العديمة المثال، هذا وقد عُرض من معمل الفيسفاء ما أُلصقَ

بوجهةٍ وجانبي باب القبة الثاني الذي يُدْخَلُ منهُ إلى ممشى السراي، وأُبدِعَ في ذلك غاية الإبداع[1].

وفوق ممشى القبة المذكورة على ارتفاع 22 متراً تماثيل أربعة، كل واحد منها يمثل قوة من القُوَى الأربعة الَّتي عليها مدار الصناعات وأَعمال الإنسان، وهي الهواءُ والماءُ والبخار والكهرباءُ.

وفوقها رسومات عظيمة تُمثّل فرنسا حال كونها تدعو الأُمم لمشاركتها في هذا المعرض، وتقبل منهم حاصلات بلادهم، وتحت هذه الرسومات جداول، مكتوب فيها بحروف ذهبيَّة أَسماءُ الأُمم الَّتي أَجابت دعوتها.

وفوق هذه الرسومات صور أَربعة تُمثّل أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقية، وفوقها شعائر الدول الَّتي اشتركت في هذا المعرض، وفوق ذلك كلهِ صورة العلم الفرنساوي، تحفهُ نجوم ذهبيَّة مرسومة في شبه سماءٍ صافية بهيَّة، وبعد أن تفرجنا على هذه القبة، وما فيها من غرائب العجائب، وعجائب الغرائب، انتقلنا إلى:

– **(ممشى السراي الكبير)**: وهذه الممشى تُبْتدأُ من القبة المركزيَّة متجهة من الشمال إلى الجنوب حتى تصل إلى رواق الماكينات على امتداد 110 أمتار، وعرض ثلاثين متراً، وتُقَسّمُ سراي الصناعات المتنوعة إلى قسمين، وتتفرع منها مماشٍ جانبيّةٌ على طولها نحو اليمين واليسار سبعةٌ من كل

(1) وهذه المعامل الأربعة تدار على نفقة الحكومة لصنع ما يلزم لزينة أماكنها العمومية، ولإهداء الدول المتحابة، وبيع ما يزيد على ذلك، فتنفق الحكومة عليها كل سنة 997320 فرنكاً، وقد أنشئ الأول سنة 1450، والثاني سنة 1740، والثالث منذ ثلاثة قرون، والرابع سنة 1876. اهـ.

جانب، وحيث إن كل ممشى من هذه المماشي خصص بعرض مصنوعات مخصوصة فقد عُهد إلى كلّ من أرباب هذه المصنوعات بعمل المدخل الموصّل من الممشى الكبير إلى المماشي الجانبيّة المتفرغة عنهُ، فأَجهد هؤلاءِ أنفسهم في جعل هذه الأبواب تَدُل في حد ذاتها على نوع الأشياءِ المعروضة، إمّا بتشكيل هذه الأبواب وتركيبها من نوع الأشياءِ المذكورة أو بطريق الرمز إليها، فصار ذلك الممشى بهجةً تنبهر لها العقول، وتحار فيها الألباب، لما حوتهُ من هذه الأبواب، وما جاورها من أحسن المصنوعات وما فوقها من السقف المرتفع المركب من الزجاج محكم الصنع كامل الإتقان، حتى يخيل للناظر أنهُ ليس في عالم الحقيقة، بل هو في عالم الوهم والخيال، وها نحن قد مررنا بما عليها من الأبواب، ونذكرها لك حسب ذلك.

– **باب الصاغة**: هو أول باب على اليمين، وقد جُعِل لهُ ثلاث فتحات، وسطاها أقل عرضاً من الآخرين، ووُشّيَ بالنقوش الذهبية على هيئة أكاليل الأزهار وأوراق النباتات والأشجار، أما عقود هذه الفتحات فتحملها قوائم ذات لون لازِوردي، وعليها كثير من أشكال الصياغة الظريفة، فضلاً عن شارات جمعيات الصاغة القدماءِ، وشعائرهم التي كانوا يعرفون بها، وفوق هذا كلهِ ألواح من الذهب الخالص، نُقش عليها أسماءُ أَشهر الصاغة الفرنساويين.

– **باب الجوهريّة**: وهو أول باب على اليسار يفوق الباب السابق من حيث زيادة الزخرفة والرونق واستعمال النقوش العظيمة والرسومات الجميلة.

والممشى الّتي وراءَ هذا الباب كالممشى الّتي قبلها، مملوءَة بالمتفرجين والكثير من المتفرجات؛ إذ النساءُ يهْوينَ هذه الأشياءَ النفيسة الّتي عُملت

لزينتهنّ، وقد أبلغها أساتذة هذا الفن حدَّ الكمال، ووصلوا بها إلى ما لم يصل إليهِ غيرهم في قديم الزمان.

وبممشى الجوهريّة من الحلي والجواهر ما تبلغ قيمتهُ أربعين مليوناً من الفرنكات، على ما قدرهُ بعضهم، وليس ذلك بمستغرب بالنظر لكثرة الحاصلات.

ومن أغرب ما بهذا السوق حجر من الألماس، يعرف بالحجر الأمبراطوري، وزنهُ 180 قيراطاً مملوك لشركة من الشركات، وضع على مرتفع مخصوص بهِ وسط هذا السوق، مغطّى بغطاءٍ من البلور، تحرسهُ دائماً جماعة من الناس، فإذا جاءَ الليل أنزَلوهُ مع ما هو عليهِ في حفرة مبنيّة تحتهُ بمجرد لمس آلة، ويُغطّى بغطاءٍ مجعول لهُ، وتنام الحراس فوقهُ.

وهو أكبر الأحجار المعروفة على ما قرأناهُ في ورقة مطبوعة أخذناها من جانبهِ، بها رسمهُ، وفيها أنهُ يزيد عن ألماسة التاج الفرنساوي الشهير 44 قيراطاً؛ لأن زنتها 136 قيراطاً، ويزيد 74 قيراطاً عن ألماسة التاج الملوكي الإنجليزي؛ لأن زنتها 106 قراريط، وفيها أن السبب في تسميتهِ بالاسم السابق هو سموّ البرنس دُه غالْ وليُّ عهد الحكومة الإنجليزيّة، حيث قال حين رآه أولُ مرةٍ: إن هذا لحجرٌ إمبراطوريٌّ، فتسمى بهذا الاسم من وقت ذاك، وفيها أيضاً أنهُ صار نحتهُ بمدينة أمْستِرْدَام بحضور لجنة مركبة من ثلاثة من مشاهير العمال، ابتدأت في العمل بحضور ملكة هُولانْدَه حين البدءِ، واستمرت فيهِ ثمانية عشر شهراً، حتى أتمتهُ، ووزنهُ قبل النحاتة كان 457 قيراطاً، ولتعديل هيئتهِ اضطروا أن يقطعوا منهُ قطعة زنتها 45 قيراطاً، تحصّل منها بعد نحتها حجر زنتهُ عشرون قيراطاً.

أما ثمن هذا الحجر فعلى ما قيل لنا ممن كانوا يتفرجون عليهْ إنهُ ستة ملايين من الفرنكات، وقال آخرون: إنه اثنا عشر مليوناً.

- **باب الخَزَف والفخّار**: وهو الثاني من جهة اليمين، معمولٌ على هيئة لطيفة من الخزف، مركب عليهِ أشكال ظريفة من القيشاني ونقوش بديعة من الفسيفساءِ.

باب الملابس: وهو الثاني من جهة اليسار، رُمزَ فيهِ بالرسم على ما يحتويهِ من المصنوعات، وصُوِّرَت عليهِ امرأتان لابستان من أحسن الملابس، كأن الألوان فيها تتماوج من شدة الحسن والبهاءِ.

- **باب أثاث المنزل (الموبليات)**: وهو الثالث من جهة اليمين، صار بناؤُهُ وتلوينهُ على شكل الخشب المنقوش، وجُعِل فيهِ صورٌ ناتئة تُمثِّل بعض الصناع، مثل صانع الأبنوس وغيرهِ من الخشب والنقَّاش والرسَّام، وفوق ذلك وتحتهُ أسماءُ من اشتهروا بصنع الخشب ونقشهِ والتصوير فيهِ، وجعلهِ أثاثاً للمنازل، وفي وسطهِ من أعلى إلى جانب منهُ ستارة للدلالة على الفُرُش الَّتي هي من أثاث المساكن.

- **باب الحرائر**: وهو الثالث من جهة اليسار، وقد تعهدت بعملهِ معامل مدينة لِيُونْ الشهيرة في صنع الحرائر، فجاءَ في غاية اللطف، موشًى ومحلًى بأصناف الحرير.

- **باب المنسوجات**: وهو الرابع من جهة اليسار، وقد استعين فيهِ بالرسم والرمز أكثر من الاستعانة بذات المصنوعات، فرُسم عليهِ كثير من النقوش الخاصة بصناعة النسيج أهمها وألطفها رسم امرأة تصنع بالغة حد الجمال.

- **باب الساعات**: وهو الرابع من جهة اليمين صُفِّت بهِ جميع مقاييس

الأوقات من الأدوات الرمليّة والساعات الدقاقة والأدوات الّتي تلزمها على اختلاف الأشكال، واعتني بوضعها على كيفيّة صار بها هذا الباب من أحاسن التحف ولطائف الآثار.

- باب البُسُط: وهو الخامس من جهة اليمين استعيض فيهِ عن نفس المصنوعات بالرمز والرسم أيضاً، وأهم ما فيهِ رسمان من صنع أشهر الأساتذة، يمثّلُ أحدهما امرأةً تَقُصُّ صوف خروف، تمسكهُ لها ابنتها، والثاني يمثّل بحراً صافياً ماؤهُ صحواً سماؤهُ، تجلس بالقرب منهُ امرأة تشتغل بنسج بساط لطيف الأشكال، وحواليها أولادها يساعدونها بإعطائها الصوف والألوان، ويشدون معها الحبال.

- باب الأسلحة: وهو الخامس من جهة اليسار، صُوّرَ بأعلاهُ شخص مجسم لابس ملابس حديديّة شاكي السلاح، وعلى بعد منهُ فارس بهيئة فرسان القرون الوسطى، على صدرهِ صفائح الحديد، ثم يحيط بالباب من سائر جهاتهِ رسومات من الحديد تُمثّلُ آلات الحرب الّتي كانت تُسْتعمل في الأزمان القديمة وغيرها.

- باب صيد البر والبحر: وهو السادس من جهة اليسار، صار تزيينهُ بأحسن كيفيّة، وذلك أنّه صنع من أشجار ضُمّ بعضها إلى بعض، على أبدع شكل، وفي ذروتها أصناف من الوحوش كالعُقاب والنّسر والغزال، وبالجهة اليمنى جلود حيوانات كثيرة، وأَسَد من أكبر الآساد، وبالجهة اليسرى مثلها، والدب الأبيض الشهير بالغرابة، وبين قائمتي الباب شِبّاك من شِبّاك الصيد، وفوق ذلك كلهِ لعله مُقَدَّم سفينة بها تمساح عظيم.

- باب مصنوعات البرونز: وهو السادس من جهة اليمين، عُمِل من الجبس على هيئة البرونز بدون فرق غاية في اللطف والظرافة.

- **البابان الباقيان**: خُصّصا بالحديد ومصنوعاتِهِ، صُنِع أَحدهما من قضبان الحديد العاديّة على حالها استعملها المهندس الذي تكفل بهذا العمل، فشكَّل منها سائر أَشكال ما يلزم للباب من أعلى، ومن الجانبين حتى صار من أَحسن الأبواب جمالاً وهيبة وجلالاً، مع كون القضبان فيهِ على حالتها الأصليّة، وصُنع ثانيهما من مصنوعات الحديد، فاستُعْمِلَت فيهِ المدافع بدل القوائم، وجُعِلت عقود الباب من القنابل، وصُفَّت فوقها عجلات المدافع وكثير من الفُؤُوس والمناجل والمطارق وغيرها من الأَدوات الحديديّة حتى صار هذا الباب أيضاً في غاية العظَم والرونق.

ولا غَرْوَ في كون هذين البابين حيث تُعْرَضُ الحدائد ومصنوعاتها بهذا الحسن والإتقان، فإن الحديد جدير بذلك، إذ هو أَصل الخير، وأساسُ القوة والمعدن الذي لا يقوم مقامهُ غيرهُ من سائر المعادن في الأَبنية والمحرّكات البخاريّة، وجميع الأَعمال الصناعيّة وآلات الزراعة والدفاع عن النفس والمال إلى غير ذلك مما لا يُحْصَى من المنافع، وكفاهُ شرفاً التنويه بالامتنان بهِ في القرآن الشريف، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25].

هذا وقد وُضع في هذا الممشى الكبير آثارٌ نفيسة، منها صور مجسمة صُنِعت من البرونز تُمثّل بعض مشاهير رجال فرنسا كصورة لافُونْتِين الشاعر المشهور المراد نقلها بعد المعرض إلى جهة پَاسّي، ومنها صندوق مُعَدٌّ لجعل ذخائر بعض القديسين فيهِ، ويُوضع بعد ذلك ببعض الكنائس، وقد صيغ على جسامتهِ من الذهب الخالص أَحسن صياغة، وزُيّنَ بالبلور والحرائر الغالية، إلى غير ذلك من تحف الآثار.

وإذ فرغنا من التفرج بالممشى الكبير وما بهِ أخذنا نتفرج بالمماشي الجانبيّة المتفرعة عنهُ، فدخلنا ممشى **أثاثات المنازل - الموبليات -** ، وقد بلغت فيها الصناعة الفرنساويّة حد الإبداع من حيث الظُّرفُ والخفة والدقة، وحسن السبك، وانتقاءُ الألوان والأَشكال، فرأَينا الفُرُشَ الفاخرة مصفوفة على هيئة ما تُصفُّ بهِ في المنازل، ورأَينا غرف النوم بها جميع مُعداتهِ من سرر ودواليب ومَرَايا، ولوازم غسل الوجه واليدين، وكراسي، ورأَينا غرف الجلوس على أكمل ما يُهيَّأُ لذلك في قصور الأمراءِ من جميع اللوازم، مصنوعاً كل ذلك بالحرائر والطنافس ولطائف الآبنوس والعاج، موضوعة على أَحسن الأَوضاع بحيث لو بقي المتفرج يومهُ لاستقصاءِ التفرج لوَسِعَهُ محل واحد.

ثم انتقلنا إلى **ممشى البُسُط والستائر**، وأَدوات زينة الأَماكن، فإذا صُنَّاعُها قد أَتقنوها كل الإتقان، وبلغوا في تزيين المحلات وزخرفتها بالأَطالس والطنافس، ما يُخَيِّلُ للرائي أنها قطعةٌ من الجنان، وأجادوا في تأليف الأَلوان وجعل بعضها يناسب بعضاً، ويناسب ما في المحل من السقوف والجدران، والبسط المفروشة كل المناسبة.

وبعد ذلك انتقلنا إلى **ممشى الأدوات الخزفيّة والفخاريّة** والزجاج والبلور والقيشاني، فوجدنا فيهِ ما يوجب السرور، ويشرح الصدور من تعدد الأَصناف وحسن أوضاعها وأَشكالها وأَلوانها، فمن أَوانٍ صينيَّة بيضاء، وأَوانٍ منقوشة بأَحسن الأَلوان، وأَوانٍ من الخزف والفخار والقيشاني والفسيفساءِ البديع، ومن صغيرة وكبيرة وغالية ورخيصة لاسيما المخترَعُ الجديد الذي اهتدى إليهِ حديثاً أحد العارفين بعد شدة البحث وزيادة الكد، من تركيب أَوانٍ من الصيني بين الصلابة والرخاوة المعتادين يعادل ما يصنع منهُ في بلاد

الصين، ويضاهي أحسن الأواني المعمولة هنالك في الكيفيَّة، وتحمُّل الألوان، ولا شك أن هذا المخترع وقد سمي بالصينيّ الجديد أحدث تأثيراً عظيماً عند أهل هذا الفن، حيث جعل فرنسا تشارك الصينيين واليابانيين في ذلك التركيب، ثم تفوقهم في حسن النقش والتصوير واستكمال الزخرفة والطُلاوة، على أن ما رأيناهُ في هذا المحل من الصيني الصُلب القديم قد أبدع فيهِ المشتغلون بهِ كل الإبداع، وعرضوا منهُ المعجب والمطرب.

ومما يتعجب منهُ في هذا المحل مجموعة صينيّة ذات ألوان ملتهبة، تشكّلت فيها على أشكال مختلفة، تُرى كأنها يشتعل فيها اللهب قويّاً وضعيفاً كثيراً وقليلاً ذا دُخان، وصافياً إلى غير ذلك من الحالات فبهرت الناظرين، وحيَّرت المتفرجين، وفاقت أحاسن الأواني الصينيَّة الحقيقيَّة، وارتفعت على أعالي المصنوعات اليابانيَّة، وممّا يستلفت الأنظار بهذا المحل أعمال الفسيفساءِ، وقد كانت قبل الآن فرنسا تابعةً فيها لإيطاليا، فصارت تجاريها في أحسن مصنوعاتها، وأجهد المشتغلون بها أنفسهم في استكشاف أسرار المؤلفات القديمة، فاستنتجوا منها فوائد غاية في الأهمية وحصلوا منها على ما لا نظير لهُ في الارتقاءِ.

أما الأواني المصنوعة من البلور والزجاج والمرايا العظيمة المقدار فَحَدِّث ولا حرج عن ألوانها وأشكالها، غاليها ورخيصها في جميع ما يُحتاج إليهِ، كذلك النجف وأدوات الإضاءة على العموم قد بلغت نهاية الكمال.

ومما أحضروهُ في هذا المكان مِرآتان عظيمتان، الواحدة منهما يبلغ طولها نحو تسعة أمتار، وعرضها نحو خمسة، نقلتا إليهِ، مع هذا الكِبَر، من غير أن يصيبهما خطر بعربيات السكة الحديد.

ثم تفرّجنا على الأوراق المنقوشة المكسوة بها الجدران والسُّقُف، فلم نُفَرّق بينها وبين الطنافس الحقيقيّة والحرائر الأصليّة، وأشكال القطيفة، وأنواع الأنسجة الصينيّة والهنديّة، ولم يوقفنا على حقيقتها إلّا اللمس وتكرارهُ، أما النظر فلم يقدر على إظهار فرق بين هذه الأوراق المرسومة وبين الحرائر الأصليّة الّتي جُعلت تقليداً لها.

وقد أَخبر العارفون أن هذه الصناعة كانت تعطلت بفرنسا لُغلُو مصنوعاتها بها نظراً لإتقانها، وجَوْدة موادّها، حتى كانت تُجلب من الخارج لها، وتُباع بأثمان أقل من أثمان مصنوعاتها لعدم إتقانها وجودة موادها، وإن كانت تشابه مصنوعات فرنسا في الزخرفة الظاهرية، ولكن ما لبث أن حصحص الحق، واتضح لدى الجميع أرجحيّة هذه المصنوعات على الخارجيّة مع زيادة ثمنها عنها، فعاد لها الطلب من البلاد الأجنبيّة، وصار بذلك رواجها، وقل دخول غيرها من الخارج، وأخذت هذه الصناعة تستمر في النمو وتعويض ما فاتها في زمن التعطيل حتى وصلت إلى حالتها الأولى، بل زادت عليها.

ثم تفرجنا على الساعات، فرأينا منها الغرائب والعجائب في الزخرفة والزينة، فضلاً عما عُمل منها على أشكال الحيوانات، فيعمل كل منها عملاً مخصوصاً إذا جاءَ الوقت، وبعضها يحرك آلات تنتشر بواسطتها أصوات الموسيقا فتطرب السامعين غاية الطرب، إلى غير ذلك من الساعات المعمولة للتسلية والمنافع المعتادة كالكُرونُومتر بأصنافه، والساعات المنبهة، وساعات الحمل المصنوعة على هيئة اللآلئ والجواهر أحسن صناعة، مع اللطف، وخفة الحجم، وسوى ما ذكر من

الآلات المشابهة لتركيب الساعات المجعولة لقياس المسافات وغيرها من المقاسات.

ثم تفرجنا بعد ذلك في مَمْشيَي الجوهريَّة والصاغة فرأينا ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت من المصوغات المحلاة بالياقوت والزبرجد والعقيق والزمرد، ومن مصنوعات الألَماس واللؤلؤ وغيرهما من الجواهر الثمينة على اختلاف الأصناف والأشكال، مما تبلغ قيمتهُ الملايين الكثيرة، ويدل دلالة ظاهرة على زيادة التقدم في فن الصياغة والجوهريَّة.

وقد سبق في هذا الفصل ذكر حجر الألَماس البالغة زنتهُ 180 قيراطاً، وفي هذا المحل لؤلؤة واحدة زنتها خمسة وسبعون جراماً، يا لها من دُرَّةٍ لطيفة الشكل، عظيمة القدر، لا عيب فيها سوى أن قيمتها على ما يقال تزيد على 75000 فرنك. وهناك كثير من الأحجار الكريمة في أشكال غريبة، وهيئات عجيبة، رُصِّعت بأطواق وأقراط وتيجان، وجعل بعضها على شكل حُلِيٍّ تاريخي قديم تعرَّفهُ الصانعون من محلات التحف والآثار، فأثبت للجوهريين الباريسيين عظيم الفخار.

أما مصوغات الذهب والفضة وأصنافها وأشكالها وهيئاتها وجمالها فشيءٌ يأخذ بالعقل؛ لما أجهد الصاغةُ أنفسهم فيهِ من التفنُّن فيها، وجعلها على أَحسن الأَوضاع.

وقد صاغوا من هذين المعدنين النفيسين فضلاً عن الحُلِيّ كثيراً من أواني الأكل والشرب، وغيرها من أدوات الزينة.

وزادوا في هذه الصناعة إتقاناً وإحساناً من يوم أن اخترعوا – منذ

المعرض السابق عام 1878 – الميناء الشفّاف، وقد تقدموا في عمله تقدماً عظيماً، وصنعوا منهُ كثيراً من الأواني للكنائس والناس حتى استظرفوا ذلك عما زُيّنَ بالياقوت والألماس.

وأخذت صياغة الفضة في التقدم والنمو بعد أن كانت عُطّلت زماناً لما أوجدهُ فيها المشتغلون بها من حسن السبك، وجمال الألوان بخلطها مع معادن غيرها تُكيبب لونها بهاءً، وتزيد في بهجتها ازدهاءً.

كل ذلك في الفضة الّتي تُصنع بعيارات عالية، أما الّتي تُصنع بعيارات أدنى منها للاتجار في الخارج، فقد أخذت في أيضاً في التقدم، وتحسنت في الأشكال والألوان، وزادت لذلك الرغبة فيها عن سابق الأوان.

وتفرجنا بعد ذلك على محل عرض منسوجات القطن والكتّان والقِنّب، وهي من الصنائع المنتشرة عند الفرنساويين، فالقطن يشتغل فيهِ 500000 عامل، والكتان والقِنّب يشتغل فيهما 300000 عامل، حتى بلغ عدد آلات النسيج عندهم بين ميكانيكيّة ويدويّة 350000 نول، وأهم المدن الّتي اشتهرت عندهم بهذه الصناعة رُوَانْ، ولِيلْ؛ لأن فيهما فابريقات نسج القطن العظيمة أكثر من غيرهما، ويصنع برُوَان عدا ذلك كثير من أصناف الشيت المعتادة، وكثير من المناديل المنقوشة، ثم مدينة رُوبِيه، ويُصنع فيها كثير من الأقمشة المختلط فيها الصوف بالقطن، فتعمل منها الملابس والفرش، ثم سانْ كَنْتانْ، ويُصنع فيها أصناف الشاش والجاز والفينيت – الفينو – والتل وكثير غيرها من الأقمشة الرفيعة، ثم تارَارْ، وقد اشتهرت بالشاش الساذج والمدبّج والجاز.

هذا فضلاً عن كثير من المدن المتفرقة في أنحاءِ فرنسا الّتي امتازت بكثير

من هذه الصنائع النسيجيَّة، فالكتان اشتهرت بصنعهِ بلاد الشمال ونورْمَانْدِيا، والْقِنَّب اشتهرت به پيكارْدِيا.

فتفرجنا على كثير من هذه المنسوجات، وقد استحضر صانعوها من أشكالها على اختلافها ومن سائر أَلوانها على كثرة تعددها وتغايرها في الإتقان والدقة في النسيج والاعتناءِ في التدبيج، فرأينا منها الآيات البيّنات الدالة على مزيد التقدم في هذا الفن، وتمام الإِحكام في أَنواعِه والوصول فيهِ إلى الدرجة القصوى، والغاية الَّتي ليس بعدها غاية.

ثم انتقلنا من هذه المنسوجات إلى **المنسوجات الصوفيَّة**، وأخذنا نتنقّل في التفرج عليها، وكيف يتنقّل بها العمل من وقت جلب الصوف من البلاد المختلفة على حالتِهِ الطبيعيَّة إلى صيرورتِهِ أَقمشة تلبس، وتستعمل على تعدد الأَعمال الَّتي تحصل فيهِ في أَثناءِ ذلك، من تنقيتِهِ وغسلِهِ، وتهيئتهِ ودهنه بالشحم؛ ليسهل عملُ الآلات فيهِ، ونقشهُ وغزلهُ ونسيجهُ ثم ما يُعمل فيهِ بعد ذلك من تنظيفِه من الشحم، وطيّهِ وكبسهِ، ولاغرو أن شغلت هذه الصناعة نظراً لأَعمالها المتعددة وأَشغالها المتكثّرة كثيراً من الصناع، بحيث يقل وجود صنائع تحتاج لعَمَلَةٍ مثلها فهي تشغل 500000 عامل، يصنعون كميَّة قدرها من الصوف الخام 200 مليون كيلو، قيمتها 400 مليون فرنك، وقد اشتهر بها كثير من المدن الفرنساويَّة من قديم الزمان، وهي تختلف في كميَّة ما يصنع فيها من هذا الصنف، فهذه مدينة ريمْس مثلاً يصنع فيها سنويّاً 20 مليون متر من الصوف، ويصنع بغيرها أَقل من ذلك، أو أكثر، وقد جلب في هذا المعرض صانعو هذه المنسوجات أَصنافاً منها لا تحصى ولا تدخل تحت حصر، مختلفة الأَشكال والأَلوان والأَثمان تُدهش العقول، وتأْخذ بالأَبصار لرونقها وبهائها ولطفها، ولابدع فهذه الصناعة

معدودة من أوائل الصنائع الفرنساويَّة.

ثم قصدنا بعد هذا محلّ الحرائر والمنسوجات الحريريّة، فتفرجنا عليهِ، وهو منقسم إلى قسمين عظيمين: معروضات مدينة ليون، ومعروضات مدينة سانت اتْيين.

وفي هذا المحل ما لا يتصورهُ العقل من الحرائر ونفائس المنسوجات، منها العجيبة الألوان، الغريبة الأَشكال، العديمة المثال في الطُّلاوة والزينة واللطف، وقد شهد العارفون بامتياز الفرنساويين في صناعة الحرائر من حيث الأَلوان وبهاؤُها وبهجتها وصفاؤها، لم يزدْها مرور الأَيام إلّا حسناً، ولم يؤثر عليها كرور الأعوام إلاّ زيادة في الأحكام، فهذه مدينة لِيُونْ أُدخلت فيها صناعة الحرير قبل هذا العهد بخمسمائة سنة أَدخلها إليها رجل طلياني، ولم يمضِ عليها أزيدُ من نصف قرن إلّا وقد عارضت بمصنوعاتها النفيسة أَحسن المصنوعات الّتي كانت تعمل في البلاد الشهيرة بعمل الحرائر في ذلك العهد مثل سيين وڤينيسيا – البندقيّة –، بل فاقَتْها بمنسوجاتها المدبَّجَة وحرائرها المزركشة بالذهب والفضة، وكان عدد الأنوال فيها لا يزيد في سنة 1779 عن 12 أَلف نول فصار بعد مائة سنة من ذلك التاريخ (سنة 1889) 125 أَلف نول، وزادت قيمة المنسوجات السنويّة عن 400 مليون فرنك.

وهذه مدينة سَانت اتْيِينْ الّتي تصنع الشرائط من الحرير، وقد احتكرت هذه الصناعة دون سائر بلاد العالم منذ ستة قرون مضت، تفوق بِطُلاوة مصنوعاتها ومزيد إتقانها ولطافتها سائر معارضيها في البلاد الأَجنبيّة، فتصنع أَصناف الشرائط ذات الأَلوان اللطيفة والنقوش الظريفة والأَشكال العظيمة الغالية القيمة، وترسلها إلى سائر بلاد الأَرض قاصيها ودانيها،

وهي تشغل ثمانية عشر ألف نول، تعمل في السنة الواحدة ما قيمتهُ تزيد عن مائة مليون فرنك.

وحكى لي أحد معارفي من الفرنساويين، وقد صادفتهُ في هذا المحل، القصة الآتية برهاناً على أن صناعة الحرائر من موجبات ثروة الفرنساويين العظيمة، بسبب ما يرسلونهُ منها إلى أنحاءِ الدنيا، ويباع بمبالغ جسيمة فقال: «يوم أمضينا الصلح مع الألمانيين في سنة 70 على أن ندفع لهم غرامة خمسة[1] مليارات كان الجنرال جرانت رئيس جمهوريّة الولايات المتحدة يستقبل بعض زائريهِ، فدار الكلام بينهم في هل تقدر فرنسا على القيام بدفع هذه الغرامة العظيمة، ورأى الحاضرون أنها لا تقدر أبداً على دفع هذه الغرامة الّتي لم يسبق لها مثال في سني الحروب إلاّ هذا الرئيس؛ فإنهُ بعد أن سكت طويلاً، قال: نعم، فرنسا ستقدر على دفع هذه الغرامة، ونحن الّذين سندفعها عنها، وهي ما عليها إلاّ أن تُرسِل إلينا بعض سفن مشحونة شرائط حريريّة وأشكالاً من زهورها الصناعيّة اللطيفة».

ومهما تكن هذه الحكاية، وإن كنت رأيتها بالحرف بعد ذلك في أحد كتب الدلائل، فإن صنائع الحرير في فرنسا ذات شهرة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، ولابد أن تكون من مصادر الثروة الكبيرة للأهالي بدليل كثرة عدد العمال الّذين يتعيشون منها، وعدد أنوال النسيج فيها.

وسرنا بعد هذا إلى حيث عُرِضت الدّنتيلات ومصنوعات الحباكة، وحاصلات صناعة التطريز والتدبيج - برودري -، وجميعها من الصنائع الدقيقة الّتي تستحق كل العناية.

---

(1) في الأصل: «خمس» المحرر.

فأما الدَّنتيلة فتنقسم إلى قسمين: دَنتيلة اليد، والدَّنتيلة الميكانيكيّة.

- فدنتيلة اليد تصنع بالإبرة في محلات كثيرة، أهمها أَربعة تنسب إلى أسمائها فيقال: دنتيلة پُوِي، وقد اشتهرت بالدنتيلات المصنوعة من القطن أو الصوف أو الحرير من جميع الأَصناف والألوان، ودنتيلة مِيركُور، وقد اشتهرت بعمل القطع الكبيرة كالشيلان وغيرها، ودنتيلة بايُو، ثم دنتيلة أَلَنْسُونْ، وقد اشتهرتا بعمل دنتيلات الزينة والزخرفة أكثر من غيرهما، ويتعيش من صناعة الدنتيلة هذه بفرنسا مائتا أَلف عامل، وهي قديمة بها موجودة فيها منذ القرن الخامس عشر.

والدنتيلة الميكانيكيّة جُلبت إلى فرنسا من إنجلتره سنة 1817، وانتشرت بالخصوص في كَاليهْ، وما جاورها، وتعدَّت بعد ذلك إلى كثير من أَطراف فرنسا.

وقد احتوى هذا المحل على بدائع ونفائس كثيرة، من عمل هذه الصناعة الدقيقة يقف العقل عن إدراك فهم كيفيَّة تَوَصُّل يد الصانع، أو المحرِّكِ الميكانيكي، إلى عملها بهذا الانتظام وهذه الدرجة الدقيقة.

وأما المصنوعات التطريزيّة والتدبيجيّة - بُرودري - فهي ثلاثة أقسام: أولها البرودري البيضاء المعمولة بالكُرُوشِيه، وهذه تُصنع باليد أو بالميكانيكة، وتُستعمل في الأَقمشة المنسوجة والملابس وفرش المساكن، وثانيها البرودري الملوَّنة أَو المعمولة من الذهب أو الفضة، وتصنع باليد أو الميكانيكة أيضاً، وتستعمل في الملابس التشريفيَّة المزركشة بالذهب والفضة وملابس الضباط العسكريين، وثالثها برودري الأَبسطة وتطريزها وتدبيجها.

وأهم هذه الصنائع التطريزيّة الثلاثة هي الأولى منها، فإنها لا يشتغل بها أقل من مائتي ألف امرأة، وقد ساعدت على زيادة انتشارها الآلات الّتي اخترعت لعمل التطريز والتدبيج، فإن الواحدة من هذه الآلات تعمل عمل خمسين امرأة كما تعمل ماكينة الخياطة عمل مثل هذا العدد من العاملات باليد.

أما البرودري الّتي تستعمل في فرش المساكن فيصنع أحسنها في ليون وباريس، وأما الحياكة فأنواعها وأشكالها وكيفياتها لا تدخل تحت حصر، وهي لا يُستغنى عنها في سائر مواد الزينة والزخرفة للمرأة والرجل وللمساكن وبهجتها.

وقد أعجبتنا هذه الصنائع ودقتها كل الإعجاب، وأسعدَنا الحظ بالعثور على رجل من الواقفين على معروضاتها من طرف أصحابها سألتهُ سؤال استفهام عن شيءٍ من ضمن هذه المعروضات، فأخذ رعاية لهيئتنا الأجنبيّة يشرح لنا غرائب هذه الصنائع النفيسة، ويُبين لنا دقائقها بغاية الترتيب، وكمال الانتظام، كأنهُ مدرس يشرح المسائل بغاية البيان والإيضاح، ووقفنا بواسطتهِ على ما تيسر من أسرار هذا الفن الدقيق، ومعرفة ما استطعنا من محسنات أعمالهِ المعروضة أمامنا.

ثم انثنينا نحو ملابس الرجال والنساءِ فرأينا الأشكال والألوان على اختلافها خصوصاً ما يتعلق بالنساءِ، ولا عجب في ذلك فإن غالب ما يختص بالنساءِ وملابسهنّ وأشكالها وهيئاتها وألوانها - المُودَه - يُبتدأ دائماً من باريس.

ثم قصدنا المحلات الّتي خُصّصت بالبرونز والحديد المصبوب، وهي

من أَحاسن المحلات الَّتي تُزار لاشتمالها على كثير من الآثار الفنيّة والمبتدعات العلميّة، منقولة بواسطة الصب والإفراغ من أحاسن أعمال العارفين من المتقدمين والمتأخرين، ولا خفاءَ في أن ذلك فيهِ إشهار ذكر هؤلاءِ العارفين، وتمكين الآحاد من التمتع بأعمالهم بأقل الأثمان وأهونها، فضلاً عما في استعمال البرونز وحديد الصب من السهولة في العمل حتى على العارفين أنفسهم بالنسبة لتيسر ما يريدون إحداثهُ بواسطة ذلك.

ثم انتقلنا إلى محل صناعة استخراج المعادن واستغلال الغابات، وبهِ الحاصلات الساذجة على الحالة الَّتي استخرجت عليها من الأرض، والحاصلات المهيأة والمعمولة بالفعل، ويحتوي هذا المحل على أهم دواعي الثروة العموميَّة، وتنقسم موجوداتهُ إلى قسمين: قسم الحاصلات المعدنية، وقسم أهم الحاصلات النباتيّة، وهي الأخشاب.

أما قسم الحاصلات المعدنيّة فيشتمل على ما لا يحصيهِ إلّا العارفون بأنواع المعادن ساذجة على حالتها الطبيعيَّة، ومصنوعة على حسب الأشكال الَّتي أُريدت منها، فالحديد وهو أكثرها نفعاً موجود على الحالة التي يستخرج عليها بادئ بدءٍ، غير منتظم، ثم على سائر الحالات الَّتي دخلت الصناعة فيها من الآلات الكبيرة والصغيرة في الحجم العظيمة في الدقة والإحكام ومثل الحديد غيرهُ من المعادن كالنحاس والرصاص والزنك، ومن المعان الغالية[1] كالذهب والفضة، وما يلزم لصناعة هذه المعادن، وتشكيلها بتلك الهيئات الصناعيّة من الفحومات وأدوات الوقود.

وقد سبق لنا بعض الكلام على مدخَلَيْ قسم المحلات المخصصة بهذه المعروضات بمناسبة ذكر الأبواب الواقعة على الممشى الكبير، فذكرنا ما

(1) في الأصل: «العالية» المحرر.

أمكن من توضيح هيئة هذين البابين، وكيفيّة تزيينهما بالحدائد ساذجةً أو مصنوعة على أشكال مختلفة متعلقة بالحروب والدفاع عن النفس والوطن.

على أن استيفاءَ الكلام على الحاصلات المعدنيّة جميعها أو الأَهم منها يستلزم الإحاطة بذكر جميع المعروضات منها، أو الأَهم، وكلا الأمرين متعسر، أما الإحاطة فتعسرها ظاهر جَلِيٌّ؛ فإنها تستلزم مجلدات ضخاماً، وأما تعسر ذكر الأَهم فلأنَهُ يستلزم علماً تامّاً بالمصنوعات والمعادن، ويستوجب مناقشات ومباحثات في طرق استخراجها واصطناعها الكثيرة المختلفة، وهذا لا يكون إلاّ للمتضلعين في هذه الفنون السنية، ومن سوءِ الحظ أني لست من هؤلاء.

على أنك أيها الصاحب القارئُ إن كانت لك رغبة تامة في الاطلاع وحب المعرفة في هذا الفن أو في غيرهِ من أي فن كان، فما عليك إلّا أن تتوجه إلى أول معرض عمومي يحصل، فإني واثق بأنك ستبلغ منهُ بغيتك من حيث الوقوف على حقائق جمة، وكذلك تعرف أن زيارة معرضٍ ما لا تستوجب إمكان الإحاطة بما فيهِ، ولا إمكان التعبير عن جميع ما بهِ بالعبارات الَّتي يشتهي الكاتب أن يُفَهِّم بها صاحبهُ الذي يكاتبهُ.

وها أنا أذكر لك بعض ما شاهدت بحسب الاتفاق، فما رأَيتُ كثير من المدافع وما يلزمها من المقذوفات، وما يلزم السفن الحربيّة من أُدوات التدريع، خصوصاً المدرعات الَّتي دخل فيها الفولاذ المسمى كْرُومْ، وقد استكشف حديثاً، فجعلها غاية في الصلابة والمتانة والمقاومة، ومما رأَيتُ مقذوفان من مقذوفات المدافع البحريّة: أحدهما لم يستعمل، والآخر استعمل، ولا يفرق بينهما إلّا بشديد التأمّل، فإنهُ يوجد بالثاني بعض تأَثُّر

يكاد يكون غير محسوس، وما ذلك إلّا من تمام المتانة وشدة الصلابة وحسن الصنعة، ومما رأيت غير ذلك كثير من أدوات الحرب على اختلاف أصنافها وأشكال شتّى من المدافع على اختلاف حجمها، ودقة معمولة من الفولاذ، وهي قطعة واحدة طولها خمسة أمتار، وعرضها أربعة، ولا يخفى ما في عمل مثل هذه من الصعوبة.

ثم تفرجنا على خيوط حديديّة تصنع من الفولاذ، عظيمة النفع، غريبة الشكل، ثم انتقلنا إلى بعض أعمال حديديّة أخرى، وما لبثنا أن صادفنا كثيراً من المصنوعات المتعلقة بالحروب والتدمير أيضاً، فرأينا الشبكات العظيمة الّتي تحمي بواخر التوربيل من أخطار المقذوفات ورأينا رفّاسات هذه البواخر التوربيليّة البديعة النظام، ثم صفائح من الحديد تستعمل لأبراج السفن الحربيّة، زنة الواحدة منها 27250 كيلو جرام، وشكل صفائح توضع على سطح السفن الحربيّة، زنة الواحدة منها مائة طونولاطه وعشرة.

وانتقلنا بعد هذا إلى أصناف غير المتقدمة من المصنوعات الحديديّة، فرأينا كثيراً من الأشكال مما يستعمل في جميع ما يُحتاج إليهِ. ثم انتقلنا إلى صنف آخر، وهو صنف السبائك الفضيّة، والصفائح الذهبيّة، ورأينا في أثناءِ هذا بعض أبواب حديديّة عظيمة عملت من الحديد والنحاس الأصفر. ثم رأينا في دواليب من الزجاج حاصلات النيكل، وبجوارها هيكلان صُنِعا من الطباشير، على مثال بعض القصور التاريخيّة بقُرْطُبة، يُستدل منهما على ما يمكن أن يصنع من هذه المادة من الأشياءِ العديمة المثال.

ثم ختمنا هذه الأصناف بأعلاها قدراً، وأغلاها سعراً، وهو الذهب،

فشاهدنا معرض المسيو دُه لأبوجْلِيزْ، وقد حوى كثيراً من أصناف الذهب على حالتهِ الطبيعيّة، وصخوراً من التبر على الصفة الفطريّة، فإذا اعتبرتَ نُدْرَة ما اشتمل عليهِ هذا المعرِض من أَشكال الذهب الطبيعيّة الموجبة لعلو القيمة زيادة عن قيمة الذهب العادية، كانت مجموعة هذا المعرض لا نظير لها في الدنيا.

وأما قسم الغابات فيشتمل على قسمين: قسم يتعلق بغابات الحكومة، وهو الذي رأَيناهُ بجهة تروكاديرُو، وفي ثاني أيام زياراتنا للمعرض، وقسم يتعلق بالآحاد، وهو ما تفرجنا عليهِ في هذا اليوم، ووجودُهُ كان بهمة المهندس الماهر دُه شَامْبِرلاَن.

وقد صرف هذا الرجل الفاضل والعالم الكامل عمرهُ في إحياءِ إقليم لانْد، من الأَقاليم الفرنساويّة، وتحويلهِ من حالتهِ الأَصليّة، وقد كان مُسْتَنْقَعَات مياه غير صالحة للزراعة إلى غابات متسعة مملوءة بأشجار الصنوبر والبلوط وغيرهما، أغنت فرنسا عن احتياجاتها في الأخشاب إلى النرويج وأمريكا الشمالية، بل جعلتها تسابقهما في الاتجار بهذا الصنف والربح منهُ.

وكان محل هذه الغابات الزاهرة والأَجمَات الباهرة قبل نيّف وثلاثين سنة قاعاً صفصفاً، وصحراء ميّتة، لا تنبت شيئاً، فصار في هذه المدة الوجيزة على ما هو عليهِ الآن، وعُرِض في هذا المعرض من الأَشجار الّتي غرست فيهِ في سنة 1850، وفي السنين التالية لها فكانت أَعظم ما نَبت في فرنسا من الأَشجار حجماً وعظماً، فهذه الأشجار الموضوعة على وجهة المحل، وقد غرست في سنة 1850، وسنة 1856، وصل ارتفاعها إلى 19 متراً، ومحيط دائرة ساقها إلى متر وعشرين سنتمتراً.

ويؤخذ من هذه الغابات قوائم تستعمل في معادن الفحم الحجري، يرسل منها لإنجلتره فقط مائتا ألف طونولاطه في السنة الواحدة وقوائم تُستعمل للسلوك التلغرافيّة، يرسل منها مئات من الألوف إلى سائر أقطار الدنيا، كما يُصنع من أخشاب هذه الغابات عوارض لقضبان السكك الحديديّة، وترابيع لتبليط مدينة باريس وغيرها من المدن، تُطْلَبُ منها كمية عظيمة، حتى إن مدينة بُوِينوسْ إِيريس وحدها، طلبت في سنة المعرض هذه فقط، أخشاباً للتبليط مقدراها سبعة وثلاثون ألف متر مكعب.

ثم انتقلنا من هذا المحل إلى غيرهِ حامدين آثار الإِقدام، شاكرين همم الرجال، مردّدِين الثناء على هذا المفضال، وأخذنا نتفرج على معرض حاصلات صيد البر والبحر، فرأينا فيهِ صناعة الفِراءِ المعدة للتدفئة، فكم فروة جيدة الصنع رأينا، وكم أشكال أعجبتنا، ووجدنا بالقرب من هذا كثيراً من أصناف الإسفنج الكبيرة الحجم، وبجانبها كثيراً من الملابس معمولة على تقليد الكاستور، بحيث لا تُمَيّزْ عنهُ أصلاً مع أنها متخذة من جلود الأرانب، ثم كثيراً من أصناف الصدف وأشياءَ كثيرة وتحفاً عظيمة صنعت منها بحيث صارت من أبهج ما بهذا المحل، ورأينا كثيراً من اللؤلؤِ والمرجان، وأصنافاً شتى من العقاقير، وما لا يحصى من مجلوبات صيد البر.

وانتقلنا من هذا إلى محل الحاصلات الكيماوية، ويشتمل على كثيرٍ من المواد المهمة عند أرباب فن الكيمياءِ مثل المواد الملوّنة، وزيت البترول، وما يستخرج منهُ والعقاقير الصيدليّة والصابون، والمواد الشحميّة، والكاوتشوك، وأحبار المطابع.

ويشتمل أيضاً على كثير من الجلود المصبوغة بالكهرباءِ وبغيرها، وفيهِ جلود بعض الغنم مشقوقاً سمكها ثلاثاً، دلالةً على إحكام صناعة الجلود، ودقة آلاتها.

وانتهت زيارة هذا اليوم بهذا القسم، وقد مضى النهار بتمامهِ، وأخذ منا التعب كُلَّ مأخذ وإذا نحن بالقرب من شارع مصر، فعُجْنا إليهِ، وقصدنا محل صاحبنا السيد مصطفى الديب، فاسترحنا بهِ، وشربنا قهوة على الطراز الوطني، وعلمنا من الجرائد المصريّة التي وجدناها عندهُ أخبار مصر، وأكلنا في المعرض، وقصدنا تتميم محاسن هذا النهار بزيارة فاطمة الحسناءِ، وهي امرأة يهوديّة من تونس، اشتهرت بفرط الجمال، وحسن الاعتدال، سمَّتْ نفسها فاطمة، ودخلت في معرض التنافس الذي صار منذ سنين في إحدى مدن أسپانيا تدخل فيهِ جميلات النساءِ وتحضرهنَّ لجنة مخصوصة عند تنافسهنَّ للحكم في أحسنهنَّ جمالاً وأحلاهنَّ قدّاً واعتدالاً، فمن كانت منهنَّ كذلك أُعطِيت جائزة عظيمة، فحكمت اللجنة بأن هذه أجمل النساءِ المتنافسات، فأُعطيت الجائزة دون سواها، وشهدها كل من حضر، واعترفت اللجنة والجرائد بأنها أنفس وأعلى من تقدمنَ للتنافس في الجمال، وسميت من ذلك الحين بفاطمة الحسناء.

وهي في الواقع غاية في الجمال، آية في الاعتدال، طويلة القامة، متناسبة الأعضاءِ بيضاءُ اللون قانية الوجنات تأْخذ بسُوَيْداءِ الفؤاد وتفتن العبَّاد والزهاد، لابسة ملابس مشرقيّة «يلك وشنتيان»، مزدهية بألوانها الورديّة مزركشة بالذهب والفضة، مغطى صدرها بالخفيف من التل الذي لا يَحْجُب ما وراءَهُ، تتمايل بِمنْدِيلين في يديها، وتترنم مع آلات الموسيقا الوطنية، وترقص متبخترة على

نغماتها التونسيّة، فسبحان من خلق وصوّر وأبدع في جمال هذه الحسناء الغادة الهيفاء.

ولم نفارقها إلّا بعد أن أَتمت نوبتها في الرقص وجلست على منصتها العالية، وانصرف المتفرجون، فانصرفنا معهم نردد عبارات الثناء على هذه الحسناء، ونشكر هذا اليوم الذي قَضَيْناهُ في مشاهدة أَحسن صنع الإنسان، وختمناهُ برؤية أبهى الحسان.

* * *

(اليوم الخامس عشر في پاريس)

سابع يوم في المعرض

خَصّصنا هذا اليوم كما ألمعنا إليهِ في اليوم الماضي بزيارة المعارض الأجنبيّة الّتي بسراي الصناعات المتنوعة، وفي النية أن نتفرّج أيضاً على ما جاور هذه السراي من بعض المعارض المشرقيّة الخصوصيّة إن ساعد الوقت.

فابتدأْنا يومنا هذا يوم الجمعة 16 أُغسطس سنة 1889 (بمعرض بريطانيا العظمى)؛ لأنهُ أهم سائر المعارض الأجنبيّة، فإنَّ مسطح الأرض الّتي يشغلها يبلغ 227670 قدماً إنجليزيّاً مربعاً، وعدد الّذين أرسلوا بضائعهم لعرضها فيهِ 1600، ولم يبلغ معرض من المعارض الأجنبيّة هذا القدر لا في المسطح الذي يشغلهُ، ولا في عدد من اشترك في العرض. على أن الحكومة الإنجليزيّة لم تدخل في المعرض بصورة رسميّة، بل اجتمع كبار من تجارها، ودخلوا من تلقاءِ أنفسهم فيهِ تحت رياسة حاكم مدينة لندن، وقت ذاك، فما بالك لو اشتركت الحكومة بصفة رسميّة، غير أنها لم تعاكس المشتركين، بل ساعدتهم مساعدات معنويّة، وسبب عدم اشتراكها رسميّاً أنها حكومة مَلَكيّة لا جمهوريّة، وهذا المعرض عُمل على رأس السنة المتممة للمائة من يوم وجود الجمهوريّة بفرنسا.

وليس هذا القسم الذي ابتدأْنا فيهِ شاملاً جميع ما عرضتهُ تجار الدولة الإنجليزيّة في هذا المعرض، فإن لهم في سراي الفنون المستظرفة قسماً خاصّاً بهم من نوع ما بها، كما أن لهم قسماً خاصّاً بالفنون العقليّة بسراي

الفنون العقليّة، وقسماً خاصاً بماكيناتهم بسراي الماكينات، فضلاً عما لهم بقصور مستقلة، كالقصر الهندي، وقد سبق لنا الكلام عليهِ وغيره من القصور المشيدة في غير هذا المكان.

ولا غرابة في أن يكون لتجار هذه الدولة محلات عديدة وحاصلات متعددة، فهي أُمّ مستعمرات كثيرة، بل أُم الاستعمار في حد نفسهِ والأُنموذج الذي يكون العمل بمقتضاهُ فيهِ.

ونحن الآن نقتصر على ذكر قسم معروضات إنجلتره الموجودة في سراي الصناعات المتنوعة، وذكر القسم الملاصق لهُ فيها، وقد خصص بمعروضات المستعمرات الإنجليزية.

وقد حَسَّن الإنجليز ما خصص بهم وصرفوا على تحسينهِ مبالغ طائلة رغبة في أن يكون تحفة يفتخر بها، وأثراً يذكر بعد حين، دالاً على تقدمهم في الصنائع والفنون، واعتنائهم بأمر التنافس المتعلق بها، فجعلوا مدخلهُ عبارة عن ثلاثة أبواب، حسنة الصنع، وعلى كل باب منها شارات الممالك الإنجليزيّة الأصليّة الثلاثة – إنجلتره وإيكوسيا وإيرلانده – تحيط بها الأعلام والرايات على أحسن كيفية، وأتم وضع، ونقشوا بأَخشاب السقف أسماءَ مدن إنجلتره الأصليّة والرموز الدالة عليها، وأنزلوا من جهة أعلاها أعلاماً كبيرة يدل كلٌ منها على المدينة الّتي أرسلت حاصلاتها إلى هذا المعرض، فصار هذا القسم من بين أقسام المعرض، يقصدهُ الناس كثيراً للتفرج عليهِ لما هو عليهِ من الزينات والزخارف، ولما نُقش بجدرانهِ ومحلاتهِ من النقوش الذهبيّة والفضيّة.

أما وصف الأشياءِ المعروضة وذكر محاسنها فأمر لا سبيل إلى استقصائهِ،

فإنهُ يستلزم من التفصيل ما يطول معهُ الشرح، ويكفي أن يقال: إن هذا المعرض حوى جميع الأصناف الَّتي حوتها الأقسام الفرنساوية المجاورة لهُ، أما إذا كان لابد من إعطاءِ بعض تفصيلات فنذكر ما استلفت الأنظار إليهِ أكثر من غيرهِ بشرط أن هذا التخصيص لا يَبْخَسُ شيْئاً من حقوق المعروضات الَّتي لا نُدْخلها فيهِ، فهذه مصنوعات البلور وأوانيهِ، حوت من النفائس أعظمها، وهذه الحاصلات الخزفيّة والصينيّة شملت من التحف أحسنها، ومن جملتها إناءٌ صيني لم يبلغ كبرهُ إناءٌ غيرهُ في الدنيا بأسرها، وهذه المنسوجات الصوفيّة جاءَت من المحاسن بألطفها، وهذه غيرها من المصنوعات كالملابس والشموع والأحذية والأسلحة والذخائر الحربيّة وأثاثات المنزل وفرشهِ والكراسي اللطيفة والتحف القيشانية، وهذه الفضيات، وأدوات السفرة، ومنها مجموعة الملاعق العديمة المثال الَّتي اعتنت بها طائفة الصاغة بلندره، حتى صارت كل واحدة منها غاية في الجمال والاستحسان، إلى غير ذلك من عجائب المصنوعات الإنجليزيّة الَّتي بلغت حد النهاية في الإتقان، وحد الكمال في تمام التحسين والإمعان.

أما محل المستعمرات الإنجليزيّة وهو بجوار المحل المتقدم، كأنما هو قطعة منهُ فقد اشتمل على معروضات بلاد كَنَدَا الَّتي تغالت كل التغالي في اختيار ما أرسلتهُ من المصنوعات.

واشتمل أيضاً على معروضات مستعمرة ڤكتوريا ومستعمرة زيلانده الجديدة وقد تغطت جدران هذا القسم بالرسومات المنبئة عن هيئة أرض تلك الجهات الحديثة، وكيفيّة المعيشة بها، وأهمها غرس الكروم واستغلالها، والبحث على معادن الذهب واستخراجها، وأغرب ما بهذا القسم باب تشييد من آجُرّ ملوّن بلون ذهبي لهُ عقد من جنسهِ، فجاءَ مرتفعاً

عظيماً، وليس بهِ غير هذا الآجر الذهبي ظاهراً وباطناً، قُصِد بهِ تمثيل الذهب الذي استخرج من معادن أوستراليا الذهبية، من يوم استغلالها حجماً ووزناً إلى الآن، بالتمام، وقد احتوى هذا القسم سوى ما ذكر على كثير من معادن الذهب والفضة والنحاس على حالتها الأصليّة كما احتوى على كثير من الطيور الغريبة والدواب العجيبة والوحوش غير المألوفة على هيئتها الحقيقيّة محشوة بالتبن (مصبّرة)، واشتمل على كثير من الأزهار والنباتات المجفّفة، والأخشاب المختلفة، والفراءِ الكثيرة الأشكال والألوان.

ولمستعمرة ڤكتوريا غير ما تقدم بيت صغير من الخشب في قسم تروكاديرُو جُعِل لعرض حاصلات أنبذتها، يتوارد عليهِ الكثيرون لمعرفة ماهيتها، وحالاتها من الجَوْدَة والطعم وغيرهما.

ومعروضات سيلان كثيرة عظيمة منها الخيزران وجلود الثعابين والعاج وغيرها من الأشياءِ الّتي ترغبها الأوروبيون لغرابتها.

وحكومة الكاپ أرسلت أشياءَ كثيرة أخصها حجارتها الألماسيّة ذات الشهرة العظيمة الّتي هي سبب غناها وسعادتها.

ومالطه وجبل طارق وهونج كُونج وكثير من الجزائر المنتشرة في البحار وجم غفير من البلاد الواقعة بجهات مختلفة من الكرة الأرضيّة التابعة للمملكة الإنجليزيّة، أرسلت كثيراً من المصنوعات، وعرضت أشياءَ لا تحصى من أحاسن المعروضات.

ثم انتقلنا من هذا القسم إلى قسم (معروضات الدانيمارك)، وهو بمجاورتهِ، وقد ساهمت الحكومة بمبلغ مائة ألف كورون على إيجادهِ وعدد عارضيهِ 150، ومساحتهُ لا تبلغ غير 550 متراً مربعاً في شانْ دُه

مَارْسْ وفي كيه دُوزسي، وهي وإن كانت قليلة إلاّ أنهُ اعتُني فيهِ اعتناءً كبير فقد نقش جدرانهُ من الداخل أشهر رسامي الدانيمارك، فرسم القصور الملوكيّة الموجودة بالمملكة جميعها على هيئتها الحالية، ورسم على وجهتهِ طيوراً وأزهاراً يقدرُها أصحاب الفن حق قدرها، ويُحلُّونها من التعظيم محلها.

وقد اشتمل على أشياءَ منتقاة من المصنوعات الذهبيّة والفضيّة، وعلى أدوات تعليميّة ومدرسيّة. ومما يستلفت الأنظار فيهِ أكثر من غيرهِ مصنوعات بعض الآحاد الّتي عُرِضت بهِ، فإنها بلغت من الإتقان غايتهُ، فهذه معروضات الأثاثات المنزلية من جملتها باب صنعهُ أحد النجارين يعجز عنهُ كثير من الأساتذة، وهذه معروضات المصنوعات الحديديّة، فيها كثير من الأشياءِ النفيسة، وهذه الأواني الخزفيّة بعضها معمولٌ باليد، وهو مع ذلك يفوق عملهُ أحسن الأعمال الشهيرة، وهذه البسط بعضها عمل على تقليد ما يعمل بجُبْلاَن بفرنسا، فجاءَ مثله بالسواءِ، وهذه امرأة عرضت مصنوعاتها في التطريز، وقد صَوَّرَتْ فيها بعض الأزهار، فجاءَت غاية في الإبداع ولنذكر هنا، للإحاطة، القصر الذي بناهُ أحد الدانيماركيين في قسم المعرض المسمى كيه دُوزسي، وإن كنا سنذهب فيما بعد إليهِ؛ لأَنهُ عَرَض فيهِ حاصلاتِ الجعة - البيرة - على اختلاف أصنافها ومصنوعاتها.

ثم بعد هذا انتقلنا إلى قسم (معرض بلجيكا)، وقد استحصلت الحكومة من المجالس النيابيّة على مساعدة من أجلهِ قدرها 600000 فرنك، وإن لم تشترك فيهِ رسمياً نظراً إلى أنها حكومة ملكيّة.

أما الأهلون فقد اشتركوا فيهِ بكل ما أمكنهم نظراً إلى الفوائد الّتي لابد أن تحصل منهُ لصنائعهم، فتحصلوا على مسطح قدرهُ 13000 متر مربع، منها في سراي الصناعات المتنوعة الّتي نحن فيها الآن 3750 متراً مربعاً، ومنها

4000 متر في قاعة الماكينات، والباقي في سراي الفنون المستظرفة، وسراي الفنون العقلية، وقسم كيه دُوَرسِي، وغير ذلك.

ووجهة المعرض البلجيكي في سراي الصناعات المتنوعة خمسون متراً ذات بابين كلٌ منهما لهُ خمس فتحات مشكلة من نفس الحاصلات المعروضة، وقد وُضع في أعلى كلّ منهما خريطة مجسّمة، رُسِم في إحداهما بلجيكا، وفي الأُخرى أفريقيا بما فيها الكونجو التابع لبلجيكا.

وقد حوى هذا المعرض جميع حاصلات بلجيكا الصناعيّة، ففيهِ الدانتيلات بأصنافها المتعدّدة على رقّة أشكالها، ودقة صناعتها، وفي وسط محل الدانتيلات مكان بديع الشكل مرتفع قليلاً من سائر أطرافهِ يشتغل فيهِ كثير من النساءِ بعمل هذا الصنف على مرأًى من الزائرين، وفي هذا المعرض المصنوعات البلّوريّة والصينيّة والبرونزيّة والصنائع الفنيّة كافةً، وفيهِ العربات على اختلاف أصنافها، وأثاثات المنزل والفرش والحاصلات النسيجيّة، من قطن وصوف ولوازم الحربيّة، في فسطاط نُصِبَ في وسط المحل، وجُعِل بالقرب منهُ معرض الأسلحة والسكاكين والخناجر.

وفي الممشى الواقع أَمام الوِجهة الأَصليّة لهذا المعرض رُسمت مينا أَنفِرْس البلجيكيّة الشهيرة مستوفاة بتمامها، ليطّلع العالم على استعدادات هذه المينا التجاريّة العظيمة وإِحكام نظامها.

وفي مقابلة محل المعرض بعض أبنية جعلت فيها معارض خصوصيّة، أَهمها معرض معادن ماريمُون، وبَاسْكُوبْ، صُنع من أشجار الصنوبر بهيئة لطيفة، وعُرض في داخلهِ رسم مُجَسّم عن هذه المعادن، وكيفيّة

استخراجها، ورسم آخر أكبر منهُ بقياس 1/10، رُسمت فيهِ إحدى الآبار بجميع لوازمها من ماكينات إخراج الفحم، وآلات التهوية لمن فيها، وماكينات تنزيل العَمَلَةِ للبئر، وإخراجهم منها، وبجوار هذه الرسومات نموذجات من الفحم مختلفة القدر والصنف.

ثم انتقلنا بعد هذا إلى (معرض هولانده)، ولم ترغب حكومة هذه البلاد الاشتراك في هذا المعرض، ولا مساعدة من يريد الاشتراك فيهِ، ولكن لما كانت البلاد تجاريّة صناعيّة، لم يُوقف أهاليها عدمُ المساعدة من حكومتهم عن عرض حاصلاتهم في هذا السوق العمومي، بل أَلَّفَ الأغنياءُ منهم جمعيّةً لعرض حاصلاتهم، ولمساعدة الفقراءِ على الاشتراك في عرض بضائعهم أيضاً، فتمكنوا من عرض محصولاتهم حسب ما رغبوا أكثر من غيرهم الّذين ساعدتهم حكوماتهم، واتخذوا محلات خاصة بهم في سراي شَانْ دُه مارسْ، وفي سرايات أنفالِيد، والصناعات المتنوعة، والفنون العقليّة والمستظرفة، فضلاً عن القرية الهنديّة الّتي شيدُوها في أنفاليد. وسيأتي الكلام عليها بعدُ، حتى كان مسطح المحلات الّتي شغلوها 8500 متر مربع.

أَما قسم الصناعات المتنوعة الذي نحن بهِ الآن، فبمجاورة المعرض البلجيكي وِجْهَتُهُ، عُمِلت على الطراز القديم المستعمل في تلك البلادِ من قبل، ذات باب كبير في الوسط، بهِ عقود مغطاة بالأعلام والرايات الوطنيّة، وفوقها رسومات ترمز إلى وقائع عظيمة تاريخيّة رسمها أَحد مشاهير الرسامين.

وقد أرسل الهولانديون لهذا المعرض أَحسن صنائعهم من كل صنف، فجاءَ بديع النظام، نخص بالذكر مما عرضوهُ البسط الفاخرة المعمولة بمعمل إِيفنْتِر الملوكي تقليداً للبسط القديمة، وهي جيدة للغاية عظيمة جدّاً

في النقوش، وإحكامها، والرسوم وإتقانها، يبلغ سمك الواحد منها تسعةَ سنتيمترات[1]، ثم أقمشةَ معمل دِلْفِت المشهورة في جميع أنحاءِ العالم، ثم العربات المعدة للركوب بأَصنافها، ثم في وسط المحل عمود عظيم مؤلف[2] من قناني زجاج مختلفة الأَلوان، فصار شكلها لهذا لطيفاً جداً، ثم رسوماتٍ مختلفةً عن كثير من الأَعمال العموميّة كالقناطر والترع والجسور والمواني، ورأَينا كثيراً غير ذلك من الأَعمال المهمة.

وبجوار هذا المحل وملاصقتهِ معرض الملحقات الهولانديّة، وقد احتوى على غرائب الأشياءِ وبدائعها، أَصليّة في البلاد، ومستحدثة فيها، أَوْجَدَهَا المعمِّرون من الهولانديين، مما دلّ على زيادة مهارتهم، وعظيم نشاطهم منذ استحوذوا على هذه المستعمرات الهائلة، والبلاد المتسعة الشاسعة، فعمروها التعمير العظيم، وأصلحوها الإصلاح الجسيم، وانتفعوا منها النفع العميم على قلة عددهم وصغر حجم بلادهم.

ولهذه البلاد أيضاً منحة للألماس بقرب برج إيفل سبق لنا الكلام عليها.

وانتقلنا بعد هذا إلى (معرض أوستريا هنكاريا) وقد امتنعت الحكومة عن الاشتراك في هذا المعرض امتناعاً كليّاً، ولم تكتفِ بذلك، بل منعت اكتتاباً كان حصل بواسطة المجامع التجاريّة للاشتراك فيهِ، وحَرَّمتهُ كل التحريم فاضطر الّذين يريدون الاشتراك إلى تأليف لجنة في باريس من رعايا حكومة النمسا والمجر المقيمين بها للقيام بهذا العمل المهم رغبة في عدم حرمان بلادهم وصنائعها من مزايا هذا التنافس السلمي، فجمع الاكتتاب الذي عملوهُ 175000 فرنك، استعملت في تنظيم قسم المعرض الذي نحن فيهِ

(1) في الأصل: «استمتر» المحرر.

(2) في الأصل: عموداً عظيماً مؤلفاً» المحرر.

وزخرفتهِ وتزيينهِ، وهو يشغل في سراي الصناعات المتنوعة أرضا مسطحها 2400 متر مربع، فضلاً عما يشغل في سرايات الفنون العقليّة والمستظرفة وغيرهما.

ويلغ عدد الّذين اشتركوا في عرض بضائعهم فيهِ 325، ووِجهة هذا المعرض تمتد بإزاءِ المعرض البلجيكي، صُنعت على هيئة درابزين لطيف الوضع حسن الصنع، داخلها مزين بالأعلام والرايات والرموز والشارات الخاصّة بالمدن الشهيرة الأوستريّة الهنكاريّة مع أسماءِ هذه المدن.

وقد صُفّت الأشياءُ المعروضة صفّاً، ورُصّت رصّاً بكيفيّة تسهّل الاطلاع عليها، وتمكّن من مشاهدتها، وقد أعجبنا منها الصناعة المتعلقة بالبلور من عمل بُوهِمْيا، ثم صناعة الجلودِ ونفاستها وصناعة العقيق وطُلاوتها، ثم دواليب المصوغات والحليّ والجواهر المحتوية على أشياءٍ غريبة من عجائب المصوغات، فقد أُخبرنا بوجود سلسلة ذهبيّة في إحدى هذه الدواليب توضع في قمع الخياطة - كشتبان - وطولها مع ذلك ستة أمتار كاملات، ثم صناعة المداسات المزخرفة المشتهرة في بلاد العالم، ثم صناعة البسط ذات الشهرة قديماً.

ثم في بناءَين ملحقين بهذا القسم معروضات المعادن والأخشاب اللتين هما سبب سعادة هذه المملكة وعمارها، ومن ضمن ما جُلب بقسم الأخشاب شجرة محيط ساقها من الأسفل ستة أمتار، وزنتها 14000 كيلو جرام، وطولها ثمانية أمتار، وبالاختصار فإن هذا المعرض كلهُ على ما هو عليهِ من القلة يجاري أَحسن المعارض، لما احتوى عليهِ من منتخبات الآثار، فما بالك لو اجتمعت فيهِ جميع أصحاب الحاصلات والصنائع وسائر التجار.

وانتقلنا من هذا إلى (معرض إيطاليا)، وقد امتنعت الحكومة الطليانيّة كل الامتناع من الاشتراك فيهِ أيضاً، فقام الأهالي بهذا العمل، وعقدوا لذلك الجمعيات، وأكثروا من الاكتتابات، فاكتتب السنيور سُونْزُنْيُو الكتبي وحدهُ في ميلانو بمبلغ 50000 فرنك، ومجمع تجار رومة اكتتب بعشرين ألف فرنك، ومجمع تجار ناپولي 10000 فرنك حتى تجمع في أقرب زمن 350000 فرنك، صرفت على تشييد المعرض الطلياني بشانْ دُهْ مَارسْ، ودل هذا دلالة صريحة على حب الإيطاليين لإخوانهم الفرنساويين، ورغبتهم مشاركتهم في هذه المسابقة التمدنيّة.

وقد اشترك منهم في هذا المعرض سبعمائة، وشغلوا أرضاً قدرها خمسة آلاف متر مربع في سائر جهات المعرض.

وأهم ما عرضوهُ بسراي الصناعات المتنوعة، وقد اعتنوا كل الاعتناء بحسن زخرفة محلهم فيها وتزيينهِ، وجعلوا اللون الغالب في ألوانهِ على ما سواهُ اللون الأحمر، فأعطى هذا المحلَّ بهجةً ورونقاً، أما الوِجهة فقد عُملت من الفسيفساءِ، والرخام الأَبيض على مقتضى رسم تبرع بهِ أكبر أساتذة رومة، وصُرِف عليها وحدها 45000 فرنك، فجاءت في غاية الإتقان والإِحكام.

وأهم ما في هذا المعرض من المصنوعات إتقاناً وأكثرها تقدماً وإِحساناً في المصنوعات الزجاجيّة والبلوريّة، مجلوبة من ڤِينيسْيَا - البندقيّة -، المشهورة بهذه الصناعة من قديم الأَزمان، ثم الدانتيلات على اختلاف أجناسها، والمصنوعات الخزفيّة والصينيّة مرسلة من مصانع مدينة فلورانسا الزاهرة، ومصنوعات المرجان مرسلة من فابريقات ناپولي.

أما مصنوعات النسيج فلم يوجد منها في المعرض أصناف كافية وافية. فإن أصحاب المعامل الكبيرة في هذه الأصناف أصرُّوا على الامتناع، فليس منها إلاّ معروضات أصحاب المعامل الصغيرة، فهي بهذا الاعتبار قليلة، وإن كانت في حد ذاتها محكمة الصناعة تدل على تقدم هذه البلاد في مصنوعات النسيج.

هذا أهم ما في هذا المعرض، أما باقي المصنوعات فهي بأقسامها المخصصة بها في المعرض العمومي، فالميكانيكا مثلاً بقاعة الماكينات، والرسومات بسراي الفنون المستظرفة، وهلمّ جرّاً في كل الأشياءِ حتى في التدبير الاجتماعي - إِيكُونُومي سُوسْيالْ -، فإنها عَرَضتْ فيهِ ما دلَّ على مزيد تقدمها في سبيل العُمران، وعرضت أيضاً بهذه المناسبة رسماً مجسماً عن مدينة نابولي وما تنوي إجراءَهُ في سبيل تطييب هوائها وإصلاحها على مقتضى القواعد الصحيّة الجديدة.

ثم انتقلنا من هذا إلى (معرض سويسره) وهذه لم يوجد تردد أول الأَمر وآخرهُ في اشتراكها في هذا المعرض؛ إذ كانت أول الدول اللاتي قَبِلنَ بهِ رسميّاً، وأخذت من ذلك الحين تستعد للحضور فيهِ، فعينت مجالسها النيابيّة مبالغ المساعدة وجعلتها 450000 فرنك، ولم تكتفِ أقاليمها بذلك، بل أخذت هي أيضاً تقرر مبالغ لترويج عرض مصنوعاتها الخاصة بها مثل زُورِيك في الحرائر، وجَنَوَهْ ونُوفشَاتل في الساعات، وسَانْ جالْ في المدبجات، وفُو في الأَنبذة والمشروبات، حتى كان الاعتناءُ بأَمر المعرض عامّاً، ورغبة الاشتراك فيهِ سائدة عند جميع هذا الشّعب فاشترك فيه 1100، وشغلوا أرضاً مسطحها 6500 متر مربع، مع أنهم لم يشغلوا

في معرض سنة 1878 غير 5000 متر فقط، وانتخبوا البضائع والمصنوعات الّتي أرسلوها، فجاء معرضاً شائقاً يفتخر بهِ.

وليس في الإمكان بيان ما احتوى عليهِ هذا المعرض بتفاصيلهِ في غير سراي الصناعات المتنوعة الّتي نحن فيها الآن، فقد اشترك من السويسريين في قاعة الماكينات فقط 128، بل ولا في هذه السراي لكثرة وتنوع ما فيها، وإنما نقتصر على الإلماع إلى ما استلفت أنظارنا بوجه خصوصي، فهذه الخرائط الطوپوغرافية ليس في الإمكان الوصول إلى أزيد ممّا وصلت إليهِ إتقاناً، وهذه المعروضات المدرسيّة لا يستغرب معها بلوغُ هذه البلاد في الصنائع درجةَ الدول الفخيمة على صغرها، ما دام هذا شأنها في أمر التعليم وتحسينهِ، والاعتناءِ بأمرهِ من زمن مديد.

وهذا معرض الساعات، ويشغل وحدهُ 250 متراً مربعاً، واشترك فيهِ 160، لا يسعنا إلاّ مجرّد ذكرهِ، ونكتفي بذلك عن الإطناب في البيان، وقد احتوى من مصنوعات جَنَوه ونُوفشَاتِل على أصناف لم يسبق لها مثيل قبل الآن، دلت على أن هؤلاءِ وصلوا ذروة الارتقاءِ العليا في هذا الفن الجليل، وهذه حرائر زُوريك يحتوي عليها دولاب عظيم، أثبتت مزيد التقدم في عمل الحرائر، خصوصاً ذات الأَثمان المتهاودة منها، وهذا معرض الدانتيلات والمدبَّجات المصنوعة في أَپانزيلْ وسَانْجَالْ غاية في اللطف، خصوصاً ما حواهُ من الستائر اللطيفة، وهذه صناعة الألبان دلت على حرص هؤلاءِ القوم، والتفاتهم إلى صالحهم بما يصنعونهُ في إقليم ڤيڤي من الأَلبان المركّزة أو المجفّفة في الدقيق، فيبيعون منها مبالغ كثيرة في سائر البلاد، حتى في أمريكا بأَثمان عالية مع كون أصل الألبان عندهم رخيصاً، وإن كان جيداً حسناً لطيب المراعي، وهذه الشكولاطه، وهذا

الجبن، وغير ذلك مما يدل على تقدم هؤلاءِ الأقوام، وهذه الملبوسات الوطنيّة من أقدم الأزمان إلى الآن ملبسة لأشخاص مجسمين في هذا المعرض، هي من أسباب الرغبة فيهِ، وتزاحم الناس عليهِ أفواجاً ابتغاء التفرج على هذه الهيئات الظريفة والمناظر اللطيفة.

ثم تخطّينا بعد هذا إلى (**معرض الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية**)، وقد قبلت هذه الجمهوريّة الاشتراك في المعرض بادئ بدءٍ، وقررت مجالسها النيابيّة بكل السهولة وتمام الانشراح 1250000 فرنك للقيام بهذا العمل، وتعهدت الحكومة فضلاً عن ذلك بنقل الحاصلات الّتي يُراد عرضها على حسابها، وعينت مندوباً عاماً من قبلها للقيام بأمر المعرض، وعينت كل ولاية من الولايات المشكل من مجموعها هذه الجمهوريّة - وعددها 38 ولاية - عضواً مندوباً عنها، فاجتمع هؤلاءِ تحت رياسة المندوب العام، وأخذوا يستقبلون طلبات الاشتراك في هذا المعرض، وينتخبون منها حتى أقروا على 1500 طلب، وتحصلوا للطالبين من إدارة المعرض على أرض مساحتها في جميعهِ 8000 متر مربع.

أما هيئة المحل في سراي الصناعات المتنوعة فجميلة مع حالتهِ الساذجة، وقد وضعوا فيهِ من الداخل أعلام الولايات الّتي كَوَّنَتْ هذا الاتحاد الجمهوري، وجعلوا في وسطهِ محلاً لطيف الشكل، خصصوهُ بالمعادن الذهبيّة والفضيّة والألماسيّة على هيئتها الطبيعيّة الّتي تُستخرج عليها، وجعلوا حوالي هذا أربع معارض صناعيّة فَنّيّةٍ، رأوا فيها مزيد الأهمية عن غيرها من كل المعارض، أولها محل جُوزهَامْ وشركائِه أكبر صاغة نيُويُورك، من ضمن ما فيهِ إناءٌ فِضيٌّ جميل الصنع، ارتفاعهُ متر وثمانية وعشرون سنتيمتراً، وزنتهُ ستون كيلو جرام، وثمنهُ مائة وخمسة وعشرون

ألف فرنك، وحول هذا الإناءِ مصوغات كثيرة من عمل الميناءِ وغيرهِ، وثانيها محل تيفَّاني الجوهري يوجد بهِ كثير من الألماسات والمجوهرات، ومن بينها عقد قيمتهُ مليونا فرنك، وثالثها محل مِيقِيدَانْ وقد اختص أكثر من غيرهِ بعمل صفائح الفضة وما يُنتج منها، ورابعها محل كُولاَمُوز الشهير بعمل البلور والأواني الصينيّة الغريبة الأشكال.

وقد عَرَضَ إيديزُون الشهير في هذا المحل بعض أشياءَ قليلة اعتماداً على ما عرضهُ في قاعة الماكينات، فلم نرَ لهُ هنا غير بعض آلات من المسماة جرافُوفُون، وهي آلة تكتب، ومن المسماة فونوجْراف، وهي آلة تحفظ الصوت، ثم تتكلم بهِ.

وقسم الكهرباءِ هنا غاية في البهجة والإتقان ففيهِ، معرض تليفونات بيلْ الشهير، ومن ضمن ما بهِ قائمة من قوائم التليفون معدة لأن تحمل ثمانين خيطاً من خيطانهِ، وفيهِ معروضات كومپانيّة الكهرباءِ بأصنافها العديدة، ونموذجات من مدينة نيويورك عن كيفيّة تسيير السلوك التليفونيّة فيها تحت الأرض، والآلة المسماة تِيلُوتُوجْرافْ اختراع جرائر، وهي آلة تكتب من مسافة بعيدة، ثم مجموعة اعتنى بجمعها أحد العلماءِ ضمت جميع ما كُتب من جهة الكهرباءِ من عهد ظهورها إلى الآن.

ومن ضمن المعارض الأميركانيّة التي تستلفت الأنظار - وإن كانت كلها موجبة لذلك؛ إذ أن أميركا هي أم العجائب - معرض الأخشاب المتحجّرة، وقد استخرجت من غابة كبيرة تحجّرت جميعها تحتوي على غرائب وبدائع من الأشكال.

وقد جمع هذا المعرض أشياءَ كثيرةً غير التي ذكرناها من الأسلحة

الناريّة والدخان والشوكولاطه، حتى صُوّر منها صورة الزُهرة مُجَسّمة، وكثير من الآلات النافعة، منها آلة لكنس البسط بدون أن يتطاير منها غبار إلى غير ذلك.

ومن أهم ما يوجد في قسم التعليم من هذا المعرض رسوم محلات المدارس والمكاتب الموجودة في هذه الجمهوريّة مأخوذة بالفطوغرافيا، فقد دلت بكثرتها ونظامها وضخامتها على الاعتناءِ بأمر التعليم في تلك الأنحاءِ، ولا بدع حينئِذٍ أن فاقت هذه الأَرض المستحدثة أرض أوروبا القديمة في الصنائع والفنون والآداب.

وأما قسم الزراعة، فَحَدِّث عنهُ ولا حرج، لأنهُ جمع من أصناف المحصولات وأجناس النباتات، ما دل على حسن تربة هذه الأرض، ومن الأَدوات البخاريّة وغيرها المستعملة في الزراعة بسائر أصنافها، وفي كل أَوقاتها ما جعل قليلين بالنسبة إلى أرضهم، ينتفعون بهذه الأَرض المتسعة الأَرجاءِ، ويتمتعون بخيراتها تمام التمتع.

ومن أَجمل ما بهذا القسم الزراعي قصر سُمي بقصر الذُرة لأنهُ عُمل جميعهُ من الذُرة ونباتها، واشتمل داخلهُ على سائر الأشكال الّتي تعمل من الذُّرة المألوفة وغير المألوفة.

ثم انتقلنا إلى القسم المخصص (بمعرض أسپانيا)، وهي لم تشترك رسمياً في المعرض مراعاة لحكومتها الملكيّة، وإن ساعدت فيهِ مجالسها النيابيّة بمبلغ 500 أَلف فرنك، وعينت الحكومة لرياسة لجنتهِ أحد أعضاءِ مجلس النواب، واستصدرت نظارة مستعمراتها أمراً ملوكيّاً بإعطاءِ جزيرة كوبا مائة ألف فرنك وإعطاءِ خمسة وسبعين ألف فرنك إلى جزائر فيلپّين، وخمسين ألف فرنك إلى جزيرة پُرِيزتُوريكُو، لمصاريف اشتراكها في المعرض،

فصدر الأمر بذلك، ولم يمنعها عدم اشتراكها الرسمي من الاستحصال على محلات متسعة في سراي الصناعات المتنوعة وفي غيرها لأسبانيا ولمستعمراتها، فقد شادت محلاً للحاصلات الزراعيّة والغذائيّة، عرضت فيه ما عندها من الأنبذة والمشروبات والفواكه يشغل 1050 متراً مربعاً، فإذا أضفنا إليها مثلها من الطبقة العليا، كان المجموع فوق ألفي متر مربع، وشادت محلات لمستعمراتها مسطحها 300 متر مربع، وشادت نحو اثني عشر محلاً وضعت فيها حاصلات من الدخان والأنبذة والمشروبات والفواكه للبيع، منها لمن يريد ذوق طعمها رغبة في زيادة معرفة الناس بها، فضلاً عن قاعتين خصصتا بهذه المملكة في سراي الفنون المستظرفة وقاعة في سراي الفنون العقليّة، مساحتها 157 متراً كل ذلك غير قاعة كبيرة بسراي الصناعات المتنوّعة مساحتها 1291 متراً مربعاً، وهي الّتي نحن بها الآن.

وقد اشتملت هذه القاعة على كثير من الأقمشة والقطائف والدانتيلات والظرائف والروائح العطريّة المستخرجة من الأزهار الكثيرة في تلك البلاد، وعلى كثير من معادن الذهب والحديد والرصاص والفضة المنتشرة في أرضها، وكثير من الأدوات والآلات المستعملة في سائر اللوازم وكثير من المُدَى والسكاكين، وأصناف الشيش من عمل طُلَيْطلة القديمة الشهيرة الّتي كانت تتسابق على اقتناءِ أسلحتها الفِرسان في قديم الأزمان، وكثير من آلات الموسيقا المصنوعة بالصنائع الدقيقة من الصدف وسن الفيل، ومنها الطُنبور الكثير الاستعمال في هذه البلاد، وكثير من الآلات الهندسيّة ومتعلقات الأشغال العموميّة والأدوات الحربيّة.

ولا ننسى قبل أن نختم المقال في هذا الباب ذكر ما حواهُ سراي الفنون

العقلية من المباني الأثرية الأندلسيّة؛ إذ مَثَّلوا منها كثيراً من القصور السلطانيّة الإسلاميّة الموجودة في تلك البلاد من يوم كانت تحكمها العرب، فوضعوا هذه الآثار في ذلك المكان دلالة على ما كان عليهِ العلم، وما وصل إليهِ الإدراك والفهم، وحصلت عليهِ القدرة الإنسانيّة في تلك الأزمان الخالية أيام تلك الدول الماضية الّتي أضاعتها يد الترفه والسفه والتفرق وعدم اتحاد الكلمة.

وانتقلنا بعد هذا إلى (معرض البُرْتُغال) المجاور لمعرض أسپانيا، وقد شابهت معروضاتهُ معروضات أسپانيا لمجاورة البلدين واحتوى على أشياء كثيرة دلت على تقدم هذه الدولة الصغيرة، حتى إن المندوب من قبلها - وهو من محرري الجرائد ومن النواب - لمّا رأى عدم كفاية المحل الذي خُصص بها في سراي الصناعات المتنوعة استحصل على أرض بضفّة نهر السين، بنى فيها بناءً عظيماً، صرف عليهِ مائتي ألف فرنك، مشتملاً على طبقة أرضيّة وطبقتين فوقها، يعلوهما برج ارتفاعهُ 35 متراً على طراز الأبنية القديمة البرتغاليّة الّتي كانت تُبنى في القرن الخامس عشر من الميلاد، وقد احتوى هذا البناءُ على المواد الغذائيّة والزراعيّة وأدواتهما، وغير ذلك من الحاصلات الّتي لم يسعها المحل المخصص بهذا المعرض في سراي الصناعات الذي نحن بهِ الآن، على أن حكومة البرتغال لم تدخل المعرض بصفة رسميّة، وإن أقرت مجالسها النيابيّة على مبالغ كثيرة لمساعدة هذا المشروع الجزيل النفع للصناعات والحاصلات البُرتغاليّة.

وتفرجنا بعد هذا على (معرض اليونان) وقد اشتركت هذه الدولة في المعرض اشتراكاً رسمياً بمجرد دعوتها إليهِ، وقررت مجالسها النيابيّة مبلغاً قدرهُ مائتا ألف فرنك لهذا الغرض باتحاد جميع الآراءِ، ومما ساعدها كل

المساعدة وجود معرض وطني عندها قبل هذا بوقت قريب انتخب منهُ أعضاءُ اللجنة المنظّمة لهُ، وهم من كبار الأغنياءِ ما رأوْه جديراً بأن يُعرض في باريس من المصنوعات والمحصولات الوطنيّة، وتبرعوا زيادة على ما تقدم بمائة ألف فرنك، فبلغت الإعانة كلها ثلثمائة ألف فرنك، وانضم إلى هذا أن تعهدت الحكومة بنقل جميع البضائع والمحصوات الّتي تُرسل إلى المعرض في بواخرها مجاناً إلى مرسيليا.

وقد صار تشييد وجهة هذا القسم على هيئة العمارات القديمة اليونانيّة على طول 35 متراً، وارتفاع 12 متراً، فجاءت غاية في العظم والرونق، وقد صَوَّرُوا بجانبي بابها من الخارج صوراً مثَّلوا بها بلادَ اليونان القديمة من جهة، وبلادَ اليونان الحديثة من الجهة الأُخرى، كما أنهم كتبوا من الداخل أسماءَ المدن اليونانيّة القديمة الأَربعة، وهي أَثينَا وكُورَنْثيا وسپَارْتَا وتِيبَة من جهة وأَسماءَ الحديثة الأَربعة، وهي پِيريه وسِيرَاكُور وكُورْفُو وپَتْرَاسْ من الجهة الأخرى، وزينوا جدران المحل من الداخل بالبسط الفاخرة المصنوعة في البلاد.

وهذا القسم يشغل في سراي الصناعات المتنوعة نحو 600 متر مربع، وعدة من عرض بهِ المحصولات والبضائع والمصنوعات أَلف وخمسون، وكثير مما عُرِض غُرَرٌ، نذكر منها ما استلفت نظرنا فيها أكثر من غيرهِ، أَلا وهي الحرائر على جمال أَشكالها وألوانها، وكثيرها من عمل اليد، ثم البسط اللطيفة الأَلوان المصنوعة باليد، أيضاً ثم الرخام بأَنواعهِ، فمنهُ الأَخضر الجميل وهو المصنوع من مثلهِ عُمُد جامع آيا صوفية بالآستانة ومنهُ أَحمر ذو عروق زرقاءَ وسوداءَ لم يكن معلوماً إلّا حين هذا المعرض، فقد اكتُشِفت حديثاً في جهات من جزيرة شِيُو اليونانيّة، ثم المعادن من

رصاص وفضة، ثم الفواكه الجافّة، والأنبذة الّتي تفتخر بها اليونان، ثم فطوغرافيات أُخذت عن صور وتماثيل غاية في القدم، صار العثور عليها حديثاً، وهي آيات في حسن الصناعة ودلائل واضحات على غاية البراعة، وقد استنتج بعضهم من انحباس الثديين في هذه الصور ووقوفهما بارزين فيها أن الصُدرة - كورسيه - الّتي تستعملها النساءُ الآن في رفع الثديين ليست بالشيءِ المستحدث بل سبقتهنَّ إليها نسوة العصور الأولى، ولا بدع فالنساءُ هنَّ النساءُ في كل زمان وأوان.

ثم تفرجنا على (معرض رومانيا) وهي كغيرها من الدول اللاتي لم يُردنَ الاشتراك في هذا المعرض من أول الأمر، حتى اضطرها إلى ذلك الأَهلون، وذلك أن مأمور فرنسا السياسي في رومانيا لما توجه أول مرة لمقابلة رئيس وزرائها، وطلب الاشتراك منهُ في المعرض أجابهُ بعدم إمكان ذلك «لا لأسباب سياسيّة بل لأسباب اقتصادية»، ولما أن توجه بعد مدة إلى الوزير الذي خلفهُ وكانت الوزارة تغيرت أجابهُ بعدم إمكان حكومتهِ الاشتراك في المعرض «لا لأَسباب اقتصاديّة بل لأسباب سياسيّة»، فتأكدت من ذلك عدم الرغبة، واستمرَّ الحال على عدم الاشتراك، فقام المسيو سِيُوزكُو أَحد الرومانيين القاطنين في باريس، واهتم بالأمر، وكتب منشوراً إلى الأُمة الرومانيّة، طبعتهُ سائر جرائد رومانيا معضدة لهُ، فالتفت الأهالي إلى ذلك الأمر، وعضدوهُ، ودخل فيهِ البرنس بيبسكُو، وهو من الرومانيين المشهورين بمحبة فرنسا وتأَلفت في الحال لجنة كان منها الوزير الذي احتج بالأسباب السياسيّة دون الاقتصاديّة، وقد كانت تغيرت وزارتهُ أيضاً فاضطرَّت الحكومة رغماً عن عدم اشتراكها الرسمي أن تطلب من المجالس النيابيّة مساعدة لهذه اللجنة الوطنية الّتي تأَلفت، فقررت مائتي ألف فرنك،

وانضم إليها 80000 من اكتتاب أجرتهُ اللجنة و220000 فرنك من لوتريّه - يانصيب - أجرتها اللجنة تحت اسم يانصيب المعرض الپاريسي، فكان المجموع خمسمائة ألف فرنك، وأخذت اللجنة توالي العمل، واستحضرت المعروضات وزخرفت المحل الذي خصص بها، وكانت طلبت أكثر منهُ مع أن مساحتهُ بلغت 1126 متراً مربعاً، وجعلت وِجهتهُ على هيئة العمارات الوطنية، وداخلهُ على مثال أَحسن الآثار البلدية، وقبتهُ في الوسط بنتها على مثال قبة الكنيسة الكاثدرائية، فجاء غاية في البهجة والظرافة، وامتلأ بأحسن الصنائع من كل الأصناف على طريقة لم يكن يُظَنُّ أن هذه البلاد الحديثة في التمدُّن تصل إليها فهذه أعمال المدبّجات والتطريزات والبسط تضاهي أحسن صنائع الممالك القديمة في المدنيّة.

وهذه الملبوسات الوطنيّة على اختلاف أَشكالها وأَلوانها تنادي لحسنها بتفضيلها على الملبوسات الأوروبيّة، ولكن هيهات أن تدوم على حالها الأَصلي وإن عضدَت ذلك ملكة رومانيا، وقبلت رياسة الجمعيّة الّتي أُريد منها المحافظة على زي الملابس الأصليّة؛ إذ يدل على بعد بقائها على حالتها الوطنيّة ما استحضروهُ في هذا المعرض من الملبوسات المهيأَة على الطراز الأوروبي، والبرانيط المعمولة على الشكل الپاريسي وكثرتها، فكأَن جل المشرقيين اعتقدوا أَن دخولهم في التمدن لا يكون إلاّ بتغيير ملابسهم الوطنيّة، وعدم المحافظة عليها مع أن أقل ما في هذه المحافظة، حفظ الشعائر والمميزات الوطنيّة، وهي لا تمنع البتة من التمدن بما هو أنفع من تغيير الزِي واستبدال الملابس.

ثم مما يستلفت الأنظار في هذا المعرض المصنوعات السلاحيّة وإتقانها، والحاصلات الزراعيّة وكثرتها، والمستخرجات النباتيّة وتعددها من أرواح

وروائح عطريّة ومُرَبّيات وحلواآت بلديّة، وأخشاب من الغابات الأهليّة، وأملاح نظيفة عُملت منها مسلة غاية في اللطف وتمام الظرف.

وقد شاد أصحاب هذا المعرض محل طعام بالقرب منهُ في مدخل شارع مصر على طراز المساكن الوطنيّة جمع المأكولات والمشروبات البلديّة، يخدم فيهِ طاهيات وخادمات وطنيات، قد جمعنَ إلى حسن الصورة وجمال المنظر اللباسَ الوطني الظريف الشكل، فتزاحم الناس على هذا المحل من كل فج للأكل والشرب، وسماع الموسيقا الوطنيّة، حيث استحضرت من بكرش - بخارست - عاصمة البلاد لهذا الغرض.

ثم انتقلنا إلى (معرض النرويج) وقد أَبى أهلها إلّا الاشتراك في هذا المعرض وأصروا على ذلك، فانصاعت لرغبتهم حكومتهم، وإن لم يرضَ السويديون الاشتراك كما سيجيءُ، وصَرَّحت المجالس النيابيّة لذلك بمبلغ 125000 فرنك.

وقد جُعِلت وِجهة هذا المعرض من الخشب المتقن العمل، صار صنعها في النرويج، وأُحضرت متفرقة قطعها، وصار تركيبها على ما هي عليهِ بحسب نمرها الّتي وُضعت لها هنالك، فجاءَت غاية في الظرف والمكانة.

ويشغل هذا المعرض 1300 متر مربع، وعدة المشتركين فيهِ مائتان وخمسون، وأهم صنائع هذه البلاد وأكثرها انتشاراً صناعة الأخشاب لكثرتها هنالك، فأَحضروا منها كل أصنافها، وما يعمل منها على حالتهِ الأَصليّة، أولاً ثم على حالاتهِ الّتي جرى بها الصنع مع تعددها وغرابتها وبلوغها حد الغاية وكمال النهاية.

ومن أَتقن المصنوعات الخشبيّة المساكنُ الّتي من الخشب للسكنى، فيها بداخل المدن على طراز بديع، وبخارجها على طراز أحسن وأَبدع،

فاستحضروا من أصناف هذه المساكن ما يبهر العقول، وقد صُنعت في النرويج، واستحضرت متفرقة القطع، وركبت هنا بحسب النمر، فجاءت على مثال بديع وشكل مألوف ظريف، منقوشة بأحسن النقوش، وملوّنة بأحلى الألوان وأبهاها.

ومما يستلفت الأنظار في هذا المعرض الدواليب الّتي أُعدت لعرض المصنوعات، وما حوتهُ من الحُليّ والمجوهرات، وشكل هرمي عجيب الشكل قد صنع من الحلواء.

ثم من أهم الصنائع النرويجيّة أيضاً صناعة مسامير الحديد؛ لِجَوْدَةِ الحديد وانتشاره في تلك البلاد، وقد صنعوا في وسط المحل المخصوص بها صورة مجسمة من الحديد تُمثّل حصاناً وبيطاراً يُنعلهُ، وفي دائر هذه الصورة رسوم عملت من المسامير ليس إلاّ على شكل شموس، وأحرف كتابيّة، وصور أشخاص وأشياء مختلفة الأشكال. ثم من التجارات المهمة تجارة الفِراءِ الّتي تتخذ للتدفئة من جلود حيوانات البلاد كالأيّل والدُب.

أما التجارة البحريّة ومتعلقاتها ورسم أشكال سفنها المختلفة فقد أجادوا فيها، وأفادوا، وذلك لأن مَلاّحي النرويج يُعَدُّون من أعاظم ملاحي العالم، وسفن تجارتهم البحريّة كذلك، ومن ضمن ما استحضروهُ في هذا المعرض نموذج[1] لهذه السفن سفنٌ تُستعمل عندهم لصيد الحيتان الكبيرة الّتي يُؤخذ منها زيت كبد الحوت المشهور، واستغلال ذلك مهم في تجارتهم.

وقد حوى هذا المعرض غير ذلك كثيراً من الأصواف المختلفة الأشكال والصنع والألوان.

وبمناسبة ذكر معرض النرويج نذكر بعض كلمات عن (معرض السويد) وإن لم يكن محلهُ بسراي الصناعات المتنوعة، بل جُعل في حديقة شَان دُه

(1) في الأصل: «نموذجاً» المحرر.

مارس، بجوار البرج، وذلك أن أهل السويد لم يرغبوا الاشتراك رسمياً في هذا المعرض، كما قررت ذلك مجالسهم النيابيّة، خلافاً لما رآهُ إخوانهم النرويجيون من الاشتراك فيهِ، فاتفق بعض التجار من السويديين على عرض بضائعهم وصنائعهم في المعرض مع هذا، وعملوا محلاً من الخشب كالمعتاد في بلادهم مع الاعتناءِ والتحسين فيهِ، وجعلوهُ ذا طبقتين، وأحضروهُ قِطعاً منها، وركَّبوهُ في المعرض بجوار البرج، فجاء محلاً لطيفاً عرضوا فيهِ ما سنذكرهُ.

ولاشتراك النرويجيين في هذا المعرض وعدم اشتراك السويديين فيهِ حصلت يوم افتتاحهِ حَيْرَة لسفير الدولتين في باريس؛ فإنهُ واحد عنهما، وذلك أنهُ كان يلزمهُ باعتبارهِ نائباً عن حكومة النرويج الحضور في الاحتفال، وعدمهُ باعتبارهِ نائباً عن حكومة السويد، فبعد إمعان الفكر وتدقيق النظر لم يرَ للتخلص من هذه الحيرة إلا ادّعاءَ المرض وعدم الخروج في ذلك اليوم من دار سفارتهِ.

ولنرجع إلى ذكر ما في هذا المحل السويديّ، فقد رأينا في الطبقة الأرضيّة منهُ على اليمين الفِراءَ والأثواب المبطنة بها حَسَنةً في عملها وتنظيمها، وهي من صنع مدينة استكهلم عاصمة البلاد، وفي وسط هذا المحل رأس أيِّلٍ اشتهرت بعملها تلك البلاد لجَوْدة الفولاذ فيها، وفي غير هذا المحل معروضات المصنوعات وأدوات الحليّ قديمة وحديثة، عالية القيمة بالغة نهاية الإتقان، أما المحل المجاور لهذا فقد جُعِل على شكل محلات الصناع في تلك البلاد، في وسطهِ طاولة حولها أربعة من الصاغة يصوغون على حسب طريقتهم فيها تحت أعين الزائرين، وهذا المحل في غاية اللطافة مع كونهِ على سذاجتهِ.

أما الطبقة الّتي فوق الأرضيّة فقد اختص بها منشتو هذا المعرض اللطيف الذي يستدل منهُ على قوة السويديين في الصنائع، على قلة ما عرضوهُ من المصنوعات فإن القليل من الشيءِ عُنوان الكثير منهُ.

وانتقلنا بعد هذا إلى (معرض الصِّرْب)، وقد جُعلت وِجهتهُ على الطراز البلدي القديم في تلك البلاد، من حيث التركيب، والشكل، والهيئة، والألوان، واعتنى بهِ كل الاعتناءِ؛ فإن الحكومة الصربيّة من أول الحكومات الّتي رغبت الاشتراك في المعرض، فأقرت مجالسها النيابيّة على مائة ألف فرنك لهذا الغرض.

ويمتد هذا المعرض على أرض مسطحها 560 متراً، وجميع جدرانهِ من الداخل مغطاة بالبُسُط المشغولة في نفس البلاد من ألوان غاية في البهجة وكمال المناسبة، وقد انتخبتها اللجنة الّتي تكفَّلت بأمر المعرض كما انتخبت غيرها من المعروضات من أحسن مصنوعات البلاد.

وأول شيءٍ يستلفت الأنظار في هذا المعرض كثرة البرقوق الجافّ لشهرتهِ ولطفهِ، ويُرسل منهُ شيءٌ كثير جدّاً لسائر البلاد حتى لأميركا، وهو من أهم متاجر هذه الجهات.

ومما يستلفت الأنظار فيهِ أيضاً معروضات الجِعَة - البيرة - الّتي اشتهرت بطيبها، ويُرسل إلى الخارج منها شيءٌ كثير، ثم نموذجات الجوخ، وقد استحدث صنعهُ في هذه البلاد منذ عهد قريب على الطراز الإنجليزي مع رخص الثمن، ثم كثير من المعادن الساذجة والحبوب، ثم معرض الأسلحة، وقد دلت بكثرتها وتنوعها فيهِ على اعتناءِ هذا البلد بأمر أسلحتها، كما دل نظام هذا القسم على حسن سير هذه الجهة الحديثة العهد في التمدن والعمران.

ثم انتقلنا بعد هذا إلى (معرض اليابان)، وهي بلد شرقيّة أسرعت السير في سبيل التقدم الأوروبي فحصلت من محسّناتهِ وفوائدهِ على ما انتفعت منهُ كل النفع، وأتى عليها بكل فائدة وربح.

وقد اعتنت كل الاعتناءِ في أمر هذا المعرض لتثبت إلى الغرب تقدمها الغريب، مفتخرة بصنائعها الوطنيّة، وما أضافتهُ إليها من المحاسن الأوروبيّة، وفي أولها انتشار طرق التعليم، وتوسيع دائرة العرفان في سائر أنحائها.

وقد صرفت في سبيل إيجاد محل معرضها 650000 فرنك، وجعلت وجهتهُ على طراز عماراتها الوطنيّة، فإذا دخل الإنسان وجد بادئ بدءٍ عن يمينهِ بابين: أحدهما باب قصر من قصور الأمراءِ، وثانيهما باب معبد من المعابد الكبيرة، وعلى اليسار مدخل سراي من السرايات الإمبراطوريّة، ووجد بعد ذلك كل ما في القاعة الكبيرة من الزينة والزخرفة والسُقُف والأخشاب على النمط البلديّ، صُنع في البلاد، وركَّبَهُ ههنا عمال من الوطنيين، جعلوهُ في حالة الطُّلاوة التي هو بها الآن، حتى الأوراق اللطيفة المنقوشة الّتي غُطِّيت بها الجدران.

فإذا تأملنا المعروضات وجدنا ما يحار دونهُ البصر، ويندهش منهُ الفكر من الدواليب، وما صُف فيها من فاخرات الأشياءِ، ومن صنع الأخشاب ونقشها العجيب، ومن البُسُط وألوانها وكيفيّة إتقانها، ومن الفواصل البديعة الشكل والرسم المجعولة؛ لأن تفصل المحل الواحد إلى عدة حجر وقاعات، فضلاً عن أصناف الحاصلات من معدنيّة ونباتيّة، وعن أدوات التعليم التامة الإتقان البالغة حد النهاية الواصلة، غاية ما في وُسع الإنسان،

وعن أواني الصيني والفخار الّتي يعجز عن الإتيان بنظيرها أكبر البلاد في التمدن والحضارة، وغير ذلك من التحف والمعروضات والمصنوعات، وقد شغلت 1500 متر مربع واشترك فيها 596 من العارضين من تلك البلاد العجيبة السرعة في ارتقاءِ أَوْج الحضارة الأُوروبيّة.

ثم قصدنا بعد ذلك محل (المعروضات الروسيّة)، وهنا نُلاحظ أن الحكومة الروسيّة لم تشترك رسميّاً في المعرض أسوة كثير من الحكومات، ولم تقرر مساعدة ما لمن قاموا بِأَمرِهِ، وقد أحسنوا القيام بهذا الأَمر الخطير مع ذلك، وجمعوا نقوداً وافرة، وشادوا محلاً عظيماً يشغل أرضاً مساحتها 3200 متر مربع، واشترك في عرض مصنوعاتِهِ وبضائعهِ فيهِ أكثر من 500 شخص أو شركة.

وجعلوا وِجهة المحل على أَبهى شكل وأَجمل وضع، وشادوها على تقليد أَحسن العمارات الأثريّة القديمة الموجودة في مدينة موسكو، فجعلوا جِدَارها على هيئة جدار قصر كرِمْلِنْ، وشبابيكها على هيئة شبابيك قصر تهريم، وأبراجها على شكل أبراج كنيسة واسِيلي لاجِيني الكاتدرائيّة، وبرج أجراسها على شكل برج شوكَارِيف، وأَحد بابيها على مثال باب قصر كرملن، وبابها الثاني على مثال باب قصر واسيلي، وهيّأوا داخل المحل أحسن تهيئة فكسوهُ بالألوان الحمراءِ والزرقاءِ تتخللها شارات المملكة.

وليس في الإمكان الإحاطة بما في هذا المحل جميعهِ نظراً لكثرة من أرسلوا بضائعهم ولكثرة المصنوعات المعروضة، وإنما نذكر ما يستلفت منها النظر أكثر من غيرهِ، فنخص بالذكر المصوغات والحليّ المتخذة من الذهب والفضة المعمول منها على الأسلوب الجديد، وعلى الأُسلوب

الروميّ القديم، ثم الصنائع النسيجيّة بأصنافها من القطن والحرير، ثم الفِراء، ثم الجلود، ثم الزيوت المعدنيّة كزيوت النفط، خصوصاً زيوت البترول، وقد اتسعت دائرة استخراجها في بلاد روسيا الجنوبيّة اتساعاً عظيماً، ثم أصناف الدخان.

أما من جهة الحاصلات الغذائيّة فكثيرة أيضاً، منها الحبوب بأصنافها، وأصناف الدقيق والنشاءِ والزيوت والجبن والزبدة والفواكه المجفّفة، ثم المشروبات على اختلافها، من النبيذ المستخرج من كروم القرم الشهيرة، وغيرهِ من الأنبذة والأرواح المستخرجة من الحبوب.

وبجوار برج إيفل محل تابع لهذا المعرض، عُمل على هيئة مساكن فلاحي بلادهم، وفيهِ اثنا عشر صانعاً يصنعون بعض الأشياءِ والصور المتعلقة بالدين، وينقشونها أمام الزائرين.

فإذا ضممنا إلى ذلك المكان الذي بناهُ الموسيو جارنييه في سكة تاريخ السكنى، وقد خُصّص ببعض الصنائع المتعلقة بالغيطان والزراعة عندهم علمنا أهمية المعرض الروسي، وإن كان غير رسمي، ولم تشترك فيهِ الحكومة.

وسرنا من هذا المعرض إلى (معرض سِيَام) وقد احتفل مليكها بعرض سائر مصنوعات بلادهِ وحاصلاتها في محل جميع يشغل 250 متراً، شادهُ على مصاريفهِ رغبة في الاشتراك بهذا المعرض، وجعل وِجهتهُ على طراز عمارات بانْكُوكْ عاصمة بلادهِ، وطراز قصورها الملوكيّة ومعابدها الأثريّة، وجعل بالقرب من هذا المحل محلاً آخر يشغل مائة متر مربع في أوائل سكة مصر، بناهُ على طراز المساكن الوطنيّة ذات المظلات الواقية من حرارة الشمس.

وقد عُرِض في المحل الأَصلي جميع مصنوعات البلاد كما تقدم، وهي تروق الناظرين مع ما هي عليهِ في وضعها من عدم الترتيب لما فيها من النفائس وبدائع الصنائع، فهذه الملابس الملوكيّة بزركشتها وزخرفتها، وهذه ملابس غير الملوك من الرجال والنساءِ، وهذه الأَرْدِية المصنوعة من الحرير ذات الألوان البهجة، مطرزة برسوم الأزهار محلاة بالذهب والفضة على أَشكال لطيفة، وهذه الأَواني المصنوعة من النحاس وبجوارها محفَّات تستعملها تلك البلاد، ثم آلات الموسيقا الأهليّة بسائر أَصنافها على اختلاف أَشكالها، ثم عُدَد الخيول ولوازمها، وآلات الفرسان، ثم الأزهار المحفوظة، ثم المشروب المسمَّى كاوماك، وهو مشروب تلك البلاد يتخذ من الأُرز، إلى غير ذلك من المصنوعات والأَشياءِ الغريبة.

ثم تركنا هذا المحل إلى (معرض العجم)، وقد شيّد على مصاريف حكومة العجم، بالقرب من معرض مصر، وسكتها، ويشغل 375 متراً مربعاً، جُعلت وِجهتهُ على شكل وجهة جامع من جوامع طهران، وجُلِبَت إليهِ جميع أصناف المصنوعات الوطنيّة والحاصلات البلديّة من شيلان وسجاجيد على لطافة ألوانها وظرافة أشكالها، وسيوف وآلات وأسلحة وأَواني صينيّة، وغير ذلك كما عُرِضت فيهِ جميع حاصلات الأَرض الزراعيّة من حبوب وعقاقير وصموغ حتى الأَفيون، وجُعل في جهة منهُ مجموعتان اعتنى بهما اثنان من الفرنساويين، أَقاما مدة ببلاد العجم، فاشتملتا على جميع المصنوعات العجميّة القديمة من أَقمشة وصيني ونحاس، وتيسرت بواسطتهما المقابلة بين مصنوعات العجم القديمة وحاصلات صناعتها الحديثة.

ثم انتقلنا من هذا المحل إلى (معرض مَرّاكش)، وقد عرض بضائعهم فيهِ

نحو ستين شخصاً في نحو ألفي متر مربع، وهو عبارة عن قصر ملوكي وفسطاط بجوارهِ وسوق بالبعد عنهُ بأوائل سكة مصر كلٌ منهما على طراز مرّاكِشيّ.

أما القصر الملوكي فقد عرضت فيهِ المصنوعات الوطنيّة بأصنافها من بسط لطيفة وأسلحة محلاة بالذهب والفضة، وغير ذلك من المصنوعات الظريفة.

أما السوق المرّاكشي فجميع ما بهِ مُعرّضٌ للبيع بخلاف ما في القصر، وقد احتوى علي أشياء كثيرة من مصنوعات البلاد مثل أقمشة الصوف والحرير، والسجاجيد، ومنسوجات متعددة في الشكل والاستعمال، وكثير من الجلود المصنوعة، كالمخدات والمداسات المعروفة بالبُلغ، وكثير من النحاس المنقوش كالصواني وغيرها من الأواني، والخناجر والسكاكين المذهبة والمفضضة، وتجاه السوق محل أكل على الطراز المراكشي فيهِ من الموسيقا الأهليّة ما يسمُّونها بالنوبة.

ثم انتقلنا إلى شارع مصر، وقد مرّ الكلام عليهِ في أول أيام باريس، فلا حاجة إلي التكرار، ولا أُحب أن أتكلم على **(معرض مصر)**؛ إذ هو وإن شغل محلاً من الأرض مساحتهُ ثلاثة آلاف متر مربع، وصُرف عليهِ ستون ألف فرنك، واشترك فيهِ جماعة، واحتوى على بعض الحاصلات الوطنيّة، كالقطن، والحبوب، والعطريات، وبعض المصنوعات من السنّ، ومنسوجات الحرير، كالشاهي، والقطني، والمصنوعات البلديّة الذهبيّة والفضيّة، وكتب التعليم والتدريس، لكنهُ ليس هو نفسهُ، ولا ما بهِ، شيء[1] يستحق الذكر، فخالج نفسي استصغارهُ واحتقار ما فيهِ بالنِسبة إلى

---

(1) في الأصل: «شيئاً» المحرر.

ما رأيتهُ من المعارض المتقدمة، ولو أدْنَاهَا، وقد صُرفت عليها المصاريف الطائلة حتى من أهاليها، فإن حكوماتها لمَّا لم تشترك في معارضها شمَّرت الأهالي عن ساعد الجد والاجتهاد في تنظيم معارض لهم وتزيينها وزخرفتها، وعرض حاصلات بلادهم حسب الطاقة، لأجل اكتساب الشرف والذكر الحسَن والربح فيما يعرضونهُ.

وكنت أود أن يكون في بلادنا مثل هُولاءِ الأهلين أصحاب الهمم العالية، فإنَّ بلادنا بها من الأغنياءِ كثير، ولا عذر لهم في ترك هذه الفرصة بل في تركها اللائمة من سواهم ممن لا يبلغ درجتهم في الغنى، ولا شك أنهم لو بذلوا الهمة في هذا الأمر، لكانت حكومتنا أحبُّ ما عليها ذلك، ولكانت أكبر معين لهم في هذا الفخار الذي يُخلد الذكر، ويعلي القدر، ولمّا أهملوا هذا، وقام بهِ الأجانب جاءَ على حالة ليتها لم تكن، فكنت ترى محل المعرض المصري على اتساعهِ خالياً من الانتظام والزينة والزخرفة، كما هو خالٍ من جُل المعروضات المصريّة، وأجلّ الحاصلات الزراعيّة، والمصنوعات الأهليّة، ولا يتردد عليهِ الناس كما يترددون على سواهُ من المعارض، بل هو كالمحل المهجور الخالي ممن يُتأنس بهِ لقلة أهلهِ فيهِ، فتركتهُ مسرعاً، وترجيّت أن لا يكون بهِ اشتراك مرة ثانية إلاّ بحالة سارّة وعين قارّة، بحيث تكون لهُ مناسبة بالمعارض الأُخر، وتوجهت إلى سكة مصر وازدحامها وبائعيها وجَلَبتهم وحَمّاريها وغاغتهم، قاصداً بذلك صرف ما أهمَّني من احتباس الفكر وسوءِ التأثُرِ، فقضيت بها زمناً حتى تروَّحت نفسي، وفاءَ إليَّ حِسّي، ثم رجعنا إلى الفندق.

* * *

(اليوم السادس عشر في باريس)

ثامن يوم في المعرض

خَصَّصنا هذا النهار (يوم السبت 17 أُغسطس سنة 1889) بزيارة سراي الماكينات، واتفقنا مع صاحبنا جيجون بيك ناظر مدرسة الفنون والصنائع بمصر وقت ذاك على أن نجتمع فيها بمحل معلوم لنتفرج معهُ، حتى تسهل علينا معرفة ما احتوت عليهِ هذه السراي من بدائع الصنائع وتحف البدائع، فإن لهُ خبرة بها علماً وعملاً.

وكان هذا الصاحب ونحن معهُ بمصر أعطانا كتاباً لأَحد أصحابهِ من كبار المهندسين بباريس؛ ليصحبنا في هذه الزيارة، فلمّا تصادَف حضورهُ بباريس، ونحن بها صار لا لزوم لمصاحبة المهندس المومأ إليهِ، وكفى وجود صاحبنا معنا في التفهيم فاجتمعنا وابتدأنا في زيارة هذه السراي من مدخلها.

(مدخل السراي) - مدخلها من جهة سراي الصناعات المتنوعة دِهليز فسيح يفصلها عنها، تعلوهُ قبة بلُّوريّة في وسطهِ، مزينٌ كل منهما بكثير من الصور والنقوش والتماثيل، على هيئات لطيفة، وأشكال متنوعة، تمثّل قوى فرنسا الّتي عليها مدار أَعمالها من التجارة والفنون والعلوم والصنائع.

وبكلٍّ من جانبي هذا المدخل سُلَّم فاخر يصعد منهُ إلى مُرتفع - بالكون - مُشرف على سراي الماكينات بأكملها، ويتوصل منهُ إلى متسع دائر على حسبها، عُرض فيهِ كثير من المصنوعات الميكانيكيّة ومتعلقاتها، وقد صُرف في درابزين هذا السلم وحدهُ، وهو من الحديد مائة ألف فرنك،

وجُعلت جوانب جدرانهِ من البلور المنقوش بأحسن الصور والنقوش، وجُعِل في وسط الدهليز فسقيّة ماءٍ متقنة الصنع، تبلغ زنتها من الحديد والرصاص أربعين ألف كيلو جرام، وقد جُعل هذا الدهليز على حالةٍ آخذةٍ من سراي الصناعات المتنوعة زخرفها وزينتها، ومن سراي الماكينات حدائدها وصنائعها حتى لا يحصل الانتقال من الأولى إلى الثانية فجأة من أول وهلة بغير مناسبةٍ.

(تشييد هذه السراي) هي من أهم سرايات المعرض في بنائها، وفي اشتمالها على عجائب صنع الإنسان للآلات الميكانيكيّة، ولمّا دخلناها وصرنا تحت قواصرها الهائلة وأقواسها العالية ذَهِلْنا ودُهِشْنا؛ فإن أَبعادها لم يجترئ على عملها إنسان قبل هذا الأوان، وهي في بابها غريبة كغرابة برج إيفل في بابهِ، وذلك لأن عرضها 115 متراً، وطولها 420 متراً، وارتفاعها 48 متراً، فلو وُضع تحت سقفها عمود وَنْدُومْ لا يبلغ إلى ذروة تخاشيبها الحديديّة، وهي أشبه شيءٍ بسفينة ضخمة منعكسة في وضعها.

وإذا جمعنا المساحات الّتي تبلغها هذه السراي وأروقتها وجدناها تصل إلى عدد موجب للاستغراب، وهو ثمانون ألف متر مربع، وقد حُسِب ما تسعهُ من الجيوش لو نزلت فيها فوُجد أنها تسع جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف نفس، يمكنهم أن يناموا فيها مع الراحة، بحيث يكون للواحد منهم متران مربعان ونصف متر مربّع، وأنها تسع من 12 ألف حصان إلى 15 ألف لو وُضعت فيها مع مراعاة المسالك بين الخيل، وأنها تسع مع ذلك فرسانها بالأروقة مع الراحة في اليقظة والنوم.

ومما لابدّ من الالتفات إليهِ في تشييد هذه السراي المركبة من الحديد

شكل القواصر الحديديّة الّتي تكوّن منها هذا المكان البديع؛ فإنها جُعلت متعشقة ببعضها تعشقاً مُنْفصلياً في طرفها العلوي، وفي طرفيها الماسّين للأرض حول محاور جسيمة ضخمة، وكل واحدٍ من هذه القواصر زنتهُ مائتا ألف كيلو جرام، وهذا التعشُّق يمكّن القواصر من التمدّد الذي لا يتيسر في السُقُف العاديّة.

وإن عمارة مثل هذه لأعجوبةٌ في الصناعات من حيث الموازنة والمقاومة تشهد بفضل منشئها المسيودُوتيز المهندس المعماري، وتستوجب شكر من ساعدوهُ على تشييدها، وهي باعتبار أَبعادها العظيمة وسعتها الجسيمة تدلُّ دلالة واضحة على تقدم هذا العصر، ووصولهِ إلى ذروة الكمال بما كان لا يتصوّر من الإسراع، وعلى أن الصناعة الميكانيكيّة سارت في هذا العصر عصر البخار والسكك الحديديّة والكهرباءِ، على مَرْكَبةٍ من هذه القُوى أوصلتها في مسافة وجيزة إلى ما تراهُ في هذه السراي من الاعتبار، وما تشاهدهُ في معروضاتها من الكثرة والانتشار، حتى استوجب ذلك تشييداتهِ السراي الّتي لم يسبق لها مثيل في الاتساع، ولا نظير في الارتفاع، واستلزم توصيل القوة البخاريّة المحركة إلى الآلات الميكانيكيّة بها 5500 حصان بخاري.

(كيفيّة ترتيب الآلات الميكانيكيّة) هذه السراي مقسمة في اتجاهها العرضيّ إلى خانات منفصلة عن بعضها بماشٍ موازية للمحور الطولي للسراي. وقد خصصت فيها خانات الأَربعة بمماشٍ الوسطيّة بالآلات المتحرّكة بالفعل، أما الخانات الجانبيّة والخانات الّتي في دائر السراي، والّتي فوقها، فقد خصصت بالآلات غير المتحركة بالفعل، وباللكلوموتيڤات وغيرها مما لا حاجة إلى تحريكهِ الآن.

(كيفيّة توصيل الحركة للآلات) اتخذت لها الطريقة الآتية، وذلك أنَّ

صُفَّت صفوف ممتدة من عُمُد مصنوعة من الحديد الزهري، حُمِّلَت عليها أعتاب معدنيّة مجوّفة، وجُعل تحتها حمّالات جسيمة معدنيّة تمر من خلالها محاور محمّلة ببكرات، جُعلت لأن تمر عليها السيور الّتي توصل الحركة لجميع الآلات.

وهذه العمد متباعدة عن بعضها بقدر أَحد عشر متراً وعشرين سنتيمتراً، وهذا البعد العظيم هو السبب في جعل الأَعتاب الحديديّة المحمولة فوق هاتهِ العمد ذات جِرم عظيم.

(القنطرتان المتدحرجتان الكهربائِيّتَان) تتحرك عربتان كبيرتان من ذوات العجل فوق الأَعتاب الحديديّة الّتي ذكرناها، مدفوعتان بقوة الكهرباءِ المرسلة إليهما من ماكينات كهربائيّة وُضعت فوق أرض السراي، وهما القنطرتان المتدحرجتان الكهربائيتان، فتسيران من أَحد طرفي السراي إلى الطرف الآخر تحملان كثيراً من الزائرين مرتفعين عن الأَرض بمسافة سبعة أَمتار ليشاهدوا جميع الآلات الّتي تدور، والّتي لا تدور، فَيَا لِهَذا الأَمر من أَمر عجيب، ويا لمنظرٍ من منظر بهيج غريب!!.

(الآلات المحرّكة) عَدَدها اثنان وثلاثون متسلطة على آلات توصيل الحركة الّتي وصفناها، منها مُحرّك غازي قوتهُ مائة حِصان، وبجوارهِ آخر غازي أيضاً قوتهُ خمسون، والباقيات بخاريّة.

وينبغي أن يذكر هنا أن المحركات الغازيّة منذ سنين قليلة كانت من قبيل المستحدثات الغريبة، فأُخذت في التقدم حتى وصلت إلى ما هي عليهِ الآن، وكان يُظن أَن ظهور الكهرباءِ يُعطّل هذا المخترع، ويجعلهُ عديم الجدوى، ولكن صار الحال خلاف ذلك، فإن هاته المحركات الغازيّة استعملت هي

نفسها لإيجاد القوة المحركة الّتي بواسطتها تتولد الكهرباءُ. وهذه الآلات المحركة الغازيّة كان ظهورها في معرض سنة 1867، حيث عرض منها فيهِ خمس آلات، قوة جميعها تسعة أحصنة بخاريّة.

(الأنوار الكهربائيّة) جُعل في وسط هذه السراي فنار كهربائي من الطبقة الأولى، يُضيءُ كل يوم بعد غروب الشمس، وجَعل إيدِزُون الشهير في معرضهِ الذي بهذهِ السراي، فناراً كهربائياً في ذروتهِ أنوار كهربائيّة قوتها عشرون ألف لامبة، بحيث إن ما بهذين الفنارين من الأنوار لو وُزّع لكفى لإنارة إقليم بتمامِهِ؛ ولذلك ترى الليل في هذه السراي الفاخرة ربما كان أشد نوراً من النهار وعلى كل حال لا يقلُّ عنهُ.

(كيفيّة توزيع المعروضات بهذه السراي) لم تَسَع هذه السراي على اتساعها الذي علمناهُ كافة معروضات القسم السادس الّتي خصصت بهِ، وهو قسم آلات الفنون الميكانيكيّة، وكيفيات استعمالها، والكهرباءِ، فاضطروا إلى أن يجعلوا بعض متعلقات هذا القسم خارجاً عنها فجعلوا الآلات الزراعيّة في قاعات بقسم كِيه دُورْسِي من أقسام المعرض بجوار النهر، وأرسلوا إليها القوة المحرّكة اللازمة لإدارتها من الآلات المحركة لما بهذه السراي بواسطة سلك من سلوك الكهرباءِ مارّ من أول طرف المعرض إلى آخر طرف منهُ، فانظر كيف وَصّلوا هذه القوة مع البعد الكثير، منقولة على سلك من حديد لتُحرّك هذه الآلات الزراعيّة العديدة، وتعجّبْ من وصول هؤُلاءِ إلى هذا الحد من المعرفة، وإتقان العمل بهممهم العالية، وقارن بين حالهم وحال من غلب عليهِ الكسل والتهاون في الأمور المهمة الموجبة للغنى والثروة تعلم الفرق بين الحالتين.

وجعلوا عرباتِ الركوب وعرباتِ النقل في سراي الصناعات المتنوعة،

ومتعلقات الصحة العموميّة ومساعدة المُغوزِين، وأدوات السباحة، وتخليص الغرقى، والأدوات الحربيّة في قسم إسْپلاَناد دِيزَنڤالِيد.

وقد ابتدأنا في التفرج بهذه السراي على أقسام المعروضات الأجنبيّة.

(قسم سويسره) وقد اعتنى بهِ كل الاعتناء، فإن السويسره الآن معدودة صنائعها الميكانيكيّة في عِداد أحسن صنائع العالم، وقد ساعدها على ذلك وضع أرضها الطوپوغرافي فإنهُ أفادها الانتفاع بقوة سقوط المياه، وكثيراً ما رأينا في هذا القسم آلات مختلفة المنافع جُعِلت للانتفاع بهذه القُوى الأيدروليكيّة، بتحويلها إلى قُوى ميكانيكيّة وقُوى كهربائيّة، ورأينا آلات متعددة للنسيج والغزل وآلات بخاريّة اشتهرت تلك البلاد بإحكام صماماتها، وكثيراً من الآلات اليدويّة السهلة المنال، وغيرها من الآلات الكهربائيّة المستعملة في كثير من المعامل الشهيرة، وكثيراً من طواحين زُوريكْ الشهيرة، ورأينا معامل الكاغد ولوازمها، ونموذجاً من الآلات العديمة المثال الّتي استخرج بها الماء على عمق 500 متر من جهة شُوده فُونْ كل ذلك من الدلائل الماديّة على تقدم هذه البلاد في الميكانيكة.

(قسم بلجيكا) احتوى على كثير من الآلات المهمة، مثل الآلات النافخة المجعولة لتجديد الهواءِ في آبار استخراج المعادن، وآلات النسيج، والآلات البخاريّة بأصنافها، والآلات الكهربائيّة، والأدوات المستعملة لعمل الأوراق، وماكينات عمل ظروف المكاتيب، وماكينات عمل الثلج، وغير ذلك من أصناف الآلات، كلها بالطبقة الأرضيّة، ووجدنا بالممشى العليا فابريقات عمل الحِبال للسفن، ومعرض المعادن ومعرض صناعة الخراطيش، وماكينات الجَدْل، وغير ذلك من الماكينات والآلات.

(قسم الولايات المتحدة بأمريكا) وقد أبدع فيهِ منشئوهُ فوضعوا فيهِ الكثير من الآلات الغريبة والأدوات العجيبة، ولا بدع فإن هذه البلاد أمّ العجائب والاختراعات، حتى كأن أهليها من كثرة اشتغالهم بإيجاد الأشياءِ النافعة والاختراعات المفيدة غير متوافرة لهم الأوقات اللازمة لطِلاءِ الآلات، وتحسين جِلائها من الظاهر، فآلاتهم أقل حسناً في المنظر الظاهريّ من آلات غيرهم، ولكنها من جهة الغرض المقصود منها والمتانة والإتقان تفوق كثيراً من غيرها المصنوع في بلاد أُخرى بشهادة أهل الفن أنفسهم.

وقد شمل هذا المعرض، غير الماكينات الكبيرة، كثيراً من العُدد اليدويّة والآلات العمليّة المنزلية، ولكن أبهى ما فيهِ وأزهاهُ وأعظمهُ وأعلاهُ معرض **الكهرباءِ**.

وجدير ببلاد منها إيديزُون أن تحتفل بالكهرباءِ أكثر من غيرها، ويحق لهذا العالم الفاضل أن يظهر جميع ما عندهُ حتى ترى الأُمم المجتمعة بهذا السوق العام من جميع أنحاءِ المسكونة تفاصيل أعمالهِ وجميع مخترعاتهِ، وقد كان، فإنهُ صار الاعتناءُ بتشييد معرض موجوداتهِ كل الاعتناءِ، وجُلب إليهِ منها جميع ما لزم، فشغل أرضاً مسطحها 675 متراً - على أن أرض سراي الماكينات هذه لو كان ما يوضع فيها من المعروضات بحسب الشهرة لما وُضع فيها غير معروضاتهِ - وصُرف على هذا المعرض وحدهُ في التنظيم والترتيب والإيجاد والتشييد أربعمائة ألف فرنك، حتى صار على الحالة الّتي رآهُ الناس عليها، وقد وضعوا بأعلاهُ صورة إيديزُون مجسّمة، كأنما هو ينظر إلى الناس من إحدى نوافذ المكان الذي بَنَوْهُ لمعروضاتهِ، وهذه النافذة تحت النور الكهربائي العظيم الذي سبق التنبيه عليهِ.

أما ما حواهُ معرض هذا الأستاذ من الآثار فلا سبيل إلى استيفاءِ توضيحهِ والوقوف على صريحهِ؛ لأنهُ أَمر يحتاج إلى معرفة الطرق الكهربائيّة بأَجمعها، وإمكان الفرق بينها والتفضيل لا يكون إلاّ بمعرفة ذلك على التفصيل، ولكن نذكر لك ما استقلت نظرنا إليهِ صاحبنا الذي معنا من آلات الفُونُوجراف الجديدة، وهي الّتي كلّمت مكاتبي جرائد العالم أَجمع يوم افتتاح المعرض الرسمي، فتكلمت عنها جرائد العالم كلها من ذلك الحين، وقد احتوى هذا المعرض على تاريخ مخترعات هذا الفاضل في التلغراف والتليفون، وفي اللمبات العظيمة الضوءِ، بحيث يعلم منهُ كيف كان الاختراع في أَولهِ، وكيف تدرّج في التحسين حتى صار إلى أَنفع وأَحسن، وكيف ترقّى في ذلك حتى صار إلى ما هو عليه الآن، مما يدلكَ على إمكان التحسين في المستقبل زيادة على ذلك، وإن كان العقل لا يتصور أَن في الإمكان أَحسن مما يرى الآن، هذا وأنا نريدُ أن نحيطكَ علماً قبل مفارقة هذا المكان باختراع حديث لهذا الرجل العظيم رأَيناهُ فيهِ، وهو آلة مغناطيسيّة جُعلت لفصل المعادن الساذَجَة عما خالطها من غيرها بكل سُهولة، بعد أن كان ذلك في المعادن من أصعب العمليات وأكثرها مشقة ومصرفاً، ومما وَعيْناهُ من غرائب، ما رأَيناهُ أنموذج ترتيب الكهرباءِ في بلد تمر أدواتها تحت الأَرض فيها بجميع ما يلزم لذلك من اللوازم والمعدات والأَدوات.

ولم تقتصر مع هذا معروضات أمريكا الكهربائيّة، وهي بلد الكهرباءِ على أشغال الأستاذ إِيدِيزُون، بل عرض غيرهُ من الأَساتذة المكتشفين أَعمالهم بجوارهِ، فعرضت قومبانية تُومْسُون هُوسْتُونْ ماكيناتها الكهربائيّة العظيمة، وعرضت شركة غيرها الماكينات الّتي أَوجدتها لِلِحام المعادن بالكهرباءِ، وعرضت كومبانيّة تلفون بِيلْ تليفوناتها الشهيرة وعرض الأستاذ إِلِيُوتُومْسُون

عملاً غاية في الغرابة ونهاية في الإعجاب، وهو حِلْقَةٌ من النحاس الأصم قطرها خمسة عشر سنتيمتراً، واقفة وحدها في الهواءِ بدون أدنى تعليق بل بواسط دفع كهربائي بسيط.

ورأينا بعدُ (قسم إنجلتره) المشهورة بإتقان الآلات ومتانتها وتحسينها مع صلابتها، جمع فأوعى من الآلات المشيدة، والعُدد اليدويّة العديدة، مستكملة الإحكام، كاملة النظام والمحركات العظيمة والآلات الميكانيكيّة الفخيمة الّتي تأخذ بالأبصار، وتقضي بالاعتبار، وتدل على رسوخ قدم هذه الأمّة في العرفان.

وقد فرغنا من المعارض الأجنبيّة بهذا المعرض، فلنختم هذا اليوم (بالمعروضات الفرنساوية) في هذه السراي، ونذكر منها ما استلفت منا النظر أكثر من غيرهِ بقدر الإمكان.

فهذا معرض آلات صناعة الورق والصباغة والطباعة احتوى على كاغدخانة مكملة، تأخذ المواد الأصليّة الّتي يُصنع منها الورق، وتعمل فيها ما يلزم حتى تُصيّرها ورقاً من سائر الأشكال، بحيث لو مشى المتفرج مع المادة الأصليّة، وتتبع سيرها لَوَصَل في لمحة بصر إلى رؤيتها متحوّلة إلى أوراق بديعة الأشكال، وقد صعدنا إلى بعض الأجهزة الموضوعة في الأعلى على طبقة من الألواح الحديديّة، ونزلنا منها إلى باقي الأجهزة الموضوعة على الأرض، وأفهمنا من تكلّف بإدارتها بسائر حركاتها وإجراءاتها، حتى إنهُ أعطانا بعض أوراقها الّتي صنعتها أمامنا.

وبجوار هذه الكاغدخانة معرض المطابع، وأهم ما فيهُ المطبعة المعروفة باسم مارِينُوني الّتي طار صيتها، وذاعت سمعتها، واستعملت في سائر البلدان، فوجدناها تطبع من جريدة پتي جُورْنال الجرنال الصغير - الآلاف

في لمح البصر، فتُعطى لمن بالمعرض مجاناً، فأخذنا نسخة منها مؤرخة بتاريخ هذا النهار - 17 أغسطس سنة 1889 -، فوجدناها محتوية على أخبارها المعتادة، واستخلصنا من الفصل المتعلق منها بالمعرض أن عدد الّذين دخلوهُ في يوم 15 أغسطس سنة 1889 بدفع نقود 249123 شخصاً، وأن ولي عهد تونس حضر بالأمس وزارةُ رسميّاً.

ومما بهذا القسم أيضاً مواد الطبع بأكملها وسائر أصنافها، وماكينات اخترعت لعمل أوراق السجائر، فتصنع منها الآلاف في أقرب من رجع النفَس، وقد أجمع على استحسان أوراقها شاربو الدخان، وتكاثروا على التفرُّج عليها فلم نتبعهم في ذلك؛ إذ قد منَّ علينا المولى بترك شربهِ والتخلص من شرورهِ وأضرارهِ، فوجدتُ في هذا الترك من اعتدال الصحة، ما صيَّرني أكره كل ما يُستعمل في صنف هذا النبات المضر بالصحة بإجماع الأطباءِ واتفاق العقلاءِ، وأوَّلهم شاربوه.

وهذا قسم المعامل الزراعيّة والصنائع الغذائيّة جمع كثيراً من الآلات والأدوات النافعة للنوع البشري الّتي لا يكاد أن يستغني عنها، فبهِ الطواحين بأشكالها من ذوات الأحجار، وذوات الأسطوانات، تفرجنا على كيفيّة طحنها وشاهدنا آلات التقطير بأصنافها وأشكالها مشتغلة بأعمالها، ورأينا فابريقةً لتكرير السكر كاملة مستكملة، عرضتها شركة فيف ليلْ، وهي الّتي صنعت كوبري قصر النيل عندنا، وأطلعنا على ما عرضتهُ إحدى الشركات من الآلات الزراعيّة والأدوات الغيطيّة كاملة الإتقان محكمة النظام.

وهذا قسم استخراج المعادن وكيفيّة صناعتها وتشغيلها، جُلبت إليهِ جميع أدوات استخراج معادن الفحم الحجري وآلاتهِ، واستحضرت فيهِ عربة مملوءَةً[1]

(1) في الأصل: «مملؤة» المحرر.

بالفحم كالّتي تستعمل في المعادن للشحن والتفريغ، وهُيئت فيهِ بئر على الهيئة الطبيعيّة الّتي تكون عليها حال الاستغلال منها، على قدر نصف حجمها الطبيعي، ورأينا فوهة البئر مع أقفاصها الحديديّة، وماكيناتها اللازمة لتشغيل من يعمل بها، ومواسيرها الضروريّة لها، ورأينا كيفيّة بنائها على شكل يأمن بهِ النازل فيها من الأخطار والأضرار الّتي تنجم عن سقوط الجروف وانهيارها.

وعرضت شركة أَنزان الفحميّة ما كانت عليهِ أبنيتها على مسافة مائة سنة، فأَرَتْنا عشوشها سنة 1789 المتخذة من أخشاب الأشجار، وأبنيتها سنة 1889 المعمولة بالآجر، جيدة البناءِ فرأينا فرق تقدم الأيام حتى في محلات استغلال الفحوم، وكيف انتقلت من حالة الأكواخ إلى هيئة القصور.

وعرضت شركة لُوَازْ هيئة الطبقات الفحميّة الحجريّة مصفوفة بعضها فوق بعض في الصخور، وفي بئر شهيرة عندها ببعد العمق، يبلغ الآن 530 متراً، وسيزداد انخفاضاً كلما استمر استغلالها.

وهذه البئر نظيرة برج إيفل في مطلق الامتداد، اللّهمّ إلاّ إن هذا امتدادهُ من الأرض إلى أعلى، وهذه امتدادها من الأرض إلى إسفل، على أنهما يستويان بالنسبة لمن على الأرض في البرج، ويريد الصعود، ولمن في قاع البئر يريد الخروج، فعلى الّذين يهولهم طلوع البرج أن يفتكروا في هؤلاءِ الّذين يعملون في استخراج هذا المعدن، فيهون عليهم طلوعهم لهذا المكان الرحب، حيث يرون في خلالهِ المناظر الحسنة والأشكال المختلفة في الصعود أو الهبوط بخلاف هؤلاءِ فإنهم لا يرون إلاّ الفحم وسوادهُ في مسافة تقرب من ضعف مسافة البرج، لما تقدم من ذكر أبعادهما.

وإذ كنا في هذا المكان نظرنا من الباب الّذي بجوارنا وإذا به يوصل إلى

حيث الأفران الجسيمة، الّتي جُعلت لتسخين القزانات الضخمة المعدة للبخار اللازم لتحريك جميع هذه العُدد والآلات الّتي رأيناها في المعرض، فتفرجنا عليها، ثم دخلنا السراي ثانياً وقصدنا، (قسم الكهرباءِ).

وقد احتوى من البدائع وغرائب الصنائع ما جعلنا نقف عندهُ، ولا نتعدى حدَّهُ مع ما رأيناهُ بالفصل الأميركي من العجائب الّتي ذكرناها، فأخذ صاحبنا يستلفت نظرنا إلى الأجهزة الكهربائيّة المحسّنة والآلات واللمبات العظيمة، والمحرّكات الّتي تتحرك بالهواءِ المنضغط، والماكينات المغناطيسيّة الكهربائية الّتي تُستعمل في الفنارات العظيمة الارتفاع، والعيّارات الكهربائيّة، فضلاً عن أجهزة التليفون والتلغراف بأشكالها وأصنافها.

ثم استلفت صاحبنا نظرنا إلى ما عرضهُ بيت كِرِسْتُوفْل الشهير بعمل أواني المائدة المطلية بالفضة بواسطة الكهرباءِ، وبمناسبتها صار يُطلعنا على ما وصل إليهِ فن الطلاءِ بالكهربائيّة - جُلْوَانُوبلاستي - من غرائب الصناعة وبدائعها.

ثم أرانا الساعات والأجراس والنواقيس الكهربائيّة وغيرها من الآلات الكهربائيّة المعدة لإنارة قاع البحر للغوّاصين، وقاع الآبار المعدنيّة للعمال، إلى غير ذلك من لوازم الكهرباءِ، حتى سلوكها وحبالها.

ثم انتقلنا إلى قسم أدوات عمل أثاثات المنازل، وقد جمع سائر الآلات والماكينات اللازمة لعمل ما رأيناهُ في سراي الصناعات المتنوعة، من التحف المصنوعة من أصناف الخشب والأبنوس، فيُكْتَفَى في عملها بوضعها على ما يطلب من الخشب، فيحصل ما يراد منها بغاية السهولة، وهذه غير الآلات الّتي تستعمل لضم قطع الأخشاب المتفرقة إلى بعضها، والّتي تُستعمل لِطلاءِ الأخشاب بالبويات المختلفة.

وانتقلنا إلى قسم أدوات الفنون الكيماوية، فعرفنا منهُ لوازم معامل الغاز وآلات صناعة الشموع، ثم رأينا فيهِ ما لا يُحْصَى من أدوات الأَجهزة الكيماويّة، وآلات كثيرة تختلف بحسب الطرق المستعملة في تجهيز الجلود، وجعلها على الهيئات اللطيفة الّتي تكون عليها في المصنوعات.

ثم إلى قسم أَدوات النسيج وكيفياتهِ، فرأَينا فيهِ كل آلة، وما جُعلت لهُ من المنسوجات اللطيفة كالبسط الظريفة، والشاش الخفيف بأَشكالهِ، والدانتيلات الرفيعة بأَصنافها، ورأينا من عمل الآلات، ما هو كالسحر في السرعة والغرابة، وما لا يُتصور صدورهُ عن آلةٍ صماءَ لولا الحِس والمشاهدة.

ثم إلى قسم أدوات الخياطة وعمل الملابس، وقد جمع ما يلزم من معدات الخياطة والتطريز وآلاتهما، ومن الآلات المجعولة لتسمير الأَحذية وخياطتها، ومن المخصصة بتفصيل الأَقمشة والجلود للوازم الأَحذية والأَلبسة.

ثم إلى قسم أدوات السكك الحديديّة، وقد اشتمل على سائر الأدوات الثابتة كالشرائط والبلنجات وغيرهما، وعلى غير الثابتة كالعربات المستعملة في فرنسا والخارج، وكثير من الوابورات - لُوكُومُوتِيف - المعدة لجر العربات على أشكالها المتفاوتة في الصغر والكبر.

ثم إلى قسم الآلات اليدويّة، وهي مختلفة الأَشكال والأَصناف بحسب اختلاف الحاجات والمواد، بحيث لا يدخل فيها شيء من المعادن والمواد، إلّا ويخرج منها مصنوعاً مبروداً منشوراً مبرشماً مدموغاً، مهيئاً لما يُستعمل فيهِ بعد أن كان ساذجاً، وبهذا القسم كثير من المخارط والسندالات وآلات الثقب، وقد رأَيناها تثقب الحدائد الغليظة بغاية السهولة دون إِجْهادٍ بحيث

لا يلزم لها سوى إدارة العامل، وهي تعمل تحت طوعهِ ما يلزم من الأعمال كباقي الآلات اليدوية بهذا القسم.

ومما يُلحق بهذا القسم الآلات المائيّة الّتي تدور بضغط الماءِ، وقد جُعلت لبرشمة الحدائد، فتراها تُدخل فيها المسمار بعد المسمار على حسب رغبة العامل، كأنما يخيط ثوباً من القماش بهذه المسامير، ولا تسمع لذلك صوتاً بخلاف ما هو معلوم في دق المسامير عندنا، فإنك تسمع لذلك أصواتاً مزعجة مفزعة، ولا خفاء ما في هذه الآلات من راحة العمال، والتسهيل عليهم، فضلاً عما في ذلك من السرعة.

ثم انتقلنا إلى قسم أدوات الغزل وعمل الحبال، وقد جمع ما يلزم لذلك من الأدوات العديدة، من حين كون المادة على حالتها الأصليّة إلى حين أن تكون خيطاً أو حبلاً على الهيئة المطلوبة، فرأينا الحبال المستديرة والمفرطحة والخيوط نباتياً كان كل منها أو معدنياً تُعمل بغاية السرعة.

ثم إلى قسم الآلات المتنوعة، وقد جمع ماكينات كثيرة لعمل أشياء كثيرة بطرق سهلة فمنها ما هو لعمل الأزرار وريش الكتابة والدبابيس وظروف المكاتيب والفُرَش المجعولة لتنظيف الملابس والرأس وغيرهما، ومنها ما هو لسد زجاجات الأشربة المحكم، وفيها ماكينات عظيمة لتجليد الكتب، وماكينات للكتابة بأشكالها المختلفة، وماكينات لعمل السجاير، وغير ذلك من الماكينات اللازمة لاحتياجات الإنسان على اختلافها.

ويا حبذا أن لو انتُخِب من هذا القسم وقسم الآلات اليدويّة ما يكون بهِ النفع والتسهيل وجُلِب إلى بلادنا، لا سيما أن جُلَّ هذه الآلات يُدار باليد، فتكون بأثمان غير عالية، وتغني عن الأتعاب والمشقات، وتوجب تخفيف

الأجَر، وهذه ماكينات الخياطة من يوم أُدخِلَت مصر، سهّلت أمر خياط الملابس، وخففت أُجرتها، ولا شك أن مثلها من الآلات النافعة لو أدخل في بلادنا واستعمل فيها لنفع نفعاً كثيراً.

ثم انتقلنا إلى قسم أدوات الهندسة المدنيّة والأشغال العموميّة والعمارة، وقد جمع كل ما يلزم للعمارة والبناءِ من صخر وخشب وجير وطين وإسمنت وأحجار طبيعيّة وصناعيّة، وخراسان وآجُرٍ، وأردُوَاز، وغير ذلك من المواد الأوليّة، ثم ما يستعمل لزيادة قوة هذه المواد ومتانتها، ثم الآلات الّتي يستعملها المهندسون لاختبار هذه المواد ومعرفة حقيقتها، ثم آلات الحفر والردم فرأينا الحفّارات البخاريّة وغير البخاريّة تعمل الواحدة منها عمل جم غفير من بني آدم، وهي أشبه بكراكات كبيرة أرضيّة ذات صناديق لنقل التراب، وذات مخالب لتحريك الأحجار، ورفعها، ثم أدوات قطع الأحجار من الجبل، ونحتها وبنائها، وآلات النجارة والأقفال، وتركيب الزجاج والنقش والسبك، ثم الآلات المستعملة في الأبنية البحريّة، كأبنية الأرصفة والفنارات إلى غير ذلك، مما يدل أوضح دلالة على تقدم فن الهندسة المدنيّة عندهم. ألا ترى برج إيفل الذي لم يسبق لهُ مثال ولا نُسج لهُ على منوال، فإنّه يلغ في العظم والمتانة والارتفاع حدّاً ما كان يخطر بالبال، وألا ترى هذه السراي، فإنها بلغت حد الكمال في الاتساع والعظم، وحسن الأوضاع والأشكال، وما ذلك إلّا من تقدم هذا الفن، ويُرجى لهُ الزيادة فيما يستقبل من الزمان.

هذا وقبل مفارقتنا لهذه السراي، أقص عليك بمناسبة ذكر الماكينات بناة آلةٍ ميكانيكيّة فجاءت أصغر ماكينات العالم أجمع، وذلك أن زنتها ثلاث جرامات، وارتفاعها سنتيمتر ونصف، وعدد قطعها 180 قطعة استغرق هذا

الصانع في عملها سنتين، وتدور بالبخار المتحصل من بعض نقط من الماءِ.

وقد قرأت هذه العبارة في إحدى الجرائد مدة إقامتي بباريس، وأخذت بها مذكرة ضمن مذكراتي لأتفرج عليها في المعرض، ولكنني من سوءِ الحظ نسيت ذلك حتى بارحنا باريس، فلا أدري أهذا النبأُ صحيح أم لا، فإن وقفتَ على صحتهِ أنت أيها الصاحب القارئ فاكتبْ لي بما تقفُ عليهِ.

ثم فارقنا هذه السراي، وكان قد دخل الليل.

* * *

(اليوم السابع عشر في باريس)

تاسع يوم في المعرض

هذا هو آخر يوم في المعرض وقبل آخر يوم بباريس (يوم الأحد 18 أُغسطس سنة 1889) وقد خصصناهُ بما بقي علينا من أقسام هذا المعرض، وهما قسما كِيه دُورسِي (رصيف أُورسي) واسْپلانَاذ دِيزَنڤاليد (ساحة دار العواجز) ويمتد القسم الأول من حيث جهة شان دُه مارْس بطول شاطىءِ نهر السين إلى الساحة المذكورة، ويمتد الثاني في الساحة الفاصلة بين دار العواجز المتقاعدين، وقد سبق ذكرها قبل الآن، وبين نهر السين، فابتدأْنا في زيارتنا هذه مبكّرين من أول النهار لننتهي من قسم كِيه دُورسي، ومن بعض القسم الثاني في أول النهار، وننتظر صاحبنا جيجون بيك فيهِ بعض الظهر بساعة واحدة عند باب عيَّناهُ، فنتفرَّج معهُ على سكة الحديد الانزلاقية الّتي سيأْتي عليك وصفها، ثم يبارحنا، ونستمر في باقي ما قصدناهُ.

وأول شيء صادفناهُ في قسم كِيه دورسي معرض الأشياءِ البحريّة والنهريّة، وقد استجمع كل السفن وسائر أصنافها وأشكالها وأَلوانها، واحتوى على آلات الإِنقاذ والتخليص من البحر وغرقهِ، والنهر وطوارئه، مع تعدد الأشكال، كل على حسَب ما أُعدت هي لهُ من الأَحوال والأَهوال.

وانتقلنا بعد ذلك إلى (سراي الأَغذية)، وهي بناءٌ مشيد ذو طبقتين، مسطح الواحدة منهما 8000 متر مربع، غير طبقة أَرضيّة تحتهما، وقد احتوت هذه السراي الفاخرة على جميع أَصنافِ الأَغذية من مأكول

ومشروب، وجُعلت الطبقة الأرضيّة منها لعرض الأنبذة وسائر المشروبات، والأولى قُسّمت قسمين: أولهما: لعرض بعض الأغذية واستذواقها، وثانيهما: لصنع هذه الأغذية وتجهيزها أمام الجمهور، فتنتقل من حالتها الأولى إلى الحالة التي تُؤكل عليها، والطبقة الثانية جُعلت مع القسم الأول من الأولى لعرض باقي الأطعمة والأغذية.

وقبل أن يصل الزائر إلى مدخل هذه السراي يمر ببستان متسع احتوى على سائر أصناف الكرم، وما يلزم لها من الأدوات، ولِجَني قطوفها من المقصّات وغيرها من الآلات البستانيّة، ويجد بقرب باب المدخل بَرْميلين عظيمين: أحدهما مستدير يسع 600 هيكتولتراً، وثانيهما: بيضاوي الشكل يسع 275 هيكتولتراً، فكأنما يُذَكّران أحباب الكروم بأن ما يحويانهِ هو المقصود بالذات من كل هذه الغراس وهذه الأدوات والآلات.

فإن أنت دخلتَ السراي صادفتَ ما يبهر العقل، ويدهش البصر، من حسن الترتيب وتمام التهذيب، والتزام المستحسن من كل وجه، ولم يقتصر فيها على عرض الحاصلات الغذائيّة مرتبة موضوعة في القناني والسبتات، مصفوفة في الصفائح والغلافات، مكتوباً عليها أسماءُ الصنف والصانع، والبلد، وإلى غير ذلك، بل ترى فيها المواد الأصليّة لهذه الأطعمة، وترى بعيني رأسك كيف تُصنع وتُجهز وتُحسن وتُنجز، يصنعها أمامك أمهر الصناع، فتأكل منها أو تأخذ لنفسك ما أردتَ بالشراءِ، وترى فيها المربيات والحلواء، وسائر الأطعمة والمشروبات الحلال، فتذوق منها ما تشتهي بعد دفع ثمن ما تذوقه، وترى من المشروبات غير الحلال ما يتباهي أصحابهُ فيهِ بالقِدَم، وحسن الصنع، ولطيف الذوق، وتمام اللذة، ومزيد الصفاءِ.

ولْنَبْدأ بالطبقة الأرضيّة لأنها أول ما يُدخَل إليه، فنذكر أكبر ما رأيْناهُ فيها، وهو برميل عظيم زنة 20000 كيلوجرام ويسع 1500 هيكتولتر مملوءة بالشمپانية، قد أُحضر من تلك البلاد على عربة مخصوصة، يجرها اثنا عشر زوجاً من الثيران، يمكن خمسة عشر شخصاً أن يجلسوا فيه، ويأكلوا قبل أن يُملأ بغاية الراحة، ولا نتعرض لتفصيل ما حوتهُ هاتهِ الطبقة الأَرضيّة من أَصناف الأنبذة والجعة وغيرها من المشروبات فإن هذا أمر لا يُهم الكثير من مطالعي هذه الرحلة وإنما نذكر ما استلفت نظرنا فيها، وهو كيفيّة عمل المشروب المسمى شمپانية، منذ غرس كرمها إلى أن صارت في زجاجة معدة للشرب، اعتنى بها بطريقة الرسم الناتىءِ على خريطة بعضُ ذوي الإلمام، مستعيناً على تفهيم ذلك بالتعبيرات الكتابيّة حسب ما اقتضاه الحال، فأبان الأمر في ذلك من حين غرس الكرم، حتى تُجْنَى قطوفهُ، ثم صَوَّر بطريق التجسيم المحلات والأدوات الّتي تُستعمل لصنعَ الكرم، حتى يتحول إلى النبيذ المعلوم من طرق التخمير، والتجهيز، وتَغالى في البيان إلى أن صوَّر في تلك المحلات رجالاً من الشمع مُجَسَّمِين على العُشْرِ من الرجال الحقيقيين، يعملون الأعمال اللازمة لهذا المشروب، إلى أن يصير بالحالة المعلومة. هذا ومما استلفت نظرنا أيضاً في هذا القسم ما رأيناهُ من الاعتناءِ بأمر الزجاج الذي توضع فيهُ الأَشربة، واختلاف أَشكالهِ وألوانهِ وأحجامهِ، بحسب اختلاف أصناف الشرب، حتى جمعوا القديم وشكّلوا منهُ مجموعة عديمة النظير، حوت من الزجاج ما تصل نسبتهُ إلى زمن الملك لويس الخامس عشر.

ثم بعد تفرجنا في هذه الطبقة صعدنا إلى الأُولى الّتي فوقها، فدخلنا قاعة عمل الأَغذية، وتفرجنا فيها على صناعة خبز البسكويت والفطير بعد أن رأينا

طريقة عجن ذلك وتجهيزهِ للخبز، وهذا كلهُ بواسطة الآلات الميكانيكيّة، فوجدنا إناءً يسع 2000 كيلو جرام من العجين، تقلبهُ فيهِ محرّكات من الحديد، ثم ينتقل العجين منهُ بآلات إلى ماكينة أُخرى تصيّرهُ في الثخن المطلوب، وهذه ترسلهُ إلى آلة ثالثة تقطعهُ على قدر المرغوب، وتطبعهُ في الأشكال اللازمة، وتنقشهُ بالرسومات اللطيفة، وتكتب عليهِ ما يراد، وتصفُّه على صوان مستطيلة لتحرك من مواضعها بمحركات ميكانيكيّة أيضاً، فتصل إلى فرن كبير طولهُ 14 متراً، يحصل نضجهُ بهِ في نحو عشر دقائق، ثم يخرج على تلك الصواني المتحركة حتى تضعهُ في سبتات لطيفة صغيرة، تَنْتَقِلُ به إلى الأشخاص المكلفين بالبيع، فيتخاطفهُ المشترون، وقد علموا كيف عُمل، فيأكلون ما يعلمون.

وإن أنتَ لم ترغب أكل هذه البسكويتات يابسة غير سهلة الابتلاع بل أردت ترطيبها بنوع من المربيات أو الشراب فاقصد الحلوانيين الّذين يصنعون المربيات والحلواءَ والشراب، وخذ منها ما يستطاب.

ثم عرّج على الروائح الذكيّة وكيفيات استخراجها، ونفرج على الأنابيق الكبيرة الّتي تسع عشر هيكتولترات، وانظر الدسوت العظيمة، وأدوات التقطير، وتأمل صناعة استخراج الأعطار، واشتر ما شئتَ من الروائح الذكيّة الّتي صار أعمالها أمامك، ومتع بها شمك كما متعت سمعك وبصرك وذوقك.

وقبل أن نتم ذكر ما رأيناهُ من المصنوعات الغذائيّة أخبرك بمطاحن الشكولاطه الّتي رأيتها إن كنت ممن يحبها، مع اعترافي لك بعدم محبتها، وذلك أَنهم هيئوا في أحد جوانب المكان محلاً لعمل الشكولاطه بحالتهِ

الّتي يكون عليها في مكانهِ كأنما نقل منهُ إلى هنا، وأداروا فيهِ عدة مطاحن كبيرة تعمل الشكولاطه أمام المتفرجين.

فإن أردت أن تتفرج على جميع هذه المخابز والمعامل والمصانع على اختلافها كيف تعمل وتدار فاصعد معي إلى الطبقة العليا، لنشرف منها على جميع ذلك، فنرى بديع الأشكال. وإذ قد تمتعتَ بهذا المشهد فهلم معي لننظر الأصناف الغذائيّة المعروضة، فنتفرج على أصناف السكر والخل والتوابل والقهوة واللحوم والأسماك والخضروات، وسائر الأشياءِ المحفوظة من التغيُّر بواسطة تفريغ الهواءِ من أوانيها، بحيث لو رأيتها قلتَ هذه الخضروات أُخذت من البستان في هذا الوقت، وهذا اللحم من الغنم، وهذا السمك من النهر، أو البحر، في هذه الساعة، مع أنهُ ربما يكون أخذ منذ أعوام، ثم نتفرج على أصناف البسكويت والفطائر والكعك والزبدة والألبان وغير ذلك.

ولا نخرج مع ذلك قبل أن نمر بالمحل الذي أُعد في وسط هذا المكان لمذاق المشروبات، فقد رأينا عليهِ من الازدحام وكثرة الناس وإقبالهم ما رغَّبنا في أن نقصدهُ لتعاطي كوبة مثلجة من شراب التوت تُطفِيءُ حرارة الظماءِ، وتزيل العطش، وتنعش النفس، وتساعدنا على السير إلى ما نقصدهُ بعد هذه السراي، وهو محل المعروضات الزراعيّة على كثرتها وكثرة أَصنافها، وتشتتها بين خيام مستطيلة معمولة من الخشب، أو القماش، بحسب مقتضيات الأحوال.

وذلك أن هذه (المعروضات الزراعيّة) وضعت صفين، يفصل بينهما

طريق في محلات عُملت على الصفة المار ذكرها بطول الرصيف على حافة النهر من شان ده مارس إلى ساحة دار العواجز، وقد استعيض فيها عن الزخرفة والتذهيب بحسن الترتيب، وهي وإن كانت لا تُهم إلاّ من لهم إلمام بالزراعة وشغف بها إلاّ أنها بالنسبة إلينا مهمة؛ لأن بلادنا زراعيّة فينبغي لنا الوقوف على ما استحدث في سبيل تسهيل الزراعة.

وأول شيءٍ تفرجنا عليهِ (**معرض وزارة الزراعة**)، فوجدنا فيهِ من الإحصائيات المتعلقة بالزراعات وأصنافها في سائر البلاد الفرنساويّة، ومن التعاريف المختصة بسير التعليم الزراعي في المدن والقرى، ومن الأشياءِ المعدة لمكافأة الحائزين قصب السبق في التنافسات - كونكور - الّتي تهم هذه النظارة، ما جعلنا نفهم حكمة وجود وزارة للزراعة في هذه البلاد حالة كونها ليست زراعيّة إلى حد يستوجب إيجاد وزارة لها خصوصيّة، فاستخلصنا أن الغرض من هذه الوزارة، هو المساعدة على تقدم الزراعة بواسطة التنافسات - كونكور - الّتي تستوجب المكافأة، وبواسطة الإعانات الّتي تجود بها على الشركات الّتي خصصت نفسها بهذه الخدمات ذات المنفعة العامة فضلاً عن إدارة هذه الوزارة شؤونَ التعليم الزراعي بجميع متعلقاتِه.

وقد تقدم لنا في اليوم الخامس من مقامنا في پاريس بمناسبة تفرجنا على إحدى المدارس الزراعيّة، إبداءُ بعض الإيضاحات الّتي أمكننا الاستحصال عليها بخصوص هذا التعليم المهم، وقد أمكنَتْنَا فرصة هذا النهار من بعض معلومات حصلنا عليها من قسم الوزارة الزراعيّة هذا. فرأينا كثيراً من أعمال أساتذة المدارس الزراعيّة الخصوصيّة، وهي مدارس جِرِينيُونْ وجْرَانْجُوَانْ ومونپلييه وكثيراً من مستحدثات أفكارهم الّتي ترتبت عليها

فوائد كثيرة الأهمية، فضلاً عن تعليمهم كثيراً من التلامذة، وترشيحهم بذلك لنفع البلاد نفعاً مادياً.

ورأينا جداول دلتنا على من أنتجته (مدارس الطب البيطري) من الرجال الّذين أتوا للبلاد بأكبر الفوائد في القرى، والكفور، بمداواتهم حيوانات الزراعة، ومعالجتها بعد أن كانت الأمراض تُهلك منها شيئاً لا يحصى، كما أنهم جاءوا بأعظم النفع للجيش بمداواتهم حيواناتِهِ وملاحظتها، والمحافظة على صحتها العموميّة، وقد استفادت هذه الفئة كثيراً من اختراعات المسيوباستور الشهير واكتشافاتهِ العظيمة الأهمية.

ورأينا تعليقات دلتنا على ما أتت بهِ (المدارس العلميّة الزراعية) في المديريات من الفوائد، بتخريجها أشخاصا عُلِّمُوا ما يلزم الزراعة علمياً بأحسن طرقها المستحدثة فضلاً عن بعض خصوصيات ألقيت إليهم، تعمقوا في إتقانها بحسب احتياجات المديريّة الّتي تأسست فيها المدرسة، ففي إحدى المديريات أتقنت صناعة الألبان نظراً لكثرتها، وفي أُخرى أتقن فن الري للزومهِ فيها زيادة عن غيرهِ، وفي غيرها التفت إلى غرس الكروم؛ لأنها أهم هنالك مما سواها، وهكذا مع أن هاتهِ المدارس لم يؤخذ في إنشائها إلاّ من عهد غير بعيد، وقد بلغت مع ذلك إلى أربعة وثلاثين، واستدل على نجاحها استدلالاً مادياً بما عُرِض من نموذجات أدوات التعليم وأعمال التلامذة والأساتذة وحاصلات زراعاتهم فيها.

واطلعنا على منافع (المراكز الزراعية) الّتي أنشئت في جهات متفرقة من البلاد، حتى بلغت نحو الخمسين بقصد إجراءات متنوعة تجريها في نفس الأرض لمعرفة تراكيبها ولتجربة زراعات معلومة فيها من أشجار ونباتات مع اختبار السماد عليها.

واطلعنا على تعريفات تتعلق (**بالمقالات الزراعية الإقليميّة**)، وقد خصص بها كثيرٌ من الأساتذة يتنقلون من مركز إلى غيره، ومن قرية إلى غيرها، فيلقون على المزارعين المقالات السهلة المأخذ الكثيرة النفع في التحسينات الّتي ينبغي اتخاذها في نوع معلوم من الزراعة لزيادة نمائِه إما بكيفية تسميدِهِ أو بطريقة ريّهِ، ومواعيد ذلك، مستندين في مقالاتهم على تجارب عملية يجرونها في نفس الأَرض، أمام أعين الزارعين ليتبيّنوا بالحس ثمرة النصائح الّتي تلقى إليهم مجاناً، وليعلموا أنهُ يكفي من المصرف أقل قليل للاستحصال على أكثر مما يستغلونهُ من أرضهم، باتباع الطريقة الّتي سمعوها، ورأَوا نجاحها بالعِيان.

وقد سبق في خامس يوم من الإقامة بباريس أن في الذروة العليا من جميع هذه المدارس الزراعيّة المجمع - أَنستِيتُو - الزراعي الأَهلي، وهو مؤلف من المتبحرين في العلوم الزراعيّة وفنونها.

وإذ قد انتهينا من متعلقات ديوان الزراعة ومعروضاتهِ، فلنأْخذ في (**معروضات الآحاد والشركات المتعلقة بالزراعة**)، وذلك أنهُ تألف كثير من الشركات في أَنحاءِ فرنسا لتشجيع الزارعين، وتنمية الزراعة، فأَتت بفوائد كثيرة، نقتصر منها في هذا المكان على ما يختص بهذا المعرض، وهو أَنَّ هاتِهِ الشركات كانت السبب في أن يشمل هذا المعرض الزراعي حاصلات آحاد المزارعين، ولولاها لما تيسر لهؤلاءِ، مع قلة رأس ما لهم، أن يتحملوا مشاق السفر وكلفة مصاريفهِ لعرض حاصلاتهم، وإن كانت في بعض الأحيان أَحسن وأَجود من حاصلات كبار المزارعين، فأحضرت بهذا المعرض أحسن حاصلات زراعات الآحاد الّتي وجدتها في دائرتها، وقد اختص بعض هذه الشركات بالحاصلات الزراعيّة الّتي تُستعمل في

الصنائع، وبعضها بإعادة غرس الكروم في البلاد الّتي أهلكتها بها «الفِيلِكْسُورَا»، وبعضها بمزروعات البساتين، وبعضها بغرس أشجار التفاح، واستخراج أنبذتهِ من ثمارها، وبعضها بتربية حيوانات الزراعة وتقويتها، وتولي ما فيهِ تنميتها، وبعضها بزراعة الحبوب، وبعضهابمباشرة عمل الألبان من زبد وجبن وغيرهما، فعرضت كل واحدة من هذه الشركات حاصلات مئات من الزارعين لولاها لما عرضوا شيئاً.

وبجوار محل معروضات هذه الشركات قاعة خصصت بعرض لوازم الطب البيطري وأدواتهِ وآلات البيطرة وما يستعمل فيها. ثم محل خُصص باستخراج الزبدة مع الألبان، وقد حصل في هذا النوع تقدمات مهمة بواسطة آلات، يتيسر بواسطتها الاستحصال على السمن والزبدة في صباح اليوم الذي حُلِب فيهِ اللبن بعمليات سهلة، لا تحتاج إلى ما كان يلزم لهذا العمل أولاً من التعب والنصب وطول الزمن، فتفرجنا على هذين المحلين.

ثم انتقلنا إلى المحلات الّتي خصصت (بالأدوات والآلات الزراعية)، فوجدنا التقدم فيها ظاهراً بديهيّاً، وقد بلغت حد الإتقان في الخفة والمتانة، ولا سبيل إلى المشابهة بينها وبين الآلات الأصليّة المستعملة عندنا من مئات أو آلاف من السنين، ولم نزل نستعملها إلى الآن وهي وإن كان ثمنها قليلاً بالنسبة إلى هذه المخترعات إلاّ أن ذلك لا يذكر في جانب متاعبنا ومتاعب حيواناتنا من جرّ أثقالها بدون فائدة، مع أن تلك المخترعة تعمل في اليوم الواحد بربع ما يلزم لغيرها من القوة، مثلاً عملَ ذلك الغير في أسبوع أو أكثر، فالرغبة في رخص الآلة توجب خسائر كثيرة، وتُضيع

فوائد جمة؛ لأنها تستوجب كثرة الحيوانات، مع أن أثمانها تبلغ زيادة عظيمة عن ثمن المخترعات، وربما ماتت من ثقل الآلات الأصليّة فاحتيج لتعويضها بغيرها، ولأنها يتسبب عنها التأخير للزرع الموجب لأضرارهِ من البرد والحر، ولتأخير حصادهِ، المسبب عنهُ عدمُ البيع في أول ظهور محصولاتهِ بالأثمان العالية، هذا فضلاً عما يصرف باستعمال الآلات الأصليّة على المواشي الكثيرة، وعلى خدمتها ومن يعمل في الزرع بها.

وهذه الآلات الزراعية المعروضة قسمان: قسم يديرهُ تيار كهربائي قد سبق أنهُ مجلوب لها من سراي الماكينات على سلك من سلوك التلغراف، وقسم تديرهُ الحيوانات، فالأول موجود مشاهد على حالة الإدارة، والثاني لا يُدار إلّا في أيام مخصوصة، فتنقل آلاتهُ لهذا الغرض إلى مزرعة لا تبعد عن محل المعرض العام بكثير.

ثم انتقلنا إلى محل أُعد (للحشرات الضارة والحشرات النافعة)، أما الضارة فقد اشتمل على كثير من أصنافها، وأما النافعة فليس منها غير اثنين: النحل ودود الحرير. فالنحل غير مستعمل كثيراً في فرنسا، وهو مع ذلك معتنى بهِ، وآخر ما استقر عليهِ الراي في أمرهِ، جعلهُ في الخلايا الّتي تُنقل من مكان إلى غيرهِ.

ودود الحرير لاقى فيها صعوبات كثيرة من أمراض مُعدية تسلطت عليهِ، فكانت تُهلك شيئاً كثيراً منهُ، وكادت تأتي على آخرهِ لولا نَ تُدورك بعلاج باسْتُور، الذي كان سبباً في شهرتهِ، وموجباً لمحبتهِ لدى الشّعب الفرنساوي، فتسبب عن هذا العلاج عَوْدة هذا الدود ورجوعهُ إلى حالتهِ الأُولى من الكثرة، وحسن النوع والجودة.

وبجوار هذا (محل أُعِدَّ لعرض حاصلات فن تكثير الأَسماك)، ومناسبته للزراعة من حيث تعلق كل منهما بالماءِ.

وينقسم هذا المعرض إلى قسمين قسم تكثير الأَسماك في الأَنهر، وقسم تكثيرها في الأَبحر، وتصرف الحكومة في سبيل هذا التكثير مصاريف طائلة للاستحصال على بيض الأسماك النافعة أو النادرة من محل وجودها وتكثيرها في الأَنهر والبحيرات ومجاري المياه وشواطئِ البحار، لانتفاع العموم، وكثيراً ما يستعمل هذا الفن آحاد الناس في المياهِ المتسعة الموجودة في أرضهم، فيجلبون إليها بواسطتهِ بيض أسماك كثيرة، لا تلبث أن تكثر فيباعون من نِتاجها، ويكسبون منهُ مالاً كثيراً.

هذا وقد انعقَد (مؤتمر دولي للزراعة) في شهر يوليو الماضي، وبُحث فيهِ عن أسباب الأَزمة الزراعيّة وطرق تلافي أمرها، والتخلص من ضررها.

وحصل في المعرض فضلاً عن هذا عدة تنافسات - كونكور - بين المربّين للحيوانات، توزعت فيها الجوائز على من كانت تربيتهُ أَحسن وأَفيد من تربية غيره.

أما المحال الّتي خصصت بالمعارض الأَجنبيّة بهذا القسم، فقد تقدم الإِلماع إليها عند ذكر معارض دولها؛ فلا حاجة إلى التكرار.

وها نحن قد انتهينا من قسم كيه دُورْسي، فننتقل في الحال إلى زيارة قسم (شْپلَاتَاذْ دِيزَنْفَالِيدْ) ساحة دار العواجز، وهو من غرائب أَقسام المعرض العام، وعجائب ما يُزار، فقد خصص غالبهُ بالبلاد الشرقيّة الملحقة بفرنسا أو الداخلة تحت حمايتها، فامتلأَ بالقصور الشرقيّة الفاخرة على جانبي طريق وسطي،

جُعل فيهِ، وشيدت هذه القصور على هيئة أحسن العمارات الأَثرية بالبلاد الّتي يُراد عرض صنائعها وحاصلاتها، وحوت من الداخل والخارج أحسن ما يُعمل، وأكمل ما يصنع في تلك البلاد، وسكَن هذه القصورَ لحراستها أُناس من أَهل البلاد المنسوبة هي إليها، لابسين ملابسهم العسكريّة الّتي يلبسونها في تلك البلاد، ويتخلل هذه القصور أَشجار تلك البلاد ونباتاتها، وزيادة على ذلك جُعل بيتها أنموذجات قرى وطنيّة من قرى تلك الأَصقاع البعيدة، كأَنّما نقلتها يد السحرة من السودان أو الهند أو الصين، ووضعتها بهذا المكان مع ما اشتملت عليهِ من أثاثات، وسكان تراهم فيها يعملون أعمالهم المعتادة لهم من تجهيز الطعام، وطهْيِ اللحوم خلا من بالأَسواق الّتي عُمِلت فيها على هيئة أَسواقهم الأَصليّة، يشتغلون فيها بصنائعهم الأَهليّة.

فقد أنشأُوا تياتراً على طراز تياترات الأَنّاميين، ولعبوا فيهِ وخلا من يدق النوبة في الطرقات أو القهاوي، وعدا من يرقص في الحانات من الراقصات، والعجيب في كل ذلك، أنّك ترى هذه الجموع الكثيرة المحشودة، وهؤُلاءِ العملة المتعددين، وهؤُلاءِ العساكر الأَجانب الكثيرين، مبتهجين مسرورين فرحين من رؤية أهالي أوروبا الآتين للتفرج عليهم، كما أنَّ أَهل أوروبا كذلك، فالحظ متبادل والأنس شامل، وقد رأَيت في ساعة من الزمان بواسطة ما ذكر جهات من الأرض ما كان يكفي لزيارتها عمرُ الإنسان، ورأيت مفاخر الأَبنية، وعجائب الصناعة، وغرائب المخلوقات، من أسود، وأسمر، وقمحي، وأَبيض، إلى غير ذلك من الأَلوان.

وإذ قد عرفتَ ما ذكرناهُ إجمالاً في هذا القسم، فتعال نجتمع بصاحبنا جيجون بك عند باب هذا القسم من جهة رصيف أُورسي الذي أَتينا منهُ، فنتفرج معهُ على (السكة الحديديّة الإِنزلاقيّة) حسبما تواعدنا.

هذه السكة شاع أمرها، وانتشر خبرها، وعجب لها الناس كثيراً، وخاض في حديثها القوم، واشتغل بها العارفون اليوم بعد اليوم، فصاروا يتوافدون عليها، ويتواردون دائماً إليها ليشاهدوا غرائب صنعها وعجائب وضعها. وهي تمتد مسافة مائة وخمسين متراً، وليس لعرباتها عجلات، فإنها تنزلق على قضبان عريضة، بل على طبقة خفيفة من الماءِ متوسطة بين القباقيب، وبين قضبان الحديد.

والذي باشر إتمام، هذه السكة هو المسيو «بار» من عظماءِ مهندسي الفرنسيس، ولكنهُ ليس المخترع لها، وإنما أتقنها وحسّنها حتى أمكن إظهارها إلى عالم الشهود، ودخولها في حيز الوجود، ولقد كان المهندس الأيدروليكي الفرنساوي الموسيو جيرار أول من أُلقي في رُوعهِ اختراع السكة الحديديّة الانزلاقيّة في حدود سنة 1852 فعرض فكره على امبراطور فرنسا إذ ذاك، فمدّ لهُ يد المساعدة، وأحضر لهُ ما طلبهُ، حتى وُفِّق في عام 1860 إلى إتمام ما خالج خاطرهُ، وحينئذٍ سارت العربات بلا عجل مدة من الزمان على سبيل التجربة والاختبار، واستمر الحال بضعة شهور على هذا المنوال، حتى اتقدت نيران القتال بين فرنسا وأُمة الأَلمان، وقد كان المسيو جيرار تحصل على رخصة إنشاءِ سكة بين باريس وجهة أَرْجَنْتُوى، من أعمال فرنسا، ولكن المنية حالت بينهُ وبين ما يشتهي، فإنهُ أَصابتهُ رصاصة في أثناء الهدنة، فكانت هي القاضية، وتوفي هذا المخترع النبيل عن ثمانية وأربعين عاماً، ثم كرت الأيات وتوالت الأعوام حتى انقضى منها ثمانية عشر بالتمام، ولم يعنّ لأحد من الأقوام أن يقوم بإتمام ما بدأ بهِ ذلك الْهُمَام.

ولكن هذا المعرض جعل الأفكار تنشط من عقالها، والهمم تتحرك في رجالها، فاستأنف الموسيو بار ذلك المشروع، وتمكن من إحداث هذا النموذج الذي رأيناهُ بمساعدة أهل المال، وكان هو أقدر الناس على مراجعة العمل؛ لأنهُ صديق المخترع، ومعينهُ على إظهاره، وناموسهُ المطلع على أسراره، وإليك خلاصة بيان النظريّة الّتي شرحها الموسيو بار في كراسة لهُ في هذا المعنى، حيث قال ما ملخصهُ:

«إن الاستغناءَ عن العجلات أضحى في هذه العربات أمراً طبيعياً؛ فإن العربات تستند مباشرة على قضبان عريضة جداً بواسطة ستة قباقيب موضوعة بإزاءِ بعضها في جانبي كل عربة، وهذه القباقيب مربعة الشكل، مجوّفة قليلاً من الجهة الّتي تتكىءُ بها على القضبان، وعليها ثقوب واضحة، وفي وسطها ينتهي أُنبوب صغير موجود في كل عربة، ومنهُ تنزل المياه المضغوطة إلى ما تحت القبقاب، ومتى أُطلق هذا الماءُ المخزون في أول عربة من القطار إلى ما تحت القباقيب رفعها بعض مليمترات قبل أن ينفلت؛ لأن الثقوب تضايق مجاريه بحيث إن العربة ترتفع قليلاً، وتكون عائمة على هذا السطح المائع القليل، ولا يكون الاحتكاك حاصلاً بين القضبان والقباقيب أصلاً، وإنما يكون بين هذه وبين الماءِ القليل، وهو احتكاك لا يكاد يُحَسّ، بحيث إنهُ يتيسر دفع العربة إلى الأمام بمجرد ضغط الإبهام، وعلى هذا النسق يمكن انزلاق القطار بقوة قليلة جداً من الجذب، مع توارد المياه المضغوطة إلى ما تحت القباقيب، ويكون هذا الماءُ مخزوناً في عربة، وواقعاً تحت تأثيرِ الهواءِ المضغوط لكي يضغطهُ بواسطة ميزان مخصوصٍ الضغطَ اللازمَ لرفع القباقيب.

ومما تقدم يتضح أن كل ما يُحتاج إليهِ في السكة الحديديّة الانزلاقيّة إنما هو إيدرولكي محض، لا يُعَوَّل فيهِ على غير الماءِ، ولذلك استُغني عن الوابور، ودفعُ العربات إلى الأَمام يكون أيضاً بواسطة الماءِ، وذلك أنهُ يوجد في وسط الخط في مواضع معلومة حنفيات صغيرة متصلة بما سورة مياه، وهذه الحنفيات تنفتح، وتقذف كميّة من المياه بقوة على سطح أُفقي فتصدِم ألواحاً كثيرة موضوعة بالطول في أسفل كل عربةٍ، فليس على سائق القطار إلاّ أن يفتح حنفياتٍ على مسافةٍ ما، فتندفع العربة الأُولى من مصادمة المياه لها؛ فإنها تؤثر على محل العجلات، ثم تمر العربة الثانية هكذا، والثالثة، وهلم جرّاً، حتى يمر القطار كلهُ مدفوعاً بالماءِ، ومتى مرت العربات قُفلت الحنفيات من نفسها، ولا يكون في الحقيقة سوى حنفيتين إحداهما متجهة إلى الأمام، وتستعمل في حال الذهاب، والأُخرى بعكسها في حال الإِياب، ويوجد على الخط ماسورة أُمّ لملءِ الحنفيات.

والقطار الموجود بالمعرض مركب كلهُ من خمس عربات: إحداهما: للمناورات، والبواقي للركّاب، ولهذا الطرز من السكة الحديد منافع جمة، وفوائد مهمة، فمنها منع الاضطراب، ومنها حصول الراحة والسكون، كأَن الإِنسان على المركبة الّتي تسير في البلاد الباردة فوق الثلج والجليد، ومنها انعدام الغبار والدخان والضجّة الّتي تكون في العربات المعتادة، ومنها قلة الآلات والأَدوات، وخفة الأَعمال الصناعيّة، ومنها عدم الاحتياج إلى الشحم، وحذف مصاريف صيانة العجلات واللوالب وغيرها، واقتصاد مصاريف الجذب، ومنها إمكان التوصُّل إلى قطع المسافات البعيدة في المدة القصيرة، فقد كان المسيو جيرار لا يخشى النكير، ويُقَدِّرُ إمكان قطع مائتي كيلومتر في الساعة الواحدة.

والذي يراهُ العارفون أن استعمال هذا الطرز يكون على الأوجه الآتية:

أولاً: في جميع البلاد متى كان الغرض قطع مساعة طويلة من غير وقوف في الطريق، وتكون السرعة من مائة وخمسين كيلو متر إلى مائتي كيلو متر في الساعة الواحدة.

ثانياً: في البلاد الجبليّة الّتي يوجد بها منحدرات المياه الطبيعيّة أعني الكثيرة العُيُون والينابيع، فإنها تكفي لإحداث الدفع المطلوب، أو الّتي يكون بها عقبات وانحدارات لا يتسنى للسكك الحديديّة المعتادة اجتيازها.

ثالثاً: في جميع السكك الحديديّة المعروفة بسكك الحبال الّتي يكون استعمال العجلات فيها سبباً في حصول المصائب العظيمة، والحوادث الخطرة في غالب الأحوال. ففي هذه الحالة، يمكن الاستغناءُ عن الدفع الإيدوليكي الذي يكون بواسطة الماءِ، ويُستعاض عنهُ بالجذب بالحبل، ولا يستعمل حينئذٍ إلاّ الانزلاق، وهو يكون بالسهولة مع تمام السلامة وكمال الأمن، فإذا انقطع الحبل يكفي حجز الماءِ عن القباقيب، فيقف القطار مع الطمأنينة المطلقة إلى أربعمائة وخمسين مليمتر في كل متر.

رابعاً: في نقل الأجسام الثقيلة الّتي لا يمكن تجزئتها ففي هذه الحالة يستعاض عن الدفع المائي بالجذب الميكانيكي، ولكن الانزلاق لا يزال لازماً، إنما يكون تركيب العُدد والآلات بكيفيّة مخصوصة بجمع القوى، وتوزيعها على الوجه اللائق حتى يتيسر الحصول على الغرض المطلوب.

وإن مثل هذه الطريق لا تستلزم عناية خصوصيّة مطلقاً، وذلك لأنهُ ليس من ضرورة في إبقاءِ جملة القضبان على سطح أُفقي واحد، فإن القضبان يمكن تغيير مستوَياتاها وانحرافها بالنسبة لبعضها، وفي ذلك من المنافع الجمّة الّتي

لا يمكن نوالها من العربات ذوات العجلات، وفضلاً عن هذا، فإن بتلك الطريقة يتسنى حل مسألة نقل الأجسام العظيمة الجرم الّتي تتجزأ، مثل المدافع ذوات العيار الكبير الّتي يحتاج لاستعمالها في الدفاع عن السواحل والقلاع والسفن المختلفة الأحجام، ونقل السفن الكبيرة يكون بواسطة هذه الطريقة في حيضان المواني، ومخازن التجارة البحريّة الّتي لا ماءَ فيها من غير أن يحصل لها أدنى خطر.

خامساً: بدل السكك الحديديّة المعتادة الّتي تستعمل تحت الأرض في المدائن الكبيرة.

سادساً: في الطرق الحديديّة العلويّة الّتي تكون في المدائن الكبيرة أيضاً؛ لأنها في هذه الحالة لا يلزم لها إلاّ كباري معدنيّة يكون ثقلها أقل من الكباري الّتي تلزم للسكك الحديديّة المعتادة مرتين أو ثلاث مرات، نظراً لخفة موادّ هذه، وحينئذٍ يلزم تجهيز الأعمدة الّتي تتكىءُ عليها الكباري، بحيث تكون مخازنَ للضغط وتوضع جميع جهازات الدفع في مظاريف خاصة بها، لمنع تأثير الجليد عليها، وذلك إذا لم يستعمل ممزوج الجليسرين، وفضلاً عن هذا، فإن عدم الضوضاءِ والدخان تكون من أفيد الأمور للسكان القريبين لهذه الطرق الّتي تكون في الجوّ سائرةً فوق رؤُوسهم.

هذا وإن استعمال هذه السكة وشيوعها لابد أن يتم عن قريب، فيكون لها في العالم شأن عجيب، وتكثر بسببها وجوه الإفادة والاستفادة وتتفجر ينابيع الرفاهية والسعادة، فيرد منهلها الصافي جميع الأنام والمورد العذب كثير الزحام.

ولنودّع الآن صاحبنا جيجون بيك شاكرين لهُ حسن اعتنائِه، ولنترك هذه

السكة الانزلاقية للناس، يتمتعون بالتفرج عليها، فقد حجبهم عنها مكوثنا مع صاحبها بعض الوقت، يُفَسِّر لنا فيهِ عملهُ، ويفصح لنا عما يؤَملهُ في مستقبلهِ، والناس في أثناء ذلك قلقون من الانتظار على أبواب الدخول[1]، ولنشرع في زيارة معارض سِپْلاَنَاذْ دِيزنڤالِيد، فنبتدىءُ من حيث نحن في السكة الانزلاقيّة بجوار نهر السين، فأول شيءٍ ندخلهُ على جهة اليسار.

- سراي الجزائر:

وما أدراك ما الجزائر، قارة من أفريقيّة امتداد أَرضها 478000 كيلو متر مربع، وامتداد شطوطها على البحر الأَبيض المتوسط 1100 كيلو متر، يَحدُّها من الغرب مملكة مراكش، ومن الشرق إقليم تونس، ومن الجنوب الصحراءُ.

وتنقسم هذه القارّة إلى أقاليم ثلاثة: إقليم أُوران، وإقليم الجزائر، وإقليم قسنطينة، وبها من السكان 3350000 نسمة، منهم 270000 من الفرنساويين الأَصليين، ومن الّذين تجنَّسوا بالجنس الفرنساوي، و 2851000 من المسلمين، و 190000 من الأَجانب، منهم 112000 إِسپانيوليون، و 31500 طليانيون، و 15150 مالطيُّون، و 3800 ألمانيون، وعاصمة هذه القارة مدينة الجزائر.

وقد اعتُنِي في تشييد سراي هذا المعرض اعتناءً شديدًا، فجعلت وِجهتها الأَصليّة على هيئة وِجهة مسجد سيدي عبدالرحمن بمدينة الجزائر، وقبتها المرتفعة كقبتهِ، ومنارتها على شكل منارتهِ، وبابها على مثال محرابهِ مصنوعاً بالقيشاني اللطيف.

(1) أخبرني بعد عودتنا إلى مصر سعادة النبيل تيكران باشا ناظر الخارجية أنه كان مع المنتظرين خروجنا لأجل الدخول بهذه السكة للتفرج عليها. اهـ.

ويدخل إليها من دهليز متسع جُعل على هيئة صحن ذلك الجامع مكشوفاً من وسطه، تحيط بهِ ألونة مسقوفة على قواصر معقودة، وجُعل في وسط الصحن صورة مُجَسّمة تُمثّل الجزائر.

وعن يسار هذا الصحن قاعة أُعدت للرسومات، عُرضت فيها أعمال الرسامين الّذين اشتغلوا بالجزائر، فرسموا أسماءها وصوروا ماءها ومساكنها وعوائدها وأَهلها من نساءٍ ورجال وشيوخ وأطفال.

وعن يمين الصحن تجاه الداخل قاعات كبيرة منها ثلاث أُعدّت للأَقاليم الجزائريّة الثلاثة المتقدمة، ومنها قاعة جعلت للاستقبالات الرسميّة، عملت على الطراز الوطني المستعمل في مساكن الأكابر من تلك البلاد، منقوشة بالقيشاني، ملوناً زجاجها بالأَلوان البديعة، مرسومة جدرانها بالرسوم الشرقيّة الغربية، وسقفها بالتذهيبات العجيبة، ممتلئة من الكراسي المزركشة، والمخدات المفضضة المذهبة والفِراءِ المصبوغة والطنافس الأَهليّة، والبسط الوطنيّة، والأواني الصينيّة الحقيقيّة حتى يخيل للزائر أنهُ في أَحد مساكن الأُمراءِ الشرقيين الأكابر، وقلةُ النور في داخل هذا المحل وعدمُ كثرتهِ فيهِ تَزِيدهُ مهابة وإجلالاً، وتكسوهُ أُبَهَةً وجمالاً.

وقد جُعل في إحدى جهات هذه السراي الفاخرة شارع أشبه بشوارع مدينة الجزائر، يعمل فيهِ الصناع على اختلاف صنائعهم، جالسين جلستهم المعهودة على الأَرض، مستعينين في أعمالهم بأيديهم وأرجلهم، فيجهزون أدوات الأَقمشة، وينسجونها، ويُهيئون الجلود، ويُفصِّلونها، ويصنعون الأَحذية والأَحزمة، ويطرزونها، ويعملون الأَسلحة والسجاجيد، وسائر أَعمال الخرط والنجارة الّتي يألفونها.

أما قاعات الأقاليم فقد حوت كثيراً من خيراتها الزراعيّة والصناعيّة والمعدنيّة على اختلاف أشكالها، وتعدد أصنافها وحسنها، وفي وسط إحدى هاتهِ القاعات معرض شركة زراعيّة تألّفت لإصلاح أرض الصحراءِ، وجعلها صالحة للزراعة عرضت فيها كثيراً من الآلات الّتي تستعمل لإخراج المياه من أعماق الصحراءِ وما يلزم لهذه الآلات، كما عرضت كثيراً من حاصلات النخيل الذي غرستهُ فيها وسائر ما يصنع منهُ على تعددهِ وتحسينهِ والاعتناءِ بهِ، وعرضت غير هذا جداول إحصائيّة كثيرة يستدل منها على تقدمها وحسن مستقبلها، وأحضرتْ غير هذا رسومات كثيرة رسمت فيها بعض جهات الصحراءِ الأصليّة على الحالة الرمليّة وأرضها المحرقة وشمسها المزهقة، ثم في مقابلة هاتهِ الرسومات رسوم أخرى، ترى فيها حالة الواحات الّتي أحدثتها بها وما صارت إليهِ من البهجة، وآلت إليهِ من الرونق، حتى وصل النخيل الذي غرستهُ في إحداها 50000 نخلة.

وحول هذه السراي زُرعت النباتات الجزائريّة، وغُرست الأشجار الأهليّة، والأزهار اللطيفة، والنخيل الظريفة، حتى يخال للإنسان أنهُ في تلك البلاد، فإنهُ إن دخل إلى الداخل وجد الكثير من الجزائريّين، وإن خرج وجد الأشجار الّتي ذكرناها والخضرة الخاصة بتلك الجهات، فإن استمر في السير فيها إلى الأمام صادفتهُ القهوة الجزائريّة، فيسمع فيها الأناشيد الأهليّة، والموسيقا الوطنيّة، ويرى الراقصين والراقصات من أهالي تلك الجهات، ثم بعد التفرج على هذه السراي انتقلنا إلى :

- سراي المعرض التونسي:

وقد جُعلت بجوار سراي المعرض الجزائري المتقدمة، واعتُني في أمر بنائها كل الاعتناءِ، وعُمِلت أيضاً على الطراز الوطني، فجعلت وِجهتها على هيئة وِجهة قصر البارْدُو الخاص بالباي في تونس، وجهاتها الباقية على هيئة سوق الباي، وقصر الباي وزويرة سيدي ابن عروس في تونس، وبعض آثار القيروان، وجعلت سقفها في النقوش والهيئة والتذهيب والزخرفة على طراز سقف دار الباي في تونس والقيروان.

وفي وسط الوِجهة جُعِل الباب الذي يُدخل منهُ، وقد عمل على طراز باب جامع سيدي عقبة، تعلوهُ قبة عالية فاخرة البناءِ.

أما نفس الأبواب الخشبيّة فقد صُنعت في تونس على طراز الأَبواب التونسيّة، فعُملت من أَلواح مستطيلة متقنة النقش، مرسوم عليها الرسوم اللطيفة بواسطة المسامير الكبيرة، ذات الرؤُوس البارزة المحكمة الصنع، الشبيهة بأَبواب الوكائل القديمة عندنا.

وتنقسم هذه السراي إلى ثلاثة أقسام محيطة برحبة داخلية مكشوفة إلاّ من جوانبها، فإنها مغطاة بسقف مرفوعة على عمد لطيفة، الأَول منها، وقد جُعل في القاعات الّتي على يمين الداخل خصص بالحاصلات الزراعيّة، والثاني وقد جعل في القاعات الّتي على يسار الداخل خصص بالحاصلات الصناعيّة على اختلافها، وبما يتعلق بالأَشغال العموميّة، والثالث وقد جعل في مقابلة الداخل خصص بالفنون المستظرفة وفن الآثار العتيقة.

وقد احتوت هذه الأَقسام مع حسن الترتيب وكمال النظام، على كثير من الحاصلات، كما اشتملت في قسمها المختص بفن الآثار العتيقة، على نفائس من هذه الآثار منقولة بالجبس من الآثار الأَصليّة.

وجُعلت في المعرض قاعة مخصوصة بعرض المصنوعات الأهليّة من الملابس والفرش، فعملت على هيئة مسكن أهلي حوى أنفس ما يُصنع بالبلاد من الفرش والأثاثات، وصُورت فيهِ أشخاص مُجَسّمة أُلبست أحاسن الثياب، لِتُرى هيئة الملابس.

وبُنيت تجاه وِجهة هذه السراي المقابلة للسراي الجزائرية سوق تونسيّة تقليداً لأحد الأسواق التونسيّة، فعملت معقودة السقف، ضيقة الاتساع مشتملة على ستة وعشرين كاناً فيها من جميع الصنائع التونسيّة والصنّاع من نَجّار وَحَلّاق وصاحب قهوة وخرّاط وخياط وصائغ وحبّاك، إلى غير ذلك من سائر أصناف الصناع، حتى الكاتب، وقد وجدنا حولهُ بعض الفرنساويين وغيرهم من الأُروبيين، وهو يكتب للواحد اسمهُ بالعربي في مقابلة عشرة سنتيمات، قيمتها خمس عشرة فضة بالعملة الصاغ، فتأملتهُ فإذا هو أحد من كان معي بالمدرسة التجهيزيّة منذ تسع عشرة سنة، وقد خرج منها من ذلك الوقت إلى حيث لا أدري، ولم أرهُ إلّا مرة من نحو عشر سنوات، وكان أحضر لسيدي الوالد جزءاً من منتخبات الجوائب أرسلهُ إليهِ صاحبها المرحوم أحمد إفندي فارس بواسطتهِ، وأعلمني في ذلك الحين أنهُ قضى تلك المدة الماضيّة بالآستانة، ودخل مدارسها، وشرع في تعلم الطب بها، ولكن حالت دون إتمام ذلك أحوالٌ اضطر بسببها إلى ترك هذا الطريق، وأخذ بعدهُ في كثير من الصنائع، دون أن يُتم واحدةً منها، حتى عاد إلى مصر، لعلهُ يجد طريقاً للتعيش، وقد انقطع عني من ذلك الحين حتى رأيتهُ الآن، فأخبرني أنهُ لم يَطُلْ مكثهُ بمصر، وحسّن لهُ بعض الناس السفر إلى بلد غيرها، فقصدها، ولم يزدد حالهُ إلّا نَحساً وعيشهُ إلّا عكساً، فتركها إلى غيرها، وما زال ينتقل من مكان إلى

مكان لا يَقَرُّ لهُ قرار حتى الآن، وأنهُ ناوٍ بعد ذلك على الرحيل إلى بلاد بعيدة أَبعد من الّتي سافر إليها، لعلهُ يجد فيها من العيش ما لم يعثر عليهِ إلى هذا الوقت.

فتركنا هذا السوق، وفي النفس تأَثر لهذا الصاحب القديم وقد عضَّهُ الدهر بنابهِ، ورماهُ بعظيم أَوْصابهِ، وفرَّق بينهُ وبين عشيرتهِ وأَحبابهِ، وما نالهُ من كرور الزمان إلاّ كبيرُ مُصابهِ، وأحببنا التخلص من هذا التأثر بالتنزهِ في البساتين الزاهرة الّتي أَحاطت بالسراي التونسيّة، منقولة أزهارها وأشجارها من بلادها الأَصليّة، معمولة على نموذج أَحسن المتنزهات عندهم، وفي طرف منها قهوة تونسيّة فيها نساء تونسيات ممسكات بمناديل حريريّة، يرقصن بها على صوت آلات الطرب والغِناءِ والموسيقا الأَهليّة.

ثم بعد تفرجنا على معرض الجزائر وتونس انتقلنا إلى (**معارض المستعمرات الفرنساوية وباقي البلاد الّتي تحت الحماية**)، وجميعها بجوار المعرضَيْن السابقين، وقد بُنيت بعض سرايات لبعض معارض خصوصيّة كمعرض أَنَّام وتونكين، بُني لهما سراي بالقرب من السراي التونسيّة، ومعرض كُوشَنْشِين بنيت لهُ سراي أيضاً، وجُعل بينهما سراي سُمّيت بالسراي الوسطية، خصصت بمعارض المستعمرات والبلاد الّتي تحت الحماية الفرنساويّة، ولم تُبْنَ لها قصور خصوصيّة، ويتخلل هذه السرايات قصور لبعض معارض أخرى وحدائق ومتنزهات وراءَها كثير من القرى الأَجنبيّة كالقرية السّنجاليّة والكالِيدُونيّة والكوشَنْشِينيّة والجاويّة مما سيأتي الكلام عليها، فتشغل هذه السرايات والقصور المشيدة والقرى العديدة مع معرضي الجزائر وتونس الضفة اليسرى من ساحة قسم أَنفالِيدْ، أَما الضفة اليمنى فقد خصصت ببعض معارض المصالح الحكوميّة والجمعيات العموميّة، يفصل بينهما الطريق المتسع الذي ذكرناهُ آنفاً.

والمستعمرات الفرنساوية الّتي اشتركت في هذا المعرض من أفريقيّة سوى الجزائر هي سِنْجَال وجَابُون والكُونْجُو وجزيرة رِيُونْيُون وأُوبُوك، وغير ذلك، ومن آسيا الكوشنشين أو الهند الصيني والبلاد الفرنساويّة في الهند، ومن الجزائر الأُوقيانوسيّة كاليدونيا الجديدة وتَايْتِي وجزائر پاسيفيك وماركيز، ومن أمريكا جُويَّانْ الفرنساويّة وأَنْتيل وسَانْ پِيرْ وميكْلُون.

وأما البلاد الّتي تحت الحماية، وقد اشتركت في المعرض سوى تونس، فهي كامبوج وأنّام وتونكين ومَادَاغَشْقَر.

وقد بدأْنا في التفرج (بالسراي الوسَطيّة)، فدخلناها، وهي بَنِيَّةٌ طولها 73 متراً عبارة عن رحبة تحيط بها قاعات فسيحة دائرة، والسراي في حدّ ذاتها لم تُعمل على طراز مخصوص لعدم اختصاصها بجهة، بل أَراد منشئها جعل بنائها مشتملاً على طرازات شرقيّة مختلفة، كالهنديّ والصينيّ والجزائري، ومع ذلك صيَّر هذه الطرازات المختلفة باجتماعها في غاية التناسب واللطف، وجعل لونها تغلب عليهِ الحمرة، فجاءَ غاية في الظرافة، وبنى لها قبة عظيمة فوق بابها الأَصلي الذي يُدخل إليها منهُ، ارتفاعها خمسون متراً، بكل جهة من جهاتها الأَربعة برج، وبآخِرِ البناءِ من كل جهة منهُ برج أيضاً، فصارت السراية ذات بروج متعددة، وقبة تتخلل بروجها نوافذ كبيرة، تعلوها سُقُفٌ هرمية الشكل، حمراءُ أيضاً.

وقد عُرضت في القاعات حاصلات البلاد المستعمرة الّتي ليس لها معارض خاصة بها، كما تقدم، وصار تقسيمها بحواجز تفصل معروضات كل بلد عن معروضات البلد الأخرى، فحوت من غرائب هذه البلاد البعيدة وبدائعها ونفائس موجوداتها وصنائعها ما يلزم لتدوينهِ كتب مطوّلة،

ومن أسلحتها وحرابها وحيواناتها وهوامّها شيئاً لا يحصى، فضلاً عما ضمتهُ إليها الحكومة الفرنساويّة من النتائج الإحصائيّة والخرائط الجغرافية، والجداول الّتي تُبين ما صنعتهُ فيها من الأَعمال النافعة العموميّة.

وفي وسط رحبة السراي شكل هَرَميّ من الخشب مرتفع، وضعت عليهِ صور الآلهة الّتي تُعبد في تلك البلاد المختلفة مُجَسّمة، من الحديد والبرونز والجبس والخشب، على حسب أَصلها، فيا للعجب لغرابة هذه الآلهة المقدسة لدى معتقديها، المحترمة عند عابديها، فكم قُرِّبَتْ لها منهم القربان، وأُسيل في إرضائها الوهمي من دم الإِنسان، على فظاظة تراكيبها، وبشاعة مناظرها وأساليبها، واختلافها في الشؤون بين تعدد رؤُوس وقرون، وفظاعة الهيئات واللُحَى، والأَجسام، وغرابة الأَلوان والأَشكال في هذه الأَصنام.

وأَمام هذه السراي بِرْكة ماءٍ متسعة، فيها زوارق من زوارق تلك البلاد، أُخذت من الأَشجار على حالتها الأَصليّة وحُفرت بحرق النار يسير بها في الماءِ بعضُ أهاليها على اختلاف أَشكالهم وهيئاتهم وأَلوانهم وملابسهم.

ثم دخلنا (سراي كوشنشِين) وأول شيء يستلفت أَنظار الوارد إلى هذه السراي غرابة سقفها، وذلك أن تلك البلاد لها عناية بالسقف، وجعلها بكيفيّة مخصوصة على غير ما عهدناه، فسقف هذه السراي مركب من سبعة سُقُف فوق بعضها، منقوشة حواشيها بالنقوش اللطيفة، ملونة بالأَلوان الظريفة، منفصلة عن بعضها تمام الانفصال، تحملها عُمُدٌ ترتكز عليها منقوشة بالأَلوان، وأَشكال الصور الحسان والأَزهار والطيور والفرسان.

ولم يُلتزم في هذا السراي شكلُ بناءٍ مخصوص، أو شكل محل معلوم، وإنما جُعل نموذجاً للعمارات الدينيّة والبنايات الأَميريّة في تلك البلاد، نُقلت

إليهِ أحاسن أشكالها، ومحاسن هيئاتها، وإن كانت تغلب عليهِ هيئة هياكل أكثرَ من هيئة قصور الأُمراءِ.

وقد صُنعت أخشابهُ بمدينة سَايْجُون، حيث صنعها عمال وطنيون، وأَتى بها بعضهم إلى هنا، فركَّبها ولوَّنها بهذه الأَلوان والنقوش البديعة، على مرأَى من الجميع، فإذا دخل الإنسان من الباب الكبير وجد رحبة فسيحة، في وسطها حياض أُعدت لتربية الأَسماك وتنميتها بالطرق الصناعيّة، تتخللها النباتات المائيّة، وتحتاط بها الأَواني الصينيّة اللطيفة المصنوعة في تلك البلاد، مملوءَة بالنباتات، منقوشة بأَحسن النقوش.

ويحيط بهذه الرحبة كثير من القاعات، في الوسطيّة منها أشياءُ متعلقة بالأَديان، من صور وتماثيل آلهة وأَصنام يُحيط بها نفائس كثيرة من مصنوعات البلاد الفنيّة، وفي غير الوسطيّة عُرضت حاصلات البِلاد من زراعيّة وصناعيّة، فحوت جميع الأَصناف من الأَسلحة وآلات الموسيقا، والأَسِرَّة على لطافتها ورقتها، والملابس على اختلاف أشكالها، وأدوات التعليم على كثرتها للذكور وللإِناث، والخيزران ومصنوعاتهِ العديدة، والأَخشاب وأعمالهَا العجيبة، حتى نموذجات السفن صغيرها وكبيرها والفواكه والدخان والبن والنيلة والأُرز، إلى غير ذلك من الحاصلات الزراعيّة والصناعيّة.

ثم دخلنا (سراي أَنام وتُونْكِين)، وقد استعملت الأخشاب فيها أكثر من استعمالها في الّتي قبلها، وذلك لقلة الأَحجار في تلك البلاد، بحَسَب بُعد الجبال عنها، ومشقة النقل منها إليها، فلا تُستعمل الأَحجار إلاّ في بناءِ الهياكل وقصور الملوك، ويُستعاض عنها أخشاب غاية في الصلابة

والمتانة، لا تتأثر من الرطوبة كما يستعاض عنها الآجُرّ والجبس وأشجار الخيزران، وخليط يعمل من الكلس والرخام.

وقد جاءَت هاتهِ السراي أكثر نقشاً، وأحسن رقشاً، وأزيد زينة وزخرفة من الّتي قبلها، وعُملت على الطراز الأَنَامِيّ والتونكيني الكثير الشبه بالطراز الصيني في العمارات حتى يُظن أن العمارة فيهما أُخذت من الصين.

وشيدت هذه السراي على أنموذج الهياكل المخصوصة بالعبادات «پَاجُود»، صنعها ونقشها عمّال من أَنَام وتُونكين استحضروا من مدينة سَايْجُون، فاشتغلوا بعملها أشهراً طويلة حتى أوصلوها إلى ما هي عليهِ من الإتقان، ثم بقي منهم بعد ذلك من يحرس ما فيها من الحاصلات والمصنوعات.

وهؤلاءِ الأَقوام قصيرو الأَجسام، مَثَلهم كمثل مجاوريهم من سكان الهند الصيني، وجميع الصينيين، وهم أشبه بالقرود في قبح الوجوه، وبالنساءِ في طول الشعر وضفرهِ، وسعة السراويل وتلوينهِ، وخلو الوجه من الشعر لحية، وشارباً، فهم جُرْد مُرْد، ذوو أقفية عريضة، وأسنان سود من كثرة مضغ التانبول، فيجتمع للتفرج عليهم الزائرون في المعرض من كل جانب خصوصاً، حينما يشتغل الصانع منهم بصنعتهِ فإنهُ يعجبهم صبرهُ على العمل، ومهارتهُ فيهِ، استعمالهُ جميع أجزاءِ جسمهِ في عملهِ، ويعجبهم دقة أَدواتهِ.

وفي وسط هذه السراي رحبة متسعة بها تمثال «بُودَهْ»، مجسماً على شكلهِ الموجود بمدينة هَانُوِي، وهو من أَحسن أصنامهم صنعاً.

وبمحيط هذه الرحبة قاعتان كبيرتان طول الواحدة منهما 21 متراً،

وعرضها ثمانية أمتار، تصلهما ببعضهما قاعات أقل منها اتساعاً، وصُنع في اثنين منهما تماثيل كبار الموظفين الأنّاميين مجسمة، ووضع في باقيها كثير من المصنوعات، من أسلحة وحُرَب وسفن، ونقوش وصور ورسومات، وفضيات وذهبيات وحليّ ومصوغات، ومراوح، وحرائر وبسط وحصر، وأواني من الصيني والبرونز، ثم الخيزران بجميع ما يُعمل منهُ في الاستعمالات المنزليّة، والعُدد والأدوات والآلات الصناعيّة، ثم أثاثات المنزل ولوازم فرشهِ مصنوعة من الخشب، ثم التوابيت المعدّة للأموات، فإن أهل هذه البلاد شديدو الشغف بها وباقتنائها، حتى إن الأبناء يُهدون منها للآباءِ، أما الحاصلات الزراعيّة فنخص منها الرامية، وقد نجحت في هذه البلاد نجاحاً عظيماً، تسبب لها في خيرات جمة، كنا نود أن يكون في بلادنا كذلك إذ زُرعت فيها ولم تنجح هذا النجاح.

ثم انتقلنا إلى (معرض كامبوج) المبني على شكل هيكل «أنقروات»، وكامبوج هذه مملكة من ممالك الهند الصيني، تحت الحماية الفرنساويّة، سكنها في السابق أقوام بلغوا الذروة العليا في التقدم والتفنن، كما تشهد بذلك آثارها العديدة، وأبنيتهم الفائقة المشيدة، ولكنهم انقرضوا لأسباب لم تتأكد حقيقتها وخلفهم هؤلاءِ الحاليون، ويدّعون أنهم من نسلهم.

ومن ضمن آثار القدماءِ هيكل أنقروات العظيم الاتساع، العالي البناءِ، وقد دلّت بعض الكتابات الّتي عُثر عليها في بعض جهاتهِ أنهُ قبل المسيح بمائتي عام، ويشغل مسطحهُ أكثر من 6000 متر مربع يحيط بهِ خندق عرضهُ مائتا متر، ولهُ برج ارتفاعهُ ثمانون متراً.

وقد اجتهد من شاد بناءَ هذا المعرض الكامبوجي في نقل بعض هيئة هذا

الهيكل، فأخذ طوابع كثيرة بالجبس من نفس الهيكل الأصلي، وطوابع مما أودع منهُ ببعض المتاحف، وشاد هذا المحل على هيئة أحد أبواب ذلك الهيكل الجسيم، وجعل فوقهُ برجاً كبرجهِ، إنما ارتفاعهُ نصفهُ، وهو أربعون متراً، فجاء بناءً فاخراً وأثراً عظيماً دلَّ على ما كان لهؤلاءِ القوم من سالف القوة في الأعصر الخالية، وَوَجّه الأنظار إلى استطلاع آثارهم، والوقوف على أخبارهم، فقصدهُ زائرو المعرض من كل فج يتمتعون بمنظرهِ وينزهون الطرف في بهجتهِ ولطافتهِ.

وقد جُعل برجُه على شكل بديع فركّب من سبع طبقاتٌ هرميّة، تعلو الواحدة منها الأُخرى، حتى تنتهي إلى ذروة عالية، وكل طبقة من هاتهِ الطبقات معمولة على هيئة مظلات، كأنها جُعلت لتمنع حرارة الشمس عن هذا المعبود الذي شيد الهيكل برسمهِ، وتُظل بظلالها هذا الإِله الذي أُقيم لتمجيد اسمهِ، وقد حوت هذه المظلات والطبقات كثيراً من أحاسن الصور والرسوم، ورُسم حوالي كل مظلة منها صورة ثعابين، الواحد منها لهُ مائة رأس.

واشتمل هذا الهيكل من الداخل على كثير من التماثيل المنقولة من نفس الهيكل الأصلي، مجسمة بالجبس، أو منقوشة بالتصوير على حسب وضعها هناك.

وإذ دخلناهُ وجدنا بها أصنافاً كثيرة من مصنوعات تلك البلاد ومزروعاتها قد أُحسنت رصّاً، وأُجيدت صفّا، فدلت على عود روح العمران إلى هذه البلاد، وأنهم إن داوموا على هذا الاجتهاد حصلوا على مجد الأجداد.

ثم انتقلنا إلى (القرى والضياع الأجنبية) وما يتخللها من الأماكن، وكنا

ذكرنا أن وراءَ قصور المعارضْ السابقة قرى وضياعاً كثيرة بُنيت على هيئتها الأصليّة، يسكنها عالم من أهلها الحقيقيين لابسين ملابس بلادهم، مشتغلين بأعمالهم المعيشيّة فيها، فيتخيل الإنسان أنهُ في إحدى تلك القرى الوحشيّة بين خلائقها الهمجيّة.

فهذه (ضيعة من ضياع سنغال) بأفريقية بُنيت حوالي برج مماثل للأبراج الحربيّة الّتي شادها الفرنساويون في تلك الجهات، أما البرج فبناءٌ ذو طبقتين من الأبنية العادية، سقفه معلق بهِ الراية الفرنساويّة، وبالبناءِ نوافذ يدخل منها الضوءُ، وتستعمل وقت قيام الحرب، وقد أوْجدوا كثيراً من هذه البروج في جهات مختلفة، واستعانوا بها كثيراً، وأما الضيعة فمساكنها على الحالة الهمجيّة الأصليّة مصنوعة من القش والطين، مستديرة الشكل هرميّة السقُف مستديرتها، أيضاً وبهذه الضيعة جميع المصنوعات والصناع الوطنيين من صائغ وحائك وصانع عصي من الخيزران وغيرهِ مما يستعمل عندهم، هذا والموسيقا الوطنيّة ذات الأصوات المزعجة تسير في وسط القرية، حيث لا ظل ولا شيءَ يقي من حرّ الشمس، وحيث يحجب نظر الإنسان عن غير القرية سور عال من القش، فيرى نفسهُ كأنهُ في إحدى قرى سنْغَامبيا الحقيقيّة، تحيط بهِ نساؤُها ورجالها وأطفالها بملابسهم الّتي لا تكاد تستر أجسامهم لولا التشديد من طرف الحكومة الفرنساويّة.

وهذه (مساكن مداغشقر) الأهليّة على حالتها الأصليّة.

وهذا (الفندق الأنّامي) وراءَ السراي الأنّاميّة، جعل بناؤُهُ على هيئة الفنادق الأناميّة ظاهراً وباطناً، لكن لم يوجد بهِ من مآكلهم العاديّة شيءٌ لعدم الرغبة فيها، فإنها عبارة عن أسماك منتنة، وبيض متعفن، ولحوم كلاب مشويّة، وغيرها مما تعافهُ النفس.

وهذا التياترو الأنامي هُيِّءَ على شكل ملاعب تلك البلاد، ويسع خمسمائة نسمة من المتفرجين، فيروْن غرائب الألعاب من عجائب المخلوقات، وقد مرّ خلوها من الجمال على كل حال.

وهذا (قصر معروضات جُوادِيلُوبْ) بما حواهُ من الأَصناف والحاصلات الزراعيّة والمعدنيّة، وأخصها معمل تكرير السكر، وعمل الروم.

وهذه النباتات الّتي تنبت في المستعمرات الفرنساويّة، وقد عملت لها أماكن مغطاة بالزجاج تمدها بالحرارة اللازمة لها.

وهذا (محل من محلات الاتجار) الّتي أنشأتها فرنسا في بعض بلاد أفريقيّة جعل أنموذجاً لمحلات الاتجار الأوروبيّة الّتي يقيمها الأوروبيون في البلاد المتبربرة، فيجعلون فيها ما يروج عند أَهليها من البضائع فيستبدلونها منهم بما عندهم من الحاصلات.

وهذه (ضيعة من أَعمال كاليدونيا الجديدة) المخصصة بإرسال المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة إليها، رأَينا فيها محلاً على هيئة مساكن المحكوم عليهم، وهم يُعْطوْن في تلك الجهات أرضاً يزرعونها، فتزاد لهم، ويزاد في حريتهم من الإدارة هناك كلما رأتهم مستمرين على حسن السلوك والاستقامة.

وهذا (قصر الاستعلامات التجارية) وقد جُعل بجانب هاتهِ المعارض الاستعماريّة، يجد فيهِ الطالب أنموذجات من جميع أصناف الحاصلات الأَجنبيّة الّتي تُجلب إلى المستعمرات الفرنساويّة مع بيان أثمانها وكيفيّة إرسالها، وأنموذجات من الحاصلات الّتي ترسل من المستعمرات إلى فرنسا لاستعمالها فيها وصنعها بها، ونموذجات من البضائع الّتي ترسلها

فرنسا لتلك المستعمرات، واستعلامات كثيرة تتعلق بما ذكر.

هذا ما رأيناهُ مما يتعلق بقرى المستعمرات الفرنساويّة، وقد شيد بجانبها **(قرية من قرى بلاد الجاوه)**، إحدى المستعمرات الهولانديّة، فتفرجنا عليها، ورسم الدخول فيها خمسون سنتيماً على ما تذكر.

وقد تعهد بتشييد هذه القرية المسيو «برنار»، وهو من أَغنياءِ فرنسا، أَقام في بلاد الجاوه ثماني عشرة سنة، وعرف كل ما هم عليهِ من الأَخلاق والعوائد والطباع، فأحضر منهم إلى المعرض 60 شخصاً، وبنى لهم أكواخاً على طراز قراهم، معمولة جميعها من الخيزران، محمولة على قوائم من خشب ترفعها عن الأَرض لتقي من بها شر الحيوانات الضارّة، وجُعل فيها مَحَلٌ لاستذاقة الأَشربة، يقصدهُ من أراد الوقوف على حقيقة مشروبات هذه البلاد، ومحلاً لصناعة القلانس المتخذة عندهم من أشجار الخيزران، تُصنع أَمام المتفرجين، ومحل طباخة تشتغل فيهِ طابخة بتجهيز الأُرز الذي هو طعامهم المعتاد، وباقي الأَكواخ يسكنها الرجال والنساءُ والأطفال، يشتغلون في داخلها وخارجها أَمام المتفرجين بأَعمالهم المعاشية من تجهيز الأطعمة واللوازم المنزليّة، ولا ملابس تستر جميع أَجسامهم، بل لا يسترون إلا قسماً خاصّاً منها ببعض الأَقمشة أعطاهُ لهم من نظّم هذه القرية محافظة على الأَدب ألزمهم بلبسهِ، بدلاً عما اعتادوهُ من الملابس الرقيقة الشّفافة الّتي لا تحجب فكان لبسهم لهذه الملابس الثخينة على شدة كراهةٍ منهم لها، حتى إذا انصرف عنهم المتفرجون خلعوا هذه، ولبسوا ما اعتادوهُ من باب ارتياح النفس إلى ما أَلِفتهُ واعتادت عليهِ.

أَما موسيقا هؤُلاءِ الجاويين وقد حضر أَحاسن صناعهم بآلاتهم البلديّة إلى هذه القرية ومعهن الراقصات متحليات بالحلي والملابس الحريريّة،

متوشحات بالأَرْدِيَة الرقيقة البهيّة، فما في هذه الموسيقا البربريّة من الشدة والدبدبة غير المألوفة يُجْبَرُ بما لهاتهِ الراقصات من اللطف ورشاقة القد، واعتدال القوام، وتناسب الأعضاءِ، وحسن الوجوه، وجمال تركيبها ولطافة العيون وظرافتها، وخفة حركاتهنَّ في حال الرقص، وإن كن سُمْر الألوان لكنها لاتشينهنَّ، بل ربما كانت مستحسنة لدى كثير من الناس.

هذا والسائر في هذه القرية وما جاورها من القرى والمساكن المعمورة بهؤلاءِ الأقوام يرى نفسهُ كأنهُ سائر في أنحاءِ الأرض القاصية البربريّة، متنقل من أفريقيّة إلى آسيا، ومنها إلى أمريكا، مخالط أشخاص جهاتها المختلفة، ناظر مساكنهم داخلاً وخارجاً، مطلع على أحوالهم المختلفة العادات مشاهد نساءَهم ورجالهم وأطفالهم، مستمع نغمات أناشيدهم وموسيقاتهم، عارف كيفيّة مآكلهم ومشاربهم، وذلك كلهُ في بعض ساعات.

ثم انتقلنا إلى (معرض جمهوريّة أفريقيّة الجنوبيّة)، وقد سبق جَعْلُ محل هذا المعرض على مقربة من القرى السابقة، شادتهُ جمهوريّة هاتهِ البلاد على مصاريفها، وعملتهُ على هيئة مساكن الهولانديين الّذين صاروا من أهلها، وبلغ ما صرف عليهِ 80000 فرنك، عرض فيهِ أربعة وخمسون من كبار تجارها وزراعها أصناف حاصلاتهم وبضائعهم، من حبوب ودخان وأصواف وجلود أبقار وأوعال ونمور ومن طيور وريش نعام، وحاصلات معدنيّة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والفحم، حتى عرضوا من ضمنها قطعة من الذهب المعدني على حالها المستخرجة هي عليهِ زنتها 3000 رطل، استخرجت من معادن ذهبيّة هنالك مملوكة لبعض الآحاد، عمقها 90 قدماً، يوجد الذهب فيها باعتبار خمس أواق في الطونولاطة الواحدة من الترب، فللهِ دَرُّ أبناءِ الهولانديين الّذين أسّسُوا هذه الجمهوريّة، وصارت

بهم هذه الأرض بعد أن كانت صحراءً مقفرة جنة ناضرة، تُحسد على غناها وثروة أهلها.

وإذ قد انتهينا بمعرض هذه الجمهوريّة الأفريقيّة من النصف الأول من قسم إِسپلاَنَاد ديزانفاليد، انتقلنا إلى النصف الثاني منهُ المنفصل عنهُ بالطريق المتسع الوسطي، كما تقدم المخصص ببعض النظارات، وبعض المصالح العموميّة.

فدخلنا **(معرض وزارة البوستة والتلغراف)**، وهو عبارة عن مربع كبير منقسم إلى قاعتين كبيرتين، وُضع في إحداهما الآلات التلغرافيّة ومواد البوستة والتلغراف، ولوازمهما على ما في الجميع من الإتقان، وفي القاعة الأخرى وضعت أنموذجات العربات المخصصة بنقل البريد في السكك الحديديّة، وفي المدن والقرى والضياع مختلفة الأشكال بحسب اختلاف اللزوم، وقد أعجبنا في المخصصة بالسكك الحديديّة منها الكيفيّة الّتي عُملت فيها؛ لتسهيل تناول المكاتيب وغيرها منها وإليها حال سير الوابور بالمحطات الّتي يقف عندها، وهذا المحل على ساذجيتهِ وخلوهِ عن الزخرفة والزينة عظيم النفع جداً، لما اشتمل عليهِ من موجبات تقدم هذا العصر.

ثم دخلنا **(معرض التحفظات الصحيّة ومساعدة الفقراءِ)**، وقد أُقيم على نفقات نظارة الداخليّة، واشتمل على نموذجات من جميع ما يُستعمل في سبيل حفظ الصحة في المدن والقرى، وعلى أنموذجات مما تُجريهِ الإدارة الخيريّة المخصصة بمعاونة المعوزين والفقراءِ.

وقد خصصت إحدى قاعاتهِ بما يلزم اللقطاءِ وأطفال بعض الفقراءِ الّذين

يضطر أهلهم لتركهم على قارعة الطريق، فتأخذهم إدارة مساعدة الفقراءِ، وترسلهم إلى القرى لتربيتهم بها في محلات مؤتمنة على مصاريف من طرفها، ثم تقوم بتعليمهم حتى يشتد أَزْرُهم، ويقدروا على معاشهم، فاحتوت على نموذجات كثيرة من الأَثداءِ الصناعيّة لرضاعهم، والمهود وآلات تعليمهم المشي، وفراشهم، وإلى غير ذلك من لوازمهم حتى طرق لفّهم على تعددها.

وخصصت قاعة أخرى برسومات، المستشفيات والبيمارستانات، وما يلزم لها على اختلاف أشكالها، وتعدد طرق المحافظة فيها على صحة المرضى والعناية بأَمرهم.

وخصصت أخرى بحاصلات مدرسة العُمْي والخرس، ومصنوعاتهم، وكيفيات تعليمهم حتى الموسيقا والبيانو، وأُخرى بعرض مادة التلقيح الجدري المستحصل عليها من الحيوان، وأخرى بأَدوات تهوية الأَماكن وتنظيفها وتنقيتها من مواد العفونات والميكروبات المضرة.

ثم دخلنا (معرض نظارة الحربيّة)، وقد اعتني كل الاعتناءِ بتشييد هذا المحل، وجعلهِ جديراً بأن تعرض فيهِ لأَنظار العموم حالة فرنسا الحربيّة بريّة وبحريّة، فَجُعل على هيئة قلعة من القلاع القديمة ذات باب كبير وبروج عظيمة، وخنادق عليها قناطر تُفْتح وتُغلق بحسب اللزوم، وداخلهُ أشبه بقشلاقات العساكر الّتي بداخل القلاع في الأَزمان السابقة، رُصّت فيهِ الأسلحة على اختلاف أصنافها رصّاً، وُصفت صفّاً.

فهذه أكبر المدافع الّتي أُوجدت لاستعمالها في البر على اختلاف

أشكالها، وُضعت في رحبتِهِ، وجُعلت في قاعة مجاورة لها مصنوعات الحديد المتعلقة بالحرب، ومن ضمنها صفائح مدرعات سمكها خمسون سنتيمترٍ، بحيث لا يؤثر فيها أي مؤثر كما دلت على ذلك التجربة والاختبار.

وفي جهة ثانية مدافع بحرية تبلغ زنة الواحد منها 66 طونولاطه، وطولها 14 متراً.

وفي قاعة على حدتها الخرائط الإيدروجرافيّة، أي: المختصة برسم الأنهر والبحيرات، وأنموذجات من جميع الملابس ولوازم التجهيزات البحريّة.

وخصصت قاعة على حدتها بتاريخ الهندسة الحربيّة، وكيف انتقلت من حالتها الأوليّة حتى تدرَّجت إلى ما هي عليهِ الآن من التقدم، مبين ذلك بخرائط ورسومات تنبيءُ عن الاستحكامات القديمة، وكيف كان الدفاع بها، والاستحكامات الجديدة، وزيادة إحكامها، ويتبع ذلك ملابس رجال الهندسة الحربيّة من يوم أنشئت إلى هذا اليوم بتغيُّراتها وتبدلاتها.

ثم قاعة بتاريخ الطوبجيّة فاحتوت على أصناف المدافع، من عهد وجودها على حالتها الأصليّة إلى ما وصلت إليهِ الآن، ويتبع ذلك أيضاً ملابس الطوبجيين في هذه الأزمان من بدئها[1] إلى هذا العهد.

ثم قاعات أُخر بالتلغرافات الحربيّة، وبيان كيفياتها، وهيئات استعمالها، ثم أُخَرُ بالأسلحة على تعدد أشكالها ومقذوفاتها، من بنادق وطبنجات وآلات تبديد وفتك مختلفات.

ثم قاعة بالخرائط الجغرافيّة الخاصة بالجيوش الفرنساويّة، وأهم ما فيها

(1) في الأصل: «بدوها» المحرر.

خريطة عُملت لأرض فرنسا بمقياس 1/ 80000 يتعهدها ضباط من كبار ضباط الجيش بملاحظة أي شيءٍ يحدث، فيجعلونهُ فيها.

ثم قاعة بعرض كتابات الضباط الحربيّين الشهيرين، وقد أُخذت من كتبخانة نظارة الحربيّة فيجد الزائر خطوطاً كثيرة لأكبر الضباط، منها خطوط نابليون الأول.

ومن المحلات الّتي ترد عليها الزائرون في هذا المعرض الحربي كثيراً محلات خصصت بعرض الملبوسات الحربيّة المستعملة الآن بريّة وبحريّة، وقد صُوّرت العساكر والضباط فيها بالشمع مجسمة حسب الألوان والأشكال الطبيعيّة، وجُعلت جموعاً متعددة على هيئات مختلفة كأنها حقيقيّة.

ويحرس هذا المعرض 130 عسكرياً مِن جميع أصناف الجيش الفرنساوي، بين بري وبحري، لابسون ملابس جيوشهم، متحلُّون بأسلحتهم، وذلك مما يزيد هذا المعرض هيبة وأُبّهَة.

وعجيب هذا الاعتناء بالأشياءِ الحربيّة الّتي لم يجعلها الإنسان إلاّ للفتك ببني جنسهِ وإخوتهِ في القرابة الأصليّة، وأعجب من ذلك عرضها حال كونها بهذه الدرجة الهائلة في هذا المعرض السلمي، وقد جُعل لعرض الحاصلات الصناعيّة والزراعيّة وغيرها من المعروضات النافعة للنوع البشري، بقصد التنافس والتشجيع لمن أحسن عملاً، والتنشيط لغيرهِ، اللّهم إلاّ أن يقال إن من شادوا هذا المعرض الحربي لا ريب أن قصدهم منهُ حسن؛ فإنهُ يُثبت قوة فرنسا الماديّة، وإنهم بهذا الإثبات يتوصلون إلى استدامة السلم لا إلى إثارة الحرب، فإن الأعداءَ متى رأوْا لها تلك القوة، وعلموا أن لا طاقة لهم بها كفّوا عن محاربتها، واستمر السلم، بخلاف ما إذا لم يروا ذلك، فربما ظنوا عدم القوة واعتقدوا التهاون، فينتهزون هذه الفرصة لمفاجأتها وشن الغارة عليها.

ومهما يكن الحال فإنهُ يستنتج من هذه المعروضات أن ابن آدم كما اشتغل وتفنّن في الأشياءِ اللازمة لمعيشتهِ ورفاهيتهِ وسعادتهِ وزيادة تمتعهِ، والمحافظة على صحتهِ، اشتغل وتفنّن في الآلات والأدوات الّتي تَفتِك بمثلهِ، وتُقَلِّلُ من نسلهِ، وتَحرِم الناس من عملهِ، والصانع من صنعهِ، والعقلاءَ من نتائج فكرهِ، كل ذلك بعلة الدفاع عن النفس والوطن، والمحاماة عنهما، ألا ترى هذه السراي الّتي خصصت بالمعروضات الحربيّة، وتلك الّتي خصصت بالصناعات المتنوعة، فإن الأُولى حصل التفنن فيها بجميع أدوات الفتك، والثانية حصل التفنن فيها بجميع آلات النفع للنوع البشري.

ثم دخلنا (معرض القباب الطيّارة المعروفة بالبالون)، وقد جُعل البناءُ الذي خصص بهذا المعرض بجوار معرض الحربيّة لمناسبة المنافع الّتي تحصّلت عليها الجيوش بواسطة هذه القباب في حرب السبعين، ولما يُظن استحصالهُ بها من منافع أُخرى زيادة عما تحصلوا عليهِ، خصوصاً أن الحالة الّتي وصلت إليها هذه القباب كانت من عمل الكومندان رُونَار، أحد الضباط الحربيّة، فكأنها من جملة آلات الحرب.

وبناءُ هذا المعرضِ مربعٍ مرتفع إلى جهة سقفهِ قبة على الطراز الأَخير، عُملت تحت ملاحظة الكومندان رُونَار المومأ إليهِ، معلق بها زورقها المعدّ لركوب من ترتفع به، وفيهِ بطاريّة كهربائيّة.

ويجوانب جدران المحل رسوم مختلفة مجسمة وغير مجسمة، تدل على تاريخ القباب الطيارة كيف كانت في الأَول، وكيف تقدمت تدريجاً حتى وصلت إلى ما هي عليهِ.

والقوم شديدو الاعتناءِ بأمرها في جيوشهم، حتى إنَّهم خصصوا بكل جيش بالوناً مع لوازمه، وهو قبة من الحرير مدهونة بزيت دبَّروهُ بكيفيّة مخصوصة، لا يُؤثر فيها الماءُ، وزورق يُعَلّق بها فيهِ آلة لتجهيز غاز الإِدروجين، وحبال لإِمساك القبة إذا أُريد عدم إطلاقها في الهواءِ، وعَيَّارات تُستعمل في إنزالها، وآلة بخارية تُدير تلك العيَّارات.

وأعظم ما وُجد من القباب الطيارة منذ اخترعت إلى هذا اليوم القبة الّتي اخترعها القومندان رُونار السابق ذكرهُ، وسمَّاها «فرنسا»، وعرض في هذا المحل قبة على شكلها معلق بها الزورق الذي رأيناهُ، وطولهُ 33 متراً، ورقاسته قطرها سبعة أمتار، وماكينتها الديناميكيّة قوتها ستة خيول.

وقد جُرِّبت القبة المسماة فرنسا أول مرة في يوم 9 أُغسطس سنة 1884، وبعد أن سبحت في الهواءِ مسافة كيلومترات كثيرة أمكنها العودة إلى المحل الذي قامت منهُ، مع أن الهواءَ كان مواجهاً لها، ثم عُملت تجربة ثانية عنها، ولم يكن النجاح فيها بأقلّ من الأول، وذلك في 28 أكتوبر سنة 1884.

وهاتان التجربتان اللتان نجح فيهما هذا القومندان يَعُدُّهما أهل هذا الفن بدءَ تاريخ جديد بالنسبة لفن السباحة الهوائية.

ولم يَثنِ عزمهُ عن زيادة البحث والاستمرار على الكد، بغية الوصول إلى أكثر مما وصل إليهِ في فرنسا هذه من السرعة، وذلك بأن يتيسر لهُ تحريك هاتهِ القباب الهوائيّة بماكينات كهربائيّة أكثر قوة، وأقل حجماً وثقلاً من الّتي استعملها في هذه، وفي الأمل أن يصل هذا الحاذق إلى متمناهُ، فإنهُ حل عُقْدَةَ ما هو أصعب من هذا، من جعل هذه القباب تسير حسب طوع

الراكب ورغبتِهِ، لا حسب الهواءِ وعدم راحتهِ، وقد وصل إلى ذلك بالرقاسة الّتي جعلها وراءَ الزورق، ودل على نجاحهِ في ما ذكر التجارب الّتي ذكرناها.

ثم دخلنا (معرض الاقتصاد الاجتماعيّ) وفيهِ قد اعتنى أصحاب الشأن بأن يرى الناظر بالحس كيف يكون الاقتصاد وكيف يُتوصل إليهِ من بابهِ، فجعلوا محلاً اقتصادياً للأكل يأكل فيهِ الإنسان بأقل من نصف فرنك أكلاً نظيفاً طيّباً، وجعلوا فرناً اقتصادياً، الرغيفُ فيهِ بعشر سنتيمات، ووراءَهُ نادٍ يجتمع إليهِ الْعَمَلة، والْفَعَلة، فيجددون فيهِ من الجرائد والكتب، والمشروبات النافعة ما يغنيهم عن التردد على محال المسكرات، فيتوفر عليهم ما لهم ووقتهم وعقلهم، ووراءَ ذلك كلهِ أنموذجات بيوت بناها كثير من الشركات في استخراج المعادن وغيرها لسكنى عَمَلَتِها، جمعت كل اللوازم مع النظافة والاقتصاد في المصرف، ومراعاة لوازم الصحة حسب ما يرام، وبجوار هذا كلهِ ما هو أفضل منهُ أيضاً من أنموذجات المحال الّتي شيدها أهل البر والإحسان لمساعدة الفقراءِ والمعوزين في غذائهم وسكناهم وملبسهم، ثم إن كثيراً من الشركات الاقتصاديّة، كشركات السيكورتاه، وصناديق التوفير وغيرها، عرضت نتيجة أعمالها بواسطة جداول إحصائيّة، وأرقام حسابيّة، أبانت فيها منافعها وما توافر بواسطتها للعمال من ادّخار المال عن الكسب الحلال.

وها نحن قد انتهينا بهذا اليوم من التفرج على ما بقي من المعرض، بَيْدَ أنَّا نريد البقاءَ بهِ هذا المساءَ لنتفرج على (الاحتفال بمشايخ بلاد فرنسا) فيهِ، والزينة الّتي تُجعل من أجلهم بهِ.

وذلك أن مشايخ بلاد فرنسا جميعاً دعاهم المجلس البلدي بباريس للحضور إلى وليمة في هذا المساءِ الساعة 7 بعد الظهر في سراي الصناعة «باليه دُلأنْدُستري»، بجهة شان زيليزيه، فيجتمعون أولاً بديوان بلديّة المدينة، ثم يخرجون منهُ مارّين بشوارع باريس الكبيرة، تقدُمهم فرقة من العسكر، يليها بعض محضري المجلس البلدي الپاريسي، فشيخ البلديّة، وعلى جانبيهِ شيخَا بلدين من أصغر بلاد فرنسا الّتي أجابت الدعوة، فباقي المشايخ وعددهم 1182 شيخاً، مرتبين بحسب ترتيب المديريات على أَحرف الهجاءِ، يفصل كل فرقة عن الأُخرى قائم من الخشب، مكتوب عليهِ اسم المديريّة، يحملهُ محضر من محضري بلديّة پاريس، فيستمرون في السير حتى يصلوا إلى سراي الدعوة، والساعة ستة، ثم يحضر رئيس الجمهوريّة والساعة سبعة، حين يكونون جالسين على الموائد الّتي هُيئت لهم.

وقد لقوا في مسيرهم هذا من أَهالي پاريس إكراماً وتعظيماً لا مزيد عليهما من الترحيب والتصفيق حتى وصلوا السراي، وجلسوا في مجالسهم المعدة لهم، ولما حضر رئيس الجمهوريّة جلس على مائدة الشرف، وجلس معهُ عليها المسيو شُوتان رئيس بلديّة پاريس، والوزراء، والمسيو إيفل صاحب البرج، والمسيو بِرْجِيه، وأَلفان من مديري المعرض.

وفي أثناءِ تعاطي الطعام شرب رئيس بلديّة پاريس على صحة رئيس الجمهوريّة، وشرب هو على صحة سائر البلاد الفرنساويّة ومشايخها.

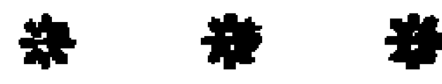
وكانت حفلةً عظيمة؛ إذ حضرها غير من ذكرناهُ من مشايخ البلاد والوزراءِ كثير من النواب وأعضاءِ السناتو ومستخدمي الحكومة الكبار وضباط الجيوش البريّة والبحريّة، حتى اضطروا إلى تجهيز المآكل بالبخار،

وقد رأيت نسخة من جريدة «إِستافِيت» طُبعت في خصوص هذه الوليمة، رُسم فيها بالتصوير أشهر مشايخ البلاد، وذكر فيها أسماءُ الجميع مع تفاصيل حال الوليمة، وما احتوت عليهِ من المآكل والمشارب، فأردت ذكر بعض شيءٍ منها لغرابة ذلك.

وهو أن عدد خدمة الموائد ألف خادم، سوى من بداخل محل طَهْي الطعام، ممن يتناول منهُ الألفُ المذكورون، وعدد الطباخين 95 طباخاً، وضِعفهم من أتباعهم، غَسَلَةِ الأَصحن والأوعية، وقد جهزوا من الشوربة 2500 لتراً، ومن المرق 650 لتراً، ومن الأسماك 3000 سمكة كبيرة، ومن كبار أطباق لحم البقر 1500، ومن الفراخ الهنديّة 1700، وعدد الأطباق 80000 طبق، بحيث لو رُصَّت فوق بعضها لبلغ ارتفاعها 1800 متر بقدر ارتفاع برج إيفَل ست مرات، وذلك لأنّ كل عشرة أطباق منها ارتفاعها عشرة سنتيمترات، وعدد ما شرب من الأَنبذة المختلفة 18300 لتر، تفصيلها 15000 زجاجة نبيذ عادي، و 3000 زجاجة نبيذ جراڤ، و 1800 مادير، و 4500 پومار، و 4000 شامپانيا، وقد لزم لأجل تبريد هذه الأَنبذة 600 كيلو جرام من الثلج، هذا عدا ما يلزم لتبريد ماءِ الشرب.

وبعد الفراغ من الأكل وشرب القهوة شربوا الدخان في حديقة السراي، ثم قصدوا المعرض من طريق شاطىءِ نهر السين، حتى وصلوهُ، فاحتفل بهم الناس، وكان فيهم رئيس الجمهوريّة والوزراءُ وخلق لا يُحْصَوْن، ووجدوهُ مزيناً مستنيراً، فتفرجوا عليهِ وعلى الفساقي ذات المياه المنورة بالكهرباءِ، المختلفة الأَلوان البَهِجة، وعلى برج إيفل، وهو مضيءٌ كأنما يشتعل لهباً، وصدحتْ الموسيقا، وكثرت الضوضاءُ، وصار كل من قابلهم يصيح «يعيش مسيولُه مِيرْ» - شيخ البلد - حتى إن بعض الناس رأى مع بعض

هؤلاءِ المشايخ بنتاً لهُ في غاية الجمال ووالدها تلوح من سيماه الساذجيّة، فحضنهُ هو وأصحابهُ صائحين «يعيش مسيولْمِيرْ»، وصاروا يقبّلونهُ فظن ذلك الشيخ أن هذا فرحٌ بهِ وسرور بلقائِه، واحتفالٌ بأَمرِهِ، وقابل التقبيل بالتقبيل، وما درى هذا الساذج أنهُ ليس المقصود بالذات، وإن ذلك مقدمةٌ للوصول إلى من معه إذ ما لبثوا أن تركوهُ وانقضّوا على الفتاة يقبلونها ويعانقونها كثيراً، ويصيحون «تعيش بنت مسيو لمير»، والناس تُصفق وتصيح تهنئةً لهم.



(اليوم الثامن عشر في باريس)

هو آخر أيام الإقامة بها، قصدنا فيهِ زيارة (**الكتبخانة الأهليّة**)، فتوجهنا إليها، ودخلناها من بابها الواقع على سكة رِيْشِلِيُو القريبة من ميدان التياتر الفرنساوي، وتحصلنا من محل إدارتها على رخصة بزيارة محلاتها الّتي لا تزار بغير رخصة.

والمؤَسس لهذه الكتبخانة هو الملك فرنسوا الأول، حيث أَمر بشراءِ الكتب من أنحاء العالم، وبنسخ ما لم يتيسر شراؤُهُ منها، كما أَنهُ أَلزم كل طابع كتاب أن يودع نسخة منهُ فيها، وهي لم تجعل في محلها الحالي إلاّ في سنة 1724 بعد أن تنقلت قبلهُ إلى محلات عديدة.

ولازالت من حين نشأَتها تتوارد الكتب والنوادر إليها، حتى وصلت إلى ما هي عليهِ الآن، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام: **الأول**: قسم المطبوعات والخرائط والمجامع الجغرافيّة، **والثاني**: قسم الكتب المنسوخة بخط اليد، **والثالث**: قسم المسكوكات القديمة والأَنتيكات. **والرابع**: قسم (اسْتَامپ) المرسومات.

أما قسم المطبوعات والخرائط والمجامع الجغرافيّة فيشتمل على ثلاثة ملايين من المجلدات، وقد حسب بعضهم أَنهُ لو رُصت الرفوف الموضوعة عليها الكتب جميعها بجوار بعضها لبلغ طولها ستين ألف متر، وقد انتُقِيَ من الطبعات أحسنها، وجُلّدت بأَحسن تجليد وأتقنهِ، وليس لهذا

القسم فهرست تام لتوارد الكتب عليهِ كل يوم، فلا ينقطع العمل فيه يوماً من الأيام.

ويتبع هذا القسم قاعتان كبيرتان، وهما أكبر قاعات الكتبخانة: إحداهما: قاعة المطالعة العموميّة، فلا يُمنع من الدخول فيها أَحد، والأُخرى: قاعة الاشتغال، وهي لابد للدخول فيها أو الاشتغال بها من تصريح مخصوص؛ لأنها خصصت بمن يُريد التأليف أو التصنيف والكتابة.

وهذه القاعة مستحدثة في سنة 1868، وهي في غاية الاتساع والعظم، مربعةٌ، يبلغ مسطحها 1155 متراً، مسقفةٌ بتسع قِباب مكسوةٌ من الداخل بالقيشاني، يسطع بها الضوءُ من نوافذ في هذه القباب، محمولة تلك القباب على ستة عشر عموداً، من أَحسن العمد الحديديّة، طول الواحد عشرة أمتار.

وأُمناءُ الكتب جالسون في صدر هذه القاعة على مرتفع في شكل نصف دائرة، ووراءَهم محلات الكتب طبقات فوق بعضها، يُتوصل إليها بمماشٍ وسلالم في الطول والعرض.

وفي جهتي القاعة يمنة ويسرة طاولات للعمل، وأَمامها محلات لجلوس المشتغلين بالتأْليف والكتابة، عددها 334 محلاً في غاية السعة والانتظام تمر من تحتها أَنابيب حاملة للحرارة لتدفئتها وقت اللزوم.

وإذا دخل الإنسان قاعة من هاتين القاعتين أُعطيت لهُ ورقة مطبوعة ليكتب عليها اسمهُ وسكنهُ، وتبقى عند مستخدمي الكتبخانة، يقيدون فيها كل ما يأْخذهُ من الكتب أو يرجعهُ مما أَخذ، حتى إذا انتهى من عملهِ، وأَرجع الكتب أُعطيت لهُ هذه الورقة مكتوب عليها: إرجاع الكتب، فإذا خرج من الباب

سلّمها إلى المكلّف بهِ، أما إذا كان عندهُ أوراق أو كتب خاصة بهِ ويريد أن يخرج بها فلا يتأتى لهُ ذلك إلّا بالاستحصال على تصريح خصوصي من أحد أمناءِ الكتبخانة.

وإذا طلب أحد كتاباً [في] أثناء الاشتغال بأيّةِ القاعتين انتقل إلى بعض الأمناءِ الجالسين، وأخذ ورقة، وكتب فيها اسم الكتاب المطلوب، ثم يعود إلى محلهِ، فيحضر إليهِ الكتاب في الحال، هذا وعلى الطاولات المحابر والأقلام اللازمة لكل أحد، وفي دائر القاعة الكتب الّتي تكثر مراجعتها، كالقواميس، بحيث لا يحتاج من يطلبها إلى انتقال على ما ذكر، وبالقرب من محل الأمناءِ موضع الجرائد العلميّة الّتي تصدر في أوقات معلومة، وقدرها نحو أربعين، فيرجع إليها من يريد مراجعتها.

وأما قسم المرسومات فيشتمل على مليونين ونصف مليون استامپ، ويجمعها 14500 مجلد في داخل 4000 محفظة.

وأما قسم كتب النسخ فيحتوي على 100000 مجلد.

وبجوارهِ قاعة صُفّت فيها أنفس كتب هذه المكتبة، ونوادرها، من حيث الرسم أو الكتابة أو التجليد أو القدم أو الندرة.

وأما قسم المسكوكات القديمة والأنتيكات، فيشمل نحو 400000 من السكك العتيقة، وعلى ما لا يحصى من الأنتيكات المتنوعة الغالية القيمة.

وأهم مايستلفت الأنظار ضمن غرائب هذا القسم وعجائبهِ بالنسبة للمصريين «منطقة البروج» الّتي أخذت من هيكل دندرة بصعيد مصر.

وقد أراد سيدي الوالد العزيز أن يستفهم من أمناءِ هذه الكتبخانة عن بعض

كتب عربيّة تُهمهُ، لعلهُ يوجد شيءٌ منها هناك فتوجهنا إلى مأمور قسم الكتب المشرقيّة، وطلبنا منهُ فهرست الكتب العربيّة، فلم نجد لها من سوءِ الحظ فهرستاً، بل أحضر لنا دفاتر متعددة؛ كل واحد منها يحتوي قسم منهُ، على شيءٍ من الكتب العربيّة، غير مرتبة ولا مبوّبة، فلم يتيسر وجود ما أراد، وحملنا ذلك على قلة طلب الكتب العربيّة فيها، أو على أن طالبيها غيرنا أعرف منا بمظناتها في الدفاتر، فيستدلون عليها بسهولة لم تتيسر لنا.

هذا، وبعد فراغنا من التفرج بالكتبخانة توجهت لتوديع بعض أصحابي بباريس، وقضاءِ بعض مصالح السفر، وأنا آسف على فراق هذه العاصمة العظيمة، وعلى فراق أستاذي الفاضل العلامة الكامل المسيو رُونو المدرس بمدرستي الحقوق والعلوم السياسيّة، وفراق رئيس الإرساليّة المصريّة مذ كنت بباريس، وهو المسيو مِزمير، وفراق من بها للتعليم من المصريين الّذين سبق ذكر أسمائهم، وفراق زائري المعرض من المصريين الّذين سبق التنويه بهم، وفراق معارفي من الفرنساويين الّذين عرفتهم بمصر، مثل الدكتور فوكيه الطبيب، وكنت اتفقت معهُ بها على أن نتقابل بباريس، ونجتمع بالدكتور رُوبُو صاحبهُ الطبيب الشهير، فضلاً عن تأسفي على مفارقة محال السكن والأكل والدراسة والنزهة، وباقي المحالّ الّتي كان لي بها علاقة حال دراستي بباريس.

* * *

رقم الإيداع ٢٤٨٥٨ / ٢٠٠٧

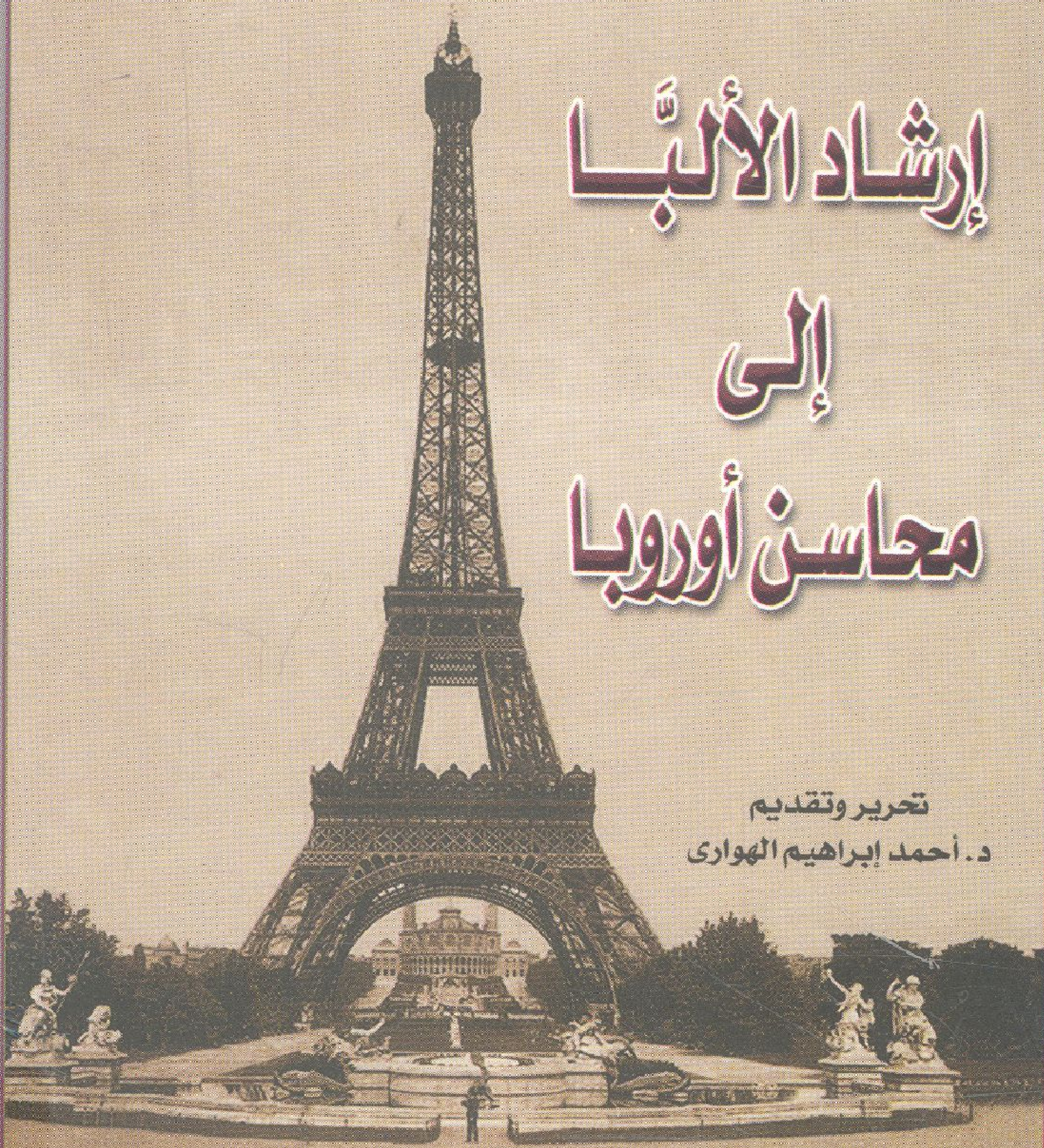
الترقيم الدولي L.S.B.N. 977 - 322 - 226 -8

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل
تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



محمد أمين فكرى بك



إرشاد الألبّا إلى محاسن أوروبا

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهوارى



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES